الأكثر مبيعاً على لائحة نيويورك تايمز

المؤلفة الحائزة على جائزة بوليتزر عن روايتها A Visit from the Goon Squad

مكتبة 404

جنيفر إيغن
JENNIFER EGAN

شاطئ مانهاتن
MANHATTAN BEACH

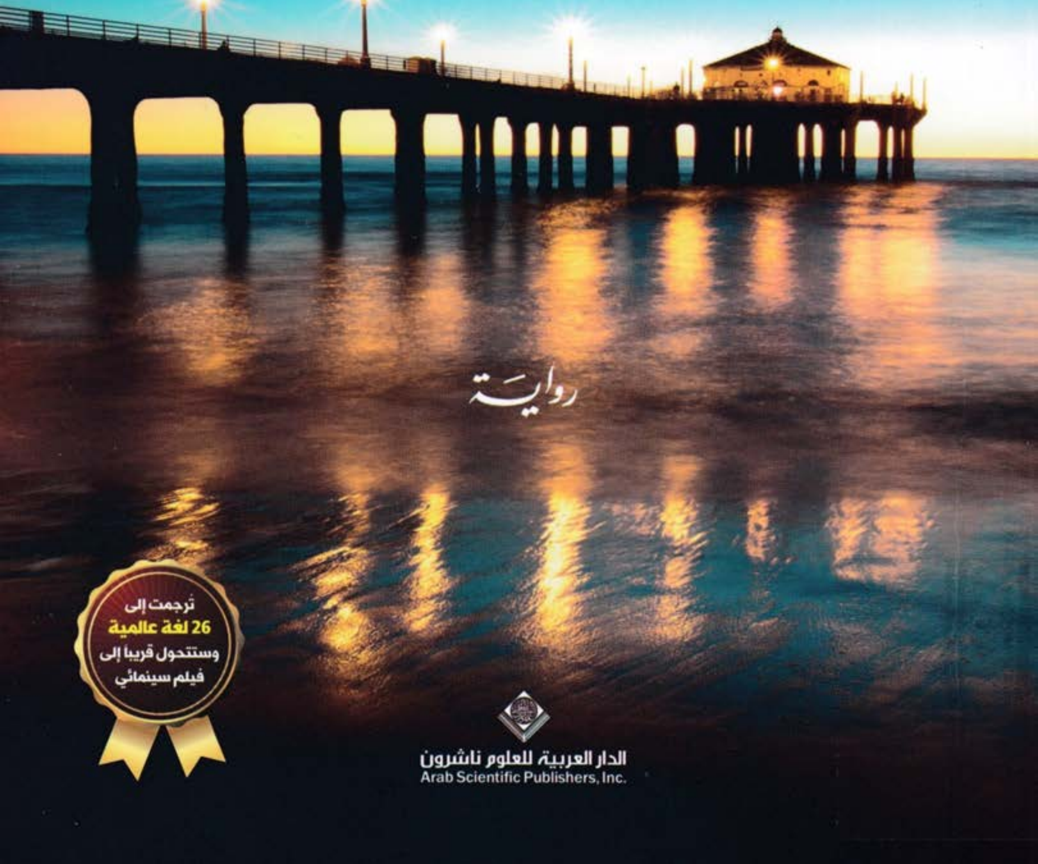

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

شاطئ مانهاتن

MANHATTAN BEACH

مكتبة | 404

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Manhattan Beach

Copyright © 2017 Jennifer Egan

All rights reserved

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من ICM Partners و Curtis Brown Group Limited

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Arabic Copyright © 2018 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2018 م - 1439 هـ

ردمك 978-614-01-2527-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

مكتبة ٢٠١٩٤٢

الأكثر مبيعاً على لائحة نيويورك تايمز

المؤلفة الحائزة على جائزة بوليتزر عن روايتها A Visit from the Goon Squad

جنيفر إيغن

JENNIFER EGAN

شاطئ مانهاتن

MANHATTAN BEACH

ترجمة

اوليغ عوكي

مكتبة | 404

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

الجزء الأول

الشَطّ

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

الفصل 1

قادا السيارة وصولاً إلى منزل السيد ستايلز قبل أن تُدرك آنا أن والدها كان متوتراً. أولاً، كانت أفكارها قد شردت أثناء القيادة على أوشن باركواي كما لو أنهما متوجِّهان إلى كوني آيلند، رغم أنه كانت قد مرّت أربعة أيام على احتفال الشتاء والبرد قارس للذهاب إلى الشاطئ. ثم المنزل نفسه: قصر بثلاثة طوابق من القرميد الذهبي، والنوافذ تحيط به من كل جانب، ورفرفة صاحبة لظُلاّت مقلَّمة بالأخضر والأصفر. كان المنزل الأخير في الشارع، ومحاذياً للبحر مباشرة.

ركن والدها الموديل جي بهدوء بجانب حافة الرصيف وأطفأ المحرّك. "توتس،" قال. "لا تُحوِلي عينيك بمنزل السيد ستايلز".

"بالطبع لن أُحوِل عينيَّ بمنزله".

"أنت تفعلين ذلك الآن".

"لا،" قالت. "إنني أضيِّق عينيَّ فقط".

"هذا يسمّى إحولال،" قال. "وقد عرَّفته للتو".

"ليس بالنسبة لي".

استدار نحوها بحدّة. "لا تُحوِلي عينيك".

تلك كانت اللحظة التي عرَفت فيها. فقد سمِعته يبلع ريقه الجاف وشَعَرت ببعض الانقباض في معدتها. لم تكن معتادة على رؤية والدها متوتراً. مشتَّت الذهن، نعم. مشغول البال، بالطبع.

"لماذا لا يحبّ السيد ستايلز الإحولال؟"، سألت.

"لا أحد يحبّ ذلك".

"لم تخبرني بذلك أبداً من قبل".

"هل تودّين العودة إلى المنزل؟".

"لا، شكراً".

"يمكنني أن أعيدك إلى المنزل".

"إذا أحوَلتُ عينيَّ؟".

"إذا سبّبتِ لي الصُداع الذي بدأتُ أشعر به".

"إذا أعدتني إلى المنزل،" قالت آنا، "ستتأخر كثيراً".

اعتقَدت أنه قد يصفعها. فقد فعلها مرةً، بعد أن أطلقت وابلاً من الشتائم كانت قد سمعتها في حوض السُفن، وبدت يده كأنها سوطٌ حادٌ على خدها. لا تزال ذكرى تلك الصفعة تؤرِقها، وتأثيرها الغريب بتعزيز جرأتها، في تحدٍ لها.

فرك والدها وسط جبهته، ثم اِلتفَت نحوها. كانت أعصابه قد هدأت؛ فقد داوتها له.

"آنا،" قال. "تعرفين ما أريدك أن تفعليه".

"بالطبع".

"كُوني على طبيعتك الفاتنة مع أبناء السيد ستايلز بينما أتكلّم معه".

"كنتُ أعرِف هذا يا بابا".

"أنا متأكد أنك كنت تعرفينه".

نزلت من الموديل جي بعينين واسعتين ودامعتين في الشمس. كانت سيارتهم الخاصة إلى أن انهارت البورصة. لكنها أصبحت مُلك الاتحاد الآن، وقد أعادوا إعارتها إلى والدها ليقوم بأعمال الاتحاد. كانت آنا تحبّ الذهاب معه عندما لا تكون في المدرسة – إلى حلبات السباق، إلى عزائم الفطور والمناسبات في دار العبادة، إلى أبنية المكاتب حيث ترفعهما المصاعد إلى طوابق مرتفعة، وحتى إلى مطعم من وقت لآخر. لكن ليس إلى منزل خاص كهذا أبداً من قبل.

رنّا جرس الباب ففتحت لهما السيدة ستايلز، التي كان لها حاجبان منحوتان مثل

نجمات السينما وفم طويل مطلي بأحمر لامع. معتادةً على اعتبار أمها أجمل من كل امرأة أخرى التقت بها في حياتها، شعرت آنا برهبةٍ من السحر الواضح للسيدة ستايلز.

"كنتُ آمل لقاء السيدة كيريغان،" قالت السيدة ستايلز بصوت أجش، وهي تُمسك يد والد آنا بيديها الاثنتين. وقد ردَّ والدها على ذلك بإخبارها أن إبنته الصغرى مرضت فجأة ذلك الصباح، فبقيت زوجته في المنزل لتعتني بها.

لم يكن هناك أي أثر للسيد ستايلز.

بتهذيب لكن (كانت تأمل) من دون رهبة مرئية، قَبِلت آنا كوب ليموناضة من صينية فضية تحملها خادمة زنجية ترتدي زيّاً موحّداً أزرق شاحباً. ولمحت انعكاس فستانها الأحمر، الذي خاطته لها أمها، على الأرضية الخشبية لقاعة الدخول الكثيرة اللمعان. وخارج نوافذ غرفة أمامية مجاورة، كان البحر يرتعش تحت شمس شتاء باهتة.

كانت إبنة السيد ستايلز، تَبَثا، في الثامنة من عمرها فقط - أصغر من آنا بثلاث سنوات. ومع ذلك، سمحت آنا للفتاة الأصغر منها سناً أن تجرّها من يدها إلى "بيت حضانة" في الطابق السفلي، وهو عبارة عن غرفة مكرّسة للعب فقط، ومليئة بمجموعة مروعة من الألعاب. استطلاعٌ سريعٌ كشف لها وجود دمية فلوسي فليرت، وعدة دباديب كبيرة، وحصان خشبي هزّاز. كانت هناك "ممرضة" في بيت الحضانة، وهي امرأة ذات وجه منمَّش وصوت خشن وفستانها الصوفي مرهق مثل رف كتب مُثقَل بالكتب لإخفاء ضخامة صدرها. قدَّرت آنا من السنحة العامة لوجهها والنظرة المرِحة في عينيها أنها إيرلندية، وشعَرت بخطر أن تكتشف أمرها. فقرَّرت أن تتحاشاها.

كان هناك فتَيان صغيران - توأمان، أو على الأقل من الصعب التمييز بينهما - يكافحان لتوصيل سكك قطار كهربائي ببعضها. جزئياً لتجنّب الممرضة، التي رفضت مناشدات الفتيان بالمساعدة، ربضَت آنا بجانب السكك المفكَّكة وعرَضت خدماتها. يمكنها الشعور بمنطق القِطع الميكانيكية على رؤوس أصابعها؛ كان هذا الأمر طبيعياً لديها بحيث أنها تستطيع فقط اعتبار أن الآخرين لم يحاولوا في الواقع. فيكتفون *بالنظر* دائماً، وهذا كان عديم الجدوى عند تجميع الأشياء مثل دراسة صورةٍ عبر لمسها. ثبَّتت آنا القطعة التي كانت تغيظ الفتَيان وأخذت عدة قِطع أخرى من الصندوق المفتوح حديثاً. كان قطاراً من ماركة ليونيل، وذا نوعية عالية يمكن استشعارها من جودة ارتباط السكك

ببعضها. بينما كانت آنا تعمل، بقيت تلقي من وقت لآخر نظرة سريعة على دمية فلوسي فليرت المحشورة عند طرف أحد الرفوف. كانت تتمنى الحصول على واحدة من كل قلبها منذ سنتين لدرجة أن بعض يأسها بدا وكأنه انقطع وبقي داخلها. كان غريباً ومؤلماً اكتشاف ذلك الحنين القديم الآن، في هذا المكان.

احتضَنت تَبَثا دميتها الجديدة التي حصلت عليها كهدية في احتفال الشتاء، وهي على صورة شيرلي تمبل وترتدي معطفاً من فرو ثعلب. راقَبت، مذهولةً، آنا وهي تبني مسار القطار لأخويها. "أين تعيشين؟"، سألت.

"ليس بعيداً".

"عند الشاطئ؟".

"بالقرب منه".

"هل يمكنني أن أزورك في منزلك؟".

"بالطبع"، قالت آنا وهي توصل السكك ببعضها بنفس السرعة التي يسلّمها إياها الفتَيان. كاد شكل المسار الذي يشبه رقم ثمانية اللاتيني ينتهي.

"هل لديك أي إخوة؟"، سألت تَبَثا.

"أخت"، قالت آنا. "إنها في الثامنة من عمرها، مثلك، لكنها لئيمة. لأنها جميلة جداً".

بدت تَبَثا قلِقة. "كم هي جميلة؟".

"جداً جداً"، قالت آنا برصانة، ثم أضافت، "تشبه أمنا، التي كانت ترقص مع فرقة الفوليز". انتبهت لخطأ التبجُّح هذا بعد لحظات. *لا تكشفي حقيقةً أبداً إلا إذا لم يكن لديك أي خيار آخر*. رنّ صوت والدها في أذنيها.

قدَّمت لهم نفس الخادمة الزنجية الغداء على طاولة في غرفة اللعب. جلَسوا مثل راشدين على كراسيهم الصغيرة، واضعين مناديل قماشية على أحضانهم. ألقت آنا عدة نظرات سريعة على دمية فلوسي فليرت، باحثةً عن ذريعة ما لتحمل الدمية من دون أن تفضح اهتمامها بها. فقط لو يمكنها أن تشعر بها بين ذراعيها، ستكون راضية.

بعد الغداء، كمكافأة على سلوكهم الجيد، سمحت لهم الممرضة أن يغرقوا في معاطف

وقبعات ويخرجوا من باب خلفي يؤدي إلى مسار يقع خلف منزل السيد ستايلز إلى شاطئ خاص. رأت قوساً طويلاً من الرمل المتناثر عليه بعض الثلوج يميل نزولاً إلى البحر. كانت آنا قد ذهبت عدة مرات إلى حوض السُفن في الشتاء، لكنها لم تذهب إلى الشاطئ أبداً. كانت هناك أمواج صغيرة جداً تتلاطم تحت طبقات رقيقة من الجليد تشقّقت عندما داست عليها. وراحت طيور النورس تصرخ وتنقضّ في الرياح الصاخبة، ببطونها الشديدة البياض. أحضَر التوأمان معهما مسدسات أشعة باك روجرز، لكن الرياح حوَّلت طلقاتهما وصرخاتهما إلى مسرحية إيمائية صامتة.

راحت آنا تراقب البحر. وانتابها شعورٌ غريبٌ أثناء وقوفها عند حافته: مزيجٌ كهربائيٌّ من الانجذاب والرعب. ماذا سيتكشَّف لو اختفى كل ذلك الماء فجأة؟ أفقٌ من الكائنات المفقودة: سُفن غارقة، كنز مخفي، ذهب وجواهر وسوار التمائم الذي سقط من معصمها في بالوعة عاصفة. جثث، كان والدها يضيف دائماً، مع ضحكة. فبالنسبة له، كان المحيط أرضاً قاحلةً.

نظَرَت آنا إلى تابي (وهذا كان لقبها) ترتعش بجانبها، وأرادت أن تقول ما شعَرت به. كان قول الأشياء للغرباء أسهل في أغلب الأحيان. لكنها بدلاً من ذلك كرَّرت ما كان والدها يقول دائماً أمام أفقٍ عارٍ: "لا توجد أي سفينة في الأفق".

راح الفتَيان الصغيران يجرّان مسدسَي أشعتهما فوق الرمل نحو الأمواج المتكسّرة، وكانت الممرضة تلهث وراءهما. "لن تقتربا أبداً من ذلك الماء، فيليب، جون-مارتن"، قالت بأنفاس تصفر وبصوت صاخب جداً. "هل هذا واضح تماماً؟". ونظرت شزراً إلى آنا، التي كانت قد قادتهما إلى هناك، وساقت التوأمين إلى المنزل.

"بدأ حذاؤك يصبح رطباً"، قالت تابي بأسنان تصطك.

"هل علينا خلعها؟"، سألت آنا. "لكي نشعر بالبرد؟".

"لا أريد أن أشعر به!".

"أنا أريد".

راحت تابي تراقب آنا تفك أشرطة الحذاء ذي الجلد اللمّاع الأسود الذي تشارَكته مع زارا كلاين، في الطابق السفلي. خلعت جوربيها الصوفيين ووضعت قدميها البيضاوين،

النحيلتين، الطويلتين بالنسبة لعمرها في الماء الجليدي. أوصلت كل قدم إحساساً بالعذاب إلى قلبها، الذي كان أحد أجزائه مليئاً بلهب وجع بدا لطيفاً بشكل غير متوقع.

"كيف هو هذا الشعور؟ "، زعَقت تابي.

"بارد"، قالت آنا. "مريع، بارد بشكل مريع". احتاجت إلى كل قوتها لتمنع نفسها من التراجع، وقد زادت مقاوَمتها من مقدار الإثارة الغريبة. ملقيةً نظرةً سريعةً نحو المنزل، رأت رجلين يرتديان معطفين طويلين داكنين يسيران على المسار المرصوف البعيد عن الرمل. مُمسكان بقبعتيهما لكي لا تطيرا في الرياح، كانا يشبهان ممثلين في صورة صامتة. "هل هذان أبوانا؟".

"يحبّ بابا أن يُجري محادثاته التجارية في الهواء الطلق"، قالت تابي. "*بعيداً عن الآذان المتطفّلة*".

شعَرت آنا بشفقة كبيرة نحو تَبَثا اليافعة، المستبعدة عن أعمال والدها التجارية في حين أنه يُسمَح لآنا بالاستماع كلما أرادت ذلك. لم تكن تسمع أشياء مثيرة للاهتمام كثيراً. فقد كانت وظيفة والدها تمرير التحيات، أو أطيب الأمنيات، بين رجال الاتحاد ورجال آخرين كانوا أصدقاءهم. كانت تلك التحيات تتضمن مغلفاً، وطرداً أحياناً، يسلِّمه أو يتلقاه بشكل غير رسمي – لن تلاحظ ذلك إلا إذا كنت منتبهاً جيداً. تكلم كثيراً مع آنا على مر السنوات من دون أن يعرف أنه كان يتكلم، وقد استمَعت إليه من دون أن تعرف ما الذي كانت تستمع إليه.

تفاجأت من الطريقة العادية والمفعمة بالحيوية التي كان والدها يتكلَّم بها مع السيد ستايلز. يبدو أنهما أصدقاء. بعد كل ذلك.

غيَّر الرجلان مساريهما وبدأا يعبران الرمل نحو آنا وتابي. خرجت آنا من الماء على عجل، لكنها كانت قد تركت حذاءها بعيداً جداً عنها لكي تعيد ارتداءه في الوقت المناسب. كان السيد ستايلز رجلاً ضخماً جليلاً ذا شعر أسود يظهر تحت حافة قبعته أنه يدهنه بدهان تلميع الشعر. "هل هذه إبنتك؟"، سأل. "تتحمّل درجات حرارة القطب الشمالي من دون حتى زوج جوارب؟".

شَعَرَت آنا باستياء والدها. "يبدو هكذا"، قال. "آنا، سلّمي على السيد ستايلز".

"سعيدة جداً بلقائك"، قالت وهي تصافحه بحزم، مثلما علَّمها والدها، ومنتبهة بألا تُحوِل عينيها وهي تحدِّق فيه. بدا السيد ستايلز أصغر سناً من والدها، من دون ظلال أو تجاعيد على وجهه. شَعَرَت بحذر تجاهه، بتوتّر ملموس حتى من خلال معطفه الطويل المنتفخ. بدا أنه ينتظر شيئاً ليتفاعل معه، أو يستمتع به. ذلك الشيء الآن كان آنا.

ربضَ السيد ستايلز بجانبها على الرمل ونظر إلى وجهها مباشرة. "لماذا قدماك عاريتان؟"، سأل. "ألا تشعرين بالبرد، أو هل تتباهين؟".

لم يكن لدى آنا أي جواب جاهز. لم يكن هذا أو ذاك؛ مجرد غريزة لإبقاء تابي مرتعبة وفي حيرة من أمرها. لكنها لم تتمكن من توضيح حتى ذلك. "لماذا سأتباهى؟"، قالت. "أنا بالكاد في الثانية عشرة من عمري".

"حسناً، وكيف هو شعورك؟".

شمَّت رائحة نعناع وشراب في أنفاسه حتى في الرياح. أدركت فجأة أن والدها لا يستطيع سماع حديثهما.

"هذا يؤلم في البداية فقط"، قالت. "لكن لا يعود بإمكانك أن تشعر بأي شيء بعد حين".

ابتسم السيد ستايلز كما لو أن ردّها كان كُرة نال متعة جسدية بإلتقاطها. "كلمات حكيمة"، قال، ثم وقف مرة أخرى بطوله الفارع. "إنها قوية"، علَّق لوالد آنا.

"أجل"، قال والدها متجنِّباً عينيها.

نفضَ السيد ستايلز الرمل عن سرواله واستدار ليذهب. فقد استنزف تلك اللحظة وكان يبحث عن التالية. "إنهم أقوى منا"، سمِعته آنا يقول لوالدها. "من حسن حظنا أنهم لا يعرفون ذلك". اعتقَدت أنه قد يستدير ويلتفت إلى الوراء، لكن لا بد أنه نسي.

شَعَر دكستر ستايلز بالرمل يتسلَّل إلى داخل حذائه ذي الرباط بينما كان يشقّ طريقه بصعوبة على المسار. بالتأكيد أن الصلابة التي شَعَرَ بها لدى إد كيريغان أزهرت روعةً في الإبنة ذات العينين الداكنتين. برهانٌ على ما كان يعتقده دائماً: أولاد الرجل يفضحون أمره. لهذا السبب نادراً ما كان دكستر يُنجز أعمالاً مع أي رجل قبل أن يلتقي

بأفراد عائلته. تمنّى لو أن إبنته تابي كانت حافية القدمين أيضاً.

كان كيريغان يقود سيارة دوسنبرغ موديل جي زرقاء للعام 1928، وهي دليل على ذوقه الرفيع وآماله الكبيرة قبل الانهيار. كان لديه خيّاط ممتاز. ومع ذلك كان هناك شيء غامض في الرجل، شيء يناقض الثياب والسيارة، وحتى حديثه الحاد والرشيق. ظل، حزن. ثم مرة أخرى، مَن منا ليس لديه جانب غامض في شخصيته؟ أو عدة جوانب غامضة؟.

عند وصولهما إلى المسار، وجد دكستر نفسه قد قرَّر توظيف كيريغان، بافتراض أنه يمكن تأمين الشروط المناسبة لذلك.

"اسمع، هل لديك وقت للقاء صديق قديم لي؟"، سأل.

"بالطبع"، قال كيريغان.

"ألا تنتظرك زوجتك؟".

"ليس قبل العشاء".

"وإبنتك؟ هل ستقلق؟".

ضحِك كيريغان. "آنا؟ وظيفتها أن تجعلني أنا أقلق".

* * *

توقَّعت آنا أن يناديها والدها لتعود من الشاطئ في أي لحظة، لكن الممرضة هي التي أتت في نهاية المطاف، تنفخ بسخط، وأمرتهم أن يدخلوا من البرد. كان الضوء قد تغيَّر، وبدت غرفة اللعب ثقيلة وداكنة. كانت دافئة بفضل موقد الخشب الذي فيها. أكَلوا بسكويتاً بجوز الهند وراحوا يراقبون القطار الكهربائي يُسرع على المسار ذي الشكل ثمانية اللاتيني الذي بَنَته آنا، وبخار حقيقي يتصاعد من مدخنته الصغيرة. لم تر أبداً لعبة كهذه، ولا يمكنها أن تتخيّل كم ثمنها. لقد سئمت من هذه المغامرة. فقد طالت أكثر من زياراتهم الاجتماعية الاعتيادية بكثير، كما أن لعب دور لبقية الأبناء أنهكها. وشعَرت كما لو أن ساعات مرّت منذ أن رأت والدها. في نهاية المطاف، ترك الفتَيان القطار يسير وذهَبا لينظرا إلى كتب مصوَّرة. وغفت الممرضة على كرسي هزّاز. واستلقت تابي على سجادة مُجْدولة، موجّهةً مشكالها الجديد نحو المصباح.

سألتها آنا بشكل غير رسمي، "هل يمكنني أن أحمل دمية فلوسي فليرت الخاصة بك؟".

وافَقت تابي بغموض، ورفعت آنا الدمية عن الرف بعناية. كانت دمى فلوسي فليرت تأتي بأربعة أحجام، وكانت هذه ثاني أصغر حجم - ليست الطفل المولود حديثاً بل طفلاً أكبر بعض الشيء ذا عينين زرقاوين جافلتين. أدارت آنا الدمية إلى جنبها. بالتأكيد، وتماماً مثلما تعدُ الإعلانات في الصحيفة، انزلقت القزحيتان الزرقاوان إلى زوايا العينين كما لو أنها تريد مواصلة النظر إلى آنا. شعَرت بموجة فرح عامر تغمرها وكادت تجعلها تضحك. كانت شفتا الدمية مرسومتين في "دائرة" مثالية، وهناك سنّان بيضاوان مرسومين تحت شفتها العليا.

كما لو أنها شمّت رائحة بهجة آنا، قفزت تابي إلى قدميها. "يمكنك أخذها"، صاحت. "لم أعد ألعب بها أبداً".

امتصّت آنا صدمة هذا العرض. منذ احتفالَي شتاء، عندما كانت ترغب بشدة الحصول على دمية فلوسي فليرت، لم تتجرّأ وتطلب - فقد توقفت السُفن عن القدوم، ولم يكن لديهم أي مال. الحنين الكبير الذي شعَرت به تجاه الدمية غمرها من جديد، وأزعج المعرفة العميقة التي بداخلها بأن عليها أن ترفض بالطبع.

"لا، شكراً"، قالت أخيراً. "لديَّ واحدة أكبر في المنزل. أردتُ فقط رؤية كيف تكون الدمية الأصغر". بذلت جهداً كبيراً لتُجبر نفسها على إعادة دمية فلوسي فليرت إلى الرف، مُبقيةً يداً على إحدى الرِجلين المطاطيتين إلى أن شعَرت بعيني الممرضة عليها. فاستدارت متظاهرةً بعدم المبالاة.

فات الأوان. فقد رأت الممرضة ما حصل، وفهمت. عندما غادرت تابي الغرفة لتردّ على نداء أمها، أمسكت الممرضة دمية فلوسي فليرت وقذفتها نحو آنا. "خذيها يا عزيزتي"، همَست بشراسة. "لا يهمّها - لديها ألعاب أكثر مما يمكنها أن تلعب بها. كلهم هكذا".

اضطربت آنا، نصف معتقِدة أنه قد تكون هناك طريقة لتأخذ الدمية من دون أن يعرف أي شخص. لكن مجرد فكرة ردة فعل والدها قسَّت ردها. "لا، شكراً"، قالت ببرودة. "لقد أصبحتُ كبيرة جداً لكي ألعب بالدمى، على أي حال". وخرجت من غرفة

اللعب من دون أن تلتفت إلى الوراء. لكن تعاطف الممرضة أضعفها، وراحت رُكبتاها ترتجفان بينما تسلَّقت الدرجات.

عند رؤيتها والدها في القاعة الأمامية، بالكاد تمكّنت آنا من منع نفسها من الركض إليه ومُعانقة رجليه مثلما كانت معتادة أن تفعل. كان مرتدياً معطفه. وكانت السيدة ستايلز تودِّعه. "يجب أن تُحضِري أختك في المرة القادمة"، قالت لآنا وهي تقبِّل خدها بفرشاة برائحة المسك. وعدتها آنا أنها ستفعل ذلك. في الخارج، كانت الموديل جي تلمَع برتابة في شمس بعد الظهر. كانت لامعة أكثر عندما كانت سيارتهم؛ فشباب الاتحاد لا يصقلونها كثيراً.

بينما قاد والدها السيارة مبتعدين عن منزل السيد ستايلز، بحَثت آنا عن الملاحظة الذكية الصحيحة لتلطّف حدّة غضب والدها – من النوع الذي كانت تقوله بلا تفكير كبير عندما كانت أصغر في السنّ، وضحكته الجافلة دلالتها الأولى على أنها قالت شيئاً مضحكاً. لكنها غالباً ما كانت تجد نفسها مؤخراً تجهد لمحاولة استرداد حالة سابقة، كما لو أن بعض النضارة أو البراءة فارقتها.

"أفترض أن السيد ستايلز ليس مهتماً بالأسهم"، قالت أخيراً.

ضحك ضحكة خافتة وسحَبها نحوه. "لا يحتاج السيد ستايلز إلى أي أسهم. فهو يملك نوادٍ ليليةٍ. وأشياء أخرى".

"هل هو في الاتحاد؟".

"آه لا. ليست له أي علاقة بالاتحاد".

كانت هذه مفاجأة. عادة، يرتدي رجال الاتحاد قبعات، ويرتدي حمّالو الميناء قلنسوات. والبعض، مثل والدها، قد لا يرتدي أي واحدة من الاثنتين، بناءً على اليوم. لا تستطيع آنا تخيّل والدها مع خطّاف حمّالي الميناء عندما يكون أنيقاً، مثل الآن. كانت أمها قد خزَّنت بعض الريش الغريب من عملها بالقطعة واستخدمتها لتزركش له قبعاته. وقد أعادت خياطة أطقمه لتناسب بنيته النحيلة – فقد خسر وزناً منذ أن توقفت السُفن عن القدوم وقلّ تمرينه الجسدي.

قاد والدها السيارة بيد واحدة، حاشراً سيجارةً بين إصبعين على المقود، وواضعاً

ذراعه الأخرى حول آنا. اتكأت عليه. في النهاية، كانا معاً دائماً على الطريق، وانجرفت آنا على موجة من الرضى النعِس. شمّت شيئاً جديداً في السيارة وسط دخان سيجارة والدها، رائحة طينية مألوفة لم تستطع أن تحدّدها بشكل دقيق.

"لماذا القدمان العاريتان يا توتس؟"، سألها، مثلما كانت متأكدة أنه سيفعل.

"لأشعر بالماء".

"هذا شيء تفعله الفتيات الصغيرات".

مكتبة

"تَبَثا في الثامنة من عمرها، ولم تفعل ذلك".

"لديها حكمة أكثر منك".

"أُعجب السيد ستايلز بما فعلتُه".

"ليست لديك أي فكرة عما فكّر به السيد ستايلز".

"بلى. لقد كلَّمني عندما كنتَ غير قادر على سماعنا".

"لاحَظتُ ذلك"، قال، ملقياً نظرة سريعة عليها. "ماذا قال؟".

عادت بها الذاكرة إلى الرمل، البرد، الألم في قدميها، والرجل الفضولي بجانبها – كل شيء اندمج الآن بتوقها الكبير للحصول على دمية فلوسي فليرت تلك. "قال إنني قوية"، قالت مع غصّة في حلقها. وغشي بصرها.

"وأنت هكذا يا توتس"، قال، وقبّل أعلى رأسها. "أي شخص يستطيع رؤية ذلك".

عند إشارة مرورٍ، أخرج سيجارة أخرى من رزمته ماركة رالي. فحَصت آنا داخل الرزمة، لكنها كانت قد أخذت القسيمة من قبل. تمنّت لو أن والدها يدخّن أكثر؛ فقد جمَّعت اثنتين وسبعين قسيمة، لكن بنود الكتالوغ لم تكن مغرية أبداً إلى أن تصبح لديها مئة وخمسة وعشرون قسيمة. لثمانمئة قسيمة، يمكنك الحصول على ستة أكواب مطلية بالفضة في صندوق مخصص، وكانت هناك محمصة كهربائية تلقائية لسبعمئة قسيمة. لكن تلك الأرقام بدت بعيدة المنال. كانت كمية الألعاب قليلة في الكتالوغ: مجرد دب باندا فرانك باك أو دمية بتسي وتسي مع كامل لوازم الرضيع لمئتَي وخمسين قسيمة، لكن تلك البنود بدت أدنى مرتبة منها. كانت منجذبة إلى لوحة السهام القصيرة المريَّشة، "للمراهقين والراشدين"، لكن لم يكن بإمكانها أن تتخيّل نفسها تقذف سهاماً قصيرةً مريَّشةً حادةً في

شقتهم الصغيرة. ماذا لو أصاب أحدها ليديا؟

ارتفع دخان من المخيَّمات داخل منتزه بروسبكت بارك. لقد اقتربوا من المنزل. "كدتُ أنسى"، قال والدها. "انظري ماذا معي هنا". وأخرج كيساً ورقياً من داخل معطفه الطويل وأعطاها إياه. كان مليئاً بطماطم حمراء ساطعة، وقد لاحظت رائحتها الترابية القوية.

"كيف"، قالت متعجِّبةً، "في الشتاء؟".

"للسيد ستايلز صديق يزرعها في بيت صغير مصنوع من زجاج. أراني إياه. هيا نفاجئ أمك، موافقة؟".

"لقد خرجتَ؟ بينما كنتَ في منزل السيد ستايلز؟". شعَرت بدهشة مجروحة. فخلال كل السنوات التي رافَقته فيها في مأمورياته، لم يخرج إلى أي مكان أبداً. بل بقي أمام عينيها.

"لفترة قصيرة جداً فقط يا توتس. حتى إنك لم تفتقديني".

"كم ابتعدتَ؟".

"ليس كثيراً".

"لقد افتقدتُك". بدا لها الآن أنها علمت أنه خرج، فقد شَعَرت بالفراغ في غيابه.

"هراء"، قال، وقبّلها مرة أخرى. "كنتِ تقضين أسعد أوقات حياتك".

الفصل 2

متأبّطاً صحيفةً تحت ذراعه، توقف إيدي كيريغان مؤقتاً خارج باب شقته، يلهث من صعود الدرج. كان قد أرسل آنا لتصعد وحدها بينما يشتري الصحيفة، وذلك لكي يؤخِّر عودته إلى المنزل إلى أقصى حد ممكن. كانت الحرارة من المشعاعات الدؤوبة تتسرَّب إلى الردهة حول الباب، مضخِّمةً رائحة الكبد والبصل من شقة آل فيني، في الطابق الثالث. كانت شقته في الطابق السادس – ظاهرياً في الطابق الخامس – وهذه مخالفة للقانون تمكَّن معماريٌ عبقريٌ من الإفلات من عواقبها بتسميته الطابق الثاني كطابق أول. لكن الحسنة الرئيسية للمبنى عوَّضت عن ذلك: سخّان في القبو يضخّ بخاراً في مشعاعٍ في كل غرفة.

أذهله صوت ضحكة أخته القوية من خلف الباب. يبدو أن برِيان عادت من كوبا في وقت أبكر من المتوقع. دفع إيدي الباب لفتحه وسُمع زعيق المِفصَلات المطلية بشكل مفرط. كانت زوجته، أغنِس، تجلس إلى طاولة المطبخ في فستان أصفر قصير الأكمام (كان الجو صيفاً على مدار السنة في الطابق السادس). وبالتأكيد، كانت برِيان تجلس مقابلها، مسمَرّة قليلاً وتحمل كوباً فارغاً تقريباً – وهذه كانت حال أكواب برِيان عادة.

"مرحبا حبيبي"، قالت أغنِس وهي تخرج من كومة تُوكات (التُوكة قبعة نسوية) مُزدانة بالترتر كانت تزركشها. "تأخرّت كثيراً".

قبَّلته، ووضع إيدي يده على خصرها القوي وشَعَر بالإثارة التي تسبِّبها له دائماً، رغم كل شيء. شمّ رائحة أزهار البرتقال التي علّقوها على شجرة احتفال الشتاء في الغرفة الأمامية وشَعَرَ بوجود ليديا هناك، قرب الشجرة. لم يستدر. فهو بحاجة إلى أن يجهِّز نفسه. وتقبيل زوجته الجميلة كان بداية جيدة. ومشاهدتها تصبّ مياهاً غازيةً في كوب من الشراب الكوبي الفاخر الذي أحضرته برِيان – هذه بداية ممتازة.

كانت أغنِس قد توقفت عن تناول الشراب في الأمسيات؛ قالت إن الشراب يجعلها تشعر بتعب شديد. أحضَر إيدي كوب شراب أخته المُعاد ملؤه مع قطعة ثلج جديدة ولمس كوبه بكوبها. "كيف كانت الرحلة؟".

"رائعة جداً"، قالت برِيان ضاحكةً، "إلى أن أصبحت كريهة تماماً. عدتُ في سفينة بخارية".

"ليست لطيفة جداً كاليخت. مهلاً، هذا لذيذ".

"السفينة البخارية كانت أفضل شيء في الرحلة! فقد تعرّفتُ على صديق جديد مسلٍ جداً على متنها".

"هل لديه وظيفة؟".

"عازف بوق في فرقة موسيقية"، قالت برِيان. "أعرف، أعرف، وفّر على نفسك، أخي العزيز. إنه لطيف جداً".

كالمعتاد. أخته برِيان - وهي أخت غير شقيقة من أم مختلفة وقد ترعرعا بعيدين عن بعض في أغلب الأحيان، وهي أكبر منه بثلاث سنوات - كانت مثل سيارة جيدة يدفعها مالكها المتهوّر إلى شفير الانهيار. كانت ساحرة الجمال فيما مضى؛ أما الآن، وفي الضوء الخطأ، فتبدو في التاسعة والثلاثين وحتى في الخمسين من عمرها.

سُمع تأوهٌ في الغرفة الأمامية، واستقرّ مثل رفسة في معدة إيدي. *الآن*، فكّر في سرّه، قبل أن تضطر أغنِس إلى حثّه. نهض عن الطاولة وذهَب إلى حيث كانت ليديا تجلس على الكرسي المريح، مُسنِدةً نفسها مثل كلب أو قطة - لم تكن لديها القوة الكافية لتجلس بشكل مستقيم. ابتسمت ابتسامتها غير المتوازنة عند اقتراب إيدي منها، برأسها المتدلي ومعصميها الملتويين كجناحَي عصفور. بحثت عيناها الزرقاوان الساطعتان عن عينيه: عينان صافيتان تماماً لا تُظهران أي أسى.

"مرحبا يا لِيدي"، قال بتثاقل. "كيف كان يومك يا صغيرتي؟".

كان صعباً ألا يبدو ساخراً، بما أنه يعرف أنه لا يمكنها أن تجيبه. وعندما تكلّمت ليديا، بطريقتها الخاصة، كانت مجرد ثرثرة خرقاء - يسمّيها الأطباء ترديد الألفاظ. ومع ذلك بدا غريباً *ألا* يتكلم معها. ماذا يمكن أن يفعل المرء مع فتاة في الثامنة من عمرها لا

تستطيع أن تستوي في جلوسها، أو حتى تسير، من تلقاء نفسها؟ مداعبتها وإلقاء التحية عليها: استغرق ذلك كل الثواني الخمسة عشرة. ماذا بعد؟ أغنِس تراقبه، متعطّشةً لعرض مَوَدّةٍ تجاه إبنتهما الصغرى. ركَع إيدي بجانب ليديا وقبّل خدها. كان شعرها ذهبياً، ناعماً متموّجاً، عطِراً من الشامبو الباهظ الثمن الذي كانت أغنِس تصرّ على شرائه لها. كانت بشرتها مخملية كالرضيع. كلما كبُرت ليديا في السنّ، كلما أصبح مغرياً أكثر تخيُّل كيف كانت لتبدو لو لم تتأذَّ. فتاة جميلة. ربما أكثر من أغنِس – وبالتأكيد أكثر من آنا. تفكير عديم الفائدة.

"كيف كان يومك يا صغيرتي؟"، همَس مرة أخرى. حملَ ليديا على ذراعيه وجلس على الكرسي، ملقياً وزنها على صدره. اتكأت آنا عليه، بما أن أمها درَّبتها على أن تتفحَّص تلك التفاعلات. تفانيها تجاه ليديا حيَّر إيدي؛ لماذا، في حين أن ليديا لا تعطي الكثير في المقابل؟ نزَعت آنا جاربَي أختها ودغدَغت قدميها الملتويتين الناعمتين إلى أن تلوَّت على ذراعَي إيدي وأحدثت الصوت الذي كان ضحكاً بالنسبة لها. إنه يكرهه. ويفضِّل أن يفترض أن ليديا لا تستطيع التفكير أو الشعور بشيء مثل الحيوانات، وتحاول الصمود فقط. لكن ضحكتها، رداً على المتعة، دحَضت له اعتقاده هذا. وجَعَلته يشعر بالغضب – أولاً من ليديا، ثم من نفسه لأنه يحسدها على لحظة ابتهاج. كان الحال نفسه عندما يسيل لعابها، والذي لا يمكنها منعه بالطبع: وميض حنق، وحتى رغبة بصفعها، يلي ذلك نوبة تشنّج من الذنب. مراراً وتكراراً، مع إبنته الصغرى، تنتاب إيدي موجات غضب وكره للذات، فتتركه خَدِراً ومُنهكاً.

ومع ذلك يمكن أن يظل الوضع حلواً جداً. الغسق أزرق خارج النوافذ، وشراب برِيان يُغشي أفكاره بشكل سار، وابنتاه تنكزانه مثل قطتين صغيرتَين. إلينغتون على الراديو، وإيجار الشهر دُفعَ؛ يمكن أن يكون الوضع أسوأ – *كان* أسوأ لكثير من الرجال بعد كارثة 1934. شعَر إيدي باحتمال مسكّن بالسعادة يشدّه في نومه. لكن التمرّد أعاده إلى وعيه بقوة: *لا، لا يمكنني قبول هذا، لن أدع هذا يُسعدني.* نهض على قدميه فجأة، مُجفلاً ليديا، التي تذمَّرت وهو يعيدها إلى الكرسي. لم تكن الأحوال مثلما يجب أن تكون أبداً. كان رجل قانون ونظام (غالباً ما كان إيدي يذكِّر نفسه بذلك من باب السخرية)، وتمت مخالفة عدد كبير من القوانين هنا. انسحَب، متمسكاً بنفسه، ومنحرفاً

بعيداً عن السعادة، جنى جائزته: جرعة ألم ووحدة.

كان هناك كرسي خاص عليه أن يشتريه لليديا، وكان باهظاً جداً. أن يكون لديك طفلة كهذه يتطلّب ثروة رجل مثل دكستر ستايلز – لكن هل *لدى* هكذا رجال أولاداً مثل ليديا؟ في السنوات الأولى من حياتها، عندما كانا لا يزالان مصدّقان أنهما غنيين، كانت أغنِس تأخذ ليديا إلى عيادة في جامعة نيويورك كل أسبوع حيث تحمّمها امرأةٌ بمياه معدنية وتستخدم أحزمة جلدية وبكرات لتقوّي لها عضلاتها. الآن أصبحت هكذا عناية بعيدةً عن متناولهما. لكن الكرسي سيسمح لها بأن تجلس مستويةً، وتنظر إلى الخارج، وتنضم إلى العالم العمودي. كانت أغنِس مقتنعة بطاقتها التحويلية، وإيدي مقتنع بضرورة أن يبدو أنه يشاركها اقتناعها. وربما هو يشاركها اقتناعها، قليلاً. فذلك الكرسي كان السبب الذي جعله يسعى إلى التقرّب من دكستر ستايلز.

أزالت أغنِس التُوكات وسلاسل الترتر عن طاولة المطبخ وجهّزت أربعة أماكن للعشاء. كانت ستحبّ أن تنضم إليهم ليديا، وكانت ستضعها في حُضنها بكل سعادة. لكن ذلك سيُفسِد وجبة الطعام لإيدي. لذا تركت أغنِس ليديا لوحدها في الغرفة الأمامية، كتعويض لها، كالعادة، مُبقيةً انتباهها مثبّتاً عليها كما لو أنها تُمسك وابنتها الصغرى حبلاً خفياً من طرفيه. من خلال ذلك الحبل كانت أغنِس تشعر بترنّح وعي ليديا وحشريتها، وثقتها بأنها لم تكن لوحدها. كانت تأمل أن تكون ليديا قادرة على الشعور بحبّها وتفانيها الكبيرين. بالطبع أن إمساك الحبل يعني أن أغنِس كانت نصف حاضرة فقط – مشتتة الذهن، مثلما يعلِّق إيدي في أغلب الأحيان. لكن بسبب اهتمامه الضئيل بها، لم يترك لها أي خيار آخر.

أمام كاسرولة فاصوليا ونقانق، أمتَعتهم برِيان بقصة تصادمها العنيف مع بيرت. كانت علاقاتهما قد ساءت من قبل عندما وجّهت إليه ضربة قاضية غير مقصودة عبر إيقاعه عن ظهر يخته في مياه تعجّ بأسماك القرش في الباهاماس. "لم تريا أبداً رجلاً يسبح بتلك السرعة"، قالت. "كان بطلاً أولمبياً، صدّقاني. وعندما انهار على ظهر المركب ورفعتُه ليقف على قدميه وحاوَلتُ أن أحضنه بذراعيَّ – كان أول شيء مضحك يفعله منذ أيام – ماذا فعل؟ حاول لكمي على أنفي".

"ماذا حصل بعدها؟"، صاحت آنا بإثارة أكثر مما كان إيدي يحبّذ. كانت أخته

تشكّل مثالاً سيئاً، لكنه لم يكن أكيداً ماذا عليه أن يفعل بشأن ذلك، كيف عليه أن يعاكس تأثيرها.

"انحنيتُ بالطبع، وكاد يسقط من جديد. الرجال الذين ترعرعوا أغنياء لا يملكون أدنى فكرة عن كيفية العراك. فقط المشاغبون يستطيعون ذلك. مثلك يا أخي العزيز".

"لكننا لا نملك يخوتاً"، قال معلّقاً.

"هذا مثير للشفقة أكثر"، قالت برِيان. "ستبدو ذكياً جداً في قبعة يخوت".

"لقد نسيتي أنني لا أحب الزوارق".

"عندما يترعرع المرء غنياً يصبح طرياً"، قالت برِيان. "وسرعان ما يصبح طرياً على كل الأصعدة، إذا فهمتما قصدي. طرياً في الرأس"، أضافت إلى نظراته الجدّية.

"وعازف البوق؟"، سألها.

"آه، إنه حبيب حقيقي. شعره يشبه شعر رودي فاليه".

ستحتاج إلى مال مرة أخرى قريباً. لقد مضت أيام برِيان كراقصة، وحتى عندها كان حبيبها هو موردها الرئيسي دائماً. لكن قلّ عدد الرجال المندفعين نحوها الآن، والفتاة التي لديها أكياس تحت عينيها وتكوُّر عند خصرها من الصعب أن تعثر على واحدٍ. وجَد إيدي طريقةً ليعطي أخته المال كلما طلَبت منه، حتى ولو تطلّب منه ذلك أن يستدين من المُرابي. فقد كان يرتعب من مجرد التفكير عن الحال الذي قد تصبح عليه إذا لم يعطها المال.

"في الواقع، عازف البوق في حالة جيدة جداً"، قالت برِيان. "إنه يعمل في ناديين من نوادي دكستر ستايلز".

الإسم صَدَم إيدي. فهو لم يسمعه أبداً على لسان برِيان أو أي شخص آخر – وحتى لم يفكّر أن يجهّز نفسه لهذا الاحتمال. شَعَرَ بتردّد آنا على الجهة المقابلة للطاولة. هل ستُخبر عن تمضيتها اليوم في منزل ذلك الرجل بالذات على شاطئ مانهاتن؟ لم يجرؤ إيدي على النظر إليها. بصمته الطويل، أراد أن تكون آنا صامتة أيضاً.

"أفترض أن هذا شيئاً مميزاً"، قال لأخته أخيراً.

"إيدي العزيز". تنهّدت برِيان. "المتفائل دائماً".

دقَّت الساعة في الغرفة الأمامية مُعلنةً أنها السابعة. "بابا"، قالت آنا. "لقد نسيت المفاجأة".

لم يفهم إيدي قصدها، فقد كان لا يزال مضطرباً من نجاته بأعجوبة من الخطر الداهم. ثم تذكَّر، فنهض عن الطاولة، وذهَب إلى الوتد حيث علَّق معطفه الطويل. كانت آنا بارعة، فكّر في سرّه وهو يتظاهر أنه يبحث في جيوبه بينما يهدّئ أنفاسه. أفضل من بارعة. وضع الكيس على الطاولة وترك حبّات الطماطم الساطعة تتشقلّب عليها. تفاجأت زوجته وأخته بالقدر الذي كان يتوقّعه. "من أين حصلت عليها؟ كيف؟"، سألتاه بصوت مضطرب. "من مَن؟".

بينما كان إيدي يبحث عن شرح، قالت آنا بهدوء، "شخص من الاتحاد لديه بيت زجاجي لزراعتها".

"يعيشون جيداً، رجال الاتحاد"، علَّقت برِيان. "حتى في مرحلة انهيار اقتصادي".

"بشكل خاص"، قالت أغنِس بجفاف، لكنها كانت مسرورة في الواقع. أن يكون على الطرف المتلقي للإكراميات يعني أن إيدي لا يزال مطلوباً – وهذا شيء لم يكن مضموناً أبداً. أخذت ملحاً وسكين تقشير وبدأت تقطِّع الطماطم إلى شرحات على لوح تقطيع. سال العصير وبعض البذور الصغيرة على القماش المشمَّع. أكلت برِيان وأغنِس شرحات الطماطم وراحتا تئنّان من البهجة.

"ديك رومي في احتفال الشتاء، والآن هذا – لا بدّ أن هناك انتخابات وشيكة"، قالت برِيان وهي تلعق العصير عن أصابعها.

"دونالان يريد أن يكون عضواً في مجلس البلدية"، قالت أغنِس.

"ليكن الله في عوننا. هذا البخيل. هيا يا إيدي. تذوَّق واحدة".

ففعل أخيراً، واندهش من اندماج نكهات الملح والحامض والحلو. التقت عينا آنا بعينيه من دون حتى ابتسامة متكلّفة. تصرّفت بشكل جميل، أفضل مما كان يمكن أن يأمل، ومع ذلك وجَد إيدي نفسه قلقاً قليلاً – أم هل كان يتذكَّر قلقاً من فترة سابقة ذلك اليوم؟

بينما ساعَدت آنا أمها في إخلاء الطاولة وغسل الأواني، وساعَدت برِيان نفسها إلى

مزيد من الشراب، فتَح إيدي النافذة الأمامية التي تؤدي إلى سُلَّم الحريق وتسلَّق إلى الخارج ليدخّن سيجارة. أغلق النافذة خلفه بسرعة لكي لا تنزعج ليديا من التيار الهوائي. كان الشارع الداكن غارقاً في أضواء المصابيح الصفراء. ها هي الدوسنبرغ الجميلة التي امتلكها في يوم من الأيام. تذكَّر مع بعض الارتياح أن عليه إعادتها. فدونالان لا يسمح له أبداً أن يحتفظ بالسيارة طوال الليل.

بينما كان يدخِّن، عاد إيدي إلى قلقه بشأن آنا كما لو أنه كان حجراً وضعه في جيبه ويمكنه الآن إخراجه وتفحّصه. لقد علَّمها السباحة في كوني آيلند، وأخذها إلى السينما لتشاهد *عدو الشعب* و*القيصر الصغير* و*الوجه ذو الندبة* (رغم نظرات الحُجّاب المستهجِنة)، واشترى لها بوظة وحلويات وقهوة، التي بدأ يسمح لها بشربها منذ أن كانت في السابعة من عمرها. كانت أقرب لصبي أيضاً: أتربة في جواربها، وفساتينها العادية لا تختلف كثيراً عن سراويل قصيرة. كانت شظيةً، عشبةً ضارةً ستزدهر في أي مكان، تصمد أمام أي شيء. كانت تضخّ الحياة فيه بنفس القدر الذي كانت ليديا تستنزفها منه.

لكن ما شهِده الآن، على الطاولة، كان خداعاً. لم يكن ذلك جيداً لفتاةٍ، سيحرّفها بالطريقة الخطأ. عند اقترابه من آنا على الشاطئ اليوم مع ستايلز، صدمته حقيقة أنها ملفتة للنظر، وإن لم تكن جميلة بالمعنى الدقيق للكلمة. لقد أصبحت في الثانية عشرة من عمرها تقريباً – لم تعد صغيرة، رغم أنه لا يزال يفكِّر فيها بهذه الطريقة. لقد بقي ثقل ذلك الإدراك يزعجه طوال اليوم.

كان الاستنتاج واضحاً: يجب أن يتوقف عن أخذ آنا معه. ليس فوراً، لكن قريباً. ملأته الفكرة بإحساس بفراغ كبير.

بالعودة إلى الداخل، طبعت برِيان قبلة رطبة عابقة برائحة الشراب على خده وذهَبت لتلاقي عازف البوق. كانت زوجته تغيِّر حفاض ليديا على اللوح الذي غطى حوض المطبخ. لفّ إيدي ذراعيه حولها من الخلف وأراح ذقنه على كتفها، باحثاً عن طريقة تُشعرَه أنهما معاً بسهولة، دائماً، مصدِّقاً ذلك للحظة. لكن أغنِس أرادته أن يقبِّل *ليديا*، أن يأخذ حفاض الطفلة ويثبّته بالدبوس، مع الانتباه إلى عدم وَخز لحمها الطري. كان إيدي على وشك فعل ذلك – سيفعل ذلك، كان على شفير أن يفعل ذلك – لكنه لم يفعله، ثم زالت الاندفاعة. أفلَت أغنِس، خائباً من نفسه، وانتهى المطاف بها أن تغيِّر

حفاض الطفلة لوحدها. هي، أيضاً، شعَرت بحياتهما القديمة تشدّها. استديري وقبّلي إيدي، فاجئيه؛ انسي ليديا للحظة - أين الضرر في ذلك؟ تخيَّلت نفسها تفعل هذا لكنها لم تستطع. كانت طريقتها القديمة في الحياة قد طُويَت داخل صندوق إلى جانب أزيائها لفرقة الفوليز، تجمِّع الغبار. ربما ستُخرج ذلك الصندوق من تحت السرير يوماً ما وتفتحه من جديد. لكن ليس الآن. ليديا تحتاج إليها كثيراً.

ذهَب إيدي ليبحث عن آنا في الغرفة التي تتشاركها مع ليديا. كانت مواجهة للشارع؛ وقد أخذ مع أغنِس الغرفة المواجهة لبئر التهوية، التي تعبق بالرائحة الكريهة للعفن الفطري والرماد الرطب. كانت آنا منكبّة على كتالوغ الجوائز. غالباً ما كان إيدي يحتار من تركيزها الكبير على تلك الكرّاسة الشديدة الصغر المليئة بجوائز مبالَغ في تثمينها، لكنه جلَس بجانبها على السرير الضيق وسلَّمها القسيمة من رزمة سجائره الحديثة. كانت تدرس طاولة مرصَّعة للعب الورق يمكنها أن "تتحمَّل استخداماً متواصلاً".

"ما رأيك؟"، سألته.

"سبعمئة وخمسون قسيمة؟ حتى ليديا ستضطر إلى التدخين إذا أردنا الحصول على هذه".

أضحكها هذا. كانت تحبّ عندما يشمل ليديا في كلامه؛ وكان يعرِف أن عليه أن يُكثر من فعل ذلك، بما أنه لا يكلّفه شيئاً. قلبت إلى صفحة أخرى: ساعة معصم رجاليّة. "يمكنني أن أُحضر لك هذه، بابا"، قالت. "بما أنك أنت مَن يقوم بكل التدخين".

تأثّر عاطفياً. "تذكَّري أن لديَّ ساعة جيبي. لماذا لا تختاري شيئاً لك، بما أنك أنت التي تقوم بالتجميع؟". راح يقلّب الصفحات بحثاً عن بنود للأولاد.

"دمية بتسي وتسي؟"، قالت بازدراء.

متأملاً من نبرتها، قلبَ إلى صفحة جوارب وملابس داخلية حريرية.

"لماما؟"، سألت.

"لك. لقد أصبحت كبيرة الآن على الدمى".

قهقهت، مما أراحه. "لن أريد هذه الأمور أبداً"، قالت، وعادت إلى صفحة

زجاجيات ومحمصة كهربائية ومصباح كهربائي. "هيا نختار شيئاً تستطيع العائلة كلها استخدامه"، قالت بحماسة، كما لو أن عائلتهم الصغيرة كانت مثل عائلة آل فيني، التي تحشر أبناءها الثمانية الأصحّاء في شقّتين مزدحمتين وتعطيهم احتكاراً على أحد المراحيض في الطابق الثالث.

"كنت محقّة يا توتس"، قال بلطف. "في عدم ذكر السيد ستايلز على العشاء. في الواقع، من الأفضل عدم ذكر إسمه لأي شخص".

"ما عداك؟".

"ولا حتى لي. ولن أذكره لك أيضاً. يمكننا التفكير فيه لكن عدم ذكره. مفهوم؟". ثم جهّز نفسه لخزعبلاتها المحتومة.

لكن آنا بدت منتعشة من هذه الحيلة. "نعم!".

"الآن. عمَّن كنا نتكلّم؟".

كان هناك صمت قصير. "السيد مجهول"، قالت أخيراً.

"برافو".

"المتزوج من السيدة مجهولة".

"أصبتِ".

شعَرت آنا أنها بدأت تنسى، مسرورة من مشاركتها سراً مع والدها، من إرضائها له بشكل فريد. اليوم مع السيد ستايلز وتَبَتا أصبح مثل أحد تلك الأحلام التي تتمزَّق وتذوب حتى بينما تحاول تجميعه.

"ويعيشون في أرض لا أحد يعلم أين تقع". تخيَّلته: حصنٌ بجانب البحر يختفي تحت ضباب من النسيان.

"أجل"، قال والدها. "أجل. جميل، أليس كذلك؟".

الفصل 3

الارتياح الذي يشعر به إيدي عند مغادرته منزله كان انعكاساً دقيقاً للارتياح الذي كان يشعر به فيما مضى عند عودته إليه. أولاً، يمكنه أن يدخِّن. أشعل عود ثقاب على حذائه عند وصوله إلى الطابق الأرضي، مسروراً من عدم التقائه بأي جار أثناء نزوله. كان يكرههم بسبب ردات فعلهم تجاه ليديا، مهما تكن ردات الفعل تلك. آل فيني، المخلصون والخيّريون: شفقة. السيدة باكستر، التي يعدو خُفّها سريعاً مثل صرصور خلف بابها عند سماعها صوت أقدام على الدرج: حشرية شنيعة. لوتز وبويْل، عجوزان عازبان يتشاركان جداراً في الطابق الثاني لكنهما لم يكلّما بعضهما منذ عقد: اشمئزاز (بويْل) وغضب (لوتز). "ألا يجب أن تكون في مأوى؟"، ذهبَ لوتز بعيداً جداً في إحدى المرات إلى حدّ المطالبة بذلك. وقد ردّ عليه إيدي قائلاً، "ألا يجب أن تكون أنت في مأوى؟".

خارج المبنى، سمع همساً في البرد، وتبادُل صفرات حول دخان بعض السجائر. وعند سماعه صيحة "الحرية للجميع!"، أدرَك أنهم مجرد فتيان يلعبون رينغوليفيو: فريقان يحاولان أسْرَ بعضهم البعض. كان هذا مبنى مختلطاً في حي مختلط – إيطاليين، بولنديين، يهود، كل شيء ما عدا زنوج – لكن كان سهلاً جداً أن يكون المشهد حاصلاً في مأوى الأحداث المشرَّدين في البرونكس حيث ترعرع. أينما ذهَبت ستجد زحاماً من الفتيَان في كل مكان.

ركب إيدي الدوسنبرغ وشغَّل المحرّك، مترقّباً اهتزازاً لاحظه سابقاً ولم يعجبه صوته. كان دونالان يُرهِق السيارة، مثلما يفعل مع كل شيء يلمسه – بما في ذلك إيدي. داس على دواسة الوقود، وراح يستمع إلى النحيب، وألقى نظرة سريعة على النوافذ المضاءة لغرفته الأمامية. كانت عائلته هناك. أحياناً، قبل أن يدخل الشقة، يقف إيدي في الردهة ويسمع بالصدفة مرحاً احتفالياً من خلف الباب المُغلق. وكان ذلك يفاجئه دائماً. *هل*

تخيّلتُ ذلك؟ يسأل نفسه لاحقاً. أم هل كانوا أسهل - أكثر سعادة - من دونه؟

كان هناك دائماً وقتٌ، بعد أن يخرج والد آنا، يبدو فيه أن كل شيء حيوي يذهب معه. تكتكة الساعة في الغرفة الأمامية جعَلتها تكزّ على أسنانها. وانتشر وجعٌ من عدم الجدوى، الغضب تقريباً، في معصميها وأصابعها وهي تطرّز خرزات في قبعة مريَّشة دقيقة. كانت أمها تزيّن تُوكات بالترتر، خمس وخمسين تُوكة بالإجمال، لكن أصعب أعمال الزركشة تذهب لآنا. لم تكن تفتخر ببراعتها في الخياطة. فالعمل باليدين يعني تلقي أوامر - في حالة أمها، من بيرل غراتزكي، وهي مصمِّمة أزياء تعرِفها من فرقة الفوليز عملت على عروض برودواي وبعض أفلام هوليود. كان زوج السيدة غراتزكي انطوائياً. كان لديه ثقب في جنبه من الحرب العُظمى لم يُشفَ في ست عشرة سنة - وهذه حقيقة تُستحضَر في أغلب الأحيان لتفسير نوبات صراخ بيرل عندما لا تُنجز المهام مثلما تريد. لم تر والدة آنا السيد غراتزكي أبداً.

عندما استيقظت ليديا من كَبوَتها، تحاملت آنا وأمها على إعيائهما. حملت آنا أختها في حُضنها، ومريلةً مربوطةً على صدرها، بينما راحت أمهما تُطعمها العصيدة التي تُعدّها كل صباح من خُضار طرية ولحم مصفًّى. كانت ليديا تُصدر انتباهاً واخزاً؛ فهي ترى وتسمع وتفهم. وكانت آنا تهمس لها أسراراً في الليل. فقط لِيديا تعرف أن السيد غراتزكي أرى آنا الثقبَ الذي في جنبه منذ بضعة أسابيع، عندما كانت تسلِّم رزمة خياطة منتهية ولم تكن بيرل غراتزكي في المنزل. مدفوعةً بجرأة بدت أنها آتية من مكان ما خارجها، فتحت آنا باب الغرفة التي يستلقي فيها - كان رجلاً طويلاً ذا وجه وسيم مُتلَف - وطلبت منه رؤية جرحه. رَفَع السيد غراتزكي قميص بيجامته، ثم قطعة شاش، وأظهر لها فتحة دائرية صغيرة، زهرية ومتلألئة مثل فم طفل.

عندما أنهت ليديا طعامها، راحت آنا تعبث بقرص الراديو إلى أن عثرت على أوركسترا مارتل. بدأت ترقص مع أمها متردّدتين لرؤية إن كان السيد برايغر، الساكن تحتهما مباشرة في الطابق الرابع، سيضرب سقفه بمقبض المكنسة. لكن لا بدّ أنه ذهب إلى مباراة ملاكمة، مثلما يفعل في أغلب ليالي السبت. رفَعتا مستوى الصوت، وراحت والدة آنا ترقص بانهماك مستهتر جداً خلافاً لعادتها. أعاد لها ذلك ذكريات باهتة لأمها

ترقص على المسرح عندما كانت صغيرة جداً: شكلٌ بعيدٌ متلألئٌ غارقٌ في أضواء ملوَّنة. تستطيع أمها أن ترقص أي رقصة - البلتيمور باز، التانغو، البلاك بوتوم، الكايك ووك - لكنها لم تعد ترقص أبداً ما عدا في المنزل مع آنا وليديا.

رقَصت آنا حاملةً ليديا إلى أن أصبح تخبُّط أختها جزءاً من الرقصة. تورَّدت خدود الجميع؛ وتدلّى شعر أمهما على كتفيها، وانفكّ زر فستانها العلوي. فتحت نافذة سُلَّم الحريق قليلاً، وجَعَلهن هواء الشتاء البارد يسعلن. راحت الشقة الصغيرة تهتزّ وتنبض بابتهاج بدا غير موجود عندما يكون والدها في المنزل، مثل لغة تحوَّلت إلى كلام غير مفهوم عندما تستمع إليها.

عندما تعرّقن كلهن من الرقص، رَفَعت آنا اللوح الذي يغطي حوض الاستحمام وملأته. عرّتا ليديا من ملابسها بسرعة ووضعتاها في الماء الدافئ. متحرّرةً من الجاذبية، بدا واضحاً أن جسدها الملتفّ والملتوي يستمتع بوضعه الجديد. رفعتها أمهما من إبطَيها بينما راحت آنا تدلِّك فروة رأسها وشعرها بشامبو اللَيلَك الخاص. كانت عينا ليديا الزرقاوان الصافيتان تحدِّقان فيهما بغبطة. تجمَّعت رغوة الصابون على صدغَيها. كان هناك شعور مؤلم بالرضى من توفير الأفضل لها، كما لو أنها كانت أميرة سرية تستحق ثناءهما.

استلزم الأمر أن تتعاون آنا وأمها لرفع ليديا من الماء قبل أن يبرد، والفقاقيع تلمع على الالتواءات غير المتوقعة في جسدها - جميلة بطريقتها الغريبة، مثل الجزء الداخلي للأذن. لفّتاها بمنشفة ونقلتاها إلى السرير وجفَّفتاها على اللحاف، ورشّتا بودرة طَلّق ماركة "باقة كشمير" على بشرتها. كان قميص نومها القطني مزركشاً برباط بلجيكي، وشعرها الرطب يعبق برائحة اللَيلَك. عندما وضعتاها في السرير لكي تنام، جلست آنا وأمها على كلا الجانبين، شابكتين يديهما ببعض فوق جسمها لمنعها من السقوط عن السرير بينما تغفو.

كلما انتقلَت آنا من عالم أبيها إلى عالم أمها وليديا، شعَرت كما لو أنها تحرّرت من حياةٍ إلى حياةٍ أعمق. وعندما تعود إلى والدها، وتُمسك يده بينما يخرجان في مغامرة في المدينة، كانت تتحرَّر من أمها وليديا، وتنساهما بالكامل في أغلب الأحيان. كانت تواصل التنقّل ذهاباً وإياباً، بشكل أعمق - أعمق أكثر - إلى أن بدا لها أنه لم يعد بإمكانها

النزول أكثر. لكن بطريقة أو بأخرى كانت هناك دائماً إمكانية للنزول أكثر. لم تصل إلى القعر أبداً.

رَكَن إيدي الدوسنبرغ خارج مقصف ومطعم الساحل الغربي لصاحبه صاني، المتواجد مقابل الأرصفة البحرية مباشرة. ليلة السبت، قبل ثلاثة أيام من ليلة رأس السنة الجديدة، وكان الجو هادئاً تماماً في الخارج - دليلٌ مُطلق على عدم دخول أي سفينة في ذلك الأسبوع أو في الأسبوع الذي قبله.

حيّا ماتي فْلين، الساقي الأشيب، ثم اجتاز نشارة الخشب إلى الزاوية اليسرى الخلفية حيث كان جون دونالان يدير أعماله غير الرسمية تحت صورة لجيمي برادوك التُقطَت خلال إحدى مبارياته في الملاكمة. كان رجلاً ضخماً ذا يدين همجيتين مثل أيدي عمّال حوض السُفن، علماً أنه لم يعمل على السُفن منذ أكثر من عقد. ورغم كل ملابسه الأنيقة، كان دونالان يعطي انطباعاً متهدِّلاً متآكلاً، مثل سفينة شحن أصابها الصدأ بعد بقائها راسية لفترة طويلة جداً. كان محاطاً بسرب من المتملِّقين، والمتضرِّعين، وتجّار الممنوعات الثانويين الذين يسلّمونه حصة من مغانمهم لقاء رضاه عليهم. من دون السُفن، كانت تجارتهم بالممنوعات مزدهرة - كان حمّالو الميناء يائسين.

"إد"، تمتم دونالان بينما جلس إيدي على كرسي.

"دَني".

لوّح دونالان لفْلين لكي يُحضر لإيدي كوب شراب شعير وجرعة شراب الجاودار. ثم جلَس، وبدا شارد الذهن لكنه في الواقع يُنصِت للراديو المحمول الذي يحمله معه في كل مكان (كان يُطوى على شكل حقيبة) ومستوى صوته منخفض. كان دونالان يتابع سباقات الخيل ومباريات الملاكمة والكُرة - أي حدث يمكنه أن يتشارط عليه. لكن الملاكمة كانت عشقه الحقيقي. كان يساند فتَيين في فئة وزن الريشة.

"هل أوصلت سلامي للعروس؟"، سأل دونالان بينما كان لونرغان، وهو رجل مراهنات جديد في دائرته، يستمع إليه.

"ثقيل جداً"، قال إيدي. "سأنتظر إلى ما بعد السنة الجديدة".

نخَر دونالان موافقاً. "سلس وسهل، لا شيء أقل".

كان مستلم هذا الطرد بالذات سيناتوراً. وقضت الخطة أن يتم التسليم أثناء الخروج من دار العبادة في وقت سابق من ذلك اليوم. كان داير دُولينغ والد العروس، وهو مصرفي مقرَّب من رجل الدين الذي أجرى مراسم الزواج.

"لم يبدُ ثقيلاً بالنسبة لي"، اعترَض لونرغان. "هناك قانون، بالتأكيد، لكنه قانوننا *نحن*".

"كنتَ هناك؟"، سأله إيدي مذهولاً. فقد كان يكرَه لونرغان؛ أعطته أسنان الرجل الطويلة نظرة سخرية.

"كانت أمي مربّية للعروس"، قال لونرغان بفخر. "لكنني لم أرك هناك يا كيريغان".

"هذا هو إيدي". قال دونالان مع ضحكة خافتة. "تراه فقط عندما يريدك أن تراه". ونقل عينيه نحو إيدي، الذي شعَر بقُرب رطب من صديقه القديم كان عائلياً أكثر من أي شعور كَنَّه في يوم من الأيام تجاه برِيان. كان إيدي قد أنقذ حياة دونالان، إلى جانب حياة فتى آخر في مأوى الأحداث المشرَّدين – فقد أخرجهما يصيحان ويتقيأان من تيار ارتدادي في نهر روكأواي. بقيت هذه الواقعة طيّ الكتمان.

"سأنظر جيداً في المرة القادمة"، قال لونرغان بحدّة. "وأدعوك إلى كوب شراب".

"بالتأكيد لا"، قال دونالان بصوتٍ مدوٍ، وقد أثار حنقه المفاجئ تأهّب المغفَّلَين اللذين يرافقانه أينما يذهب. كان دونالان يُبقي هذين الأفطسين بعيدين عنه؛ لأنهما يقوِّضان الانطباع الأبوي الذي يحبّ أن يولّده لدى الآخرين. "أنت لا تعرف إيدي كيريغان خارجي هذا المقصف – مفهوم؟ كيف سيبدو مظهره اللعين إذا كان يعاشِر عُلّية القوم ويثرثر في اللحظة التالية مع أخرق مثلك؟ لا دخل لك أين يذهب إيدي أيها اللعين؛ توقف عن حشر أنفك بما لا يعنيك".

"آسف، زعيم"، تمتم لونرغان، وتلوّن خدّاه بلون قرمزي داكن. شعَر إيدي بحسده وأراد أن يضحك. لونرغان يحسده هو! بالتأكيد، فإيدي أنيق في ملابسه (بفضل أغنِس) ولديه أذن دونالان، لكنه نكرة من الطراز الأعلى. "رجل الحقيبة" بالمعنى الحرفي للكلمة: الغبي الذي ينقل حقيبةً تحتوي على شيء (مال، بالطبع، لكن لا دخل له في معرفة المحتوى) بين رجال لا يجب أن يتخالطوا. رجل الحقيبة المثالي هو شخصٌ ليس حليفاً للطرفين، ومحايدٌ في لباسه وسلوكه، وقادرٌ على تحرير تلك التبادلات من شعور المخادعة

الذي تتّسم به عادة. كان إيدي كيريغان ذلك الرجل. كان يبدو مرتاحاً في كل مكان - حلبات السباق، قاعات الرقص، المسارح، اجتماعات الجمعيات الخيرية. لديه وجه لطيف، ولكنة أميركية محايدة، وخبرة كبيرة في التنقّل بين العوالم. بإمكان إيدي تحويل لحظة التسليم إلى فكرة آنية - *آه، كدتُ أنسى، من صديقنا المشترك - شكراً.*

وجزاءً له، كان دونالان يدفع له بدل معيشة: عشرين دولاراً في الأسبوع إذا كان محظوظاً، والتي - إلى جانب عمل أغنِس بالقطعة - بالكاد تحميهم من الاضطرار إلى رَهْن الأشياء الوحيدة ذات القيمة التي لم يرهنوها من قبل: ساعة جيبه، التي سيأخذها معه إلى قبره؛ والراديو؛ والساعة الفرنسية التي أهدتهما إياها برِيان في عرسهما. لم يبدُ خطّاف حمّال الميناء أفضل من هذا أبداً.

"أي شيء في الحجر الصحي؟"، سأل إيدي، قاصداً السُفن المتّجهة إلى أحد الأرصفة البحرية الثلاثة التي يسيطر عليها دونالان.

"ربما بعد يوم أو يومين، من هافانا".

"إلى أحد أرصفتكم؟".

"أرصفتنا"، قال دونالان. "أرصفتنا يا إيدي. لماذا، هل تحتاج إلى قرض؟".

"ليس منه". نات، المُرابي، الذي كان يرمي سهاماً قصيرةً مريَّشةً، يتقاضى خمساً وعشرين بالمئة أسبوعياً.

"إيدي، إيدي"، وبّخه دونالان. "سأدفع لك فائدة الأسبوع".

كان إيدي ينوي أن يغادر بعد كوب شراب واحد. أما الآن وقد تحدّاه لونرغان، وجد أنه من الحكمة أن يمكث مدة أطول منه. وهذا يعني أن يشرب مع دونالان، الذي كان مقاس خصره ثلاثة أضعاف مقاس خصر إيدي ولديه رِجل خشبية. حدَّق إيدي بالباب، راغباً أن تطرده ماغي، زوجة دونالان الشمطاء الشكِسة، من المقصف كما لو أن دونالان كان حمّالاً يبذّر راتبه وليس رئيس الاتحاد المحلي في طريقه إلى أن يصبح عضواً في مجلس البلدية. لكن ماغي لم تظهر، ووجَد نفسه في نهاية المطاف يصيح كلمات أغنية "حزام المخمل الأسود" إلى جانب دونالان وبضعة آخرين، وكلهم يمسحون الدموع من عيونهم. بعد طول انتظار، أخذ لونرغان إجازته.

"لا يروق لك"، قال دونالان عندما ذهب - نفس الافتتاحية التي كان سيقولها للونرغان لو غادر إيدي أولاً.

"لا بأس به".

"هل تعتقد أنه مستقيم؟".

"أعتقد أن لعبته نظيفة".

"لديك أنف جيد في هذه المسائل"، قال دونالان. "كان يجب أن تكون شرطياً".

هزَّ إيدي كتفيه، مقلّباً سيجارته بين إصبعين.

"أنت تفكّر مثل شرطي".

"كنتُ سأكون فاسداً. وأي نوع من الشرطيين هو هذا؟".

من بين الملامح القاسية في رأسه، نظرَ دونالان نظرة حادة إلى إيدي. "أليس الفساد في عين الناظر؟".

"أفترض ذلك".

"لا يمكنهم تسريح رجال الشرطة، حتى خلال انهيار اقتصادي".

"لكل شيء حسناته".

بدا أن دونالان يخبو. ودفعت قلة انتباهه بعض الرجال إلى التعامل معه بخفة أو التصرّف بحرية كبيرة في حضوره - وهذا خطأ. كان مثل إحدى تلك الأسماك السامة التي سمِع إيدي أنها تتّخذ شكل صخرة لتخدع فريستها. كان إيدي على وشك أن ينهض لكي يذهب عندما استدار دونالان إليه، ونظر إليه نظرة تضرّع رطبة. "تَنكريدو"، تمتم وهو يئنّ. "الوغد الإيطالي يحبّ المعارك".

إذكاء هوس دونالان بالإيطاليين سيكلّف إيدي ثلاثين دقيقة، على أقل تقدير. "كيف حال فتياتك؟"، سأله على أمل أن يُلهيه.

عند ذكر ملاكميه، ارتخى وجه دونالان مثل قطعة لحم باردة مُعدّة للشّي فوق لهب. "جميل"، همس، ثم لوّح بيده طالباً جولة أكواب شراب أخرى. "جميل. إنهم سريعون، إنهم أذكياء، إنهم يُصغون. يجب أن تراهم يتحرّكون يا إد".

لم يكن دونالان قد أنجب أولاداً، وهذا أمر مستغرب في هذا المحيط، حيث للرجل العادي ما بين أربعة وعشرة أولاد. انقسمت الآراء حول ما إذا كانت سلاطة لسان ماغي هي السبب أو نتيجة اتحادهما غير المنتِج. كان هناك شيء واحد مؤكد: لو أن دونالان دلَّل أولاده مثلما يدلِّل ملاكميه من وزن خفيف الوسط (كان هناكَ ملاكمان دائماً)، لتمّت السخرية منه علانيةً. فقد كان يرتعد خوفاً في مبارياتهما ويتشنَّج مثل خادمة عجوز تراقب كلبها المدلَّل الصغير يواجه كلباً دوبرمان. وكانت النظارات الشمسية الخضراء التي يرتديها إلى الحلبة تفشل في إخفاء سيول الدموع التي تتدفّق من عينيه الوحشيتين الصغيرتين.

"تَنكريدو وضع يديه عليهما"، قال بصوت مرتعش. "فتَياي. سيدبّر الأمور بحيث لن تسنح لهما أي فرصة".

حتى عندما يكون ثملاً، لا يجد إيدي صعوبة في فك تشفير مأزق دَني: تَنكريدو، أياً يكن ذلك اللعين، كان يطالب بحصّة من ملاكمَي دونالان مقابل السماح لهما بالمشاركة - أو ربما الفوز - في بعض الحلبات التي تتحكَّم بها "النقابة". كان التدبير مماثلاً للتدبير الذي فرضه دونالان على كل أصناف المهن على أرصفته البحرية: إذا فشَلت في الدفع، ستكون البطالة أفضل شيء يمكنك أن تأمل أن يحصل لك.

"لقد طوّقوا عنقي بحبل مشنقة يا إد. الإيطاليون. لا أستطيع النوم بسبب التفكير في ذلك".

كان لدى دونالان اعتقاد يعتزّ به يقول إنه لنقابة الإيطاليين، مثلما يحبّ أن يسمّيها، تصميمٌ خفيٌ لتحقيق أهدافها الواضحة بالربح وحفظ الذات: إبادة الإيرلنديين. ارتكزت هذه النظرية على بعض الأحداث التي كان يصرّ على استعادتها في ذاكرته باستمرار: انحلال تاماني على يد العُمدة لاغوارديا، ومجزرة يوم العشّاق في شيكاغو (قُتل سبعة إيرلنديين)، وجرائم القتل الحديثة أكثر لكلٍ من لاغز دايموند وفنسنت كول وآخرين. لا يهمّ أن كل الذين قُتلوا كانوا قتلة. لا يهمّ أن أعضاء النقابة ليسوا كلهم إيطاليون، أو أن أعداء دونالان الشخصيين كانوا إيرلنديين مشابهين: زعماء أرصفة بحرية منافسين، زعماء توظيف محتالين، رافضي الاتحاد - أي واحد منهم قد يتلاشى، بفضل مغفَّلي دونالان، إلى أن يرفع الذوبان الربيعي أجسادهم المنتفخة إلى سطح نهر هادسن مثل

عوّامات. بالنسبة لدونالان، كان تهديد نقابة الإيطاليين كونياً هائلاً. وفي حين أن هذا التركيز لا يشكّل عادة خطراً كبيراً على إيدي أكثر من مجرد إضجاره، فقد أمضى اليوم بصحبة زعيم في النقابة.

"أنت تفكّر في شيء"، قال دونالان وهو يحدِّق في إيدي بشكل توغليّ. "أفصِح عنه".

من داخل الكتلة نصف الثملة والشاردة الذهن التي كانت جون دونالان، لمعَ إدراكٌ خارقٌ، كما لو أن بصيرته مرَّت عبر الراديو وتضخَّمت. ها هو الدونالان الذي يفشل معظم الرجال في رؤيته إلى أن يكون الأوان قد فات – الدونالان الذي يمكنه قراءة أفكارك. إذا كذَبت عليه، ستكذب عليه على مسؤوليتك.

"أنت محقّ يا دَني"، قال إيدي. "كنتُ لأحبّ أن أكون شرطياً".

حدَّق فيه دونالان للحظة طويلة. ثم استرخى بعد اكتشاف صدق الجملة. "ماذا ستفعل"، تنفَس، "بشأن تَنكريدو؟".

"سأعطيه ما يريده".

تشنّج دونالان في نوبة احتجاج. "لماذا عليَّ أن أفعل هذا الأمر اللعين؟".

"الشجار غير مفيد أحياناً"، قال إيدي. "وأفضل ما يمكنك فعله أحياناً هو شراء الوقت، انتظار ثغرة".

من وقت لآخر، مثل الآن، عملية الإنقاذ النهري التي أنشأت الرابط القوي الذي لا يزال قائماً بينهما اخترقت السطح وانتقلت إلى الضوء. كان دونالان وشيهان الفتَيين الأكبر سناً؛ وبارت الدماغ، ودَني الفم. عندما رآهما إيدي يتقلّبان غير قادرين على العودة إلى الشَطّ، أسرع إلى دخول الماء وسبح إليهما. وَضَع ذراعاً حول عنق كل فتى وصرخ في وجهيهما المرتعبين، "توقفا عن المقاومة. عوما واتركا المدّ يسحبنا".

كانا مُتعَبين جداً لكي لا يطيعاه. فعاما على وجه الماء، وعندما استعادا أنفاسهما، قادهما إيدي إلى الشَطّ الذي يبعد عنهم كيلومتراً. كانوا كلهم جرذان ماء يغطسون من الأرصفة البحرية للمدينة هرباً من حرّ الصيف منذ أن أصبحوا قادرين على السير. على بُعد كيلومترين عن الشاطئ، رأى إيدي فتحةً في الأمواج المتكسّرة وقاد بارت ودَني عبرها.

"كيف أشتري الوقت مع إيطالي مُلِحّ؟"، قال دونالان مستكيناً.

"اعطه ما يكفي لكي يبقى هادئاً"، قال إيدي. "إبقه راضياً. ثم ابحث عن وسيلة للخروج منه".

كان يُدرك أنه يكلِّم نفسه بقدر ما كان يكلِّم دونالان – أنه يتكلَّم عن دونالان. اقترب منه صديقه العزيز، ووجد إيدي نفسه منغمساً بالرائحة الحامضة للبصل المخلَّل الذي كان يحبّ أن يمصّه. اجتاحته نوبة غثيان عارمة.

"نصيحة جيدة يا إد"، قال دونالان بصوت أجش.

"مسرور للمساعدة".

"اعتنِ بنفسك".

أدار دونالان كرسيه بعيداً عنه. في حالته الثملة، فشَل إيدي في إدراك أنه يتم صرفه من دون المال الذي وُعد به – عقاباً له على مشاهدة لحظة ضعف دونالان. حصل الشيء نفسه على الشاطئ: شدَّ إيدي دونالان بشعره إلى الرمل، حيث بقي يُعوِل ويتقيأ المياه لمدة لا بأس بها قبل أن يجفِّف دموعه ويبتعد متهادياً. الفتى الآخر، بارت شيهان، هو الذي رفع إيدي في الهواء وقبَّل خدّيه. لكن إيدي لم ينخدع من دونالان وقتها أو الآن؛ كان يعرِف أن المتنمِّر سيحميه بعد ذلك. وهكذا كان: كلما كان الرابط أقوى، كلما أصبح تجاهل دونالان فاضحاً أكثر. كان يحبّ إيدي كثيراً.

تقصَّد دونالان أن يركِّز انتباهه على عدة وكلاء مراهنات أتوا ليقبِّلوا خاتمه، آخذاً بين الحين والآخر بعض الأوراق النقدية من لفّة أموال ودافعاً بها في قبضاتهم بمودّة مكتسبة من الخبرة، وملوِّحاً بيده شكرهم له بأصوات هامسة. بقي إيدي جالساً بعناد. انتظَر رغم معرفته أنه سيعود إلى المنزل خالي الوفاض. وفق تاريخ علاقاتهما، كان الانتظار لفترة أطول وعدم تلقي أي شيء سيعني على الأرجح الحصول على شيء إضافي من دونالان لاحقاً.

عندما لاحَظ أن إيدي لا يزال هناك، تجهّم دونالان. ثم خفَّ استياؤه، وسأله بلطف خلال فترة هدوء مؤقت، "كيف الصغيرة؟".

"بنفس الحال. مثلما ستكون دائماً".

"أنا أصلّي لها كل يوم".

كان إيدي يعرِف أنه يفعل ذلك حقاً. "يجب أن أصلّي لها أكثر"، قال إيدي.

"من الصعب أحياناً طلب شيء لنفسك".

تأثّر إيدي بهذه الحقيقة. شعَر بمودّته العميقة والبدائية مع دونالان، كما لو أن دمهما يتدفّق في أوردة بعضهما البعض. "هناك كرسي أحتاج إلى شرائه لها"، قال. "ثمنه ثلاثمئة وثمانين دولاراً".

بدا دونالان مذهولاً. "هل هم مجانين؟".

"لديهم الكرسي"، قال إيدي، "وهي تحتاج إليه".

لم يكن ينوي أن يطلب المال من صديقه، لكنه شعَر الآن بارتفاع مفاجئ للأمل أن دونالان قد يقدِّمه له. معه هذا المبلغ بالتأكيد. وربما يحمله معه الآن، في رزمته العملاقة – الدافئة من حرارة جسمه الحادّة.

"يستطيع نات أن يساعدك في هذا"، قال دونالان بتبصّر، بعد صمت طويل. "سأكلّمه لكي يعطيك أطول فترة ممكنة تحتاج إليها. وأحسم المبلغ من راتبك مباشرة إذا كان هذا سيساعدك".

احتاج إيدي إلى بضع لحظات، في نصف ذهوله، ليستوعب ما يقصده دونالان. كان يرسل إيدي إلى المُرابي. وبناءً على النظرة العاطفية في عينيه، كان دونالان يعتبر خطوته هذه عملاً خيرياً.

ضغط إيدي بقوة على نفسه لكي لا يقوم بأي ردّة فعل. "سأفكِّر بالمسألة"، قال بلطف. لو بقي في مقصف صاني لدقيقة أخرى، سيلاحظ دونالان استياءه ويعاقبه عليه. "تصبح على خير يا دَني"، قال دافعاً مفتاح الدوسنبرغ على الطاولة. "شكراً".

تصافحا، وغادر إيدي المقصف ووَقَف في الخارج لعدة دقائق، منتظراً أن تُعيد له الرياح الجليدية لنهر هادسن وعيه. لكنه وجَد نفسه يترنّح نحو المترو، أكثر ثمالةً مما كان يظن، واضطر إلى الاتكاء على حائط القرميد الخارجي البارد لمقصف صاني. وصلت إليه تأوهات الحبال من حوض السُفن مثل صرير الأسنان. شمَّ رائحة السلاسل الصدئة والألواح الخشبية المُبتَلة بزيت السمك: بدت له الآن كأنها نتانة الفساد بحدّ ذاتها. كان

دونالان محبوباً بين عامة الناس لتدبيره الفواتير، لكن إيدي كان يعرِف أنه يسيطر على المُرابين، بما في ذلك نات، ويأخذ حصّةً من الفائدة التي يتقاضونها، ويرسل مغفَّليه وراء المَدينين الذين يتخلّفون عن الدفع. كلمةٌ واحدة من دونالان وسيختار زعيم التوظيف مَديناً ليكلّفه بعمل يومي، لكي تُحسَم دفعات المُرابي من أجره. كلما غرقتَ أكثر، كلما أصبحت *مُلكهم* أكثر، وكلما بذلوا جهداً أكبر لإبقائك في ذلك الوضع.

أرصفتنا البحرية، قال دونالان. أرصفتنا البحرية.

تطوَّح إيدي إلى حافة الرصيف وتقيأ بغزارة في الشارع. ثم مسَح فمه ونظر من حوله، مرتاحاً لإيجاد الشارع فارغاً.

كان يُدرك أنه وصل إلى قعرٍ ما. أغمَض عينيه وتذكَّر اليوم: الشاطئ، البرد، الغداء الفاخر. غطاء الطاولة الأبيض. الشراب. تذكّر الكرسي. لكن الكرسي لم يكن السبب الوحيد الذي دفعه إلى زيارة دكستر ستايلز: كان توقاً مضطرباً يائساً إلى تغيُّر شيء ما. أي شيء. حتى ولو ترافق ذلك التغيير مع بعض الخطر. سيفضِّل الخطر على الحزن كل مرة.

لمتابعتنا على تيليجرام اضغط هنا

لمتابعتنا على فيسبوك اضغط هنا

الفصل 4

مرتين في الأسبوع، كانت سيدة مُحسِنة تأتي في المساء إلى مأوى الأحداث المشرَّدين في نيويورك وتقرأ لهم بصوتٍ عالٍ بعد العشاء من روايات *جزيرة الكنز* و*الليالي العربية* و *20,000 فرسخ تحت الماء*، وحكايات مغامرات غريبة أخرى. وعندما كانت ترفع نظرها عن المِقرأ وتنظر إلى الفتيان، كان إيدي يحاول أن يتخيَّل ما تراه: صف تلو الصف من الأيدي المطوية (كان ذلك إلزامياً بعد الانتهاء من تناول الطعام)، جحافل من الوجوه الأشبه بالسنتات. قد يبرز الأكبر والأبشع والأحلى (ديسوتو؛ أوبراين؛ ماكليمور، بوجهه البريء الصغير جداً)، لكن ليس إيدي كيريغان. كانت صفاته الوحيدة الجديرة بالانتباه هي قدرته على التسلّل عبر الأبواب الموصدة بسلسلة فقط وتسلّق أعمدة الإنارة مثل قرد. كان يستطيع تقليد اللكنات، لكنه كان خجولاً جداً ليتباهى بها. استطاع في إحدى المرات أن يبقى تحت الماء لأكثر من دقيقتين في خليج إيستشستر.

كان والده قد أخذه إلى هناك في سنّ الرابعة، بعدما ماتت أمه من التيفوس. في ذلك الوقت، كان مأوى الأحداث المشرَّدين لا يزال في بلدة فان نست، وستشستر، لكن حين أصبح إيدي كبيراً كفاية لكي يهتمّ، ابتلعت برونكس الشرقية فان نست. كانت هناك مجموعة منفصلة من الأبنية للفتيات على طريق يونيونبورت، لها بركة مماثلة - لكن إيدي لم يعرف أبداً ما إذا كانت الفتيات ماهرات أيضاً في غَرْف أسماك الشبّوط الحذِرة والحَرِدة بأيديهن. وعاشت برِيان مع أسرة أمها في نيوجيرسي، بعد أن ماتت أمها في ايرلندا. كان والده يزوره في وقت مُبكر، ويأخذه معه إلى السباقات، ثم إلى مقصف. لا يتذكَّر إيدي الكثير عن تلك النزهات سوى تشبّثه بيد والده ومحاولته، في بنطلونه القصير، مطابقة وتيرة سيره الغاضبة وهو يتمايل بين عربات الأحصنة.

مستلقياً في عنبر النوم الشاسع، مستمعاً لأنفاسه تتلاشى في التنهيدات الجماعية

لعدد كبير من الفتيان النائمين، كان إيدي يخجل من هزالته: وركان ضيقان؛ وجه حاد غير باهر؛ شعر مثل قش قذر. وحتى أكثر من رحلة الأيتام السنوية إلى السيرك، كان يتوق للحظة الشهرية التي تلمس فيها يدا حلّاق مأوى الأحداث المشرَّدين فروة رأسه قليلاً، فترخّي له أعصابه إلى حدود النوم تقريباً. لم يكن أكثر أهمية من علبة سجائر فارغة. وكان يبدو له أحياناً أن الكتلة الضخمة لكل شيء *لم يكن* هو قد تسحقه إلى غبار بنفس الطريقة التي كان يسحَق بها حشرات العُثّ الجافة التي تتجمَّع في كومات على عتبات نوافذ مأوى الأحداث المشرَّدين. كان يريد أحياناً أن يُسحَق مثلها.

في سنّ التاسعة أو العاشرة، كان يُتوقَّع من الفتيان أن يكسبوا مصروفهم بعد انتهاء الدروس عبر إحدى آلاف الوظائف المُعلن عنها على لافتات *مطلوب فتى*: تسليم الرسائل والطرود؛ ختم الصناديق في أحد مَصانع البيانو العديدة في البرونكس. أما الفتيان المقدامين أكثر فيبيعون علكة أو أزراراً أو حلوى في محطة سكك فان نست الحديدية، حيث يزيدون حجم المبيعات بعملهم في مجموعات من اثنين أو ثلاثة مع تقديم بعض الأغاني والرقصات. كان الفتيان يُراقبون عن كثب بالقرب من مأوى الأحداث المشرَّدين، فجميع مَن في الحي يُدركون أنهم نفس الفتيان الذين يسرقون قِطع الحلوى من مرطباناتهم والبطاطا الحلوة من عربات بيعهم. لم يكن إيدي مُعفى من هذه اللصوصية؛ فلا أحد يريد أن يكون خالي الوفاض عند تقسيم الغنائم. لكنه شعَر بالخزي من الجرائم التي كان يُدفَع إلى ارتكابها، والشك الذي كان يلي ذلك. بَحَث عن عمل في أحياء أخرى، مُمسكاً بعربة طريق المزارع الغربية من الخلف لعبور نهر البرونكس إلى حديقة كروتونا بارك، حيث كانت المنازل مبنية من الحجر والقرميد. رغم مظهره الفقير في سرواله وحذائه المصنوعين في الميتم، إلا أن إيدي وجَد أنه قادر هناك على تقويم عموده الفقري والنظر مباشرة إلى عينَي كل شخص يكلّمه.

بعد ظهر أحد أوائل أيام الخريف، عندما كان إيدي في الحادية عشرة، ناداه رجل مسنّ كريم الأخلاق على كرسي ذي عجلات بينما كان يجتاز كليرمونت بارك نحو مخبزٍ على جادة موريس كان معتاداً على إيصال بضائع لزبائنه. طلب منه الرجل أن يدفعه ليجلس في الشمس. كان يرتدي بذلة مزدوجة الصدر وريشة برتقالية متموجة على شريط قبعته. دفَع إيدي كرسي الرجل مثلما طلب منه، ثم أحضرَ له سيجاراً وصحيفةً من كشك

صحف على بلمونت. بقي يحوم بالقرب منه، منتظِر أن يتم صرفه، بينما كان الرجل يقرأ ويدخِّن. أخيراً، وبعد أن شعر أنه نُسي أمره، صرَّح جاهداً ليقلِّد الصوت الجهوري لسيدات الجمعيات الخيرية: "للأسف يا سيد أن الشمس هجرتك. هل تحبّ أن أنقلك مرة أخرى؟".

نظر العجوز إلى عينيه مباشرة، حائراً. "هل تستطيع أن تلعب الورق؟"، سأل.

"ليست معي أي مجموعة ورق لعب".

"أي ألعاب؟".

"تاكلز. تشاك إيه لاك. ستاسّ. باصرة". كان إيدي يعدّد الأسماء بسرعة كبيرة – ثم علِم أنه أصاب الهدف عند ذكره الباصرة. أصدر العجوز خشخشةً تحت البطانية ذات المربعات التي تغطي رُكبتيه وأعطى إيدي مجموعة ورق لعب جديدة. "سبع بطاقات أيها الشاب"، قال. "وزِّع أنت. دون غشّ".

عرَّف كل واحد منهما عن نفسه وانتقلا إلى مقعد مشمس لكي يستطيع إيدي الجلوس. تشارطا على عُصي صغيرة جمَّعها وكسرها إلى أطوال متساوية، وكانت طاولتهما البطانية المشدودة على فخذَي السيد دي فير المنكمشين. كان ملمس البطاقات كالزجاج. شمَّ إيدي حالتها الجديدة وشعر برغبة قوية بلعقها، أو تمريرها على خدَّيه. خسِر كل جولة، لكنه بالكاد اهتمّ لذلك – فشعوره من لمس تلك البطاقات، من الجلوس في الشمس، كان جارفاً. في نهاية المطاف، أخرَج الرجل الكريم الأخلاق ساعة فضية ثقيلة من جيبه وأعلن أن أخته ستصل قريباً لأخذه. أعطى إيدي خمسة سنتات. "لكنني خسِرتُ"، قال إيدي. ردَّ السيد دي فير أنه يدفع إهداء إيدي له وقته ورفقته، وطلب منه أن يأتي مرة أخرى بعد ظهر اليوم التالي.

بقي إيدي أرقاً طوال تلك الليلة، متيقّناً أن شيئاً عظيماً وجديداً قد بدأ. وكان محقاً، بطريقة ما، لأن معظم ما حصل معه في السنوات اللاحقة يمكن ردّه إلى ذلك اللقاء الودّي. "رجلان يلعبان الباصرة ليس شيئاً مشوّقاً"، أخبره السيد دي فير في لقائهما الثاني، واقترح أن يعطيه مالاً ليلعب كوكيل عنه في مكان يعرفونه فيه. لكن ثقله كان أقل وزناً مما كان السيد دي فير يأمل، وقد صُرِف إيدي بفظاظة من أول عدة مباريات حاوَل المشاركة فيها، وفي إحدى المرات من قِبل سيدة تضع بكرات في شعرها طردته بمكنسة.

أخيراً، داخل متجر سيجار على الجهة المقابلة لساحة الشحن، قُبل على مضض من قِبل سِيد، وهو مدخِّن شره تفحَّص إيدي من خلال الغمامة المتكاسلة على الحافة الخضراء لنظاراته.

في الأسابيع التي تلت، عندما يسمح الطقس، كان إيدي ينضم إلى مباريات سِيد لساعة ورُبع - وأقل من ذلك إذا خسِر ماله قبل هذه المدة. ثم يعود بعد ذلك إلى السيد دي فير ويُخبره بالتفصيل الممل كل بطاقة لعبها وكل مال راهن به، وهذه قدرة هائلة على الاستظهار والتذكّر حسَّنها إيدي مع الوقت. وكان العجوز الكريم الأخلاق يُنصت إلى سرده ويعلِّق على كل خطأ - "لا، البطاقة العالية لن تنفع ضد بولسكي، فهو لا يُجيد الخداع. ستخسر تلك الجولة" - إلى أن بدأ إيدي يمتنع عن الإفصاح عن النتائج حتى النهاية لكي يزيد من حماس مشغِّله وفرحه. وفي الحالات النادرة التي كان إيدي يخرج فيها فائزاً، كان السيد دي فير يعطيه نصف الأرباح. وعندما يخسر، يعيد ببساطة ما بقي معه من مال. كان بإمكان إيدي أن يكذب، بالطبع - فيقول إنه خسر في حين أنه فاز في الواقع، ويحتفظ بكل الأرباح لنفسه، لكن هذه الفكرة خطرت على باله في الحالة السلبية فقط: كشيء ربما فعله فتيان آخرون.

كان السيد دي فير "رجلاً رياضياً"، وهذا يعني بوضوح أنه رجل مُراهِن وخبير بالأحصنة. شارك في مباريات في كانفيلد وفندق ميتروبول ضد أشخاص من آل غُولد وفيسك وفاندربيلت، قبل أن يطارد "مُصلِحون" أمثال الموقَّر باركهورست أفضل الأماكن ويُقفلونها ويُغلقون حلبة السباقات على شاطئ برايتون. أصبح المُراهِنون الكريمو الأخلاق شيئاً من الماضي، مثلما أخبرَ إيدي بمرارة، فقد طردهم رجال العصابات والمحتالون أمثال أرنولد روثشتاين، الشاب المنافِق الذي فاز بالغشّ. "لا تغشّ أبداً، ولا حتى مرة واحدة"، حذَّر إيدي وهو ينظر إليه بعينين باهتتين. "الغشّ يشبه عود الثقاب. لا يهمّ إن غششتَ مرةً أو مئة مرة؛ ستكون قد شوَّهت سمعتك وانتهى الأمر".

بقيت تلك الكلمات محفورة في ذهن إيدي. كان الغشّ طريقة حياة في مأوى الأحداث المشرَّدين، لكن إيدي كان دوماً مختلفاً عن الآخرين. وقد رأى السيد دي فير ذلك الفرق فيه. لذا علَّمه طرقاً لاكتشاف حجر النرد المغشوش، وأوراق اللعب المعلَّمة، ودلالات المؤامرة بين أشخاص يُفترض أن يكونوا غرباء عن بعضهم - أي شيء قد

يقوِّض النشاط الغامض للسيدة حظ.

كان السيد دي فير قد أُصيب خلال الحرب الأهلية، لكن "قلبه الضعيف" هو الذي قيَّده بالكرسي قبل سنتين، ووضعه تحت رعاية أخته العزباء، الآنسة دي فير، التي وضعت حدّاً فورياً لحياته في عالم المباريات. فقد ادّعت أن ذلك أتلَف له صحته، لكنه شكَّ أنها مهتمّة بمعاش تقاعده العسكري لكي تكبِّر تشكيلة الدمى الخزفية التي لديها، والتي تضم المئات من قبل. بعد ظهر أحد الأيام، وبعد أن استأنَف نشاطه للتو بعد فرصة الشتاء، عاد إيدي في وقت متأخر من إحدى مباريات ورق اللعب، لكن السيد دي فير طرده بقسوة. مجروحاً، راقَب إيدي من داخل المنتزه سيدةً ممتلئة الجسم ترتدي قبعة سوداء عريضة الحافة تقترب بحزم من السيد دي فير. بدا العجوز منحنياً وضعيفاً في حضورها، وفهِم إيدي أنه يخاف من أخته.

"ألا تحمل ساعة؟"، سأل إيدي بعد ظهر اليوم التالي. وعندما أقرّ إيدي أنه لا يملك واحدة، فكَّ العجوز سلسلة ساعته. "استخدم هذه"، قال وهو يضغط ساعة جيب فضية في راحة يد إيدي. كانت ثقيلة ومنقوشة.

"لا أستطيع يا سيدي"، تلعثم إيدي. "سيعتقدون أنني-".

"هذا قَرض وليس هدية"، قال السيد دي فير بعد قليل.

في أواخر مايو، لم يظهر السيد دي فير لأربعة أيام على التوالي. في اليوم الرابع، وكان يوم جمعة، بقي إيدي ينتظر كل فترة بعد الظهر، ويفحص ساعة جيبه الفضية كل دقيقة. دخلَ أخيراً جادة توبينغ، التي كانت الآنسة دي فير قد برزت منها، واقترب من بعض الفتيات اللواتي كنَّ يرسمن مربعات لعبة الحَجْلة في الغبار. "ذلك العجوز على الكرسي النقّال، هل رأيتمونه؟"، سألهن. وردَّت عليه فتاة صغيرة ذات جديلة صفراء باهتة بصوتٍ حادٍ، "أخذوه في تابوتٍ".

تحسَّس ساعة الجيب الملامسة لفخذه وعلِم أن عليه إيجاد الآنسة دي فير لكي يعيدها لها. لكن هذه الفكرة وبّخته: *لا! ليس لها*، وتذكَّر إيدي الدمى الخزفية وبدأ يمشي الهُوَينى عائداً نحو كليرمونت بارك، إلى أن مرَّ بجانب عربة بائع الثلج، فبدأ يركض. كان قد أصبح في الثانية عشرة من عمره، طويلاً وهزيلاً. بينما كان يركض بسرعة متجاوزاً ملهى كليرمونت القديم والسكة الحديدية المرفوعة، أدرَك أنه بمحافظته على هذه الوتيرة المتهوِّرة،

يمكنه البقاء أمام حقيقة أنه لن يرى السيد دي فير مرة أخرى أبداً. اخترق حديقة كروتونا بارك وعَبَر نهر البرونكس، مُجفلاً بعض الفتيان الذين كانوا يصطادون السمك على الجسر؛ وجنحَ نحو مزارع فارغة مقسَّمة إلى شوارع مستقبلية شبحية، واجتاز أخيراً السكك الحديدية إلى ما كانت فيما مضى البلدة المتلاشية فان نست. راح يلهث في حالة انهيار وشيك نحو سينما يونيونبورت، حيث كان فتيان مأوى الأحداث مصطفين لمشاهدة فيلم راعي البقر. كان يوماً عادياً، ولا يعرف أصدقاؤه شيئاً عن السيد دي فير. خرَّ إيدي بينهم، وبينما كانوا يصيحون على لصوص القطار ذوي الشوارب الخبيثة، ترك نفسه يبكي. امتصَّ صخب الفتيان ضجة حزنه، ثم خفَّف حزنه أخيراً. لا شيء تغيَّر أو زال.

بعد ذلك، بقي إيدي مقرّباً من إخوته في مأوى الأحداث المشرَّدين حتى عندما كان ينجرف بعيداً عنهم. كان الشخص الذي يأتي ويذهب، الشخص الذي لم يستطيعوا فهمه أبداً، وقد ساهمت رغبتهم بقبول هذه النسخة الجزئية منه في زيادة حنان إيدي نحوهم. كبروا جميعاً وذهَب كل واحد في طريقه: بعضهم الأكبر سناً من غيره إلى الحرب العُظمى، حيث تُوفِّي بادي كاسيدي في رانس؛ وعدد كبير منهم إلى مراسي الجهة الغربية، حيث أصبحوا حمّالي ميناء أو عمّال (بناءً على مقدار تناولهم الشراب)، أو شرطيين، أو مالكي مقاصف، أو أعضاء في مجلس البلدية، أو مسؤولي اتحاد، أو رجال دين. كان من الممكن شَغلُ أكثر من دور واحد من هذه الأدوار على الواجهة المائية، والعديد منهم فعل ذلك. بارت شيهان، الفتى الذي أنقذ له إيدي حياته إلى جانب دونالان، تمكَّن من التخرّج من الثانوية، ثم الكلية، ثم *كلية القانون*: وهذه إنجازات جذرية أدّت إلى ذِكر إسمه بنفس الهمس الذي يُذكَر به إسم كيفن ماكليمور البريء، الذي قُطِع إلى نصفين تحت عجلات قطار طليق على الجادة الحادية عشرة. يعمل شيهان في مكتب المدّعي العام الآن، رغم أن إيدي لم يره منذ عدة سنوات. علِم دونالان من الطائرة الورقية – وهي شبكة إشاعات وهمز ولمز شاملة أكثر من *الشامروك* – أن بارت كان يحقِّق في نقابة الإيطاليين. وقد شكَّ إيدي أن ذلك مجرد تفكير بالتمني من قِبل دَني.

في خطوة حيَّرت أصدقاءه، انجذب إيدي إلى مسارح الفودفيل، حيث رقَص، وغنّى بشكل سيئ زيادةً في التأثير الهزلي، وتدلّى مثل وطواط من روافد المسرح، وخَدَع جسمه في أساليب هروب تشبه حِيل هوديني. حَجَز موسماً مع فرقة الفوليز، حيث وَقَع في حب فتاة

جوقة هاربة حديثاً (على حد تعبير أغنِس) من مزرعة شعير في مينيسوتا. وبعد أن تزوَّجا، أدار مسرحاً ودَرَس ليكون سمسار بورصة. وخطَّط لشراء مقعد في بورصة نيويورك. لم يكن المال يشكّل مشكلة. وقد وجَد إيدي لعبة الحظ المثالية له فكان يشتري أسهماً على الهامش، ويبيعها فقط ليشتري المزيد - وليحصل على الزخارف الملائمة لثروته الجديدة. اشترى لأغنِس معطفاً من الفرو الأسود الداكن الروسي وعقداً من اللآلئ من أفخم الصاغة. وكانت مغسلة مطبخ شقتهما المستأجرة على الجادة الخامسة تعوم بأعقاب سجائر "أمير موناكو" التي كانا يُطفئانها في وجبات طعام غير مأكولة بالكامل وهما يهرعان إلى غرفة النوم. وظَّف إيدي خادمة لتنظِّف لهما المنزل في فترات بعد الظهر. وراح يتعامل مع خيّاط ليعدِّل له البذلات التي يستوردها من إنكلترا، وكان يشتري زجاجات شراب فاخر لأغنِس ولآخرين بعد عروضها. لم تكن لديه أي فكرة كيف يكون غنياً - أي فكرة على الإطلاق في الواقع، لدرجة أنه ظَنَّ أنه غني. كانا يأخذان آنا إلى الحفلات ويجعلانها تنام على جبال من معاطف الفرو. ليديا كانت مختلفة، بالطبع. فوظَّفا غاسلة ملابس إيرلندية لكي تهتمّ بها في الأمسيات بينما تغسل لهم ملابسهم.

لكن حتى في ذروة بهجته، عندما كان إيدي بالكاد يلاحظ السُفن التي تحوم عند أطراف شوارع برودواي الجانبية، قام بما يكفي ليحافظ على وضعه في الزحام: حضر مناسبات الفطور مع الفرقة النحاسية في أفخر الفنادق؛ واشترى تذاكر مُكلفة إلى حفلات العشاء السنوية حيث يُقدَّم الاحترام لكل الأشخاص الذين ارتقوا عالياً في المجتمع. لكن أحد أسباب فعله ذلك كان أنه أراد التباهي بأغنِس، النجمة الناشئة ذات الشعر الناعم والجسم الرشيق. وقد بدت الفتيات الإيرلنديات غير أنيقات بالمقارنة بها في موكب العرس، وقد استمتع إيدي برؤية وجوه إخوته تتجهّم من الحسد والخجل.

والحمد لله أنه حافظ على تلك الروابط - الحمد لله! فبعد الانهيار الاقتصادي، وعندما بدأت مظاهر الثروة التي اكتشَف إيدي أنه لم يملكها أبداً تتخلّى عنه الواحد تلو الآخر - الفراء، اللآلئ، الشقة، علب سجائر كارتييه - عندما خسِر عمله (وأُغلق المسرح)، رحَّب به دونالان، واشترى الدوسنبرغ منه، وأعطاه بطاقة عضوية في الاتحاد. وعندما انضم إيدي إلى أحد صفَّي طالبي العمل اليومي - وهو تدبير يقضي بوقوف الأشخاص الذين يبحثون عن عمل أمام زعيم التوظيف - وضع إيدي عود أسنان خلف

أذنه اليسرى، وقد ضمنَ له ذلك عملاً على مقصورة الشحن في السفينة، بالحد الأدنى، والأرجح أكثر إحدى الوظائف الأفضل في التحميل والتفريغ. لولا ذلك كانت عائلته ستتضوَّر جوعاً. وعندما توقفت السُفن عن القدوم في العام 1932، أبقاه دونالان بصفة مأجوراً في الاتحاد وأعاره الدوسنبرغ ليقضي فيها مأمورياته. أثناء قيادته في شارع وول ستريت بعد ظهر أحد الأيام، لاحَظ إيدي رجلاً مألوف الشكل يبيع التفاح على ناصيةٍ. لم يُدرِك مَن كان إلا بعد أن تجاوزه: سمساره في البورصة.

سمِعت آنا مفتاح والدها في القفل وفتحت عينيها. من كثافة الصمت خارج النافذة، عرَفت أن الوقت متأخر جداً. لا يوجد حتى جرس الترامواي. مشت على رؤوس أصابعها حول الشاشة الصينية التي كانوا يحتفظون بها للعمّة برِيان في الغرفة الأمامية المظلمة. توقفت هناك. كان والدها واقفاً أمام مغسلة المطبخ وقد خلع قميصه، وينظّف جذعه بالصابون. راقَبته آنا، مبهورةً. لا يمكنه رؤيتها من المطبخ المضاء، وشعرت للحظة مُوحِشة أنه شخص لا تعرفه. غريبٌ هزيلٌ وسيمٌ يقلّب شيئاً في ذهنه.

عندما خرج ليستخدم مرحاض القاعة، انتظَرته آنا في المطبخ. جفل من رؤيتها في قميص نومها؛ ثم بدا أن كل القلق قد غادره. كان هو نفسه من جديد. وهي أيضاً.

"توتس"، قال بلطف. "ماذا تفعلين مستيقظة؟".

"أنتظرك".

رَفَعها بيديه، وترنّح إلى حدّ أنه كاد يفقد توازنه. عرَفت من رائحة أنفاسه أنه كان يتناول الشراب.

"أنت تكبرين"، قال مُسنداً نفسه على إطار الباب.

"أنت تصغُر"، قالت.

حمَلها، بتردّد قليلاً، عبر الغرفة الأمامية إلى باب غرفة نومها. كانت ستارة نافذة الغرفة الأمامية مرفوعة، واتكأ والدها على الإطار، وكان لا يزال يحملها. حدَّقا معاً في الظلام. شعَرت آنا بالمدينة تتمدَّد حولهما، فتصل شوارعها وجادّاتها إلى الأنهار والميناء.

"هل تسمعين هذا الهدوء؟"، قال بحذر شديد، كما لو أنه يمشي على رؤوس

أصابعه. "هذا صوت الميناء في الانهيار الاقتصادي".

"لا سُفن"، قالت.

"لا سُفن".

"أسمع عصفوراً".

"لا عصافير، رجاءً. ليس بعد".

لكن عصفوراً منعزلاً بدأ يزقزق، كصمود أخير ضد الشتاء. كما لو أنه جرى وفق اتفاق مُسبق، ظهرت مسحة ضوء في السماء الشرقية.

"لقد بقيتَ في الخارج طوال الليل"، قالت متعجّبةً.

"يمكننا النوم حتى وقت متأخر". لكنه انتظَر لحظة أخرى، متكئاً على إطار النافذة وحاملاً آنا على ذراعيه. كم مرة سيتمكن من حملها بعد؟ فهي الآن أصبحت طويلة جداً.

"سأنام هنا"، قالت وطوّقت عنقه بذراعيها. كانت بشرة والدها تعبق برائحة "رقائق العاج" من غسيله المؤخر لنفسه. أراحت خدها على كتفه العارية وأغمضت عينيها.

الجزء الثاني

عالم الظل

الفصل 5

بدأ كل شيء عند رؤية الفتاة. كانت آنا قد خرجت لشراء الغداء رغم رفض المُشرف عليها، ڤوسّ، الذي كان يحبّهن أن يُحضرن وجبات الغداء من منازلهن ويأكلوهن على نفس الكراسي الطويلة بلا ظهر ولا ذراعين حيث يجلسن طوال اليوم يقِسن. شَعَرَت آنا بالقلق من رغبته في إبقائهن تحت نظره طوال الوقت، كما لو أن الفتيات الطليقات في مطعم "الساحة البحرية" قد يتبعثرن مثل دجاجات. الحق يُقال إن تناول الطعام في ورشتهن أمر لطيف، فهي نظيفة ومُضاءة جيداً بصفّ كامل من النوافذ العالية. وتحتوي على تكييف للهواء سبَّب قشعريرة منعشة ملأت كل زاوية خلال أيام سبتمبر الحارّة عندما جاءت آنا لتعمل هناك لأول مرة. تودّ الآن لو يمكنها فتح نافذة لكي يدخل هواء أكتوبر المنعش، لكن النوافذ كانت مغلقة بشكل دائم، لحمايتهن من الغبار والقذارة التي قد تؤثر على القياسات التي تأخذها والفتيات الأخريات – أم هل يجب أن تبقى القِطع الصغيرة جداً التي يقِسنها نقية بالكامل لكي تعمل؟ لا أحد يعلم، والسيد ڤوسّ لم يكن رجلاً يرحِّب بالأسئلة. في أحد الأيام الأولى لعملها، سألت آنا عن القِطع المجهولة في دُرجها، "ماذا نقيس بالتحديد، ولأي سفينة هذه القِطع؟".

ارتفع حاجبا السيد ڤوسّ الشاحبان. "هذه المعلومات غير ضرورية لكي تقومي بعملك آنسة كيريغان".

"لكنها ستساعدني في القيام به بشكل أفضل".

"أخشى أنني لا أفهمك".

"سأعرف ما الذي أفعله".

أخفت المتزوّجات ابتساماتهن. كانت آنا تمثّل دور الأخت الصغيرة الجامحة، وكانت تستمتع بذلك للغاية. وجَدت نفسها تبحث عن طرق صغيرة لتتحدّى بها السيد ڤوسّ

من دون أن تخاطر بكشف أنها تقوم بعصيان صريح.

"أنت تقيسين وتفحصين قِطعاً لضمان أنها متماثلة"، قال بصبر، كما لو أنه يكلِّم شخصاً أبله. "وتضعين جانباً كل قطعة غير متماثلة".

عرفن بعد ذلك بفترة قصيرة أن القِطع التي كنَّ يفحصنها كانت للبارجة ميزوري، التي كانت رافدة القصّ التابعة لها موضوعة قبل سنة تقريباً من هجوم بيرل هاربر في حوض السُفن الجاف رقم 4. لاحقاً، تم تعويم بدن الميزوري في خليج والأباوت إلى ممرات البناء: صناديق حديدية شاسعة ممراتها الضيقة المتعرِّجة استحضَرت الأفعوانية التي تسمّى "إعصار كوني آيلند". لذا فمعرفة أن القِطع التي كنَّ يفحصنها ستُضَم إلى البارجة الأكثر عصريةً في التاريخ أضافت بالفعل بعض الحيوية إلى العمل بالنسبة لآنا. لكن ذلك لم يكن كافياً.

عندما دوَّت صفّارة الغداء عند الحادية عشرة والنصف، كانت تتلهَّف للخروج. ولكي تبرِّر مغادرتها المبنى، لم تُحضِر أي غداء معها - وهذه حيلة عرَفت أنها لم تخدع السيد ڤوسّ. لكنه لا يستطيع أن يحرم فتاةً من تناول الطعام، لذا راقَبها بتجهّم وهي تتوجَّه نحو الباب بينما كانت المتزوِّجات يُخرجن شطائرهن من الورق المشمَّع ويتكلمن عن أزواجهن في مخيَّمات التدريب أو ما وراء البحار؛ مَن منهن لديها رسالة؛ دلالات أو إحساس باطني أو أحلام عن مكان تواجد أحبائهن؛ عن حجم خوفهن. وبكت أكثر من فتاة واحدة، واصفةً رعبها من عدم عودة زوجها أو خطيبها. لم تكن آنا قادرة على الاستماع. فهذه الأحاديث تحرِّك فيها غضباً مزعجاً تجاه تلك الفتيات، اللواتي بدَونَ ضعيفات جداً. لحسن الحظ أن السيد ڤوسّ وضع حداً لذلك الموضوع خلال ساعات العمل، مُحدثاً موجةً من الامتنان لدى آنا. وأصبحن الآن يغنّين أغاني من كليّاتهن بينما يعملن: هانتر، سانت جوزيف، كلية بروكلين، التي تعلّمت آنا أغنيتها أخيراً - حيث لم تكترث لتعلّمها خلال السنة التي كانت فيها طالبة هناك.

زامَنت ساعة معصمها مع ساعة الجدار الكبيرة التي يعملن وفقاً لها، وخرجت إلى الهواء الطلق. بعد السكون التام لورشتها، كانت ضجة الساحة تصدمها دائماً: محرّكات الرافعات والشاحنات والقطارات؛ عويل الفولاذ الجاري قصّه في الورشة الإنشائية القريبة؛ صيحات الرجال الذين يريدون إيصال أصواتهم إلى الآخرين. نتانة الفحم والزيت الممزوجة مع هَبّات روائح الشوكولا من المَصنع على جادة فلاشينغ. لم يعد يصنع الشوكولا، بل

شيئاً ليأكله الجنود في حال تضوَّروا جوعاً. ذلك الشيء نسيب الشوكولا كان يُفترَض أن يكون مذاقه مثل البطاطا المسلوقة، حسبما سمِعت آنا، لكي لا يغري الجنود إلى أكله قبل الوقت المناسب. لكن الرائحة كانت لا تزال شهية.

بينما أسرعَت الخُطى إلى جانب المبنى 4، وهو الورشة الإنشائية، بنوافذه الرثّة الألف، رأت فتاةً تهمّ بركوب دراجة هوائية. لم تُدرك آنا في البدء أنها فتاة؛ فقد كانت ترتدي نفس ملابس العمل الزرقاء العادية التي يرتديها الجميع. لكن شيئاً في مشيتها، في الأسلوب الذي ركبت به، لفتَ نظر آنا، وراحت تراقب الفتاة تبتعد ببعض الحسد.

في مطعم قريب من الأرصفة البحرية، اشترت علبة وجبتها ذات الأربعين سنتاً – كانت الوجبة اليوم تتألف من دجاج وبطاطا مهروسة وبازلاء معلَّبة وصلصة تفاح – وتوجّهت نحو الرصيفين البحريين C وD، وكلاهما قريبان كفاية من ورشتها بحيث أنه يمكنها أن تأكل (أثناء الوقوف في أغلب الأحيان، وحتى السير) وتعود إلى كرسيها الذي بلا ظهر ولا ذراعين عند الثانية عشرة والرُبع. كانت هناك سفينة راسية في الرصيف البحري C منذ البارحة، وطيفها الشاهق مفاجئاً تقريباً. مع كل خطوة خطتها آنا نحو السفينة، بدا أن ارتفاعها يزداد، إلى أن أصبحت مضطرة إلى إمالة رأسها إلى الخلف لكي تتمكن من رؤية المقدمة المنحنية صعوداً إلى ظهر المركب البعيد. كانت مزدحمة ببحّارة، متماثلي المظهر في أزيائهم وقلنسواتهم التي تشبه ملابس الألعاب، وكلهم منحنين فوق الدرابزين للتحديق ببلاهة في شيء تحت. في تلك اللحظة بالذات، وصلتها جوقة من الصفير. فجمدت في أرضها، ممسكة بعلبة طعامها – ثم رأت بارتياح أن الحماسة لم تكن موجَّهة نحوها بل نحو الفتاة على الدراجة الهوائية، التي كانت تمرّ بجانب السفينة من مؤخرة الرصيف البحري، وبعض خصل شعرها الأشقر تتطاير تحت وشاحها بفعل الرياح. راحت آنا تراقب اقتراب الفتاة، محاولةً أن ترى إن كانت تستمتع بهذا الاهتمام أم لا. وقبل أن تتمكن من أن تقرّر بشأن ذلك، ارتطمت الدراجة الهوائية ببعض الحصى وانزلَقت على جنبها، موقعةً راكبتها على الرصيف البحري المرصوف بالطوب، مما زاد من صخب البحّارة. لو كان الرجال قريبين من الفتاة، لكانوا تدافعوا بلا أدنى شك لكي يساعدوها. لكن مع هكذا ارتفاع، ومع عدم وجود أحد غيرهم ليتباهوا أمامه، اكتفوا بجولة من التعليقات الساخرة:

"آه، الطفلة المسكينة فقدت توازنها".

"مؤسف أنها لا ترتدي تنورة".

"أنت جميلة حتى عندما تبكين".

لكن الفتاة لم تكن تبكي. بل وَقَفت غاضبةً، مذلولةً لكن متحدّيةً، وقرّرت آنا أنها تروق لها. فكّرت للحظة عابرة بالركض لمساعدتها، لكنها سُرّت أنها عدلت عن فعل ذلك – فمنظر فتاتين تكافِحان مع دراجة هوائية سيكون مضحكاً أكثر من مجرد فتاة واحدة. وهذه الفتاة لن تكون بحاجة لمساعدتها. قوّمت كتفَيها ومشت بالدراجة الهوائية ببطء إلى أعلى الرصيف البحري، حيث كانت آنا، متظاهرة أنها لم تسمع شيئاً. رأت آنا كم هي جميلة، مع خدّين بغمّازتين وعينين زرقاوين وامضتين، وتجعيدات شعر جان هارلو. مألوفة، أيضاً – ربما لأنها بدت مثلما كانت ليديا ستبدو لو لم تكن بالحالة التي هي عليها. كان العالم مليئاً بغرباء (بتّي غرابل منهم) شعَرت آنا بمَوَدّة أخويّة نحوهم لذلك السبب. لكن مع تجاوز الفتاة لها بتشامخ، وتجاهلها لها، تعرَّفت عليها كإحدى الفتيات اللواتي اختار المراسِلون الصحفيون ملاحقتها في سبتمبر، في أول يوم عمل لهنّ في الساحة البحرية. كانت آنا قد رأت صورتها في *بروكلين إيغل*.

بعدما تجاوزت السفينة بأمان، ركبت الفتاة على دراجتها الهوائية ورحلت. نظرت آنا إلى ساعة معصمها واكتشفت مرتبعةً أنها تأخّرت حوالي ثلاث عشرة دقيقة. ركضت بسرعة نحو المبنى، مُدركةً أنها ستلفت الأنظار. تجاوزت بسرعة المتفحّصين في الطابق الأول – كلهم رجال، ويستخدمون سلالم ليقيسوا القِطع الأكبر – وجلست على كرسيها عند الساعة 12:37، والعرق يتصبَّب من إبطَيها عند الجانبين الداخليين لبذلتها. ركّزت عينيها على دُرج القِطع الصغيرة التي تُعطى لها كل يوم لتقيسها وحاولَت تهدئة لهثها. رمقتها روز، وهي سيدة متزوجة كانت ودودة معها، بنظرة تحذيرية من الطاولة المجاورة.

كان استخدام الميكرومتر سهلاً جداً: اشبك، ثبّت البرغي، اقرأ. كانت آنا مبتهجة بهذه المهمة في البدء؛ فالفتيات اللواتي يقمن بأعمال مثل التلحيم والتثبيت ببراشيم احتجن إلى ستة أسابيع من التعليمات، بينما التفحّص تطلّب أسبوعاً فقط من اختبارات الجدارة. كانت بين الفتيات الجامعيات، وقد استخدَم السيد ڤوسّ كلمة "نخبة" في ملاحظاته التمهيدية، وهذا سَرَّها. قبل كل شيء، كانت قد ضجرت من العمل بيديها.

لكن بعد يومين من قراءة الميكرومتر ثم خَتم الورقة التي أتت مع دُرجها للمصادقة على أن القِطع متماثلة، وجَدت آنا أنها تبغُض الوظيفة. كانت رتيبة لكنها تتطلّب تركيزاً عالياً؛ دنيوية بشكل مُخدِر ومع ذلك حرِجة كفاية لكي تجري في "غرفة نظيفة". الإحولال بالميكرومتر جَعَل رأسها يؤلمها. وكانت تشعر برغبة قوية أحياناً بمجرد استخدام أصابعها لتقيس ما إذا كانت القِطع بالحجم الصحيح. لكن لا يمكنها سوى التكهّن، لذا تعود وتضطر إلى القياس لكي تعرف إن كان تكهّنها صحيحاً أم لا. والسيد ڤوسّ العليم بكل شيء لاحَظها أنها تعمل مُغلقةً عينيها. "هل لي أن أسأل ماذا تفعلين آنسة كيريغان؟"، سألها. وعندما أخبرته آنا (مما أثار سخرية المتزوِّجات)، قال لها، "هذا ليس الوقت المناسب للنزوات. نحن في حالة حرب".

الآن، عندما انتهت نوبة العمل وعدنَ إلى ملابسهن العادية، طلب السيد ڤوسّ من آنا أن تأتي إلى مكتبه. لم يُستدعَ أحدٌ من قبل إلى مكتبه؛ وهذا كان أمراً مُنذِراً بالسوء.

"هل أنتظرك؟"، سألتها روز بينما راحت المتزوِّجات الأخريات يتمنّين لها حظاً سعيداً وأسرعَن في الابتعاد. لكن آنا اعترَضت، بما أن لدى روز طفل عليها الذهاب إلى المنزل للاعتناء به.

كان المكتب فارغاً ومؤقّتاً، مثل معظم الساحة البحرية. بعد وقوفه لبرهة عندما دخلَت، عاد السيد ڤوسّ إلى مقعده خلف مكتب معدني. "لقد تأخرتِ عشرين دقيقة في العودة بعد استراحة الغداء"، قال. "اثنتان وعشرون دقيقة، في الواقع".

وَقَفت آنا أمامه، وقلبها يضخّ الدم إلى وجهها مباشرة. كان السيد ڤوسّ رجلاً مهماً في الساحة؛ وقد هاتَفَه الآمر أكثر من مرة. يمكنه أن يطردها. كان هذا احتمالاً لم تفكّر فيه بالكامل في الأسابيع التي أمضتها تثير له سخطه بلطف. لكنه صعقها بقوة الآن: لقد انسحبت من كلية بروكلين. وإذا لم تكن هنا في العمل، ستعود إلى المنزل مع أمها للعناية بليديا.

"آسفة"، قالت. "لن يحصل هذا مرة أخرى".

"تفضلي بالجلوس"، قال، فجلست آنا على كرسي. "إذا لم تكن لديك خبرة كبيرة في عالم العمل، فلا شك أن هذه القواعد والقوانين تبدو مقيِّدةً جداً".

"لقد عملتُ طوال حياتي"، قالت، لكن كلامها بدا أجوف. كانت تشعر بخِزي

كبير، كما لو أنها لمحت انعكاس صورتها على نافذة متجر ووجدتها مضحكة. فتاة جامعية تتوق إلى تذوّق عمل حربي. واحدة من "النخبة". لا شك أن هذه هي الطريقة التي يراها فيها. وتذكّرت شعارات من مجلة *عمّال السُفن*: "الدقائق التي تقضيها هنا تعني إنقاذ حياة العديدين هناك. عندما لا تعمل، ستُفيد العدو".

"أنتِ تُدركين أننا قد لا نربح الحرب"، قال.

طرفت عيناها. "لماذا، نعم. بالطبع". لم تكن الصحف مسموحة داخل الساحة البحرية خوفاً من إضعاف المعنويات، لكن آنا كانت تشتري صحيفة التايمز كل مساء خارج بوابة ساندز ستريت.

"تُدرِكين أن النازيين يحاصرون ستالينغراد".

أومأت برأسها، الذي كانت قد أخفضته في إذلال.

"وأن اليابانيين يسيطرون على المسرح الهادئ من الفيليبين إلى غينيا الجديدة؟".

"نعم".

"تفهمين أن العمل الذي نقوم به هنا، بناء سُفن الحلفاء وإصلاحها، هو ما يسمح للبحّارة والطائرات والقنابل ومرافِقَات القوافل بالوصول إلى ساحات القتال؟".

تحرَّك شعور بالانزعاج داخلها. لقد وضَّح فكرته. "نعم".

"وأن مئات السُفُن التجارية للحلفاء نُسفت بالطُربيدات منذ بداية الحرب، والمزيد منها يغرق كل يوم؟".

"إننا نخسر عدداً أقل من السُفن من قبل، ونبني المزيد"، قالت بهدوء، بعد أن قرأت هذا في التايمز مؤخراً. "تمكَّن حوض كايزر لبناء السُفن من بناء سفينة ليبرتي في عشرة أيام الشهر الفائت".

بدا هذا الخبر حديثاً جداً، وانتظَرت آنا زوال أثر الصدمة عليه. لكن السيد قوسّ قال ببساطة بعد صمت قصير، "ألاحظ أنك لا تُحضِرين غداء معك. أفترض أنك تعيشين في المنزل؟".

"نعم"، قالت آنا. "لكن أمي وأنا مشغولتان جداً برعاية أختي. إنها مشلولة بشكل سيئ".

كان هذا صحيحاً. لكنه غير صحيح أيضاً. فأمها تُعدّ لها الفطور والعشاء؛ وبإمكانها أن تُعدّ لها الغداء بسهولة، وقد عرضت عليها ذلك. لكن آنا انزلقت في العادة غير المحترسة التي تفترضها في أغلب الأحيان مع الغرباء، أو مع الغرباء الوهميين. كانت مكافأتها تفاجؤاً خفيفاً على وجه السيد ڤوسّ.

"الآن، هذا مؤسف"، قال. "ألا يستطيع والدك مساعدتكما؟".

"لقد ذهب". لم تكشف هذه الحقيقة تقريباً أبداً من قبل، ولم تكن تنوي كشفها الآن.

"في الخدمة؟"، بدا مرتاباً؛ بالتأكيد رجلٌ لديه إبنة في التاسعة عشرة من عمرها سيكون كبيراً في السنّ.

"فقط ذهب".

"هَجَر عائلتك؟".

"منذ خمس سنوات".

لو أن آنا شعَرت بأي إحساس تجاه هذا الإفشاء، لكانت أخفته. كان والدها قد غادر الشقة على عادته كل يوم – حتى إنها لا تستطيع تذكّر ذلك. تكشّفت لها الحقيقة تدريجياً، مثل هبوط الليل: إدراكٌ، عندما وجدت نفسها تنتظِر عودته، لأيام، ثم أسابيع، ثم أشهر – ولا يزال لم يعد. أصبحت في الرابعة عشرة، ثم الخامسة عشرة. وتحوّل الأمل إلى مجرد ذكرى: بقعة ميتة، خَدِرة. لم تعد قادرة على تصوّره بوضوح.

أخذ السيد ڤوسّ نَفَساً عميقاً. "حسناً، هذا صعب"، قال. "صعب جداً عليك وعلى أمك".

"وعلى أختي"، قالت بشكل غريزي.

الصمت الذي ساد حولهما كان غير مريح لكنه لم يكن بغيضاً. كان تغييراً. كان كُمّا قميص السيد ڤوسّ مرفوعين؛ لاحَظت الشعرات الشقراء على يديه ومعصميه المستطيلين القويين. شعَرَت آنا بتعاطفه معها، لكن الفتحة الضيقة لحديثهما لا تتحمّل إيجاد قناة يمكن أن ينساب أي شعور من خلالها. والتعاطف لم يكن ما أرادته. بل أرادت الخروج في وقت الغداء.

استقرّ الهيجان الناتج عن تغيير نوبات العمل؛ لا بدّ أن متفحّصات الليل في طريقهن إلى العمل على دُروجهن. وجَدت آنا نفسها تتذكّر الفتاة على الدراجة الهوائية. نَل - تذكّرت الإسم فجأة، من العنوان في الصحيفة.

"آنسة كيريغان"، قال السيد ڤوسّ أخيراً. "يمكنك الخروج لتناول الغداء، إذا احترمتِ الوقت وعملتِ بكل طاقتك".

"شكراً"، صاحت آنا ووثبت على قدميها. بدا السيد ڤوسّ جافلاً، ثم وَقَف أيضاً. ابتسم، وكان هذا شيئاً لم تره أبداً من قبل. لقد غيَّرته تلك الابتسامة، كما لو أن كل القسوة التي يُظهرها على طابق التفحّص كانت مخبأً أطلَّ منه هذا الرجل اللطيف ولوّح لها بيده للتو. لكن صوته كان هو نفسه.

"أتوقع أن أمك تحتاج إليك في المنزل"، قال. "عمتِ مساءً".

في الصباح التالي، لمحت آنا خُصَل شعر نَلْ الشاحب بين بحر القبعات والقلنسوات التي تملأ بوابة ساندز ستريت عند الثامنة إلا رُبعاً، عندما يكون بالكاد هناك وقت لتسجيل الدخول قبل الحسم. فحالما تصبح الساعة الثامنة في ورشتك، سيُحسم أجر ساعة من راتبك سواء كنتَ متأخراً بثلاثين ثانية أو ثلاثين دقيقة. كان هناك عشرات البحّارة في الخارج، وكلهم يرتدون الزيّ الرسمي الضيق جداً الذي اشتروه للإجازة على الشاطئ. سمِعت آنا أن هناك سحّابات على جوانب السراويل لكي يستطيع الفتيان خلعها وارتداءها. بناءً على مظهرهم الشاحب والسريع الغثيان، فقد بقي معظم أولئك البحّارة يتناولون الشراب طوال الليل. وتطوّح اثنان منهم بعيداً عن الحشود وكانا يتكئان على جدار المحيط بوجهين مُخضَّرين.

كانت نَلْ تقف في طابور هاردي، البحري الوسطي. كان طابوره الأقصر دائماً لأنه شُوهد يضع أنفه في الأباريق العازلة للحرارة التي يفتحها ليتأكد من عدم وجود أي شراب فيها. كما كان الحراس البحريون يفتحون الحقائب ويفكّون السلاسل ويتفحّصون طبقات الورق للتأكد من عدم وجود قنابل. سيحبّ الجواسيس الألمان والمخرِّبون دخول الساحة البحرية. صحيح أن الفكرة بدت بعيدة الاحتمال (كانت آنا تعرِف الكثير من الزملاء حولها بالوجه)، إلا أن وجود جواسيس ألمان أحرار في المدن الأميركية كان أمراً حقيقياً.

سُجن ثلاثة وثلاثون في يناير الفائت لإبلاغهم الرايخ عن تاريخ إبحار سفينة تجارية أميركية، *أس أس روبن مُور*. أُغرقت السفينة بطُربيد أمام ساحل أفريقيا.

مرَّ ثلاثة رجال عبر الباب الدوّار بين نَلْ وآنا، لكن عطر نَلْ بقي فائحاً حتى عندما أظهرت آنا شارة هويتها وفتحت حقيبة يدها لكي يتفحّص هاردي داخلها. لم تكن نَلْ متزوجة. وقد عرَفت آنا ذلك من طريقة وقوفها بتكلّف شديد خارج البوابة لكي تنظر إلى ساعة معصمها، ومن الميل المنحوت لأظافرها. بدا شعرها مصففاً؛ هذه فتاةٌ نامت والدبابيس في شعرها، وهذا يعني أنه لا بدّ أن لديها موعد بعد العمل، بما أن خصل الشعر – التي يجب أن تكون مغطاة داخل الورش – لن تخدم أي هدف آخر. لم تكن آنا عابثة متدلِّلة، لكنها لا تمانع تلقي بعض الغزل مثلما تفعل بعض الفتيات. وكانت تستمتع بمراقبتهن يتولَّين زمام الأمور مع الرجال، حتى عندما يظن الرجال *أنهم* مَن يتولى زمام الأمور. كانت آنا لتحبّ أن تغازل، لكنها لم تكن بارعة في ذلك؛ فصراحتها اعترضت طريقها.

"أنت نَلْ"، قالت وهي تلحق بها وتُدركها. أومأت الفتاة برأسها، كما لو أن التعرّف عليها كان شيئاً معتادة عليه. "أنا آنا". مدّت يدها وتصافحتا على عجل، وهما تسيران. شعرت آنا بغضب وذهول في تعابير نَلْ؛ كمعظم المغازلات، لم تر سبباً للتعرّف على فتيات أخريات. فالفتيات إما منافِسات أو طفيليات، وآنا افترَضت أن نَلْ لا بدّ أنها تتساءل أي نوع هي. "رأيتك تقعين البارحة عن الدراجة الهوائية".

"آه. ذلك". قلَبَت نَلْ عينيها، لكن آنا شدّت انتباهها.

"هل هي دراجتك؟".

"لا، إنها لروجر. يعمل في ورشتي".

"هل تعتقدين أنه قد يعيرني إياها؟"، سألت آنا.

ألقت نَلْ نظرة سريعة عليها. "سيعيرني إياها. وأنا سأعيرك إياها".

الآن وقد استقرّ حديثهما على أن آنا تريد شيئاً ونَلْ ستساعدها في الحصول عليه، بدت مسترخية أكثر. وبينما كانتا تُسرعان السير في الشارع الثاني، سألتها آنا، "هل عدد الفتيات في ورشتك كبير؟".

"البعض معي في علّية القوالب، لكنهن ساذجات".

"متزوجات؟".

"أصبتِ. معظم الفتيات العازبات يعملن في التلحيم، لكنه عمل قذر. لن أقوم به أبداً".

"ماذا يحصل في علّية القوالب؟".

"نحن... نصنع قوالب"، قالت نَلْ بنبرة بدا فيها أن تعقيد الموضوع تخطى اهتمامها في شرحه.

"قوالب سُفن؟".

"لا، شاحنات بوظة. لا تكوني معتوهة".

سُرَّت آنا من وصولهما إلى ورشة نَلْ؛ فقد بدأ إعجابها بها يقلّ كلما طال حديثهما. "كيف يمكنني الحصول على الدراجة الهوائية؟".

"انتظريني عند مدخل المبنى 4 بعد الصفّارة مباشرة"، قالت نَلْ. "سأُحضِرها لك".

"ألا يمانع المُشرف لديك خروجك؟".

"أنا أُعجبه"، قالت نَلْ، وهو تفسير افترضت آنا أنها تستخدمه – وعلى حق ربما – لتعلِّل معظم ما حصل معها.

"المُشرف لدينا يحبّ أن نبقى في الداخل"، قالت آنا وهي تُدرك أنها تمثِّل قليلاً، مستحضرةً نسخةً قديمةً قليلاً للسيد فوسّ. أن تكون طفيليةً بدا لها أنه الدور الذي تُختبر لأدائه، وربما الدور الوحيد المتوفر.

"جرِّبي أحمر الشفاه"، قالت نَلْ. "يصنع العجائب".

"ليس من هذا النوع".

كان وجه نَلْ مليئاً بمنحنيات مشمسة؛ وتبدو على الدوام كما لو أنها على وشك أن تضحك. لكن نظرتها الزرقاء كانت تعجّ بعمليات حسابية. "لا يوجد أي نوع آخر"، قالت.

عند الظهيرة، عندما التقتا مرة أخرى، كانتا ترتديان مئزرين أزرقين. وكانت كل

خُصل شعر نَلْ مقمَّطة داخل وشاح منتفخ، وترتدي حذاء الحماية المغطاة أصابعه بالفولاذ الذي كان الجميع يُشجّعون على شرائه. ورغم أن مجلة *عمّال السُفن* غالباً ما كانت تنشر قصصاً صغيرةً عن كوارث ساعد ذلك الحذاء في تفاديها، إلا أن آنا لم تشترِ زوجاً منه. لم يكن هناك من داعٍ له، بما أن كل شيء تعمل عليه لم يكن أكبر من قطعة الرُبع دولار.

"يمكنك تركها هنا عندما تنتهين منها"، قالت نَلْ وهي تمرِّر لها شوينّ سوداء بالية. "سآخذها في طريق عودتي. هناك سيدة مباشرة خارج بوابة كمبرلاند تبيع شطائر سلطة بيض لذيذة جداً. من داخل شقتها مباشرة – سترين الطابور من شارع فلاشينغ".

"شكراً".

"لا يمكنك توضيب سلطة البيض. تصبح رطبة".

"أتمنى لو كانت هناك دراجتان"، قالت آنا وهي تشعر بفيض مَوَدّة تجاه هذه الفتاة الكريمة المغرورة.

"ليس على حياتك. لقد انتهيتُ من كل هذه الأمور"، قالت نَلْ. ثم أضافت، مبتسمةً، "كما أننا سنسبِّب شغباً".

كانت آنا قد ركبت دراجات هوائية من قبل. يمكنك استئجارها في منتزه بروسبكت بارك لخمسة عشر سنتاً، وركوب الدراجات كان نشاط شائعاً خلال نهاية الأسبوع بين فتيان وفتيات كلية بروكلين. لكن هذه كانت مختلفة. أولاً، كانت شوينّ رجلٍ ذات قضيب موضوع بشكل غير مريح بحيث أن آنا اضطرت إلى قيادتها وقوفاً لكي تضمن عدم ارتطامها به. ربما الوقوف هو الذي يشكّل الفرق. على أي حال، من لحظة ضغطها على الدواسات وبدء الدراجة بالارتجاج على أحجار الطوب، شعَرت آنا كما لو أن برقاً أصابها. أجرت الحركة تفاعلات كيميائية في محيطها، محوِّلةً إياه من مصفوفة مشاهد مفكَّكة إلى آلة متناغمة يمكنها أن تحلِّق عبرها بشكل خفي مثل طائر نورس. قادت الدراجة بعنف، نصف ضاحكةٍ، والرياح السُخامية تملأ فمها. في ذلك اليوم الأول، كانت متحمِّسة جداً لكي تتمكن من أن تأكل، قلقة جداً من تأخرها لكي تخاطر ولو قليلاً بشأن سلطة البيض. عادت إلى كرسيها عند الساعة 12:10 وبقيت تتضوَّر جوعاً بقية اليوم، ويداها ترتعشان عند إمساكها الميكرومتر، ويغمرها فرح حماسيّ غريب.

في الصباح التالي، عمِلت بشراسة لتجعل الوقت يمضي بشكل أسرع، وأنهت ثلاثة أرباع دُرجها عندما دوّت الصفّارة. كانت نَلْ تنتظرها مع الدراجة الهوائية. ركبتها آنا في ذلك اليوم في اتجاه ممرات التصنيع، متجاوزةً شَعريتها الحديدية المساميّة عدة مرات، وقد لمحت بدناً هائلاً في الداخل. إنها *اليو أس أس ميزوري*. بعد سماعها إسمها يُردَّد همساً منذ أن وصلت إلى الساحة، وجدت آنا أن رؤيتها هذا الشيء بحد ذاته أمراً غريباً، ومخيفاً تقريباً.

الآن وقد بدأت تقيس القِطع بسرعة أكبر، بدأت تساعد بعض الفتيات الأبطأ على إنهاء دُروجهن عندما أنهت دُرجها. بعد ظهر أحد الأيام، أحضَر لها السيد فوسّ لفافة خرائط تصميم وطلب منها إيصالها إلى مكتب قبطان الساحة، في المبنى 77. منتعشةً من الذهول الصامت للمتزوّجات، أسرعَت آنا جنوباً على جادة موريس ثم الشارع السادس إلى المبنى الجديد المجهول الهوية، الذي لا يتضمن أي نوافذ ما عدا في الدور العلوي. رَكِبت مصعداً إلى الطابق الخامس عشر ووجدت نفسها مُحاطة بجدران مدموغة بخرائط. كانت النوافذ تُظهر السماء فقط، لكن نظرة صارمة من سكرتيرة في ملابس عادية أحبَط مسعاها للنظر إلى الخارج. بعد ظهر اليوم التالي، أرسلها السيد فوسّ إلى نفس المكتب لإحضار طرد. هذا التبادل للطرود ملأ آنا برعشة من السرية، وحتى من الخداع، لم تكن قادرة على تفسيرها بالكامل. شعَرت كأنها جاسوسة.

من دون تبادل أكثر من تحية بينما كانتا تتناقلان الدراجة الهوائية ذهاباً وإياباً، أصبحت آنا ونَلْ صديقتين تقريباً. لم تكن تلك الصداقة تشبه أبداً صداقة آنا مع ستيلا إيوفينو أو ليليان فيني، وهما فتاتان من نفس مبنى وشارع بيتها لعبن معاً بالدمى الورقية، وقفزن معاً على الحبل، وساعدن بعضهن البعض في الاعتناء بأخواتهن الأصغر سناً. كما لم تكن مثل صداقاتها الجامعية مع الفتيات المجتهدات من كراون هايتس وباي ريدج. لم تكن نَلْ فتاة طيبة. ولم تكن آنا مهتمّة بمعرفة أسرارها، وهذا جعَلها تشعر بالراحة في حضورها – متحرِّرةً من التظاهر الذي لم تكن تُدرك أنها مضطرة إلى تصنّعه مع بقية الفتيات.

عندما كانت نَلْ تتأخر، كانت آنا تنتظرها قرب المبنى 4، وتتفادى الرافعات التي تنزلق دخولاً وخروجاً عبر أبوابه الضخمة حاملةً أسطحاً معدنيةً عملاقةً معلّقةً على حبال

فكّيها المسنَّنين. كانت تحبّ أن تحدّق بعمّال التلحيم في الداخل ذوي القفازات الثقيلة والقضبان الملتهبة. وأحياناً، عندما يخلع عامل تلحيمٍ قناعه الوقائي، كانت آنا تندهش من رؤية أنه فتاة. كانت عاملات التلحيم تلك يأكلن غداءهن جالسات على الأرض ومُسندات ظهورهن على أحد الجدران، ومُلقيات أرجلهن ذات الأحذية المغطاة أصابعها بالفولاذ إلى داخل الغرفة. عند مراقبتهن، كانت آنا تشعر بابتعادها المزعج عن شيء عاجل، جوهري. وكان ذلك الشعور يضايقها حتى قبل بيرل هاربر. كان هو الدافع الذي جذبها إلى الساحة البحرية في الصيف الماضي، عندما سمعت بالتواتر أنهم سيوظّفون فتيات هناك. لكن الحرب حتى هنا بدت مجرَّدة بشكل مجنِّن، تجري على مسافة بعيدة جداً لكي يمكن الشعور بها. بقيت آنا تتوق إلى لمسها بطريقة أو بأخرى، وشَعَرَت أنها لم تكن وحيدة. في إحدى المرات، لمحت روز تحفّ مبرد أظافر بأنبوب نحاسي من دُرج قِطعها بشكل سريّ. وبينما كانتا تغيّران إلى ملابسهما العادية في غرفة الملابس، سألتها آنا ما الذي كانت تفعله. فتورّد خدّا روز. "تتكلمين مثل السيد ڤوسّ".

" لم أقصد ذلك"، قالت آنا. "أنا فضولية فقط".

اعترَفت روز أنها كانت تنقش الأحرف الأولى لإسم إبنها الطفل على الأنبوب، بعد أن أعجبتها فكرة وجود إسمه في عرض البحر، على جزء صغير جداً من سفينة للحلفاء.

مهما يكن الاتجاه الذي تذهب فيه آنا - أقصى مسافة يمكنها أن تقطعها وتبقى قادرة على العودة في خمس وأربعين دقيقة، مع تمكّنها من التوقف قليلاً لكي تلتهم غداءها - كانت تجد نفسها منجذبة كلياً إلى الأرصفة البحرية: A إلى الغرب؛ G وJ وK على خليج والأباوت إلى الشرق، البعيد عن مبناها. رَكِبت الدراجة الهوائية إليها بتردّد أولاً، حاشرةً شعرها تحت قبعةٍ، ومصمِّمةً على ألا تجعل نفسها مدعاةً للسخرية، مثلما حصل مع نَلْ. لكن تبيَّن أن شعر آنا البني كان غير ملفت للأنظار حتى عندما يتحرَّر من القبعة ويتطاير في الهواء. كانت بشرتها "إيطالية"، وسنوات حملها ليديا على ذراعيها أعطتها كتفين مشدودين مثل كتفَي الرجل. مع إخفاء عينيها تحت حافة القبعة، كان بإمكانها أن تدور في الأرصفة البحرية متخفّيةً.

غمرتها رائحة مألوفة: سمك، ملح، مازوت - نسخة صناعية مالحة قليلاً للبحر كانت معقَّدة جداً، محدَّدة جداً، لدرجة أنها كانت تشبه رائحة إنسان معيّن. ذكّرها ذلك

بوقت سابق لم تعد تتذكَّره جيداً. لا تزال بذلات والدها معلَّقة في خزانة ملابسه، وطيّات صدرها واضحة، وأكتافها منفَّضَة، وربطات عنقه مرتّبة. كانت تبدو كبذلات رجل سيعود في أي لحظة لكي يرتديها. كان قد ترك خلفه مغلفاً مليئاً بالنقود ودفتراً مصرفياً لحساب لم تكن أمها تعرف عنه. جعلتهما تلك التحضيرات تصدِّقان في البدء أنه كان فقط يجهِّزهما لرحلة أطول من المعتاد – أنه بدأ يسافر من أجل العمل. بقي غيابه غير مستغرب لعدة أشهر، كما لو أنه في الغرفة المجاورة أو في آخر الشارع. وبقيت آنا تنتظره. كانت تجلس على سُلَّم الحريق، تحدِّق بالشارع تحتها، وتظنّ أنها رأته – واثقةً أن تفكيرها بهذه الطريقة سيُجبره على الظهور. كيف يمكنه أن يبقى غائباً عندما تنتظره بهذه القوة؟

لم تبكِ أبداً. فلم يكن هناك شيء لكي تبكي من أجله بما أنها مقتنعة أنه سيعود، وعندما توقفت عن الاقتناع أخيراً، كان الأوان قد فات. لقد تحجَّر غيابه. وعندما وجدت نفسها تتساءل عن مكان تواجده، عما يفعله، أجبَرت نفسها على التوقف عن ذلك. لم يكن يستحقه. هذا أقصى ما يمكنها أن تحرمه منه.

افترَضت أن أمها خاضت نفس تجربتها، لكنها لم تكن متأكدة. اختفى والدها من أحاديثهما بصمت، تماماً مثلما اختفى من حياتهما. سيكون غريباً ذِكرُه الآن. ولم تكن هناك حاجة إلى ذلك.

خلال استراحة الغداء في أحد الأيام، بينما كانت آنا تأخذ الدراجة الهوائية من نَلْ، قالت لها، "اسمعي، يمكنك الاحتفاظ بها أحياناً وركوبها بنفسك".

"ليس مقابل كل الشاي الذي في الصين".

"بسبب سقوط واحد؟".

"وهل سقطتِ *أنتِ*؟".

"بدوتِ كما لو أن ذلك لم يزعجك أبداً".

"هذا كان القصد".

سارت آنا بالدراجة إلى جانب نَلْ نحو الرصيف البحري C، رغم أنها لم تكن متأكدة ما إذا كانت تتبع نَلْ أو بالعكس.

"إذاً"، قالت نَلْ مع نظرة خبيثة، "النزِق يسمح لك بالخروج، حتى من دون أحمر

شفاه".

"طالما أنني لا أتأخر في العودة".

"فكِّري بما قد تحصلين عليه إذا وضعتِ بعضاً منه".

تلاشت أصوات رجالٍ بينما مرّتا بهم متمهلتين. كان السير مع نَلْ مختلفاً جداً – كيف سيكون الحال لو *كانت* هي نَلْ؟ لم تكن هناك سفينة راسية في الرصيف البحري C اليوم، وعندما وَصَلتا إلى نهايته، سحَبت نَلْ علبة سجائر فضية من جيب بذلتها. راحت تلمع في الشمس؛ افترَضت آنا أنها هدية من عاشقٍ. "هل التدخين مسموح هنا؟"، سألت.

"الرجال يدخّنون على الأرصفة البحرية. لا أرى أي لافتة 'خطر'. أقصد – ممم، حسناً، أنت تحجبين الريح – بالله عليك، نحن مُحاطتان بالماء!".

بخبرة فظة تتعارض بقوة مع طابعها العام بالأناقة، أشعلت نَلْ عود ثقاب على أسفل حذائها واستخدَمته لتُشعل سيجارة بيضاء رفيعة محشورة بين شفتيها. بدا الدخان الذي زَفَرته دسماً شهياً. "إذا كانوا سيجعلوننا نرتدي هذه الملابس البشعة جداً، عليهم أن يسمحوا لنا أن ندخّن"، قالت. "أتريدين واحدةً؟".

فقط الفتيان كانوا يدخّنون في حيّ آنا – فالفتيات يعتبرن ذلك قذراً. "شكراً"، قالت. "أجل".

وضعت نَلْ سيجارة جديدة بين شفتيها، وقرّبت منها الطرف المحترق لسيجارتها، وأخذت مجّة منها إلى أن أصبح طرفا السيجارتين برتقالياً. كان منظر وجهها النَدِيّ حول السيجارة المحترقة صادماً ومشوِّقاً لآنا. كان طرف السيجارة الجديدة التي أعطتها إياها نَلْ رطباً، وأحمر من أحمر شفتيها. "لا تشهقي في الأول"، قالت نَلْ. "ستُصابين بدُوار. رغم أنني أحبّ أن أُصاب بدُوار".

أخذت آنا مجّة من السيجارة، واستمتعت بالسخونة الجافة داخل فمها، وتركت الدخان يتبعثر في الرياح. *كان* ذلك قذراً، لكنها قذارة أحبّتها – مشابهة لتناول عاملات التلحيم غداءهن جالسات على الأرض. راحت تدخّن ونَلْ بصمت. نظرت آنا عبر خليج والأباوت إلى الرافعة الملتوية نحو السماء. منذ بضعة أيام، شاهدتها ترفع شاحنة

أسمنت عن الأرض كما لو أنها لعبة مسبوكة في قالب. وخلف الرافعة كان هناك جسر وليمسبورغ ثم الأبنية المنخفضة على ساحل مانهاتن، والتي تبدو نوافذها مثل رقائق ذهبية في السماء المليئة بالغبار.

"يجب أن تخرجي معي ليلةً ما"، قالت نَلْ.

"إلى أين تذهبين؟".

"عروض، سينما. مطاعم. ألا تذهبين أبداً لتناول العشاء في المدينة؟".

كانت آنا قد شربت شراب الشعير مع فتيان كلية بروكلين في منزل الأخوية، على الجادة الثالثة، لكنها شعَرَت أن نَلْ لم تكن تقصد هذا النوع من السهرات. "لقد عشتُ حياةً فاضلةً بعيدةً عن الصخب"، قالت.

قلَبَت نَلْ عينيها. "هذا مؤسف جداً. لن تعرفي كيف ترتدين ملابس مناسبة".

"سأدبِّر شيئاً. لن أشوِّه سمعتك، أعدُك بذلك".

لمعت عينا نَلْ الزرقاوان بالبهجة. "ما رأيك الليلة؟"، قالت وهي تقذف عقب سيجارتها في الخليج. "إنه يوم الجمعة، في النهاية - حتى لو كنا مضطرتين إلى العمل غداً".

أثناء عودتهما سيراً على الرصيف البحري C، لاحَظت آنا بارجة راسية عند نهاية حوض السُفن الجاف 1 كانت مختلفة عن بوارج جرف الوحول الاعتيادية ذات الخطّافات والبكرات والأسطح المنحدرة القذرة. كانت هذه البارجة عارية. وعند أحد طرفيها، كان رجلان يساعدان رجلاً ثالثاً على ارتداء بذلة كتّانية ثقيلة، مثل حاملَي دروع يُلبسان فارساً للمعركة. وعلى مسافة قريبة منها، كان رجلان آخران يديران أذرعاً على صندوق مستطيل مستقيم كبير.

"ماذا برأيك يفعلون؟"، سألت آنا.

"أعتقد أن ذاك الذي يرتدي البذلة الكبيرة هو الغطّاس"، قالت نَلْ. "إنهم يعملون على السُفن من تحت الماء. ربما لا يزال يتدرَّب - أظن أنهم يدرِّبونهم على تلك البارجة".

"غطّاس!"، لم تكن آنا قد سمعت عن هكذا شيء أبداً. فراحت تراقب، مفتونةً، بينما كان المساعِدون يرفعونِ خوذة معدنية كروية فوق رأس الغطّاس، ويُدخلونه فيها. كان

هناك شيء مألوف في بذلة الغطس - كما لو أنه من حلم أو خرافة. كانت نَلْ تراقب أيضاً، بعد أن أقنعَها انتباه آنا القوي أن هناك شيئاً جديراً بالاهتمام يجري.

"كيف عرفتِ أنه غطّاس؟"، سألت آنا دون أن ترفع عينيها عنه.

"روجر، من ورشتي. إنهم يبحثون عن متطوِّعين مدنيين. ويريد أن يفعل ذلك لأجور المخاطرة".

نهض الغطّاس ووقف على قدميه وسار بتثاقل نحو حافة البارجة، ثم نزل عكسياً على سُلَّم يؤدي إلى الماء. بدا الخليج غير قابل للاختراق مثل الصخور، ومع ذلك أنزَل نفسه فيه إلى أن أصبحت الخوذة البصليّة الشكل فقط ظاهرة فوق سطح الماء. ثم اختفى، تاركاً خلفه بقعة فقاقيع متلألئة.

في مرحلة ما، ذهبت نَلْ إلى المطعم وعادت حاملةً علبتَي غداء. أعطت آنا واحدةً. "من الأفضل أن تأكلي بسرعة".

أكَلت آنا المعكرونة وكرات اللحم مثبِّتةً عينيها على الماء. كانت تنتظر ظهور الغطّاس، لكنه لم يظهر. كان يتنفس تحت الماء. حاوَلت أن تتخيّله في أسفل الخليج - هل يسير أو يسبح؟ ماذا يوجد هناك؟ ملأتها الغيرة والحنين. "هل سيسمحون لنا أن نفعل هذا يوماً ما؟"، همسَت.

"هل تريدين فعل هذا؟".

"ألا تريدينه أنتِ؟".

ضحكت نَلْ ضحكة عدم تصديق. "لن يسمحوا *لنا* أبداً. لكنهم قد *يجبروننا* بكل بساطة. إذا استمر الرجال يغادرون بأعداد كبيرة".

تجمَّد ذهن آنا حول هذه الفكرة كما لو أنها عملة حظ. مئتان وسبعون من عمّال الساحة البحرية مُنِحوا إجازات لحضور قرعة الخدمة العسكرية في سبتمبر، وفقاً لمجلة *عمّال السُفن*. كان عدد الرجال الذي يغادرون كل أسبوع يزداد أكثر فأكثر.

"ذلك اليوم سيكون اليوم الذي أتوقف فيه عن العمل كلياً"، قالت نَلْ. وأخرجت علبة صغيرة من بذلتها وراحت تضع مسحوقاً على أنفها وأحمر شفاه على شفتيها.

بينما كانت آنا تعيد أدوات المائدة التي استخدمتاها إلى المطعم، شعَرت بزلزال

يضربها في الصميم. كان واضحاً لها الآن أنها لطالما أرادت أن تكون غطّاسة، أن تسير على قعر البحر. لكن هذا اليقين كان مليئاً بالقلق من أنها ستُرفَض.

بعد الغداء، أرسلها السيد ڤوسّ إلى المبنى 77، وأصبحت هذه المسألة روتينية الآن لدرجة أن المتزوِّجات لم يعدنَ حتى يعلِّقن عليها. في الطابق الخامس عشر، سألت آنا سكرتيرة القبطان إن كان يمكنها أن تنظر من النوافذ، على أمل أن تلمح بارجة الغطس.

"آه، بالطبع"، قالت السكرتيرة، التي أصبحت ودودة أكثر بعد لقاءاتهما العديدة. "لقد اعتدتُ على المنظر؛ ويمرّ أسبوع كامل أحياناً أنسى فيه أن أنظر ولو لمرة واحدة".

ذهَبت آنا إلى نافذةٍ. في شمس أواخر أكتوبر الغنية، امتدّت الساحة البحرية أمامها مثل دقة رسم بياني: سُفن من كل الأحجام راسية عند الأرصفة البحرية. وفي أحواض السُفن الجافة، كانت السُفن مثبّتة مكانها بمئات الحبال، مثل غاليفر مقيَّداً على الشاطئ. وكانت الرافعة تلوِّح بقبضتها مهددةً إلى الشرق؛ وإلى الغرب تلوح أقفاص ممرات التصنيع في الأفق. حول كل ذلك، كانت السكك الحديدية تتلوّى في جدلات مثل نقش البايزلي. لكن بارجة الغطس كانت قد اختفت.

"عندما أنظر إلى كل هذا"، قالت السكرتيرة، التي اقتربت لتقف بجانب آنا، "أفكّر في نفسي: *كيف يمكننا ألا نربح الحرب؟*".

كان السيد ڤوسّ في مكتبه عندما عادت آنا إلى ورشتها. وعندما وضعت الطرد على المكتب، قال، "ادخلي، آنسة كيريغان. تفضلي بالجلوس. أغلقي الباب".

لم يتبادلا أي كلمة على انفراد منذ حديثهما قبل شهر تقريباً. جلَست آنا على نفس الكرسي الصلب.

"أظن أنك تستمتعين بتناول الغداء في الخارج؟".

"كثيراً"، قالت. "ولا أتأخر في العودة أيضاً".

"صحيح. وقد أصبحتِ أكثر متفحّصة إنتاجيةً، سواء بين الذكور أو بين الإناث".

"شكراً سيدي".

في الصمت القصير الذي تلا ذلك، أصبحت آنا محتارة من أمرها. هل استدعاها إلى مكتبها لمجرد إجراء دردشة لطيفة معها؟ "لقد رأيتُ الميزوري"، قالت لكسر الصمت.

"داخل ممرات التصنيع".

"آه"، قال. "تخيَّلي ذلك الإقلاع. لقد فاتتك الأيوا، أليس كذلك؟".

"بثلاثة أسابيع". كانت تكره التفكير في ذلك. خاصة أن السيدة روزفلت كانت حاضرة.

"إنه لرائع مشاهدة بارجة حربية تنزلق إلى الماء. لم تكن هناك أي عين جافة".

"حتى عينيك؟". لقد طرحت السؤال بصدق؛ فقد كان من المستحيل تخيّل السيد فوسّ يبكي على سفينة. لكن نبرتها في طرح السؤال بدت كمُزاح، وضحك – في البداية.

"حتى أنا ربما أكون قد زرفتُ دمعة أو دمعتين"، قال. "صدّقي أو لا تصدّقي".

فابتسمت له. "بالتأكيد كانت دموع باردة".

"جليدية. ارتطمت بالأرض وتحطَّمت كالزجاج".

كانت آنا لا تزال تبتسم عندما عادت إلى كرسي عملها. بدأت تعمل بسرعة، وهي تشعر أنها غابت لفترة طويلة جداً. ولم تلحَظ الصمت غير الاعتيادي حولها إلا بعد عدة دقائق. كم من الوقت بقيت هناك؟ ألقت نظرة سريعة على الفتيات الأخريات، لكنها لم تجد أي متزوجة تنظر إلى عينيها مباشرة. ولا حتى روز. ومع ذلك شعَرت آنا بإدراكهن الحاد لها.

عندها فقط عرَفت: لقد بدأت المتزوِّجات يتكلمن.

الفصل 6

التقت آنا نَلْ في الروكسي لحضور *المفتاح الزجاجي* بطولة آلان لادّ في عرض الساعة الثامنة. لكن نظرة واحدة إلى تقويرة فستان نَلْ القشديّ اللون داخل معطفها المفكوكة أزراره جعلتها تعرِف أنهما لن تدخلا لمشاهدة العرض.

"لديَّ فكرة أخرى، إذا كنتِ تشعرين أنك منفتحة العقل"، قالت نَلْ بمرح غنائي غريب. وعندما طمأنتها آنا بحالة عقلها المنفتحة، أكملت نَلْ كلامها قائلةً، "لي صديق يحجز طاولة دورية في مُونشاين – هذا نادٍ ليلي. وقد دعانا للانضمام إليه".

"لن يكون فستاني مناسباً".

"لقد حذَّرتُه من أنك ستبدين مملة".

ضحِكت آنا. في الواقع، لم يكن فستانها – المخفي تحت معطفها – سيئاً إلى هذا الحد. فعندما أخبرت أمها أن صديقةً لها من الساحة البحرية دعتها إلى السينما لكنها افترضت أن ملابسها ستكون مُرعِبة، اندفعت أمها في نوبة تعديل مسعورة، مضيفةً وسادات كتف وشال طويل إلى فستان أزرق عادي اشترته آنا لترتديه ليديا في زيارتها القادمة إلى الطبيب. في الوقت نفسه، بدأت آنا تخيط خرزات فيروزية على الياقة، ويداها تتطايران إلى جانب أمها كما لو أنهما تؤدّيان رقصة ثنائية. لا أحد يفهم حقاً في الملابس سينخدع بتلك التحسينات، لكن خياطتهما لم تكن بقصد أن يتفحّصها الآخرون. مثلما تحبّ بيرل غراتزكي أن تقول، بعظمة وفخامة، "نحن نعمل في مملكة الانطباع".

أوقفت نَلْ سيارة أجرة وأبلغت السائق أن يأخذهما إلى شرقي الشارع الثالث والخمسين. "هذا يبعد عنا ستة أحياء سكنية فقط!"، قالت آنا محتجّةً. "هيا نوفّر مالنا ونسير".

ردَّت على اقتراحها هذا بموجة ضحك اصطناعية. "لا تقلقي"، قالت نَلْ. "ثمن هذه النزهة هو المال الوحيد الذي سنُنفِقه هذه الليلة".

حتى في حالتها الخافتة، كانت الأحياء السكنية شمالي ميدان تايمز سكوير متوهجة بأضواء أكثر من التي بدت صادرة عن أعمدة إنارتها نصف المُسَوَّدة ولافتتاها القاتمة. نادراً ما جاءت آنا إلى مانهاتن بعد حلول الظلام، وقد أدهشها عدد الجنود: ضباط في معاطف ثقيلة، وبحّارة ومجنَّدون، وآخرون في أزياء رسمية لم تتعرّف عليها - الجميع على عجلة من أمرهم، كما لو أنهم ذاهبون إلى حدث عاجل.

"شيء واحد"، قالت نَلْ وهي تستدير نحو آنا الجالسة على المقعد الخلفي. "لا تنطقي أي كلمة عما نفعله".

"عما نف-".

"صه!"، قالت نَلْ وهي تضغط إصبعاً على شفتيها. كانت أظافرها مطلية بطلاء قرمزي منذ بعد الظهر.

"تقصدين الساح-".

"صه!".

"لما لا؟".

"آه، بالله عليك"، قالت لها نَلْ موبِّخةً بصوت مرِح عالي الطبقة بصورة مُصطنعة. "دعينا لا نتغابى".

"مَن منا التي تتغابى؟".

ساد صمتٌ قصيرٌ. "تعرفين جيداً ماذا أقصد"، قالت نَلْ بصوتها العادي. ورمقت آنا نظرة جدّية، وكانت غمّازتاها مظلّلتين بالتوهّج من خارج النافذة. "أحتاج إلى التأكد أنك ستُحسنين التصرّف".

"لا تقلقي"، قالت آنا. "أعدُك أنني لن أُحرِجك".

أنزلتهما سيارة الأجرة شرق جادة ماديسون أمام باب أبيض لامع حيّاهما حارسه المرتدي قبعة عالية سوداء رسمية كما لو أن وصولهما كان الحدث الوحيد الضروري لتكتمل سعادته. دخلتا إلى لعلعة صاخبة أجفلت آنا على غرار ضجة الساحة البحرية بعد صمت

ورشة قياسها.

"أفضل مما توقَّعتُ"، قالت نَلْ وهي تقيِّم لها فستانها عندما سلَّمتا معطفيهما وقبعتيهما. "بكثير".

"هذا مريح"، قالت آنا، لكن نَلْ لاحظت نبرتها الساخرة وأمالت رأسها، مبتسمةً في عينَي آنا. "أنت مضحكة"، قالت.

"وأنت أيضاً"، قالت آنا، وأمسكت نَلْ يدها وشدّتها نحو إعصار الموسيقى والأصوات، وافترَضت آنا أن هذا التصرّف كان بمثابة تصريح عن الصداقة تقوم به نَلْ مع أي فتاة - مثل أن تصبح أختاً بالدم مع ليليان فيني عندما كانتا في العاشرة من عمرهما. ما جَعَل ذلك ممكناً هو أن نَلْ بدت فاتنة جداً في فستانها الساتان القشديّ اللون ذي القبّة القلنسوة المقوَّرة العميقة لدرجة أنه كان من غير الممكن تخيّل أن آنا ستحوّل الأنظار عنها ولو قيد أنملة.

بدت رحلة نزول الدرجات الضحِلة نحو النادي الليلي رائعة بشكل صادم - كما لو أنها دُفعَت عبر حاجز غير مرئي إلى داخل فيلم سينمائي. احتاجت إلى أن تحضِّر نفسها، أن تهدّئ روعها، لكن لم يكن هناك وقت؛ وجدت نفسها وقد غمرتها الأوركسترا، النافورة، الأرضية على نمط رُقعة داما، وألف طاولة حمراء صغيرة تهدر مثل قفير نحل. تمايَلت نَلْ بينها، متوقفةً بين الحين والآخر لتتبادل تحيات صاخبة حماسية مع روّاد المكان. وبقيت آنا تمشي خلفها قلقة.

كان هناك ثلاثة رجال ينتظرونهما على طاولة بجانب حلبة رقص بيضوية مزدحمة. بدوا متشابهين تقريباً، بالمناديل الحريرية في جيوب صدورهم ودبابيس ربطات عنقهم التي تبدو باهظة الثمن. والميزة الوحيدة التي تفرّق بينهم هي أن أحدهم كان وسيماً، وأحد الاثنين غير الوسيمَين بدا أكبر سناً من الآخرَين. من وابل صراخ المزاح الذي تلا ذلك، تمكّنت فقط أجزاء من الجمل من اختراق الزئير العام.

"... احتفال ...".

"... قام اليابانيون ...".

"... الجلوس هناك ...".

"... شراب ذو فقاقيع ...".

"... كوني لطيفة ...".

حاوَلت آنا الاستماع لهم، وكانت تُدرك جيداً أنها تبدو جامدة. لم تكن بارعة في المزاح أبداً؛ كان يشبه لعبة نط الحبل التي لم تتمكن من إجادة إيقاعها بما يكفي لكي تقفز بثقة. بدت الحرب غير موجودة هنا، رغم حضور الضباط في أزيائهم الرسمية. لماذا لم يتم استدعاء مُغازِلَي نَلْ الأصغر سناًين؟

وصل طبق الزلفيات، إلى جانب شراب ذي فقاقيع. كافح النادل، وكان فتى يعاني من ارتعاش ملحوظ (غير مناسب للخدمة العسكرية، فكّرت آنا في سرّها)، ليملأ خمسة أكواب ضحِلة. لم تتذوّق آنا الشراب ذا الفقاقيع أبداً من قبل؛ فهي اكتفت بتناول شراب الشعير في منزل الأخوية، ولم يكن هذا الصنف متوفراً في منزلها. راحت جرعة الشراب الذهبية تلمع في كوبها. وعندما أخذت رشفةً، فرقَعت في حلقها - حلوة لكن مع مسحة مرارة، مثل دبوس بالكاد مرئي داخل وسادة.

"هذا شهي!"، صاحت، وردّت عليها نَلْ بتلهّف، "أليس رائعاً؟ يمكنني شربه طوال اليوم"، وكانت آنا على وشك أن تمزح أن عليهما أخذ بعضه إلى العمل في إبريق عازل للحرارة، فقط إذا استطاعتا تجاوز الجنود. لكنها استدركت نفسها في الوقت المناسب.

فرُغ كوبها بسرعة، لكن النادل كان هناك ليعيد ملأه لها فوراً. ومن لحظة إلى أخرى، كما لو أنها برمت قرص فرن وشعرت بالتدفّق الساخن للهب، تلطّف المشهد حولها إلى مسحة سطوع - موسيقى، تلألؤ، *ضحك - انطباع*، على حد قول بيرل غراتزكي، لمحته من طرف عينها، أكثر من مكان فعلي. وهذا التغيّر أزال أي حاجز كان يُبقيها خارجه. لقد دُفعَت إلى وسطه، حارة الخدّين، مع قلب يخفق بسرعة.

بدأ الأسلوب المعهود بالتعارف. فقد أعاد المُغازِل غير الوسيم الأصغر سناً تقديم نفسه - لُوي - ودعا آنا إلى أن ترقص معه، مُشيحاً بيده رفضها مبتسماً. "توقفي عن الكذب، كل الفتيات يرقصن. هيا قفي"، قال وأخذ يدها وجرّها إلى حلبة الرقص. لاحَظت آنا أنه يعرج بشكل بسيط. قلقت للحظة عابرة أن رقصات العشرينات التي تعلّمتها من أمها - البيبودي، التومي تكساس، البرايك أواي - لن تكون قابلة للتحوّل إلى أسلوب بِيني غُودمان في الرقص الذي تعزفه هذه الأوركسترا. لكن لُوي سهّل عليها

الأمر، فراح ينقّلها برشاقة أشعرَتها بمقدار كبير من الاهتمام - ربما لكي يُخفي مشيته العرجاء، والذي تمكّن من فعله ببراعة تامة.

"هل تستمتعين بوقتك؟"، سأل. "هل أنت متأكدة؟". من الواضح أن لُوي أعطى نفسه دور المضيف، المسؤول عن استمتاعهما بحفلته. "وماذا بشأن نَلْ، هل تستمتع بوقتها؟ لا يمكن أن يكون المرء يقيناً مع هذه الإنسانة".

"إنها تستمتع بوقتها"، طمأنته آنا. كلنا نستمتع بوقتنا".

بعد عودتهما إلى الطاولة، وجدا أن الأكواب مُلئت من جديد. عادت نَلْ من الرقص مع المُغازِل الوسيم، وافترَضت آنا أنه لا بدّ أنه حبيبها. لكن مع شقّها طريقها مع نَلْ عبر الحَشد نحو حمّام السيدات، همَست نَلْ، "لا يزال الشاب الذي أواعده غائباً. يا له من حقير".

"آه"، قالت آنا، مرتبكة. "هل هو -".

"يشبه كلارك غايبل، هذا ما يقوله الجميع. هيا نتحقّق من المدخل".

عندما لم تجدا نتيجة من تحقّقهما، أصبحت نَلْ غاضبة. "ذلك اللعين!".

"هل هو شخص غير موثوق؟".

"إنه - مرتبط. لا يستطيع الإفلات دائماً".

"مرتبط بمعنى...".

أومأت نَلْ برأسها. "لكن زوجته امرأة شَكِسة".

"هل لديه أولاد؟".

"أربعة. لكنه بالكاد يشعر أنه حيّ في بيته - فيعدّ الدقائق إلى أن يمكنه رؤيتي مرة أخرى".

"تبدين مثل فتاة في مسلسل حب"، قالت آنا.

"لا يجب أن تشاهدي تلك الأشياء"، قالت نَلْ. "ستُتلفين دماغك".

"تشاهدها أمي باستمرار".

"لماذا لم يحضر؟ كل الهدف من أولئك الساذجين على طاولتنا هو توفير بقعة لي

لأنتظره فيها".

"لُوي ليس ساذجاً"، قالت آنا. "إنه رجل لطيف".

"كلهم متشابهون"، قالت نَلْ.

عادت آنا إلى الطاولة مصمِّمة على الرقص مع المُغازِل الوسيم، بعد أن أصبحت تعرِف أنه غير مرتبط بنَلْ. لكن بدلاً من ذلك، وجَدت نفسها وقد عادت إلى حلبة الرقص مع لُوي، الذي أبقاها مرفَّهة عبر إشارته إلى عميد، وسيناتور، وباحث زنجي مشهور. هذا ليرد كريغار، الذي شاهدته في فيلم *هذا المسدس للتأجير* في الربيع الفائت، وهذه جوان فونتاين، التي فازت بأوسكار عن دورها في فيلم *الشك* الذي أحبَّته آنا. فالروايات المُبهمة عن المدينة كانت دائماً النوع المفضَّل لديها – ذلك النوع من الأفلام الذي يجعل معدتك تنقبض عندما تسمع خُطى خلفك بعد الخروج من صالة السينما.

"أنت تعرف الجميع يا لُوي!"، قالت.

"أظن ذلك"، قال. "المؤسف أنهم لا يعرفونني".

راحت آنا تتفحّصه: رجل هزيل، أسنانه كبيرة جداً على وجهه الضيق. المشية العرجاء. "ما نوع العمل الذي تقوم به؟".

"تخمين المخاطر"، تمتم، متجاوزاً الموضوع بسرعة قبل أن تتمكن آنا من الاستفسار عن معناه. "وأنتِ؟".

بعد أن تجنَّبت بصعوبة ذكر الساحة البحرية عدة مرات، كانت آنا جاهزة. "سكرتيرة"، قالت بغموض.

"أظن أن هدف هذا النوع من الأماكن هو جعلنا ننسى وظائف مثل وظائفنا"، قال لُوي. "يتمتّع مُونشاين بالطابع الشقي الصحيح".

"أين؟"، صاحت آنا. "لا أرى الطابع الشقي".

"آه، لا يمكنك رؤيته – هذا هو بيت القصيد. لديهم صالة ألعاب في الطابق العلوي، للمُراهنين بمبالغ كبيرة فقط. جميع ألعاب الحظ – هكذا تقول لي مصادري. وتجدين كافة أصناف الرجال هناك، بما في ذلك رجال العصابات. أنتنّ الفتيات تُحببن رجال العصابات، بالطبع".

"لم ألتقي بواحد أبداً من قبل!"، قالت آنا. "هل يمكنك أن تشير إلى واحد؟".

"حسناً، المالك رجل عصابات، هكذا يقولون. أو كان رجل عصابات، خلال فترة منع الشراب. يجلس هناك عادة". وحَوَل لُوي عينيه نحو زاوية خلفية في الغرفة. "يدعى دكستر ستايلز. يملك عدداً من النوادي، لذا لا يتواجد هنا دائماً".

"دكستر ستايلز"، قالت آنا. إنها تعرِف الإسم. "كيف يبدو شكله؟".

"مثل ملاكم. رجل ضخم قوي، ذو شعر داكن. قد يكون هنا الآن، لستُ متأكداً".

ماركو، المُغازِل الوسيم، دعا آنا إلى الرقص أخيراً. كان يبدو مثل ممثل سينمائي بشعره الداكن المجعَّد وعينيه المكتئبتين وفمه المتجهِّم. كان إيطالياً – ربما لهذا السبب لم يُطلب إلى التجنيد الإجباري. وصف موسوليني بالإنسان الحقير، كما لو أنه يختار خياراً في استمارةٍ، ثم صمتَ. بقيت نظراته تجول على حلبة الرقص، وسرعان ما أدركت آنا أنه يحاول إبقاء نَلْ تحت أنظاره بينما كانت ترقص مع المُغازِل غير الوسيم الذي لم يكن لُوي. رقَصت آنا بشكل سيئ مع ماركو، وكذلك فعل هو. المرة الثالثة التي داس فيها على قدمها، استأذنت وخيبة الأمل تغمرها. بدلاً من أن تعود لتنضم إلى لُوي، شقّت طريقها نحو الزاوية حيث قال إن مالك النادي يحبّ أن يجلس. كان هناك أربعة رجال يتكّئون إلى طاولة. تأثير الشراب ذي الفقاقيع أعطى آنا إحساساً بأنها نصف خفية، وسارت إلى الطاولة مباشرة وأخفَضت نظرها إلى الرجال الذين لاحظوا وجودها. وعرَفت فوراً مَن منهم السيد ستايلز – وأدركت، في تلك اللحظة، أنها التقت به من قبل.

"حمّام السيدات في نهاية الرواق"، قال أحد الرجال.

"لا، أنا – عذراً"، قالت آنا وغيّرت اتجاهها. كان دكستر ستايلز الرجل من الشاطئ. أشعَرها هذا الاكتشاف بفورة حرّ وبرد، وأربكها كما لو أن الغرفة انقلبت رأساً على عقب. وعادت ذاكرة مفقودة إلى السطح: ركوب السيارة مع والدها. اللعب مع فتاة أخرى. هذا الرجل، دكستر ستايلز، على شاطئ جليدي. بدت الصُدفة غريبة. من دون أن تتمهّل قليلاً للتفكير، سارعت إلى العودة إلى الطاولة لإخباره بذلك.

رفع الرجال نظرهم نحوها مرة ثانية، وكانت هناك جفاوة في نظرتهم الجماعية تحاول إفهامها أنها تخطّت حدودها. هجرتها ضبابية الشراب ذي الفقاقيع، وشعَرت أنها

مكشوفة، غير محمية من عدائية أصغر مُجالسي السيد ستايلز، الذي كان لديه خدّان كبيران وشعر كثيف غير مستقيم. "بدأتِ تتحوَّلين إلى عادة سيئة يا طفلة"، قال. "انصرفي حالاً".

نهض دكستر ستايلز فوراً، ووقف بين آنا والطاولة. "كيف يمكنني أن أخدمك يا آنسة؟"، سألها بتهذيب رسميّ، وعيناه بالكاد تنظران إلى وجهها. لا يتذكّرها، بالطبع. فالرحلة إلى شاطئ مانهاتن انضمحلت في غياهب النسيان مثل بقايا تفاحة رُميت من نافذة قطار. وبدت فكرة استحضارها سخيفة جداً. ساد صمت بينهما وتضاعفت حدّته.

"أنا أعمل في الساحة البحرية، في بروكلين"، قالت آنا من دون تفكير أخيراً، وشعرت بخطأ خيارها هذا حتى قبل أن تُنهي الجملة.

"حقاً!". لقد تمكّنت من أسر انتباهه. "لقد قرأتُ في الصحيفة أن الفتيات بدأن العمل هناك. ماذا تفعلين؟".

"أقيس القِطع بواسطة ميكرومتر"، قالت. "لكن هناك فتيات يُنجزن أعمال تلحيم، وتثبيت البراشيم ...".

"يلحِّمنَ؟".

"تماماً كالرجال. لا يمكنك تمييزهن إلى أن ينزعن أقنعتهن".

"هل هذا طبيعي؟ أن يعمل الرجال والنساء معاً هكذا؟".

كان يحدِّق فيها مباشرة. "لا أعرف"، قالت مضطربةً. "أنا أعمل مع فتيات أغلب الأوقات".

"حسناً، سرَّني التكلّم معك آنسة...".

"فيني"، قالت بشكل عفويّ وهي تمدّ يدها. "آنا فيني".

"دكستر ستايلز".

تصافحا، ولمَس ذراع نادل يحوم حول طاولتهم وقال له، "جينو، هلاّ ترافق الآنسة فيني إلى طاولتها وترسل لهم زجاجة شراب ذي فقاقيع على حساب المحل. حظاً سعيداً، آنسة فيني".

لقد صَرَفها دكستر ستايلز بأدب، وعاد لينضم إلى رفاقه. تحوَّلت آنا بين الحشود، وأذناها تطنّان بغرابة ما حصل للتو. لم يكن مستهجناً كثيراً استخدامها إسم ليليان فيني - فقد بدا الإسم الزائف جزءاً من هذا المكان - لكن بفعلها هذا، جعلت الرابط بينهما غامضاً. لماذا، بما أن السيد ستايلز قد يتعرَّف على إسمها ويتذكَّر؟

بعد عودتها إلى الطاولة، بقيت آنا مستغرقة في أفكارها رغم جهود لُوي المضنية لإخراجها من تلك الحالة. لم تكن قادرة على رؤية دكستر ستايلز من المكان الذي تجلس فيه - ولن تراه مرة أخرى على الأرجح. فقط عندما تخيَّلت المحادثة التي كان من المحتمل أن تلي استخدامها لإسمها الحقيقي حتى فهمت مكرها الغريزي. *وكيف حال والدك؟ أين هو هذه الأيام؟ ماذا يفعل؟* بالتأكيد أن هذه الأسئلة كانت ستُطرَح، ومجرد محاولة الإجابة عليها أشعرتها بالخزي.

وصل نادلهم حاملاً زجاجة جديدة من الشراب ذي الفقاقيع. وعاد نَلْ وماركو من حلبة الرقص، وكان ماركو يبدو راضياً جداً.

"ما الأمر؟"، سألت نَلْ وهي ترمي نفسها على كرسي بجانب آنا. "هل أنتِ ثملة جداً؟".

"ربما". لكنها شعَرت بالعكس: أنها لم تتناول ما يكفي من شراب لكي تروي الحزن الممل المفاجئ - الفراغ، حقاً - الذي غمرها.

"أنا جاهزة لإنهاء السهرة"، قالت نَلْ.

بالنسبة للُوي، هذا التصريح أطلق جرس الإنذار لديه. "لا يا فتيات"، صاح. "تناولن المزيد من الشراب ذي الفقاقيع - لقد أرسلوا لنا زجاجة جديدة على حساب المحل! لقد انتظرتُ طوال حياتي أن أتلقى زجاجة على حساب المحل!".

"لُوي العزيز"، قالت نَلْ.

"هدفي إسعاد الآخرين. والوجوه الحزينة تعني أنني فشلتُ".

شَعَرت آنا بيأس مختبئ تحت ابتهاجه، وآلمها ذلك. "لقد كنت مدهشاً يا لُوي"، قالت وهي تضع ذراعاً حول كتفيه الضيقين. وقبَّلت خدّه البارد والشاحب والناعم.

"آه، يا للروعة"، صاح لُوي.

وعانَقته نَلْ من الجهة الأخرى. وضحِك ماركو والمُغازِل غير الوسيم الأكبر سناً. كان من المستحيل عدم تمنّي التوفيق للُوي.

"سأغيب عن الوعي"، قال لُوي. "أمسكاني عندما يحصل ذلك، ممكن يا فتيات؟".

لا أحد من روّاد مُونشاين خرج إلى شرقي الشارع الثالث والخمسين؛ كان الأمر أشبه بالانتقال من عالم إلى آخر. ألقت آنا نظرة سريعة على ساعتها وتلقّت صدمةً؛ كان الوقت قد تجاوز الأولى بعد منتصف الليل. "يجب أن أعود إلى المنزل"، قالت.

لم تُجبها نَلْ؛ كانت تتهدَّل بدقة إلى المقدار الذي كانت منتعشة به اصطناعياً في بداية السهرة. "هل سترينه غداً؟"، سألت آنا.

هزَّت نَلْ رأسها. "لا يمكنه الفرار خلال عطل نهاية الأسبوع. لهذا السبب أنا أستشيط غيظاً من عدم قدومه، هذا الجرذ".

"هل اشترى لك هذا الفستان؟".

"من بالم بيتش"، قالت نَلْ. "كان في رحلة عمل إلى ميامي، وذهَبتُ معه. لقد صدمتُك الآن، أليس كذلك؟"، أضافت مع كآبة مستهترة.

"قليلاً"، أقرّت آنا. "يبدو هذا ... خطيراً".

"له فقط - ليس لديَّ شيء لأخسره. ويقول إنني أستحق كل خطر". ابتسمت بفتور. "لا تقولي لي إنك ظننتِ أنني بريئة".

"لم أفكّر بذلك".

"لا وجود لهكذا شيء، على أي حال".

لم تقل آنا شيئاً.

"البريئات أفضل الكذّابات، هذا رأيي"، قالت نَلْ بتجهّم. ثم سألتها بعد لحظة، "هل أنت بريئة يا آنا؟".

كانت آنا مُدركة لحفيف أوراق الخريف على الرصيف، لرائحة الغاردينيا في عطر نَلْ. لم يطرح عليها أحدٌ هذا السؤال من قبل. بل كان الجميع يفترضون براءتها ببساطة.

"لا"، قالت. "لستُ بريئة". والتقت عيناها بعيني نَلْ، وفهِمتا بعضهما البعض.

شبكت نَلْ ذراعها بذراع آنا، وقد أحسّت بالانتعاش من جديد. سارتا متجاوزتين منازل البلدة مثل صناديق جواهر مصنوعة يدوياً. "أنتِ تخفين الأمر بشكل جيد جداً"، قالت بلطف.

"أفترض أن هذا جيد".

"يمكنك أن تكوني جاسوسة أو محققة. لا أحد سيعرف مَن أنت حقاً، أو لصالح مَن تعملين".

"أريد إلى أكون غطّاسة"، قالت آنا.

الفصل 7

أثناء قيادته في الشارع السادس والثمانين في بروكلين، رأى دكستر ستايلز بادجر يفحص ساعة معصمه ثم يمدّ يده الكثيرة الشعر نحو قرص الراديو، مُفترضاً أنه يريد الاستماع إلى نشرة أخبار الخامسة والنصف مساءً. ضرب دكستر يده مُبعداً إياها.

"لماذا فعلتَ هذا؟"، قال بادجر مشتكياً.

"لا تلمس سيارة رجلٍ من دون إذنه. ألم يعلّموك ذلك في شيكاغو؟".

"آسف، زعيم"، قال بادجر بخنوع، لكن عينيه العنيدتين المرِحتين قالتا شيئاً مختلفاً. وكما هو متوقع، تابع يقول، "المسألة فقط... أنني ألمس السيارة بمجرد الجلوس فيها، إذا فهمتَ قصدي. إنني ألمس المقعد عندما أتكئ عليه".

"إذا كنت تريدني أن أصفعك، لماذا لا تطلب ذلك فحسب".

"لقد بقيتَ غاضباً مني طوال السهرة".

ألقى دكستر نظرة سريعة عليه. إحدى صفات بادجر المجنِّنة دقته المقبولة في قراءة مزاجية دكستر. كان غاضباً *حقاً* – لكن لا يمكنه تذكّر السبب. ربما كانت حقيقة أن بادجر يُثقِل سيارته في ما ستكون قريباً ساعة دكستر المفضَّلة: الفترة المؤقتة بين الليل والفجر عندما يشعر المرء باحتمال بزوغ الضوء قبل بدء ظهوره.

"الفتاة"، قال متذكِّراً. "كنت فظّاً مع الفتاة التي اقتربت من طاولتي. آنسة فيني".

فغَر بادجر فمه غير مصدِّق.

"هذا مختلف في هَلز بَلز"، قال دكستر، مشيراً إلى النزل في فلاتلاندز، الذي زاراه أولاً بعد مغادرة مُونشاين. "حتى في البراينز، رغم أنك لن تسمع السيد هيلي يتكلم بهذه الطريقة مع أي زبون. لكن ليس في مُونشاين".

"للطبقة الراقية؟".

"شيء من هذا القبيل".

تنهَّد بادجر. "كان الوضع مختلفاً في شيكاغو".

"هكذا قيل لي".

لسبع ليالٍ متواصلة، بقي بادجر يثرثر عن متاجر بيع الشراب غير القانونية والسيدات اللواتي لا مثيل لهن والبحيرة الجذّابة في شيكاغو؛ وقبل كل شيء، عن الاتفاقية الناعمة بين النقابة والقانون. كان بادجر يحبّ شيكاغو، لكن شيكاغو لم تكن تحب بادجر. فقد حدث خطأ جسيم في "المدينة العاصفة"، وهناك ولد سيئ الحظ أصبح طعاماً للأسماك في أسفل بحيرة ميشيغن. لكن والدة بادجر كانت إبنة الأخ المفضَّلة لدى السيد كيو. وقد جرت محادثات، أمَّن بعدها السيد كيو الانتقال الآمن لحفيد أخيه إلى بروكلين، حيث سلَّمه إلى دكستر ليعلِّمه ويرشده. كان الشيء الطبيعي أن يكون بادجر سائقاً لديه، لكن دكستر سرعان ما جَعَل الولد محاميه. فهو لم يسمح أبداً لرجل آخر بأن يقود سيارته الكاديلاك الجديدة ذات السلسلة 62 الرمادية اللون، وهي إحدى آخر السيارات التي خرجت من المصنع قبل أن تنتقل ديترويت إلى التصنيع الحربي حصراً. كان دكستر يحبّ أن يقود، ويشكّ من وجود عشرة رجال في نيويورك قادوا بقدر ما قاد هو، أو تعاملوا أكثر منه مع بنزين السوق السوداء.

"أنت تسير في الاتجاه الخطأ يا زعيم".

"كل شيء يعتمد على المكان الذي أحاول الذهاب إليه".

"اعتقَدتُ أنك توصلني إلى المنزل". كان بادجر يقصد بنسونهورست، حيث كان ينام في غرفة النوم الاحتياطية للأخت العزباء العجوز للسيد كيو.

من غرايفزَند، حيث زارا الباينز للتو، قاد دكستر السيارة بدون تفكير إلى باي ريدج. كان قد اكتشف موقعاً ممتازاً يُطلّ على المضيق منذ بضعة أسابيع، بعد زيارته شريكاً له يقطن في الشارع الكثير التلال فوق حصن هاميلتون. كان يهمّ بالعودة إلى سيارته عندما وجَد نفسه يحدِّق في ظلمة الخليج العلوي، حيث بدت الزوارق والواجهة المائية مسودَّة. لاحظ كثافة ديناميكية جديدة في العتمة. وفجأة كشفت عيناه السر ورآه: موكب سُفن

هائلة تنزلق من الميناء عند فواصل زمنية دورية مثل وحوش أو أشباح. وتخرج قافلةٌ إلى البحر. كان هناك شيء عميق، غير أرضي حتى، في مرورها المكتوم. انتظَر دكستر مرور كل السُفن – ثمانية وعشرون، عدّها، لكن مَن يعلم منذ كم من الوقت بدأ الاستعراض قبل وصوله إلى هناك. أخيراً، وصل زورق البوابة الصغير ليُغلق الشبكة المضادة للغواصات. بعد ذلك، أصبح معتاداً على العودة إلى هذه البقعة كل بضع ليالٍ، على أمل أن يلمح قافلة أخرى.

"أنت يافع وبصحة جيدة يا بادجر"، قال وهو يُطفئ المحرّك. "لماذا لم تتطوّع في الجيش؟".

"لأنني لستُ جندياً".

"أنت جندي بكل ما للكلمة من معنى. وأنا أيضاً".

"ليس من هذا النوع".

"عمّ والدك قائدنا".

"ليس من النوع السائر".

استدار إليه دكستر بصرامة. "إذا طلب منا السيد كيو أن نخرج في مسيرة، فسنخرج في مسيرة. وإذا طلب منا ارتداء زيّ قرد، فسنرتديه. هل ممكن أنك غير مناسب للخدمة العسكرية يا بادجر؟".

"أنا؟"، قال بادجر بصوت حاد. "لماذا، لديَّ عينين مثل قطة سيامية. ويمكنني قراءة الإشارات الوامضة من سقف فندق درايك وصولاً حتى وسط بحيرة ميشيغن".

شيكاغو مرة أخرى. راح دكستر يراقب الميناء بينما تابع بادجر يتكلّم بحماسة، مفكّراً بما سمعه للتو في هَلز بَلز والباينز: كان حجم الأعمال في تراجع. ولم يكن الرجال يملكون ما يكفي من بنزين ليقودوا سياراتهم إلى الأنزال. ستكون القصة نفسها على الأرجح في النوادي في لونغ آيلند والبالاسايدز، والتي سيزورها هذه الليلة ويوم الاثنين أيضاً.

أخبره هيلز، رجله في الباينز، شيئاً آخر: كان موزِّع سابق لورق اللعب، ويدعى هيو ماكي، يسبّب مشاكل. فقد راهَن بمبلغ كبير، واستدان كثيراً، ومدَّ يديه عميقاً جداً إلى

دُرج المال، وطُرد من العمل. وهو يهدِّد هيلز الآن بالابتزاز إذا لم يعيد توظيفه براتب أفضل، مدّعياً أنه رأى ما يكفي في ثمانية أشهر ليضعهم كلهم في السجن. حاوَل دكستر أن يتخيَّل هيو ماكي. كان يمكنه دائماً الربط بين الإسم والوجه، لكن الإسم لوحده لم يكن كافياً أحياناً.

"ماذا أرادت في النهاية؟"، سأل بادجر بكسل. "تلك الحمقاء التي بقيت تعود".

"انتبه لكلامك".

"لا يمكنها سماعي".

تعجَّب دكستر من وقاحته. وذلك جَعَله يستوعب شيئاً تملَّص منه حتى هذه اللحظة: بادجر يظنّ أنه محمي. لقد أساء فهم يد العون التي قدّمها له السيد كيو بأنها نوع من الحصانة - يبدو أنه لا يُدرك أن أخ السيد كيو نفسه تلاشى في مسيرة صعوده، إلى جانب نسيبَين على الأقل. سوء الفهم هذا يفسِّر إذعان بادجر المُبالغ فيه لدكستر، والذي ينطوي على سخرية داخلية.

"اخرج"، قال دكستر.

بدا بادجر مرتبِكاً.

"انصرف. الآن".

غَمغَم الولد للحظة، لكن لا شك فهِم أن دكستر جدّي في كلامه. ففتَح الباب ونزل إلى الظلمة. قاد دكستر سيارته بسرعة وهدوء، ملقياً نظرة سريعة واحدة في مرآة الرؤية الخلفية. بالكاد تمكَّن من رؤية بادجر يحدِّق بالسيارة في البذلة الرخيصة التي اشتراها له دكستر من متجر كروفورد الأسبوع الماضي. سيحتاج إلى بعض المجهود لكي يجد طريقه إلى بنسونهورست، هذا إذا كان يعرف العنوان من الأصل. ذلك الحذاء الإيرلندي الغليظ الجديد ذو الصرير سيتمزّق سريعاً. فمع ولد كهذا، ليس لديك أي خيار سوى معاقبته بقسوة، وقدر ما يلزم من مرات. مهما يكن الشيء الذي أنقذه منه السيد كيو في شيكاغو لا يمكن أن يكون أسوأ من الجحيم الذي سيتعرَّض له هنا في نيويورك إذا فشَل في احترام تراتبية إصدار الأوامر. لم يكن هناك شيء اسمه حصانة. والظنّ أن لديك حصانة هو أشبه بالانتحار.

الجيد في المسألة هو أن دكستر سيرتاح من الولد ليومين على الأرجح بينما يلعَق بادجر جروحه. كان دكستر يفضِّل النساء، هذه هي الحقيقة – فقد كان التعامل معهن أسهل. وكان ليحبّذ أن تدير النساء أعماله كلها، لو كان قادراً على إيجاد امرأة قوية مثل مالكات المقاصف غير المرخَّصة في أيام شبابه: تكساس غوينان، بَلْ ليفينغستون، سيدات سيركضن على أسطح البيوت هرباً من عوامل التجفيف. لكن يبدو أن الفتيات العصريات غير مُعجبات كثيراً بالأسلحة، وللأمانة، من الصعب حمل مسدس داخل الفستان. حتى دكستر لم يكن يرتدي قِراباً للكتف؛ فلماذا يتكبَّد عناء خياطة بذلة لدى ف. ل. دانّ ثم يشوّه شكلها؟ أما بالنسبة لحمل مسدس في حقيبة يد، فذلك يحصل في الأفلام فقط.

حلّت الساعة الذهبية مع اقترابه من شاطئ مانهاتن: موجة أمل في السماء اختبرها دكستر جسدياً بأن شعر بتوسّع داخل صدره. كان يحبّ أن ينتظر أول خيوط الضوء من الطرف الشرقي، حيث كانت الفنادق الكبيرة قائمة. كان والده يعمل في مطبخ فندق أورينتال عندما كان دكستر صغيراً، ورغم أن الفندق هُدِّم عندما كان في الحادية عشرة من عمره، يمكنه أن يتذكّر كل تفاصيله بدقة – كما لو أن شبحه لا يزال يواجه البحر، بأذرع ممدودة، وظُلاّت وأبراج وأعلام ترفرف في الرياح. في الداخل، أميال من الأروقة المغطاة بالسجاد الأحمر تملؤها همهمات المئات – بما فيهم والده – الذين كانوا يكدَحون بعيداً عن الأنظار. لم يُسمَح لدكستر باستخدام شاطئ الفندق أبداً. كان يُعتبر حصرياً جداً.

فبراير الفائت، الذي تلا هجوم بيرل هاربر، أغلَق خفر السواحل الطرف الشرقي لشاطئ مانهاتن وبنى مركز تدريب وسط أكواخ المصطافين. راح دكستر يتكاسَل بجانب بوابته، ينظر شرقاً مع ظهور أول خيوط الضوء. جرى الأمر تدريجياً، لكنه لم يجر أبداً مثلما جرى الآن. ففي ثانية واحدة، أصبح الجو نهاراً.

كان منزله على الطرف الغربي لشاطئ مانهاتن. وهو معتاد على إبقاء الباب الأمامي غير مُقفل. في المطبخ، ترَكت له ميلدا إبريق قهوة، سخَّنه على موقد الغاز. صَبَّ كوباً لنفسه ورفع ستائر التعتيم الكلي التي تغطي النوافذ المواجهة للبحر. لا يعرف شكل النهار حقاً إلا عندما ينظر إليه عبر تلك النوافذ. مع الاقتراب التدريجي للفجر، راحت كثافة الزوارق تتكشَّف أكثر فأكثر: صهاريج، بوارج، ناقلات نفط، وبعض السُفن المحجور عليها صحياً في عرض البحر. وكاسحات ألغام خشبية البدن تنتقل ذهاباً وإياباً على

عرض قناة أمبروز. زوارق القَطر تتراقص مثل مهرِّجي السيرك إلى جانب السُفن المتوجِّهة إلى الخليج العلوي.

أخذ قهوته ومنظاره إلى الشرفة الخلفية التي تُطلّ على البحر. ظهَرت تَبْثا بعد بضع دقائق، بعينيها النعستين في ردائها الأزرق المكشكَش. كان دكستر مسروراً؛ فابنته معتادة أن تنام إلى وقت متأخر أيام السبت. كان شعرها الكستنائي – الذي بنفس لون شعر أمها تماماً – لا يزال متعرّجاً من الدبابيس التي لا شكّ أنها نزعتها منه قبل لحظات، لمنعه من مضايقتها. "تابي القطة"، قال وهو يقبِّل خدها الذي قدّمته له. "ما هذا، أنتِ تشربين قهوتي؟".

"أغلبه حليب". وكوَّرت نفسها على الكرسي الذي بجانب كرسيه معانقةً رُكبتيها. لم يكن قميصها الداخلي المهلهَل ندّاً للرياح.

"لا حفلة بملابس النوم ليلة أمس؟".

بدا مؤخراً أنها تمضي كل وقتها مع صديقة (ناتالي في أغلب الأحيان، التي لا يثق بها)، أو تأتي فتاتان أو ثلاث فتيات إلى هنا، ليصنعن دبابيس طيّة صدر من شمع مذوَّب أو "تنانير عصا المكنسة"، والتي تستلزم تغطيس التنورة في دلو صباغ وجَدْلها حول عصا لكي تجفّ. ولم يكن يمكن وصف النتيجة إلا ببشاعة بحتة.

"أي نجوم سينمائيين ليلة أمس؟"، سألت.

"لنرى. ألين ماكماهون كانت هناك، ويندي باري. جوان فونتاين، فازت بالأوسكار". كان يحاول أن يضايقها بأن يذكر الإناث فقط.

"لا أحد آخر؟".

"حسناً، لمحتُ غاري كُوبر. في وقت متأخر جداً".

صفَّقت بيديها. "ماذا كان يفعل؟".

"يجلس سعيداً بجانب زوجته ويُبقيها مشغولة بأكواب شرابها".

"أنت تقول هذا دائماً!".

"هذا حقيقي دائماً". لكنه عملياً لم يكن حقيقياً أبداً. لم يُخبر دكستر أحداً بما رآه عبر النافذة المخفية في الطابق الثاني للنادي. بل ترَك ذلك للسيد وينشل، صديقه والزبون

الدائم، الذي كان عبقرياً في فن قول شيء وعكسه في الوقت نفسه.

"أي شخص آخر؟". كانت تأمل سماع خبر عن فيكتور ماتشور. فقد ذهبت مع ناتالي لمشاهدة فيلم *أستيقظ صارخاً* العام الماضي، وتبيَّن أن رؤيتها ماتشور في ملابس السباحة حوَّلت شيئاً فيها. صوره الآن تزيِّن كتبها المدرسية تحت طبقة من السيلوفان.

"لا أثر لفيكتور، إذا كان هذا ما تقصدينه"، قال.

"لم أقصد هذا"، قالت بِوَرَع. "لديه أمور أهم ليقوم بها من الذهاب إلى النوادي الليلية. لقد انضم إلى خفر السواحل".

في الأيام الخوالي، عندما كانت معتادة على الاستيقاظ باكراً، كانت تابي تنضم إلى دكستر هنا كل صباح تقريباً حاملةً كوب حليبها. كان مُعجَباً بفطنتها، بالتفكير العميق الذي تعطيه للمواضيع الصغيرة، وتخيَّل أنها ستعمل معه في أحد الأيام - بشكل شرعي طبعاً. لكن آماله التي عقدها على تابي خفّت خلال العام الماضي، عندما بدأت تصفّف شعرها مثل فيرونيكا لايك وتكرِّس نفسها للوح الويجا. لكنها لا تزال تظهر هنا عند الصباح كل أسبوعين، كما لو أنها تنتظر مشاهدة حدث كَونيّ.

"ماذا على جدول مشاريعك لليوم يا تابز؟".

"شيء مع ناتالي".

"شيء مثل ماذا؟".

"فيلم. وربما صالون التجميل". الطريقة المدروسة التي تجنَّبت بها عينيه أخبرته أنه سيكون هناك فتيان. كانت ناتالي مهووسة بالفتيان، وتابي كبُرت لتصبح أجمل مما كان دكستر يحبِّذ. لا يعني أنه كان يتمنّى البشاعة لإبنته الوحيدة، لكن الجمال الصارخ كان دعوةً إلى التبعية. كان يفضّل أن يكون لديها جمال من النوع الخفي، الذي يظهر فقط للشخص الذي ينظر إليه عن كثب. كانت قد صنعت دبوس طيّة صدر من علبة أسبرين مطلية بطلاء أظافر أحمر، وسمّته "علبة الأماني". على ما يبدو أن هناك أمنية سرية داخله، مكتوبة على قصاصة ورق. فكرة إخفاء تابي سراً عنه كدَّره قليلاً.

"أتريدين إلقاء نظرة؟"، سألها وهو يعرض عليها المنظار. هزَّت رأسها، وأخرجت مبرد أظافر وبدأت تبرد أظافرها بأشكال بيضوية مثالية. "بالعربي، من فضلك"، قال.

"لا، شكراً أبي".

"السُفن كثيرة".

"أراها".

"كيف وأنتِ تحدِّقين في أظافرك؟".

"أراها كل يوم".

رفع المنظار، ومسح الماء الرمادي العصبي بحثاً عن برج مراقبة لغواصةٍ ما. كانت الشبكة الممدودة في المضيق تحمي الخليج العلوي، لكن على حد علم دكستر، لم يكن هناك شيء يمنع غواصةً من التسلّل حول منعطف بريزي بوينت، حيث كان حصن تيلدن، وتصل مباشرة إلى حيث يلتقي البحر بالصخور تحت منزله. كانت مراقبة البحر خوفاً من ظهور غواصة تبدو أحياناً مثل توقّع واحدة حقاً – وحتى تمنّي ظهور واحدة.

"هناك"، قال وهو يدفع المنظار إلى تابي ليكسر لعنة انغماسها الذاتي. "تأكدي من عدم نزول أي ألمان على اليابسة مثلما فعلوا على شاطئ أماغانستّ".

"لماذا سينزلون يا أبي؟ لا يوجد شيء مهم هنا".

"لمساعدتك بأظافرك؟ يبدو أنها مهمة جداً".

ردَّت طرف ردائها بعنف ومشت بتشامخ إلى داخل البيت. تأجَّج دكستر غيظاً من تفاهتها ومن تهوّره. كانت هذه نقطة ضعفه.

قَذَف قهوته الباردة إلى الصخور ودخل البيت. في غرفة تبديل ملابسه، أزال المسدس من قِراب كاحله وخبّأه في الخزانة المخصصة لذلك. علَّق سرواله وسترته في الخزانة، ورمى قميصه في إحدى الزوايا لكي تُغسَل، ووَقَف أمام المغسلة في سرواله الداخلي ماركة سولكا، وغسل نفسه بماء بارد. ثم دخل غرفة نومه العابقة برائحة المسك. كان السرير الكبير جداً الذي يتشاركه مع هارييت تعبيراً عن رفضها لترتيبات النوم على غرار الثكنات المفضَّلة لدى أسلافها المتزمّتين. سمِع تنفّسها واندسّ في السرير بجانبها. انعكس ضوء غرفة تبديل الملابس على وجنتيها وفمها الجذّاب. جميلة جداً هارييت. جميلة بشكل مذهل – لماذا افترَض أن إبنته ستكون بجمال أقل من ذلك؟ كانت وقورة حتى وهي نائمة؛ وكانت وظيفة دكستر أن يزعج وقارها. وقد بدأ يفعل ذلك منذ أن كانت في

السادسة عشرة، متوسّلاً أن ترافقه في نزهاته العامرة بالشراب، والتي كان يقطعها لكي يجامعها تحت ضوء القمر في حقول اليقطين في لونغ آيلند، وفساتينها مرفوعة فوق رأسها، مليئةً بالأعشاب. ارتفع منسوب الإثارة لديه مثل خيول السباقات التي ترتعش عند بوابة الانطلاق. هذا سيكفي للنشاط، مثلما كان يحصل دائماً. كان فوق هارييت حتى قبل أن تستيقظ.

"صباح الخير يا عزيزي"، قالت بصوت أجش كان مثيراً لأعصابها في شبابها، قبل أن تعتاد عليه. "استيقاظ فظّ".

"ليلة طويلة"، قال دكستر.

* * *

في الصباح التالي، أخذ الموقَّر الجديد دكستر جانباً ليناقش موضوع الجرس معه. كان هناك "تشقّق غير مرئي" فيه لا يهدِّد صوته فحسب بل قد يؤدي إلى تحطّمه وسقوطه وسحقه أحداً. لطالما افترَض الموقَّرون أن دكستر سيكون مصدراً سهلاً لإجراء تحسينات على دار العبادة، بما أن الرذيلة متأصلة في طريقة كسبه رزقه. كان هناك لوح رخاميّ مشظّى في السابق، ثم أردية جديدة لفتيان الجوقة، والآن هذا الجرس، الذي بدا له في حالة ممتازة. في الواقع، لن يمانع لو قلّلوا من دقّه.

"أنا متفاجئ أيها الموقَّر"، قال بعدما وقفا في مكان منعزل خارج سانت ماغي. "لم يمض على تشييد دار العبادة أكثر من خمس وعشرين سنة".

"خلال فترة الانهيار الاقتصادي، لم نُجرِ أي تحسينات أبداً"، همس الموقَّر.

"هذا ليس صحيحاً. سلفك الموقَّر بيرتولي أخذ مني ثمن الجُبَب وطاسة جديدة، ناهيك عن تلك الجداريات المعلَّقة في الداخل".

"كَرَمك سانَدنا"، قال الموقَّر بصوت رخيم، مُخفضاً عينيه.

دَرَسه دكستر في ضوء الشمس الساطع: شاب، جيوب تحت عينيه، تورُّد مناقض لحالة الطقس: جرّاء تناول الشراب على الأرجح. أمر أقل شيوعاً بين الموقَّرين الإيطاليين مما هو بين الموقَّرين الإيرلنديين لكنه بالطبع ليس أمراً لم يُسمَع به من قبل، خاصة لدى

شخص أعزب. بما أنه بنى مهنته حول قوة الشهية البشرية، لم يكن باستطاعة دكستر سوى أن يهزَّ رأسه تجاه إصرار روما الغريب على عدم إشباع الموقَّرين لرغباتهم الأساسية أبداً. كان بيرتولي يراهن على سباقات الخيل؛ وقد التقاه دكستر مرتين في بلمونت ومرة في ساراتوغا خلال "عطلته التأملية". فُنقل إلى مدينة لا تضم حلبة سباق. والآن بديله، عاشق الشراب، يريد حبراً ذا نوعية أفضل مما يمكنه تحمّل ثمنه من مرتّبه الزهيد. مَن يستطيع أن يلومه؟

لم يكترث دكستر للمجريات في الداخل. فهو لم يكترث لها أبداً في حياته، وكان يأتي إلى هذا المكان فقط لكي لا يلتقي بأنسبائه بحكم الزواج. كان يستغلّ الوقت هناك ليفكِّر ملياً بأعماله. وراح يتساءل اليوم ماذا يمكنه أن يفعل بشأن هيو ماكي، موزِّع الورق المُثقَل كاهله بالديون الذي كان يحاول ابتزاز هيلز. كان هيلز ألطف حصان في العالم إلى أن أُصيب بتقرّحات، وكان قد بدأ يُصاب بتقرّحات.

بعد الخروج إلى الهواء الطلق، وبدء التخالط الوديّ الضروري بين الناس في الخارج، كوَّم دكستر عائلته في الكاديلاك ليقطعوا المسافة الطويلة إلى منزل أنسبائه بحكم الزواج في ساتون بلايس. كانت السيارة بالكاد قد انطلقت حتى بدأ التوأمان يتبارزان بسيفين مصنوعين من غُصني شجرة. "بابا!"، زعَقت تابي. "قل لهما أن يتوقفا!".

"يا فتَيان"، قال دكستر بحدّة، فجمد التوأمان في أرضهما. لطالما تأرجح تيارٌ من اللهو بينهما، مثل تلغراف.

"في نادي الصيد البارحة"، قالت تابي، "بقيا يتبادلان كرة الجاي ألاي على المصطبة إلى أن جَعَلهما الآخرون يتوقفان".

"لا تكوني واشية"، قالت هارييت.

"كنا هادئين"، قال جون-مارتن بامتعاض.

لأسباب لم يفهمها دكستر، كان ولداه يحبّان المشاركة في المسابقات الترويجية، التي تُقام في صالات السينما عادة. فيرقصان الرقص النقري، ويتشقلبان، ويتدلّيان من القضبان رأساً على عقب، ويصفِّران من بين أسنانهما. وعندما يفوزان، يُحضران أبواقاً أو آلات هارمونيكا أو زلاّجات ذات عجلات إلى المنزل - وهي أمور يملكانها من قبل أو يستطيعان شراءها بسهولة. كان دكستر يخشى أنهما غير جادّين في الصميم.

"لا يعتبر نادي الصيد الجاي ألاي رياضةً، أليس كذلك؟". لم يكن قادراً على مقاومة إغاظة زوجته. "ليس في نفس فئة سباق الحواجز؟".

"لم يُقَم أي سباق منذ سنوات"، قالت. "أنت تعرف هذا".

عندما كانت فتاة صغيرة، كانت تذهب إلى سباقات الحواجز تلك مع أمها، التي كانت تأمل أن تجد هارييت زوجاً ذا نَسَب ملائم - والأمثل أن يكون بريطانياً أتى لحضور مباريات فريق أكسفورد-كامبريدج-روكأواي. "إنهم مجرد مجموعة مواقد قديمة يثملن وينظرن بهيام إلى لاعبي البولو"، هذا كان وصف هارييت الأولي لنادي روكأواي للصيد، وقد اتّفقت مع دكستر، في زياراتهما النادرة، بأن يطبّقا نذور زواجهما في مكان جديد واحد على الأقل. لكن في السنوات الأخيرة، أصبحت هارييت مولَعة بالمكان لسبب غير مفهوم. وهي تذهب الآن إلى هناك في أغلب الأحيان، لتحتسي الشراب مع نفس المواقد القديمة التي كانت تسخر منهن فيما مضى، وتستمع إلى حكاياتهن الخَرِفة عن التقائهن بالملكة فيكتوريا عندما كنَّ مُستَهِلاّت. وأصبحت تمارس رياضة الغولف. كل ذلك أزعج دكستر بطريقة غير قابلة للتعريف.

"لم يكن يجب أن نذهب إلى هناك أبداً"، قال جون-مارتن متذمِّراً. "لا ننسجم هناك".

"اِلعب البولو"، قال دكستر. "ستنسجم بشكل ممتاز".

"لا نملك أحصنة"، ذكَّره فيليب.

جلس والدا هارييت مقابل بعضهما البعض عند طرفَي طاولة طويلة في غرفة طعام تطلّ على النهر الشرقي الواقع جنوبي هَلّ غايت، حيث يتصل بمصب لونغ آيلند. كان لبيث بيرينجر وجه موقد قديم كلاسيكي: دلتا من التشقّقات والروافد المبتلية بالجفاف والملتصقة بفكَّي كلب دوبرمان. إنها الوحيدة التي يمكنها تحريك أو إيقاف العجوز برمشة من عينيها الزرقاوين. كان إبنهما وبناتهما الثلاثة حاضرين دائماً مع زوجته وأزواجهن وأربعة عشر حفيداً، علماً أن الفتيان الأكبر سناً كانوا غائبين في المدرسة. قُطِّع اللحم المشوي وقُدِّم على يد اثنين من الخدم الرومانيين الذين كانت بيث بيرينجر تفضِّلهم. قال آرثر عبارات الشكر، وساد صمتٌ قصيرٌ من المضغ الهادئ، تتخلّله بين الحين والآخر

أصوات حركة مرور الزوارق في النهر الشرقي، قبل أن تقطع أصوات الأولاد الصمت.

عندما تم تقديم التفاح الهشّ الغارق في الكريما واستُهلكَ، انتقلت النساء من الطاولة إلى المطبخ والمكتبة، والأولاد إلى بيت الحضانة وغرف النوم. وبقي الرجال جالسين حول آرثر في التشكيل الاعتيادي: إبنه الوحيد، آرثر جونيور (المعروف بـ كُوبر)، على يمينه، ودكستر على يساره، وكل واحد منهما مطوّقاً بصِهر آخر: جورج بورتر، جرّاح، على جهة دكستر الأخرى؛ وهنري فوستر، مدرِّس، على جهة كُوبر الأخرى. لذا بدأت ساعة من المحادثات كان دكستر يتطلّع إليها طوال الأسبوع.

لاحَظ تابي تتكاسل بجانب أبواب الجيب الخاصة بغرفة الطعام. "تعالي يا تابز"، ناداها بعد أن تلقى إيماءة موافقة من العجوز. "اجلسي معنا لدقيقة".

أزاح كرسياً زائداً إلى الزاوية بينه وبين آرثر. فجلست تابي وهي تسعل قليلاً من الدخان المتصاعد من سيجارة كُوبر وغليون العجوز وسيجار جورج بورتر. لم يكن دكستر وهنري فوستر يدخّنان – وهي الميزة الوحيدة المشتركة بينه وبين المدرِّس، الذي يرتدي كنزة صوفية مرقَّعة ويقود ليزي قصديرية صدئة.

صَبَّ آرثر كوب شراب لكل واحد منهم. كان قد تقاعد من البحرية برتبة أميرال بحري بعد الحرب العُظمى وبدأ يعمل في القطاع المصرفي، لكن حتى الوقفة العسكرية لا يمكنها رفعه فوق الارتفاع المتوسط. لديه يدان زهريتان صغيرتان، وشعر أبيض خفيف، ويرتدي بأناقة (من متجر الإخوة بروكس)، لكن ليس بالأناقة التي كان يمكنه تحقيقها (من شارع سافيل رو). يقود بليموث بلون الطين موديل العام 1939. لكن ما كان ينبعث من تلك الزخارف الرتيبة هو خلاصة قوية للحياة أكثر مما صادفه دكستر في أي رجل آخر. كان يحترم حماه من دون أي تحفّظ.

"إذاً يا شباب"، قال العجوز، متجاهلاً تابي. "ماذا سمعتم؟".

لم يقصد من الصحف. فقد كان العجوز من أصدقاء روزفلت منذ أن كان حاكماً وغالباً ما كان يذهب إلى واشنطن، حيث عمل على إصدار السندات الحربية وساعد في سنّ قانون الإعارة والاستئجار. وكان أصدقاؤه الحميمون في البحرية قادة للأساطيل. كان آرثر بيرينجر يعرِف أشياء كثيرة، لكنه يُدرك أن صِلاته الرفيعة المقام هي التي رفعته فوق أغلبية الآخرين.

بدأ هنري فوستر بأخبار من بلدة وستشستر حيث توجد مدرسته الإعدادية، أكاديمية ألتون: أصبحت امرأة محلية مُقتنِعةً أن العائلة التي تسكن في المنزل المجاور لمنزلها – جيرانها من ثماني سنوات – جواسيس ألمان متنكّرين كأميركيين. "اعتقَدت أنهم كانوا يخفون لكنتهم، حتى الأولاد"، قال. "كان يمكنها *سماع الألمان يحفرون الجدران*. اضطروا إلى إدخالها المصحّة".

"ماذا تستنتج من هذا؟"، سأل العجوز جورج بورتر، الجرّاح.

"توتّر الحرب يؤثر على العقول الضعيفة"، قال جورج. "قد تتعافى".

راقَب دكستر ردة فعل تابي، لكنها بقيت مُخفضةً عينيها، تنزع القشرة عن شرحة ليمون.

"لنفترض أن الجيران ألمان حقاً"، اقترَح كُوبر، مما أجفَلَ والده.

"سنضطر إلى إبقاء أبواب أكاديمية ألتون مفتوحة خلال احتفال الشُكر"، أكمَلَ هنري. "الأزواج ما وراء البحار، والأمهات في وظائفهن... وليس لدى بعض الفتيان أي مكان آخر ليذهبون إليه".

آملاً أن تشارك تابي في الحديث، قال دكستر، "لدينا فتيات في النادي يعملن في الساحة البحرية، في بروكلين. في أعمال التلحيم، السمكرة... يبدو أن هناك المئات منهن".

بدا العجوز مشكّكاً. "المئات؟".

"يبدو هذا خطيراً"، قال كُوبر مع إلقائه لمحة نحو والده، رغم أنه لم يكن واضحاً ما إذا قصَدَ أنه خطير على الفتيات أو على العالم. الأرجح أن كُوبر نفسه لم يعرف. كان نسخةً أضعف وأقل ذكاءً بكثير من والده، ويجسّد محدوديات سلالتهم. رأى العجوز ذلك؛ لم يكن هناك أي مجال لعدم رؤيته ذلك، بما أن كُوبر يعمل لديه في المصرف. في لحظات خيبة الأمل بين الأب والإبن، شَعَر دكستر بسهولة وقوة الرابط مع حميه. كُوبر لن يُخبر أبداً آرثر بيرينجر أي شيء لا يعرفه، بينما دكستر رأى وعرَف أشياء لا يستطيع العجوز أن يتحمَّلها، من دون تسوية شخصية. كان أقرب إلى كوكب الأرض، بأملاحها ومعادنها، من أي بيرينجر آخر منذ عدة أجيال. وكان الصِهر الوحيد الذي لا يطلب

قرشاً من خميرة العجوز.

"آه، لا أعرف يا كُوب"، قال والده بلطف. "خطير؟".

"لا تملك الفتيات أي خبرة في بناء السُفن".

كانت تابي تراقب جَدّها، لكن العجوز لم ينظر إليها أبداً. نقطة ضعف في جيله: ليست لديهم أي فكرة عن قيمة النساء.

"هل الفتيات ذكوريات؟"، سأل جورج بورتر دكستر مع ضحكة خافتة. كان غالباً ما يأتي إلى مُونشاين مع زوجته، ريجينا، أخت هارييت الكبرى الشرسة، في سيارته الدوسنبرغ المُجدَّدة الصفراء موديل 1923. بفضل نافذة دكستر السرية، عرَف أن الطبيب الأنيق يُحضِر نساء أخريات أيضاً. وكان جورج يعرِف أن دكستر يعلم ذلك، وهذا ولَّد تفاهماً وديّاً بينهما.

"فتيات عاديات"، قال دكستر. "من النوع الذي تراه في المطاعم ذات آلات البيع في وقت الغداء".

"لا أذهب إلى المطاعم ذات آلات البيع"، قال العجوز. "ارسم لنا صورة".

بدأت مهمة استنساخ الآنسة فيني إلى عدة فتيات تصبح شاقة. كان التكرار غريزياً - أمنية قديمة ليصدّ حتى أدنى شكّ بإخلاصه. فالخيانة بتكتّم كانت شيئاً مختلفاً لدى جورج بورتر، إبن وزير من عائلة عريقة. أما دكستر فلا يملك هكذا وقت ليضيّعه. كان ولاؤه لهارييت شرطاً لرضى العجوز عليه، وقد قدَّمه دكستر بكل سرور. بهذه الطريقة، كما في عدة طرق أخرى، قدَّم له حموه معروفاً. فقد كانت معاشرة النساء سيئة مثل إدمان المخدرات، بسبب كل الأذى الذي رآها دكستر تُلحقه في حياة الرجال.

"أوائل العشرينات... شعر داكن، أسماء إيرلندية"، قال. "فتيات لطيفات بصحة جيدة. ليس من الصنف الرائع".

"رائع كفاية ليكون في مُونشاين"، قال هنري فوستر، الذي يعارض النوادي الليلية.

"بدَونَ خارج بيئتهن المألوفة"، قال دكستر مفكِّراً. "أظن أن شخصاً أحضَرهن".

"يبدَون متماثلتين"، قال حموه ضاحكاً. "هل أنت متأكد أنهما ليستا توأمين؟".

تورَّد خدّا دكستر. "أظن أنني لم أنظر جيداً".

"اسمع، لماذا لا أهاتف آمر الساحة البحرية"، قال العجوز. "كنا معاً في الفيليبين. ونتفق على جولة عندما يعود غرايدي من أنابوليس".

"نعم!"، صاحت تابي مفاجئةً الجميع. "رجاءً يا جَدّي! أودّ حقاً رؤية الساحة البحرية".

كاد يُغمى على دكستر من الدهشة والفخر.

"متى سيعود غرايدي لاحتفال الشُكر؟"، سأل العجوز كُوبر.

كان الكل ميّالين نحو الإسم: كُوبر لأن غرايدي كان الجوهرة البرّاقة لتواجده التفِه، بقيتهم – لماذا؟ كان هناك تألُّق في غرايدي، البِكر بين أحفاد بيرينجر، كما لو أن كل دهاء العجوز وخبثه، وأسلوبه الرقيق مع الرجال الآخرين، تخطى كُوبر وظهَر، بحيوية، لدى إبنه البِكر. بدا مستقبل غرايدي واعداً بأشياء رائعة، ولم يكن دكستر بمنأى عن أن يحسد كُوبر على هكذا إبن.

"الثلثاء قبل احتفال الشُكر"، قال كُوبر وهو ينفخ قليلاً، مثلما يفعل دائماً عند مناقشة موضوع غرايدي. "لكنه مشغول جداً بتخرّجه المُبكر – عليَّ أن أسأل مارشا".

"الأربعاء قبل احتفال الشُكر إذاً"، قال العجوز متجاهلاً إلتباس إبنه. "سأهاتف الأميرال غداً صباحاً. هل ستأتين أيضاً يا تَبِثا؟". بدا إسمها رسمياً بشكل غريب على شفتيه.

"نعم يا جَدّي"، قالت بنبرة خاضعة في عواقب فورتها. "يسرّني أن أرافقكم".

"أخشى أنني مضطر إلى البقاء في ألتون"، قال هنري. "لكنني متأكد أن بيتسي ستودّ الذهاب، إذا أحضرها أحدهم من المحطة".

"بالطبع"، قال دكستر، مما أراح هنري. كانت بيتسي، أخت هارييت الصغرى، زوجة مثالية للمدرِّس حتى قبل ثمانية أشهر، عندما أصبحت "متوتّرة"، على حد تعبير هنري، بعد ولادة إبنهما الرابع. بدأت تتعلَّم الروسية مع مدرِّس خصوصي وتُنشِد أبياتاً لبوشكين. وراحت تتحدَّث عن رغبتها بالسفر حول العالم والعيش في خيمة من لبّاد. لم يكن لدى هنري المسكين أي فكرة عما عليه أن يفعل.

كانت إبنتا جورج الرتيبتان، إيدث وأوليف، تحومان عند المدخَل، وشِلَل من خيوط

الصوف بلون الطين تتدلّى من إبر حياكتهما. شيءٌ للجنود. "لا نزال ننتظرك"، قالت أوليف لتابي موبِّخةً، فنهضت وذهَبت معهما، وبقي دكستر مسروراً من دهشته من سلوكها الجيد.

"وأنت يا آرثر؟"، سأل حماه عندما ذهبت الفتيات. "ماذا سمعت؟".

"حسناً. خلافاً لكم أيها السادة الأفاضل، أنا في الواقع لا *أفعل* شيئاً سوى الاستماع إلى الأبواب"، قال العجوز. "لكن استماعي يُخبرني أن هناك شيئاً وشيكاً. ونحن في الصدارة".

احتاجوا كلهم إلى لحظة ليستوعبوا ذلك. حتى كُوبر فهِم أن العجوز يقصد عدواناً. "في أوروبا أو آسيا يا أبي؟"، سأل.

"أي قائد يحترم نفسه لا يدع هكذا خبر يتسرَّب"، قال العجوز بصوت أجش. "بالطبع، هناك احتمالات أكثر من هذين الاحتمالين فقط".

خمَّن دكستر أنه يقصد شمال أفريقيا، حيث كان البريطانيون يحشُدون أخيراً ضد رومل. "نحتاج إلى الخبرة القتالية"، قال وهو يحلّلها في ذهنه.

حكَّ العجوز عينيه. "بالضبط".

إذا كان هذا صحيحاً، فمن المذهل معرفة هكذا شيء مسبقاً. كل ما أخبرهم به آرثر بيرينجر حتى الآن كان صحيحاً دائماً. ولطالما احتار دكستر عن سبب مشاركة العجوز حقائق حسّاسة مع أمثال كُوبر، الذين يفتقرون للذكاء أو الحكمة، أو حتى مع دكستر، الذي كانت أعماله تجري على جانبَي القانون. وخطر على باله مرةً أن حماه ربما يعطيهم حقائق خاطئة – إما لاختبارهم أو لاستخدامهم كوسيلة لنشر الإشاعات التي أراد نشرها. لكن دكستر لم يكرِّر أي كلمة أبداً؛ إلى هذا الحد كان تأثير العجوز. وهذا كان الجواب. كان آرثر بيرينجر يأتمن إبنه وأصهاره على أسراره بحرية لنفس السبب الذي يجعل دكستر يترك باب بيته الرئيسي غير مُقفل: كانت لديه القوة *لجعلهم* جديرين بالثقة. لكن بينما قوة دكستر مستمدّة من القوة الجسدية، كانت قوة العجوز تضمحل إلى غياهب النسيان. كان آل بيرينجر يرتدون القبعات العالية السوداء الرسمية إلى الأوبرا عندما كان آل دكستر لا يزالان يتعاشران خلف رزم القش في الحقل القديم. كان يحبّ فكرة أن الشيء نفسه سيحدث لقوته يوماً ما، من دون كل ذكريات الدم والأرض التي ولَّدتها.

"سينتصر الحلفاء في هذه الحرب"، قال العجوز.

"أليس هذا... سابقاً لأوانه؟"، سأل جورج.

"حسناً، لن أقوله لأي شخص"، قال العجوز. "لكنها الحقيقة".

"أشكّ أن البحرية ترى المسألة بهذه الطريقة يا أبي"، قال كُوبر.

"ليست وظيفة البحرية التفكير بهذه الطريقة يا بُنيَّ. أو الجيش. أو خفر السواحل. وظيفتهم الانتصار. ووظيفة *المصرفيين* التوقُّع - أقصد وظيفتهم الثانية، بعد أن دفعنا تكاليف الحرب نفسها".

بالنسبة لآرثر بيرينجر، كل الإنجازات البشرية - سواء الغزوات الرومانية أو الاستقلال الأميركي - كانت مجرد أحداث ثانوية لمكائد المصرفيين (الضرائب أولاً؛ وشراء لويزيانا ثانياً). مثل أي هَوَس، نال هذا الخبر حصّته من التنهيدات المُنهَكة من أفراد العائلة. ليس لدكستر. فبالنسبة له، وجود حقيقة غامضة محجوبة خلف حقيقة واضحة، وتنبثق من خلالها مجازياً، يُعدّ أمراً باهراً. كان ذلك ما فَتَنَه في البدء، في عمر الخامسة عشرة، في الرجلين اللذين كانا يأتيان كل ثالث اثنين لرؤية والده في مطعمه في كوني آيلند. وكان هناك رجل آخر يأتي أقل من الباقين، يرتدي دائماً طِماق كاحل جديداً، ويضع منديلاً أحمر في جيب صدره. كان والد دكستر يذهب دائماً إلى خلف المشرب ليصبّ شراباً لذلك الرجل بدلاً من طلب ذلك من الساقي.

الوجه الخالي من أي تعبير الذي كان والده يعتمده بعد تلك الزيارات يفضح شعوره بالإذلال والغضب، وكان دكستر يعلم أن عليه عدم الاستفسار عن ذلك. لكنه كان منجذباً إلى الرجال - مشاعر قاتمة مكتومة خلف عينيهم، ثقل في أيديهم عندما يربِّتون على كتفه أو ذراعه. كان يتملَّقهم، ويعيد ملء أكوابهم، ويتسكّع عند طاولاتهم عندما لم يكن والده ينظر. بدأوا ينتبهون له تدريجياً، بإدراكٍ حيوانيٍ مكتومٍ. لاحقاً، عندما عاد الرجال الذين خاضوا الحرب العُظمى، لاحظ دكستر، في نظراتهم الممزَّقة وحركاتهم النعسة، شيئاً مما أعجبه في البدء في رجال السيد كيو. وعرَف وقتها معناه: مودّة مع العنف.

"بالطبع"، أضاف آرثر ضاحكاً، "منذ الانهيار الاقتصادي، نلنا نحن المصرفيون الكثير من أوقات الفراغ و... الوحدة، يمكنك القول، للتفكير بالمستقبل. وقد تركتنا الحرب الأهلية مع حكومة فدرالية. وجَعَلتنا الحرب العُظمى دولة دائنة. بصفتنا مصرفيين،

يجب أن نتوقَّع ما هي التغييرات التي ستجلبها لنا هذه الحرب".

"وماذا تتوقَّع؟"، سأل هنري، الذي كان لا يثق بروزفلت.

مال العجوز إلى الأمام وأخذ نَفَساً عميقاً. "أرى صعود هذه الدولة إلى مستوى لم تصله أي دولة أخرى، أبداً"، قال بهدوء. "ليس الرومان. ليس الكارولنجيين. ليس جنكيز خان أو التتر أو فرنسا نابليون. هاها! كلكم تنظرون إليَّ كما لو أن إحدى قدمَيَّ في مستشفى الأمراض النفسية. كيف يُعقَل ذلك؟ تسألون. لأن هيمنتنا لن تنشأ من إخضاع الشعوب. سنخرج منتصِرين وسالمين من هذه الحرب، وسنصبح مصرفيي العالم. سنصدِّر أحلامنا، لغتنا، ثقافتنا، طريقة عيشنا. وستكون كلها أمور لا تُقاوَم".

كان دكستر يستمع له، وغيمة قلق قاتمة تخيِّم فوقه ببطء. فقد كان جندياً لأكثر من عقدين، ويحترم تراتبية إصدار الأوامر لضمان ازدهار وقوة المنظمة التي يخدمها: حكومة ظل، دولة ظل. قبيلة. عشيرة. والآن، فجأة، أصبح الجميع أميركياً. العدو المشترك أعطاهم حلفاء غريبين؛ ويُشاع أن لاكي لوتشيانو العظيم عقَد صفقة مع رجال مكتب التحقيقات الفدرالي من زنزانته لاقتلاع مؤيِّدي موسوليني من الواجهة المائية. كيف سيكون موقع دكستر عندما تنتهي الحرب؟

"لن أكون جزءاً كبيراً في كل هذا"، قال آرثر بيرينجر. "سأكون قد أصبحت عجوزاً جداً لأرى ثماره". أشاح بيده اعتراضهم. "سيكون مُلكاً لكم يا أولادي. تأكدوا أنكم جاهزون".

تكلَّم بشكل غير رسمي، كما لو أنه يذكِّرهم بموعد مركب مغادِر. في السكون الذي تلى ذلك، سمع دكستر صوت نبضات سريعة، كما لو أنها ساعة أصابها مسّ من الجنون. افترَض أنها نبضاته.

خبط العجوز يديه على الطاولة ونهض. انتهى الغداء. كانت الغرفة تعبق بالدخان. تصافح الرجال وتفرّقوا إلى ضجيج الإناث والأطفال.

المحادثة تركت دكستر قلقاً جداً وولَّدت لديه رغبة كبيرة بالإسراع على الطرقات الفارغة إلى منزله. عشاء خفيف من الحساء والخبز المحمَّص، ثم *دراما الجريمة*، الذي كانوا يستمعون إليه كلهم، وهذه إحدى عادات الأحد الدائمة. ثم النوم: نوم طويل، عميق، مُبيد للتعويض عن مقدار النوم القليل الذي يحصل عليه طوال الأسبوع.

كان يبحث عن هارييت عندما خرجت أختها الصغرى، بيتسي، كالصاعقة من المكتبة وأغلقت الباب بعنف، وكادت تصطدم به. ظهرت هارييت وريجينا بعد ذلك بلحظات، وكانتا تبدوان متوترتين.

"تحتاج إلى أن يأخذها أحدهم على عاتقه"، قالت ريجينا. "هنري المسكين لا يستطيع أن يفعل ذلك".

"لقد تطوّعت لمواعدة الجنود"، أخبرت هارييت دكستر.

"ماذا؟".

"أجل، أن تجول بهم في أرجاء البلدة"، قالت ريجينا. "الشيء الذي تفعله بعض الفتيات اللواتي في العشرينات من أعمارهن. وليس زوجات وستشستر اللواتي لديهن أربعة أولادا!".

"يجب أن نجد وسيلة لإيقافها"، قالت هارييت.

كان غريباً سماع زوجته تقوقئ مع أختها الكبرى المتسلِّطة في حين أن هارييت بقيت، لفترة طويلة، الشخص الذي يقوقئون عنه. بدت متزمتة تقريباً في فستانها العالي الياقة. لم يكن معتاداً على التفكير بزوجته بهذه الطريقة.

"إلى السيارة"، قال.

تابي، التي كانت تحيك بفتور مع أوليف وإيدث، وَثَبت إلى قدميها متلهّفة للذهاب. هذا أبقى التوأمين، اللذين لم يرهما أحد منذ عدة ساعات. انضم الأحفاد إلى البحث عنهما، حيث راحوا يفتحون خزائن الملابس ذات المرايا المبقَّعة ويحدِّقون تحت الأسرّة. "فيليب... جون-مارتن...". كان محتملاً جداً أنهما مختبئان، وبدأ دكستر يتطلّع إلى الصفعات التي سيوجّهها إليهما إذا تبيَّن أنهما يختبئان.

في الطابق العلوي، ألقى نظرة سريعة خارج نافذة خلفية على ناقلة نفط تُبحر جنوباً من مصب لونغ آيلند. سمِع ذلك القرع العصبي مرة أخرى، مثل نبضات قلب مذعور. لم يتخيَّله؛ بل كان صوتاً حقيقياً. تبِعه دكستر إلى واجهة المنزل وراح يحدِّق إلى الأسفل عبر نافذة مستديرة تطلّ على جادة يورك.

ها هما التوأمان، بوجهين شارِدَين من التركيز بينما يضربان كُرات حمراء صغيرة

موصولة بمجاذيف.

طاخ-طاخ-طاخ-طاخ-طاخ-طاخ-طاخ-طاخ- . . .

لقد كانا يلعبان الجاي ألاي طوال هذا الوقت.

ابتسم دكستر، رغماً عنه.

الفصل 8

بينما قاد سيارته نحو منزله، الأخير والأكبر على طريق مسدود ينتهي عند البحر، مرَّ دكستر بجانب دودج كوبيه رمادية بالية، مركونة عند حافة الرصيف. كان هناك رجل وحيد يجلس وراء المقود. لم تكن سيارة يعرِفها.

لم يكترث حتى ليدير رأسه أو يلقي نظرة سريعة في مرآة الرؤية الخلفية، لكن شيئاً في دكستر انتفض فوراً، متوتّراً ومتيقظاً. لم تكن هناك عادة أن تركن سيارات غريبة في هذا الحيّ. والأولاد لا يلعبون في هذا الحيّ. ولا رجل يزور دكستر في منزله من دون إحضار عائلته معه.

"ما الأمر؟" سألت هارييت.

"لا شيء".

اقتصر ردها على رفعها حاجب إحدى عينيها. ولم تستدر أيضاً.

في الداخل، ذهَب دكستر إلى غرفة تبديل ملابسه مباشرة، وفتح قفل الخزانة حيث يحتفظ بالمسدس، ووضعه في قِراب كاحله، وثبّت القِراب بربلته. ثم عاد إلى الطابق العلوي. سيَرنّ جرس الباب الرئيسي بعد قليل، وأراد أن يجمِّع صورة انهماك عائلي ليوضِّح للزائر أن لا المكان ولا الزمان ملائمين لمناقشة أي أمر جاء من أجله.

كان التوأمان يبنيان بلعبة قطع خشبية في طابق قاعة الاستقبال. استوى دكستر بسرعة على كرسي مريح فاتحاً الصحيفة عند صفحة القصص المصوّرة ليوم الأحد. "يا فتَيان، تعالا إلى هنا"، قال. "سأقرأ لكما صفحة التسالي".

اقتربا حائرين، وأدرك دكستر أنه مرَّ وقت طويل منذ أن قرأ لهما صفحة التسالي لآخر مرة – ربما أكثر من سنة. لقد أصبحا أكبر حجماً بكثير، خاصة جون–مارتن.

حسناً، كل ذلك فقط إلى أن يرنّ الجرس. شدَّ دكستر الفتَيين صوبه، فسقطا بقوة على صدره، قاطعَين له أنفاسه لبرهة. كان صعباً حمل الفتَيين والصحيفة معاً؛ ومن المستحيل رؤية صفحة التسالي بعدما تمكّن من فعل ذلك. لكن دكستر أصرّ، مُحوِلاً عينيه *بالأمير الباسل* من خلال ثُقب مفتاح بين عنقيهما. بدأا يتلوّيان ويضحكان، مكمّلان الدارة المُغلقة لصخبهما الذي يثير غضب دكستر، كالعادة. أمرهما أن يهدأا، ثم جهُد ليصطنع صوتاً حيوياً لقراءة قسم *تربية الأب* في صفحة التسالي. تجهَّم التوأمان. ألقى دكستر نظرة سريعة على الباب الأمامي، وما ضاعف غيظه من هذا المتطفِّل لإزعاجه في يوم أحد هو نفاد صبره من المدة الطويلة التي كان يستغرقها لكي يظهر.

رنَّ الجرس أخيراً، وفتحت هارييت الباب، بتوقيتها ونبرتها الخاليين من أي عيب. شَعَر دكستر برضى طفيف من تقديمه الصورة الدقيقة التي أراد تقديمها. لكنها بالكاد كانت مهمّة؛ فحتى من العتبة، كان جليّاً عدم اكتراث الرجل. لقد ضاع عليه مشهد الانهماك الأبوي.

حرَّر دكستر ولدَيه، اللذين نزلا عن حضنه بارتياح، وذهَبا ليُلقيا التحية على ضيفه. كان الرجل نحيلاً، هزيلاً تقريباً، وذا وجه غريب طويل بدا مناسباً أكثر لوجه مهرِّج: فم عريض وعينين هلاليّتين. عرفه دكستر فوراً.

"يا لها من مفاجأة يُتعذَّر فهمها سيد ماكي"، قال بنبرة سيُدرك أي شخص يعرفه أنها نبرة تأنيب وتحذير. صافح يد هيو ماكي الثقيلة. "ما الذي يمكن أن يكون قد حثّك لكي تأتي من دون زوجتك؟".

"إنها تزور أمها"، قال ماكي بجهد.

"سنتناول عشاءنا قريباً"، قال دكستر ببرودة. "ولا أفترض أنك سترغب أن تنضم إلينا".

رمقهُ ماكي بنظرة متوترة مرهقة – نظرة رجل أضعفَ يأسه قدرته على مجاراة نمط الحديث. كان لا يزال يرتدي قبعته. "لا، لا، لا يمكنني البقاء"، قال. "أحتاج إلى كلمة فقط. حاوَلتُ رؤيتك في نادي مانهاتن الأسبوع الماضي، لكنهم أوقفوني عند الباب".

كان كل تركيز دكستر منصبّاً على إخراج ماكي من منزله. فمجرد وجود الرجل كان مصدر نجاسة – كما لو أنه بوَّل على أرضية القاعة. "اسمع، لقد وعدتُ إبنتي بنزهة على

الشاطئ"، تمكَّن دكستر من أن يقول. "لماذا لا تنضم إلينا؟".

نظر إليه ماكي بحقد. رفضه الحزين للخدعة التي على أساسها يمتزج عالم الظل بالعالم الذي يستطيع الجميع رؤيته أغضبَ دكستر. كانت المحافظة على المظهر مهمّة بنفس قدر - بل أكثر من - أهمية المحافظة على ما كان في الخفاء. بإمكان الأشياء العميقة أن تأتي وتذهب، لكن ما يطفو على السطح سيبقى محفوراً في ذاكرة الجميع.

يمكنه أن يطرد ماكي؛ يصرفه مثلما يصرف كلباً شارداً. وبناءً على المظهر المكتئب للرجل، كان يتوقَّع هذا القدر من المعاملة. لكن مَن يعلم ماذا سيفعل هيو ماكي بعد ذلك. لا. كانت النزهة أفضل حل؛ إبعاده عن المنزل. وكان الغروب وشيكاً.

تركه دكستر في الغرفة الأمامية مع هارييت وصعد إلى الطابق العلوي ليقرع على باب غرفة نوم تابي. كانت جالسة أمام منضدة تزيينها الجديدة، وهي هدية في ذكرى ولادتها السادسة عشرة. حلقة من اللمبات الكهربائية الصغيرة حول مرآة، تولِّد الانطباع بوجود نجمة هوليود صاعدة في غرفة تبديل ملابسها. هل هناك أي إسم أفضل لجهاز يشجِّع كل العناصر الخطأ لدى شخصية الأنثى؟

"تابي"، قال دكستر بفظاظة. "هيا نتمشّى قليلاً".

مكتبة

"لا أريد يا أبي".

أخذ نَفَساً عميقاً، وكبَتَ غيظه، وربضَ بجانب كرسيها. الحرارة من لمبات المرآة ضخَّمت رائحة بالأزهار لمساحيق التجميل التي تلقّتها مع المنضدة: تشارلز ريتز، إذا لم تخنه ذاكرته.

"إنني أطلب معروفاً"، قال. "أحتاج إلى مساعدة منك".

كانت حشريتها أشبه ببئر يبدو منسوب مياهه منخفضاً جداً في أغلب الأحيان. لكن دكستر سمع صوت طرطشة عند ذكره كلمة "مساعدة".

"في بيتنا رجل، شريك لي، يشعر - يشعر بالحزن من شيء. إذا أتيتِ معنا إلى الشاطئ، لن يشكو منه".

"لأنني سأكون هناك؟".

"أجل".

نهضت عن منضدة تزيينها واختفت داخل خزانتها - "غرفة تبديل ملابسها"، مثلما اعتادت على تسميتها. عاودت الظهور بعد عدة دقائق مرتديةً تنورة غنية بالألوان، وكنزة صوفية، وقبعة بحّار. يبدو أنها افترَضت أن الأناقة ستكون جزءاً من مهمتها.

وجَدا هارييت وهيو ماكي جالسين في صمت في القاعة، وماكي يحدِّق في النوافذ المطلّة على البحر. "إبنتي تَبّتا"، قال دكستر معرِّفاً عنها. ألقى ماكي نظرة تثمين منهكة على تابي، كما لو أنه يقيِّم عبئاً ليس أمامه خيار آخر سوى تحمّله.

خرجوا من المنزل وساروا على المسار المؤدّي إلى الشاطئ، ودكستر يحرص على إبقاء تابي بينه وبين ماكي. بدا الرمل أبيض على غير عادة، قمرياً تقريباً تحت السماء المتغيِّرة. كان دكستر ليبقى على المسار عادة، لكن تابي اقتربت من البحر، وتبِعها إلى الرمل.

"أبي، اخلع حذاءك"، قالت. "الماء ليس بارداً جداً".

كانت قد خلعت حذاءها، الذي بالكاد كان أكثر من خُفّ، وأدرك دكستر أن أحد أهدافها من تغييرها ملابسها كان خلع جواربها الصوفية لكي تتمكن من السير حافية القدمين. هذا كان الشاطئ، في النهاية. راحت قدماها النحيلتان تتوهَّجان أبيض فوق الرمل، ورؤيتهما أشعَل الرغبة لدى دكستر بخلع حذائه ذي الرباط. ثم تذكّر قِراب الكاحل. "لا بأس يا تابز"، قال. "سأبقى مرتدياً حذائي".

لم تقترح تابي أن يخلع ماكي حذاءه؛ فقد كان من الصعب تصديق من ذلك الوجه المهرِّج المُنهَك أن لماكي قدمين.

لم يكن هناك شيء يدعى صمت على الشاطئ؛ الرياح، طيور النورس، وطرطشة الأمواج ملأت خلاء المحادثة. كانت السُفن مرئية بالقرب من بريزي بوينت، وأضواؤها منطفئة من قبل. بدأ دكستر يسترخي. شَعَرَ بحاجة ماكي الماسّة لطريقة يبدأ بها الكلام، لكن عقبة تابي مَنَعته. ساروا شرقاً، نحو الغسق. راحت تابي تقفز قليلاً، مما جعلها تسبقهما ببضع خطوات.

استغلّ ماكي فرصته. "وضعي أصبح صعباً جداً سيد ستايلز"، قال بصوت حاد.

"يؤسفني سماع هذا".

وقفت تابي تنتظرهما، واستعجَل دكستر ليعاود الانضمام إليها. كان يمكنه أن يشعر

بماكي يجهد ليعبِّر عن ضخامة سخطه بلغة لن تعكّر صفو هذه النزهة على الشاطئ.

"لا أرى أن بإمكان الأمور أن تستمر على هذا المنوال سيد ستايلز"، بدأ كلامه بنبرة دمثة مرة أخرى، على مسمع تابي هذه المرة.

"يجب أن أخالفك الرأي"، ردَّ عليه دكستر.

"أنا أقول لك"، قال ماكي. "لا يمكنها".

صمتَ دكستر لبرهة من هذه الإهانة. بوجود تابي هناك، لم يكن لديه خيار آخر سوى أن يجيب بنفس النبرة الدمِثة التي استخدَمها ماكي. "أخشى أن الموضوع خرج من يدي سيد ماكي"، قال. "عليك حل هذه المسألة مع السيد هيلي".

"السيد هيلي وأنا لا نفهم بعضنا البعض".

صوته، الذي أصبح متملِّقاً ومجروحاً ومهدِّداً دفعة واحدة، قزّز دكستر. "أنا أعرف السيد هيلي منذ عشرين سنة"، قال. "ولم يحصل أبداً – ولا مرة واحدة، طوال تلك الفترة – أن زارني في منزلي يوم أحد".

"ماذا كان يمكنني أن أفعل خلاف ذلك؟".

كان الحديث بينهما فظّاً، كما لو أنهما يناقشان نتائج مباريات البيسبول. انتقل دكستر ليقف بين إبنته وماكي وقال بنبرة حادة تقصَّد منها إنهاء هذه المناقشة، "لا يمكنني أن أساعدك سيد ماكي".

"قد يستحق الأمر محاولةً منك"، قال ماكي. "لتوفّر على نفسك بعض المتاعب لاحقاً".

"متاعب؟"، سأل دكستر بخفة. كانت تابي قد أمسكت يده. كانت باردة ومُرهَفة مثل سوار.

"أعرف ما أعرفه"، قال ماكي. "لكنني لا أعرف ما قد يقوله الآخرون إذا عرَفوه أيضاً".

كانت عينا الرجل الخجولتين تحدِّقان إلى البعيد، نحو الشرق، حيث كان الظلام يحلّ. بدأت أذنا دكستر تطنّان. وشعَر برغبة في البصق على الرمل. رأى رواسب الغروب تتألق في الشفَق على أسوار محطة تدريب خفر السواحل. وفهِم عندها ماذا يجب أن

يحصل.

"سأرى ماذا يمكنني أن أفعل"، تمكّن من أن يقول.

"يسرّني سماع هذا. أنا مرتاح"، قال ماكي. "شكراً سيد ستايلز".

"لا داعي للشكر". كان دكستر مرتاحاً أيضاً. الصعوبة الوحيدة الآن كانت أنه لا يزال على الشاطئ مع ماكي. لو أنه توقّع هذه النتيجة، لكان عالجَ المسألة بشكل مختلف. لم يكن ليُشرِك تابي أبداً.

"انظر ماذا وجَدتُ"، قالت وهي ترفع صَدفةً. كانت برتقالية شاحبة. وجّهتها نحو السماء وراحت تتفحّص حافتها المتعرّجة.

"إنها جميلة"، قال ماكي.

"هيا بنا نعود"، قال دكستر.

عكسوا اتجاه سيرهم، وشاهدوا احتفالاً برياً في السماء الغربية: خطوط زهرية مبهرَجة مثل رواسب الألعاب النارية. كان الرمل زهرياً أيضاً، كما لو أنه امتصّ الغروب وبدأ يُفلِته ببطء.

"يا إلهي، انظر إلى هذا"، قال ماكي وهو يشير إلى السماء. بدا رجلاً مختلفاً الآن بعد أن تحرَّر من العبء واطمأن.

"أليس رائعاً؟"، صاحت تابي.

حاوَل دكستر الوقوف بينهما. فلم يعد يرغب أن يتكلما. لكن تابي التصقت بماكي، بعد أن شجّعها تحسُّن نفسيته.

"هل لديك أولاد سيد ماكي؟"، سألت.

"لديَّ إبنة، ليزا، في عمرك تقريباً"، قال. "تحبّ تايرون باور. سيصدر له فيلم جديد قريباً، *البجعة السوداء*، وعَدتُها أنني سآخذها لكي تشاهده. هل تحبّين تايرون باور؟".

"طبعاً"، قالت تابي. "وسيصدر فيلم جديد لفيكتور ماتشور هذا الشهر، *إجازة سبعة أيام*. أنهى تصويره قبل أن ينضم إلى خفر السواحل".

كان دكستر يستمع لهما كما لو أنه يقف على مسافة بعيدة جداً عنهما، وعينيه على السماء الاحتفالية المُوحِشة. ذِكر ماكي لإبنة لم يستنبط منه أي شفقة – بل على

العكس. كان رجلاً يحبّ الحياة العائلية لكنه مستهتر جداً لمخالفته القواعد التي يحفظها جميع مَن في عالم الظل عن ظهر قلب. لم تكن هناك استثناءات. مدهش مقدار المتاعب التي يوقِع الرجال أنفسهم فيها، مصدّقين ذلك. فكل شخص يظنّ أنه الاستثناء.

كان ماكي نذلاً. وستكون عائلته أفضل حالاً من دونه، بسبب كل الحذر الذي بذله لحمايتها. سيترك دكستر هذه المسألة لهيلز وفتيانه. ابتعاده عما سيحصل بعد ذلك جَعَله يبدو كما لو أنه حصَل من قبل. حصَل في اللحظة التي قرَّر فيها أنه سيحصل.

"لديَّ نسيب، غرايدي، في الأكاديمية البحرية"، كانت تابي تقول.

"آه، فتى جامعي. إبني في الجيش".

"كان يُفترَض أن يتخرَّج في يونيو القادم، لكن التخرّج نُقل الآن إلى ديسمبر. لأن البحرية بحاجة إلى مزيد من الضباط".

"بالتأكيد، وكل أولئك الشباب في جزر سليمان".

أراد دكستر أن تبقى تابي بعيدة عن هذا الرجل الثرثار الفظيع. كان المنزل لا يزال على مسافة مجنِّنة. وهارييت أغلقت ستائر التعتيم الكلي، وبدا كما لو أن لا أحد يعيش هناك.

"اسمعي، هل تعرفين ماذا سأفعل؟"، قال ماكي لتابي فجأة. "أعتقد أنني سأخلع حذائي أنا أيضاً".

"آه، نعم!"، صاحت تابي وهي تصفِّق بيديها.

"علينا العودة"، تمتم دكستر، لكن إبنته وماكي كانا قد شكَّلا تحالفاً لا يستطيع خرقه.

جلس ماكي على الرمل ورفع ساقَي سرواله، ثم بسَط جاربيه بعناية، بطريقة منهجية، كما لو أنه يتلكأ. ابتسمت تابي لدكستر. لا شكّ أنها ظنّت أنها نجحت ببراعة، لأنه لم يكن هناك أي جدال.

في الدقائق الطويلة التي أمضاها ماكي في بَسط جاربيه، تضاءلت الخطوط الزهرية في السماء كما لو أن شخصاً نفضَها عن طاولة. وما بقي كان زبرجداً لامعاً ونقياً لدرجة بدا فيها كما لو أنه سَيَرنّ إذا ضربته بملعقة.

"لم أفعل هذا النوع من الأشياء ما يكفي من مرات"، قال ماكي مع تنهيدة. رفع نظره إلى دكستر بوجهه المهرِّج. "وأنت سيد ستايلز؟".

لم يكن قصده واضحاً. الحذاء؟ الشاطئ؟

"على الأرجح لا"، سمح دكستر لنفسه أن يقول.

وَقَف ماكي، وحذاؤه يتدلّى من إحدى يديه، ويده الأخرى تثبّت قبعته على رأسه. راحت قدماه البيضاوان الكبيرتان تتفلطحان بمُجون على الرمل. لم يكن دكستر قادراً على النظر.

"هيا نركض سيد ماكي"، قالت تابي. "هيا نركض على الرمل".

"يا إلهي، نركض؟"، سأل ماكي، ثم ضحك - ضحكة خفيفة جوفاء حطَّت في أذنَي دكستر مثل حشرجة الموت. "حسناً، كما تشائين. سنركض على الرمل. لما لا؟".

وركَضا، وراحا يرشّان رذاذاً أبيض، ويصرخان بينما اختفيا في الشَفَق.

الجزء الثالث

انظري إلى البحر

الفصل 9

اضطرت آنا وأمها إلى مصارعة ليديا معاً لجعلها ترتدي فستاناً مزيّناً بالأزهار ذا ياقة بيتر بان ووشاحاً لتمويه عمودها الفقري المتهدِّل. كان ارتداء الملابس لزيارة الدكتور ديروود مسألة تقليد وفخر - فنساء بارك أفينيو يشترين فساتين مصنوعة حسب الطلب من متجر برغدورف وأحذية ثمنها 125$ من متجر ليبرمان. لكن ليديا تغتاظ من ثياب النساء، وبدا لآنا أن مقاوَمتها المكتومة لحمّالة الصدر والقميص الداخلي والجوارب ومشدّاتها تعبِّر عما يشعرن به كلهنّ.

بناءً على نصيحة نَلْ، ثبّتت آنا لفيفات شعر أختها وهي نائمة. وهي مشَّطت الشعر الذهبي الآن بحيث يتدلّى مُخفياً وجه ليديا تحت قبعة بيريه زرقاء. "آه يا آنا، هذا رائع"، قالت أمها وهي تضع بعض نقاط العطر خلف أذنَي ليديا. "تبدو مثل فيرونيكا لايك تماماً".

كان أولاد الحيّ يلعبون بحذر على الرصيف في ملابس يوم الأحد بينما سارت آنا إلى الجادة الرابعة لتوقف سيارة أجرة. في طريق عودتها في السيارة، توقَفت أمام بقالة السيد موتشاروني لتُقلّ سيلفيو، الذي كان ينتظرها بشعر ممشَّط وكُمَّين مرفوعين. كان سيلفيو ساذجاً، لا يستطيع حتى إرجاع الفكّة من آلة تسجيل نقود والده. بتعبيرٍ ينمّ عن تركيز تام، حَمَل ليديا نزولاً على الطوابق الستة من شقتهم. كان معظم تعبيره يتجلّى في عضلتَي ذراعيه، اللتين كانتا ترتعشان فوق كُمَّيه المرفوعين بينما ليديا تئنّ وتركل. كانت تكره أن يحملها سيلفيو. وشكّت آنا أن المشكلة هي رائحته: بصليّة، معدنية، وتفوح أكثر عند استدارته على السلالم. كانت رائحة فتى في السادسة عشرة من عمره - الفتى الوحيد الذي لمس ليديا، أو سيلمسها على الأرجح.

تحلّق الأولاد كالحمام حول رجلَي سيلفيو عندما خرَج من المبنى مع ليديا ووضعها

داخل سيارة الأجرة. كانت آنا قد سبقتهم وجلست على المقعد الخلفي لتضمن عدم فرار سائق سيارة الأجرة. ثبّتت أمها ليديا من الجهة الأخرى بينما وضع سائق سيارة الأجرة كرسيها المطوي في الصندوق. يوم مثالي في منتصف نوفمبر. اجتازت سيارة الأجرة جسر بروكلين وسلكت طريق النهر الشرقي، وظهر خليج والأباوت أمامهم على الضفة الأخرى للنهر - بسُفنه ومداخنه ورافعاته. "ماما، انظري!"، صاحت آنا. "إنها الساحة البحرية!".

حين استدارت أمها، كانت الساحة قد أصبحت خلفهم. لا يهمّ؛ فهي لا تكترث لأمرها كثيراً. بالكاد بدت مهتمة بالحرب، رغم أنها توفّر الدهن للجزّار وتساعد في خياطة أسوار أجهزة قياس ضغط الدم. بدا لآنا أن أمهما تقضي أيامها في مشاهدة المسلسلات، *الضوء المسيِّر*، *وفي وجه العاصفة*، *والطبيب اليافع مالون*، بصحبة جيران مختلفين كل مرة. وكانت آنا مَن يشغِّل الراديو لسماع نشرة أخبار نيويورك تايمز أثناء تناول العشاء، متلهّفةً لأخبار عمليات الإنزال الأميركية في مناطق شمال أفريقيا الفرنسية. بعد أسبوع من حصولها، عمَّ تفاؤل جديد في كل أرجاء الساحة. حتى إن آنا سمعت كلاماً عن نقطة تحوّل في الحرب، الجبهة الثانية التي طال انتظارها.

كان لإثارة آنا المتوترة أصلٌ مختلفٌ: دكستر ستايلز. فطوال الأسبوعين اللذين تليا تعرّفها على مالك النادي الليلي، كانت مخيلّتها تغرق في سيناريوهات مريعة ومثيرة. فتفترض أن والدها لم يغادر المنزل أبداً. أنه خرَّ صريعاً بوابل من رصاصات العصابات، وإسمها يتردَّد على شفتيه المُحتضَرتين مثل كلمة "البرعم" في فيلم *المواطن كاين*؟ قرأت الكثير من روايات إيليري كوينز، التي كانت تستمتع بها كثيراً. والآن بدا لها أن حياتها دخلت عالم تلك الأسرار؛ ظلال نوفمبر الطويلة المنحنية إيحائياً، وبريق أعمدة الإنارة على طوب الساحة البحرية سبَّبت انقباضاً مُنذِراً بالسوء في بطنها. كانت هناك ديناميكية في هذه الحيوية الجديدة المشؤومة، كما لو أن أحدهم أيقظها من نوم مخدَّر.

كان مكتب الدكتور ديروود في الطابق الأول لشقة سكنية على جادة بارك أفينيو. كانت غرفة الانتظار "فيكتورية" الطابع، وفقاً لوالدة آنا، مفروشة بسجاد شرقي وأرائك مطرَّزة. وهناك شُرّابات ذهبية على الستائر، والجدران مزيج لوحات صغيرة مغمورة بأطر ثقيلة. وكان هناك مرضى آخرون ينتظرون أحياناً، مسحوقين أو مطويين على كراسي، أو يسيرون بمساعدة عُصي، والشبه بينهم وبين ليديا كبير، كما لو أنهم أنسباء في الأسى. بما

أن اليوم الأحد، كانت الغرفة فارغة. جلست آنا وأمها جنباً إلى جنب على أريكة، وليديا على كرسيها. انتظار الدكتور ديروود كان الحدث الأبرز لآنا في تلك الزيارات نصف السنوية. كان التوقّع يرغي ويزبد تحت أضلاعها. *سيأتي الطبيب! سيأتي الطبيب!*

همس على الباب، ثم صوته: "طاب يومكم، طاب يومكم. أهلاً بكم جميعاً". كان رجلاً ضخماً يبدو شاربه الأبيض المشمَّع ملائماً أكثر لقبعة عالية سوداء رسمية مما هو لمعطف طبي رمادي. حيّا ليديا أولاً، دافعاً بلطف شعرها عن وجهها. "مرحبا آنسة كيريغان"، قال. "تسرّني رؤيتك من جديد. وآنسة كيريغان الأكبر سناً"، أضاف وهو يصافح آنا. "والسيدة كيريغان بالطبع". لم يتم التطرّق أبداً في السنوات الأخيرة لمكان تواجد السيد كيريغان.

جرى الفحص في غرفة مجاورة، أبسط في الديكور لكنها دافئة بشكل مريح. كانت هناك سلسلة بكرات وأحزمة جلدية تحتلّ إحدى الزوايا، لكنها لم تُستخدَم أبداً لليديا. رفعها الطبيب عن كرسيها ذي العجلات ووقف معها على ميزان. بدأت آنا، التي كانت تتحمَّس لهذه المهمة في صغرها، تعدِّل الأوزان إلى أن استوى القضيب. ثم وضع الطبيب ليديا على أريكة فحص ناعمة، وأخذ رأسها في يديه، وبرمه بلطف يميناً ويساراً. كانت لا تتحرّك، نعسانة تقريباً، بينما راح ينظر داخل فمها ويشمّ نَفَسها ويستمع إلى قلبها ورئتيها بواسطة السمّاعة الطبية. وفحَص شعرها وأظافرها. وحرَّك جسمها: الذراعين والرجلين والجذع والقدمين واليدين، اللتين فتحهما بعناية إلى حجمهما الكامل وأخذ قياسهما. كانت ليديا لتكون أطول من آنا بخمسة سنتيمترات.

"هل تكون مضطربة أكثر في الأمسيات؟"، سأل. "سأعطيك جرعات كافور يجب أن تُهدّئها. هل أصبح البلع أصعب لها؟ تناول الطعام يمكن أن يكون شاقاً، أعرف. أنا مندهش أنها لم تفقد وزناً؛ هذا يبدأ بالحصول للعديد من مرضاي في هذه المرحلة. لا تقلقي إذا بدأت تبدو أنحف؛ هذا طبيعي تماماً".

كانت ليديا معتادة أن تضحك. أن تنظر خارج النافذة. أن تكرِّر ما يُقال حولها بصوت ثرثرة خالٍ من أي معنى. أن تكون متيقظة لفترات طويلة. لكن تلك المُتع والعادات سقطت الواحدة تلو الأخرى. وكلما اختفت واحدة أخرى، كانت آنا وأمها تتأقلمان مع حالة جديدة لا تعودان فيها تتوقعان ذلك الشيء - بالكاد تتذكّرانه.

الآن، في حالتها اليقظة، وجَدت آنا نفسها تفكّر بشكل مختلف بأختها. أليست مشاهدة المسلسلات الغرامية طوال اليوم تضع أي شخص في حالة سبات؟ ماذا كان لدى ليديا أي شيء لتبقى متيقظة *من أجله*؟

انتهى الفحص، وسحَب الدكتور ديروود كرسياً ليجلس قرب ليديا، ليجعلها جزءاً من الحديث. "يجب أن أُثني عليكما"، قال لآنا وأمها. "تستمر جهودكما بإعطاء نتائج رائعة".

سالت دموع من عينَي أمهما، مثلما يحصل غالباً في هذه المرحلة، رغم أنها لم تبكِ أبداً. "هل تعتقد أنها سعيدة؟"، سألت.

"ربّاه، نعم. ليديا لا تزال مُحاطة بالحب والعناية طوال حياتها. أخشى أن قلّة من الأشخاص في وضعها يتمتعون بهذه الرفاهية".

ظنّت آنا أحياناً أنها قد تكون مغرمة بالدكتور ديروود، هذا المشعوذ الذي يستطيع تحويل كفاحهما الطويل إلى شيء ضيائي. لكن اليوم، ربما لأنها لاحظت أنه يرتدي حذاء ركوب الخيل تحت معطفه الطبي وتساءلت إن كان يحتفظ بحصان في حديقة سنترال بارك، وجَدت نفسها تفكّر في سرّها، *إننا ندفع له مبلغاً كبيراً من المال لكي يُخبرنا أننا مدهشون*. ثم، كما لو أن صوتاً آخر قاطعها، *عمل جيد إذا كنت تستطيعين الحصول عليه*.

"لماذا يزداد وضعها سوءاً؟"، سألت آنا، وشَعَرت أن أمها جفلت.

"لا يوجد علاج لحالة ليديا"، قال الدكتور ديروود. "تعرفين هذا".

"نعم"، أقرّت آنا.

"إنها تسلك مساراً طبيعياً لها. وما قد نعتبره 'أفضل' أو 'أسوأ' لا ينطبق على أختك بنفس الطريقة".

"هل يمكننا أن نفعل أكثر معها؟"، سألت آنا. "نُخرجها أكثر إلى الهواء الطلق؟ حتى إنها لم تر المحيط أبداً – ولا مرة واحدة في حياتها كلها".

"التجديد والتحفيز جيدان للجميع، بما في ذلك ليديا"، قال الطبيب. "وهواء البحر غني بالمعادن".

"لنفترض أنها أُصيب بنزلة برد"، قالت والدة آنا بتوتر.

"حسناً، لن آخذها في الشتاء. لكن يوماً كاليوم سيكون ممتازاً، إذا كانت ترتدي ملابس صحيحة".

"أفضّل الانتظار إلى الربيع".

"لماذا؟"، سألت آنا أمها. "لماذا الانتظار؟".

"لماذا الاستعجال؟".

راحتا تحدِّقان ببعضهما البعض.

"سأميل إلى الموافقة مع آنسة كيريغان"، قال الدكتور ديroود بلطف. "الوقت يمضي بسرعة، في النهاية. وقبل أن نلحظ ذلك، يكون قد حلّ اجتماعنا التالي في مايو القادم. لماذا الانتظار؟".

عادة، كانت الزيارة إلى عيادة الدكتور ديروود تترك آنا وأمها تترك في حالة ارتياح تدوم لساعات – بعض أجمل الساعات التي تمضيانها معاً. أما الآن فكانتا تتجنَّبان عينَي بعضهما البعض بينما تدفعان ليديا عائدين إلى جادة بارك أفينيو. في الخارج، عدَّلت آنا شعر أختها بينما أعادت أمهما ربط الوشاح حول عنقها.

"حسناً. المنتزه؟"، سألتها أمها.

"لما لا الشاطئ؟".

"أي شاطئ يا آنا؟".

كانت آنا مرتابة – ألم تسمع أمها كلمةً مما قاله الطبيب للتو؟ "كوني آيلند أو شاطئ برايتون! يمكننا إيقاف سيارة أجرة".

"سيستغرق وصولنا دهراً ويكلّف ثروةً"، قالت أمها. "وليس معنا ما يكفي من حفاضات أو طعام. ولماذا هذا التركيز المفاجئ على رؤية ليديا للمحيط؟ بالكاد يمكنها رؤية أي شيء أصلاً".

"ربما لم يكن لديها ما يكفي لتنظر إليه".

في ضوء الخريف الغني، بدا وجه أمها باهتاً بشكل رهيب – وأكثر بالنسبة للريش الأخضر الساطع الذي خاطته على قبعتها الليلة الماضية. "ماذا جرى لك يا آنا؟"، سألت

بحزن. "ألا يمكننا أن نستمتع بيومنا كالعادة؟".

رجعت آنا في قرارها. كانت أمها محقة بشأن الطعام والحفاضات؛ كانت الفكرة متطلّبة أكثر لكي تحاولا تطبيقها من دون تخطيط. سارتا إلى حديقة سنترال بارك، المليئة بأمهات مع أولادهن وجنود يأكلون شطائر نقانق بعناية لكي لا يوسخّوا زيّهم الرسمي بالخردل. حاوَلت آنا انتزاع مُتعة اليوم كما لو أنها تعضّ قطعة حلويات. أنفاس الأحصنة وصهيلها. رائحة الفشار. الأوراق المتساقطة عن الأشجار. نامت ليديا، مُحنيةً رأسها إلى الأمام. مع تغطية شعرها اللامع لوجهها، بدت كفتاة تعاني من صعوبة في تحريك رجلَيها فقط لا غير. هذا الانطباع استنبَط شفقةً لطيفة أكثر من التي تولّدها حالتها الحقيقية. كانت آنا قادرة تقريباً على سماع الجنود يتهامسون لبعضهم البعض، *يا للأسف، هكذا فتاة جميلة جداً.*

لكن أفكار آنا شَرَدت بعناد إلى الشاطئ ثم إلى دكستر ستايلز. وبينما كانتا تنظران نزولاً إلى السلالم التي تؤدي إلى نافورة بيثيسدا، قالت، "هل تعتقدين أن بابا سيعود؟".

كانت قد مرّت سنة، على أقل تقدير، منذ أن ذكرتاه لآخر مرة، لكن أمها لم تُظهر أي تفاجؤ. ربما كانت تفكّر فيه هي أيضاً. "نعم"، قالت. "لديَّ شعور أنه سيعود".

"هل بحثتِ عنه؟ في الأرصفة البحرية؟ أو في قاعة الاتحاد؟".

"بالطبع. كنتِ تعلمين ذلك في وقتها. لكن الإيرلنديين لا يُخبروك بأي شيء أبداً. 'آسف جداً عزيزتي آغي، أمر محزٍ...'. أصحاب العيون الزرقاء المتلألئة تلك. لا تكون لديك أي فكرة بماذا يفكرّون".

"لنفترض أنه حصل حادثٌ. على الأرصفة البحرية".

"آه، لن يُخفوا ذلك! فالأرامل والأيتام من اختصاصهم. الزوجات فقط مَن يجدن صعوبة معهم".

"ماذا لو – أذاه أحدهم؟". تسارعت ضربات قلب آنا بينما كانت تقول هذه الكلمات. ورأت الدهشة على وجه أمها.

"آنا"، قالت. "لم يكن لديه أي عدو أبداً، طوال كل السنوات التي عرَفتُه فيها".

"كيف يمكنك أن تكوني متأكدة؟".

بدت أمها وكأنها تبحث عن رد. ثم قالت أخيراً، "ترَك أغراضه في حالة مثالية. السيولة النقدية، الدفاتر المصرفية... لا يوجد أي جزء غير منجز في أي مكان. الأشخاص الذين - الذين يختفون بالطريقة التي تقصدينها، لا يعطون أي تحذير".

كانت هذه الحقائق غائبة عن ذهن آنا. وبعد أن تذكّرتها الآن، شعرت بخيبة أمل كبيرة لدرجة جعَلتها تتكئ على الدرابزين. بعد صمت طويل، قالت، "هل تعتقدين أنه بعيد؟".

"لا أعتقد أنه يمكن أن يكون قريباً ولا يكون معنا".

"وماذا يفعل؟".

"ليست لديَّ أي فكرة".

"وما رأيك؟".

رمقتها أمها بنظرة سريعة. "لا أفكِّر فيه يا آنا. هذه هي الحقيقة".

"بماذا تفكّرين؟".

ظهرت بقعة حمراء على خدَّي أمها. كانت غاضبة. آنا كانت غاضبة أيضاً، والغضب قوَّاها، كما لو أنها تجمِّع قواها ضده.

"تعرفين جيداً بماذا أفكِّر"، قالت أمها.

بعد قليل من حَمل سيلفيو ليديا صعوداً إلى الطابق العلوي (دائماً أكثر هدوءاً في الصعود)، سُمع قرعٌ لا مبالٍ، ودفعت بريان الباب ودخلت. ألقت نفسها على كرسي، وهي تلهث بقوة من صعود الدرج، وألقت معطفها، مُغرقةً الغرفة برائحة الورد والياسمين الممزوجة بشيء طبي، كالهاماماليس. سيدة البحيرة. على حد ما تذكُر آنا، كانت عمّتها تضع ذلك العطر. *لا يستطيع أي رجل مقاومته*، كانت تحبّ أن تقول - بتهكّم، حتى عندما كان ذلك لا يزال حقيقياً بعض الشيء.

بعد أن التقطت أنفاسها، نهضت وقبَّلت آنا وأمها وضغطت رأسها بحنان برأس ليديا. "كيف الحياة في مناجم الملح؟"، سألت آنا. "ألا تزالين تزيّتين الآلات لرئيسنا المحرِّض على الحرب؟".

"حسناً، كنتُ آمل أن أبيعك سنداً حربياً".

"بالطبع. عندما تطير الفِيَلة".

"نحن متأخرون عن فيلادلفيا وتشارلستون. وماما لن تدعني أنضم إلى نادي العشرة بالمئة".

"إنها تتكلَّم عن الحرب"، علَّقت برِيان وهي تنظر إلى والدة آنا، التي كانت تُطعِم ليديا. "أخشى أن هذه اللغة غير مألوفة لي".

"تريد قبض عشرة بالمئة من أجرها على شكل سندات حربية"، قالت أمها بشكل قاطع. بالكاد كانت قد تكلّمت وآنا منذ ساعات.

"أنا أكيدة أنهم سيعطونك حلية رخيصة إذا اشتريتِ ما يكفي من سندات. أليس كذلك؟"، قالت برِيان. "قولي الحقيقة".

"وقَّعتُ على قائمة ستُبحِر على متن اليو أس أس أيوا". قالت آنا هذا بافتخار، حتى وهي تعلم أن عمّتها ستجده ساذجاً.

"اسمعوا هذا! لقد غسلوا لك دماغك يا عزيزتي. هذه الحرب ليست حربنا حتى. اليابانيون يسّروا الأمر لروزفلت – ولن أتفاجأ إذا اكتُشف أنه دفَع لهم ليفعلوا ذلك، الحقير".

"تتكلّمين مثل الموقَّر كافلين"، قالت أمها.

"كان عليهم ترك الموقَّر يتابع كلامه على الهواء. وكان يجب على ليندي أن يترشَّح ضد روزفلت ويُلحق به الهزيمة التي يستحقها".

"ليندبرغ يؤيِّد الحرب الآن يا عمّتي".

"هَه! يعرف أنهم سيطردونه من البلدة إذا عبَّر عن رأيه بحريّة".

"الموقَّر كافلين كلب مسعور"، قالت أمها.

"هتلر بحاجة إلى صفعة جيدة لا أكثر ولا أقل"، قالت برِيان. "إنه متنمِّر في ملعب للأطفال، ويجب أن يموت شبابنا من أجل ذلك؟ لا أقصد الجنود والبحّارة فقط – ماذا بشأن شباب الأسطول التجاري؟ إنهم في كل أرجاء خليج الأغنام – لديهم مركز تدريب بحري جديد هناك. طعام، أسلحة، بطانيات، خيم – مَن تعتقدين يُحضِر كل تلك الأمور

إلى أرض المعركة؟ يجري نسف السُفُن التجارية بالطُربيدات بالعشرات، ولا يملك أولئك الشباب حتى مدافع ملائمة للدفاع عن أنفسهم". تورَّد وجهها غضباً.

"هذه هي الغاية من السندات الحربية يا عمّتي. لتوجيه تلك الصفعة إلى هتلر".

"ممتاز. كم؟".

"دولار واحد؟ دولاران؟".

"اجعليها خمسة. ومتى ستعودين إلى الكلية؟".

"شكراً يا عمّتي!".

أخرجت برِيان ورقة خمسة دولارات من حقيبة يدها، إلى جانب زجاجة شراب أخضر مصفَّر. بقي لديها "صديق خاص" لعدة سنوات - بائع كركند بالجملة ميسورٌ كفاية ليدعها تتسوّق من متجر أبراهام وشتراوس وتشتري زجاجة الشراب الأخضر المصفَّر بعشرة دولارات. لكنها كانت تخجل من أن تتعرَّف عليه آنا وأمها.

تبادَلت آنا ابتسامة متردِّدة مع أمها؛ كانت برِيان تجعلهما تشعران بحبّهما لبعضهما البعض. كانت في السابعة والأربعين من عمرها، بدينة ونزِقة، وأحمر شفافها القرمزي يُذكِّر بالزمن الغابر مثل ابتسامة قطة تشيشر المُفرِحة. في السابعة عشرة من عمرها، غيَّرت إسمها إلى "برِيان بيلير" وانضمت إلى فرقة الفوليز؛ انضمت والدة آنا إلى تلك الفرقة بعد ذلك بثماني سنوات، لكنهما بالكاد تقاطعتا قبل أن تتشاجر برِيان مع "السيد زِي" وتنتقل إلى أعمال مسرحية ساخرة أكثر: *فضائح* لجورج وايت و*تفاهات* لإيرل كارّول. حسب رأيها الشخصي، كانت حياة برِيان سلسلة طويلة من العلاقات الغرامية، والنجاة بشقّ النفس، والزيجات الفاشلة، وأدوار صغيرة في سبعة أفلام سينمائية، ومعارك مختلفة مع القانون ناتجة عن تعاطي الشراب، أو العريّ على المسرح. كل تلك الأمور لم تدُم ما عدا الشراب الاسكتلندي، حيث كانت تحبّ أن تقول: كل تُهمة العالم الدقيقة والمتقلّبة لا تستطيع أن تنافس السعادة الموثوقة للشراب الاسكتلندي مع المياه الغازية. كان الرجال أكبر فشل في حياتها: جرذان، سفلى، لا ينفعون لشيء - لا يمكننا أن نلومهم لأنهم رديئون بطبيعتهم. وأفضل نتيجة ممكنة من أي زواج هي أن تكون المرأة أرملة غنية دون أي أولاد. لكن برِيان تمكّنت فقط من أن تكون دون أي أولاد.

أعدَّت أكواب الشراب ومرَّرت كوباً نحو والدة آنا. "اسمعي، ألم يحن الوقت بعد لكي تتناولي بعضاً من هذا؟"، قالت لآنا. "أنا كنت أشربها من التاسعة عشرة من عمري".

"كنتِ متزوجة في التاسعة عشرة من عمرك"، أشارت والدة آنا.

"مطلَّقة!".

"لا، شكراً يا عمّتي".

تنهَّدت برِيان. "محتمشة جداً. لا شكّ أن هذا تأثيرك يا أغنِس".

"نعرف أنه لم يكن تأثيرك أنتِ".

كانت آنا ترغب أحياناً بقبول كوب الشراب - فقط لكي ترى ردّة فعل عمّتها وأمها. كان دورها، المتجذِّر بقوة بحيث أنها لم تعد تتذكّر أصله، أن تكون منيعة ضد الرذائل التي من حولها - *صالحة*، رغم كل شيء، في عظامها، قلبها، أسنانها. ونسيان حقيقة أنها لم تكن صالحة بالطريقة التي تظنّانها - لم تعد صالحة منذ سنّ الرابعة عشرة - كان يجب أن يكون سهلاً في صحبتهما. لكن آنا لم تنسَ أبداً.

وضعت أمها يداً على كتفها: تقدمة صُلح. ولمَست آنا يدها. "هيا نغيِّر لها ملابسها ونضعها في السرير"، قالت أمها.

"اجلسي وتناولي شرابك يا آغي"، قالت برِيان بنبرة أمر. "لن تهرب ليديا".

جلست أمها، منصاعة بشكل غريب، ورفعتا كوبيهما في الهواء. على الجهة الأخرى للطاولة، تهدَّلت ليديا في كرسيها. لم تكن برِيان تشارك في تقديم العناية الجسدية لها - فذلك كان خارج ميدانها. فهِمت آنا أن عمّتها تظنّ أنه من الجنون إبقاء ليديا في الشقة مرتدية حفاضات - امرأة ناضجة، عملياً. لكن إذا كانت أمها تشعرَ بهذا الرأي، فقد كانت تتصرّف برباطة جأش تجاهه.

"قصة حزينة"، قالت برِيان بعد أخذها رشفة أولى طويلة من شرابها. "هل تتذكَّرين ذلك الحاجب، ميلفورد ويلكنز؟ ذو الشعر المستعار؟ الذي أراد أن يكون مغني أوبرا؟".

"بالتأكيد"، قالت والدة آنا.

"رأيته في أبولو ذلك اليوم، يشتري تذاكر. مدمن مخدرات".

"لا!".

"عيناه. لا مجال لِلَّبس".

"آه، هذا فظيع"، قالت أمها. "كان لديه صوت جميل جداً".

"هل كان حاجباً مغنّياً؟"، سألت آنا.

"لا، لكنه كان يغني لنا أحياناً، بعد انتهاء العرض"، قالت أمها.

هزَّت برِيان رأسها، مُخفِضةً عينيها، لكن كان بإمكان آنا سماعها عملياً تفتّش عن الحكاية المأساوية التالية عن الراقصين والراقصات زملائهما أو الآخرين الذين تعرّفتا عليهم طوال سنواتهما في فرقة الفوليز. وعندما تستُنفدَ أخبار الحوادث، كانت هناك دائماً الأخبار الاحتياطية القديمة للاستعانة بها: أوليف توماس، الذي شرِب ثنائي كلوريد الزئبق بعد شجار مع زوجها العديم النفع، جاك بيكفورد - أخ ماري بيكفورد. ألِن كينغ، التي قفزت من نافذة في الطابق الخامس عندما أصبحت بدينة جداً لزيّها. ليليان لوراين، أسطورة الإغراء والعشيقة القديمة للسيد زِي، التي أصبحت الآن ثملة ميؤوس منها ولا تزال تتسكّع في هذا المقصف أو ذاك، جاعلة نفسها هدفاً لسخرية الآخرين منها. تخيَّلت آنا في طفولتها أن تلك الجميلات سيحتللن نفس المرتبة الأسطورية مثل ليتل مِسّ مافيت والملكة غوينيفير والجميلة النائمة. وتكشَّف لها مصدر استخبارات منفصل بشكل أبطأ: كانت تلك الفتيات نجمات، بينما برِيان وأمها مجرد فتيات جوقة عاديات، يهمسن في أعقابهن.

"ذهَبتُ إلى نادٍ ليلي منذ أسبوعين"، قالت آنا. "مع فتاة من الساحة البحرية". راحت تتكلَّم بلا مبالاة، رغم أنها بقيت تتوق لفرصة لتناقش دكستر ستايلز مع عمّتها. "يدعى مُونشاين. هل ذهبتِ إليه من قبل؟".

"ليس قانونياً أن أدخل نادياً ليلياً بشكلي هذا"، قالت برِيان. "سيضعون الأصفاد في يديَّ عند الباب".

"توقفي عن هذا يا عمّتي".

"يديره تاجر ممنوعات، هذا ما أعرفه. هذا هو حال أفضل النوادي الليلية عادة - هل تتذكَّرين نادي أُوْني مادن، الخُفّ الفضي؟". كانت تسأل والدة آنا، التي أعدّت

كوكتيل ليديا الجديد المؤلف من جرعات كافور في حليب دافئ وكانت تساعدها على شربه.

"مع تكساس غوينان مسؤول البرنامج الترفيهي؟"، أكملت برِيان تقول. *"مرحبا أيها البلهاء!"* . ثم تنهَّدت. "مسكين تكساس. مرض الزُحار، من بين الأمراض كلها".

كانت آنا قد بدأت تفقد صبرها. "أي تاجر ممنوعات؟".

"دكستر ستايلز. هل التقيتِ به مرةً يا آغي؟"، سألت عمّتها. "إنه أصغر سناً منا".

"أنا أصغر سناً منك"، ذكَّرتها والدة آنا. "بثماني سنوات".

"حسناً، حسناً. إنه من عمرك، تقريباً. كان لديَّ حبيب منذ عدة سنوات يعزف البوق في أحد نواديه".

"دكستر ستايلز"، قالت أمها، وهزَّت رأسها.

"ما معنى 'تاجر ممنوعات' بالتحديد؟"، سألت آنا.

"حسناً، كان يعني أنه ينقل الشراب"، قالت برِيان. "أما الآن فهذا أصبح من اختصاص الحكومة".

نهضت والدة آنا وأمسكت مقبضَي كرسي ليديا. "سآخذها إلى السرير"، قالت لآنا. "حضّري العشاء".

كانت أمها قد أعدَّت قِطعاً من أضلاع اللحم ومخلَّل الملفوف ليلة أمس وتركتها في الثلاجة تحت منشفة. أشعلت آنا الفرن ووضعت الطبق داخله، ثم أفرغت علبتَي لوبياء في مقلاة لتسخّنها. ثم سألت عمّتها بصوت منخفض لكي لا تسمع أمها، "هل كان بابا يعرفه؟".

"مَن – ستايلز؟ أشكّ في ذلك".

"ألم تكن هناك أي علاقات تجارية بينهما؟ شيء مع الاتحاد؟".

"الاتحاد، مستحيل. كلهم إيرلنديون، وستايلز إيطالي".

"لكن إسمه... ليس إيطالياً". شعَرت آنا بتردّد فضولي لتقول هذا.

ضحِكت برِيان. "ستايلز إيطالي، صدّقيني. أو نصف إيطالي. الأسماء صُنعَت لكي

تُغيِّر يا عزيزتي؛ ألم أعلِّمك هذا؟ رغم أنني كنتُ غبية جداً: لم أرغب بإسم إيرلندي، وبريان إيرلندي أكثر من كيريغان. هذا هو الإسم الذي كان يجب أن أغيِّره!".

"إلى ماذا؟".

"بتّي. سالي. بيغي. أحد تلك الأسماء الأميركية. لا بأس بآنا، لكن آن سيكون أفضل - وآني أفضل بكثير".

"أفّ".

"لماذا كل هذه الأسئلة؟".

أَوحَت نظرات عمّتها الفطِنة بأنها رأت كل شيء في العالم لمرة واحدة على الأقل؛ المسألة بأكملها تقتصر على التعرّف عليه. استدارت آنا لتفحص الأضلاع. قالت وهي تواجه الفرن، "أعتقد أنني سمعت عنه".

"إنه في أعمدة المجتمع"، قالت برِيان. "ستايلز هو أحد الأربعمئة، عملياً. لكن ليس حقاً - فالناس يريدونه فقط أن يُجلسهم بالقرب من نجوم السينما".

عادت والدة آنا، وكانت قد غيَّرت ملابسها إلى قميص داخلي من دون حزام أو جوارب. "مَن هذا؟".

"انتبهي يا آغي. إبنتك مهتمّة برجال العصابات". ضحِكت والدة آنا. "إنها تحتاج إلى بعض الرذيلة"، قالت برِيان بنبرة تأمل. "أبعد من التحريض على الحرب".

حاوَلت آنا أن تحلّل كل معلوماتها خلال العشاء. كان والدها يعرف دكستر ستايلز - هذه حقيقة. لكن أمها وبرِيان لا تُدركان ذلك، ويبدو أنه لم يكن هناك أي سبب واضح لكي يُخبرهما. هذا يعني أنه كان سرّاً. لماذا التقيا؟

استحضرت برِيان حكاية درامية جديدة: إيفلين نِسبيت العظيمة التي اختُزلَت إلى صنع أوعية طين في كاليفورنيا. "يا لها من ذِلَّة بعد عزّ"، تأوهت.

"ربما تستمتع بصنع أوعية من الطين"، قالت والدة آنا.

"آغي"، قالت برِيان وهي تضع كوب شرابها من يدها. "إيفلين نِسبيت؟ صاحبة الجمال الأسطوري؟ السبب الذي جعل هاري ثُوه يقتل ستانفورد وايت؟ *خرَافة؟*".

"إنها مفاجأة". كانت والدة آنا تقول دائماً ما يكفي فقط لإبقاء برِيان تتكلم؛

كانت سارية مايو التي زيّنتها عمّة آنا بأشرطة معرفتها والشائعات والأسرار الشنيعة.

"لا شك أن أحداً حقّق نجاحاً جيداً"، قالت آنا. "من بين كل تلك الفتيات اللواتي رقَصتِي معهن".

"أديل أستير هي الليدي كافنديش في أسكتلندا الآن"، قالت أمها. "أتخيَّل أن هذا ممتع".

"أسمع أن أسكتلندا باردة ومظلمة"، قالت برِيان وهي تمصّ ضلعاً. "والأشخاص غريبون".

"حسناً، هناك بيغي هوبكنز جويس. ألا تصبح أثرى مع كل طلاق جديد؟".

"بدينة ويائسة"، قالت برِيان بسعادة. "تقريباً بائعة هوى".

"رُوبي كيلر تزوجت آل جولسون".

"تطلَّقت. تربّي أشقياء بلا مساعدة أحد".

فكَّرت أمها للحظة بينما كانت برِيان تبلع مخلَّل الملفوف. "اسمعي، ألا يزال ماريون دايفيز وبيل هيرست معاً؟".

"في عُزلة. الفضيحة تحيط بهم"، قالت برِيان وكأنها تغنّي نوعاً ما.

كان ملك الكركند، مثلما كان "صديقها الخاص" يُعرَف تحبُّباً، قد سمح لبرِيان بإعطاء مبالغ من المال إلى آنا وأمها - إذا كانتا ستصدِّقان حِلفها بأن حبيبها يعرف بشأن تلك الهدايا ويوافق عليها. وكان، عن قصد أو عن غير قصد، قد دفَع رسوم آنا في كلية بروكلين واشترى كرسياً جديداً لليديا عندما أصبح حجمها كبيراً على كرسيها السابق. كانت برِيان قد قدَّمت مساعدة أكثر مما ستقبل بها والدة آنا.

"رجاء أحضِريه معك إلى العشاء"، كانت والدة آنا تناشدها بينما يأكلون قِطع الأناناس المعلَّب. "سأُعدّ أضلاع لحم مرة أخرى. أليست لذيذة؟".

"إنه صياد سمك"، قالت برِيان، كما لو أن ذلك كان عذراً كافياً.

"أليس 'البيع بالجملة' يعني أنه لا يصطاد في الواقع؟"، سألتها أمها.

"رائحته تشبه رائحة السمك". لطالما كانت برِيان خبيثة بشأن أحبابها، فتختفي معهم على يخوت وعربات قطار خصوصية وتعرِّف عنهم، بعد عدة سنوات، كـ "أصدقاء

قدامى". "أعدُك بذلك، كل شيء عادي جداً"، قالت. "وليس وكر الآثام الذي تصوِّره هذه المخادعة". كانت تقصد آنا طبعاً.

"لستُ كذلك يا عمّتي".

"فقط لأن ليست لديك أي فكرة ماذا ستصوِّرين!".

قبل الإيواء إلى السرير، تمدَّدت آنا بجانب ليديا على سريرها. كان يمكنها سماع أمها وعمّتها في المطبخ تناقشان بشكل خافت إصابة رُكبتَي آن بينينغتون بسبب الثمالة. "...مُفلسة تماماً"، سمِعت عمّتها تهمس. "فقدت كل شيء في حلبات السباق، المسكينة ...".

"لِيدي"، قالت آنا بلطف. "سآخذك إلى الشاطئ".

في الإنارة الباهتة التي كانت تتسرَّب من أطراف ستارة النافذة، رأت أن عيني أختها مفتوحتان. وتحرّكت شفتاها كما لو أنها تريد أن تردّ عليها.

"سنرى البحر"، همَست آنا.

نرى البحر البحر البحر البحر.

بدا أن اهتزازاً نَبَع من داخل ليديا، كما لو أنها كانت جهاز راديو حُرِّكت إبرته إلى تردّد بعيد. كانت تعرِف كل أسرار آنا؛ فقد كانت آنا تبوح لها بها فتسقط في أذنيها مثل عملات معدنية في بئر. كانت قد بدأت تلجأ إلى ليديا عندما توقف والدهما عن أخذها معه في مهامه لصالح الاتحاد. حاوَلت آنا إجباره على الاستسلام بحجج وتهديدات بسوء السلوك، لكنها راحت تتشبَّث بأختها في الليل وتبكي في شعرها. كانت تكره أن تُترَك وحيدةً بين أولاد الحي، ولا يعود لديها أي مكان خاص لتذهب إليه. في سنّ الثانية عشرة، لم تكن هناك أمور كثيرة ذات أهمية لتقوم بها؛ فكانت الفتيات يثرثرن على المدرّجات بينما الفتيان يلعبون البيسبول أو كرة القدم الأميركية (وكانت "الكُرة" عبارة عن كتلة خشبية ملفوفة بأوراق صحف). كانت آنا تستخدم حجّة ليديا لتغيِّب نفسها عن تلك الاجتماعات المملة وتنتظر والدها لكي يعود إلى رشده - لكي يعترف أنه لا غنى عنها. ادّعت أنها لا تهتم. وتدريجياً، مع مرور الأشهر، ثم سنة، قلَّ اهتمامها فعلاً.

كانت رينغوليفيو - لعبة غمّيمة مع سجون وفِرق - اللعبة الوحيدة التي لا تزال توحّد الفتيات والفتيان في الحيّ، حتى في المدرسة الثانوية. في مارس من صفها المدرسي الثامن، كانت آنا تربض بين براميل تفاح الخريف في قبو شخصٍ عندما سمِعت همساً: "سيجدونك هناك".

جاء الصوت من داخل مَراد للدوابّ ذي جوانب خشبية عالية. كان الباب موصداً بقفل، لكن آنا تمكّنت من القفز من برميلٍ فوق أحد جانبيه إلى ما بدا لها كومة جذوع أشجار لكنه كان في الواقع - عرفت ذلك من الملمس، لأن الظلمة كانت حالكة - كومة من السجاد الملفوف.

"صه. إنهم قادمون".

أدرَكت عندها أنه فتى. مختلسةً النظر عبر شقّ بين الألواح الخشبية، شاهدت آنا ثلاثة أعضاء من الفريق المنافس. كان أحدهم شيموس، أخ ليليان الأكبر، الذي كان لطيفاً معها. ذهَب إلى براميل التفاح حيث كانت مختبئة، ثم إلى مَراد الدوابّ حيث تختبئ الآن. راح يتلمّس الألواح بحثاً عن منفذ للدخول. شمَّت آنا رائحة كرات عث على ثيابه ورائحة علكة في أنفاسه - وخشِيَت أن يستطيع شمّها أيضاً. بقيت جامدة في مكانها قلقةً من اكتشافها مع فتى في مساحة ضيقة، فتصبح هدفاً لمضايقات عديمة الرحمة. كانت قد أصبحت في الرابعة عشرة من عمرها للتو. وعندما انتقل الباحثون إلى أجزاء أخرى من القبو، تنفَّست آنا الصعداء. وحلَّ صمت ثقيل بينهما. انتظَرت أن يهندس الفتى خروجهما مثلما فعل لدخولهما. لكن كلما طالت مدة بقائهما هناك، كلما قلَّ استعجالها للرحيل. فقد كان لطيفاً المكوث في مكان داكن دافئ، وهي تستمع إلى الدندنة البعيدة للفرن وإلى تنفّس الفتى بجانبها.

في نهاية المطاف، أمسك يدها. انتظَرت آنا، لأنها لم ترغب أن تبالغ في ردة فعلها؛ ثم بعد عدم إفلاته يدها، وجدت أنه من الغرابة فعل ذلك الآن. هل كانت خائفة أن تُمسَك يدها؟ من الواضح أنه لا. راحت يد الفتى الدافئة تنبض حول أصابعها مثل قلب. *قد لا أكون هنا*، فكَّرت آنا بينما كان ينقل يدها إلى سرواله، حيث القماش مشدود عند الأزرار. يمكنها أن تسحب يدها، بالطبع، لكنها انتظَرت، وهي تفكّر، *قد لا يكون هذا أنا*. امتزجت رائحة التفاح المخمَّر مع رائحة الغبار من السجاد. بينما كان الفتى ينقل

يدها، تحوّلت حشرية آنا عما سيحصل إلى معرفة ما كان يحصل وأصبحت تريده. في نهاية المطاف، تشنّج كما لو أنه لمسَ سلكاً كهربائياً. وتكوّر إلى جنبه وبدا أنه يظن أنها نهاية العملية. لكنه كان مُخطئاً، لأن الشيء الذي كان يجري بينهما حلَّ على آنا أيضاً. أمسكت يده ووضعتها على تنورتها ذات الثنيات، وراحت تتلمّس أصابعه الدافئة إلى أن سَرَت متعة عنيفة فيها.

أدرَكت عندها أن الفتى كان ليون. ربما عرَفت ذلك منذ البداية. "سأخرج أولاً"، قال.

عاودا الانضمام إلى المباراة بشكل منفصل. كان في السادسة عشرة من عمره. ستكون هذه نهاية الأمور، ظنّت آنا. لكنها كانت مخطئة.

كان ليون يعمل مع والده بعد المدرسة في حفر شواهد القبور، لكن حجم الأعمال كان ضعيفاً، كما في كل مكان، ويمكنه الخروج من المتجر في أغلب الأحيان. كانت آنا تلاحظ غيابه من وقت لآخر من مباراة كان يشارك فيها في الخارج قبل لحظات فقط، وتجده ينتظرها في مَراد الدوابّ. كانت تنتظر عبثاً أحياناً أو تعلَم أنه كان ينتظرها. بعدما يصبحان في الداخل، يتنقّلان بالجشع الخفي للسارقين – في البدء، لتكرار مسرّات لقائهما الأول. لكن سرعان ما بدأت طبقات من الثياب تزول وصولاً إلى جمالية اللحم العاري. سرَق ليون بطانية ريش من خزانة أمه ومدَّها فوق السجاد. بعد كل تطوّر صغير، كانت آنا تعد نفسها أنهما فعلا ما يكفي؛ وسيكتفيان بالتكرار الآن. لكن المسار اللذين كانا يسلكانه يتضمن رغبة عارمة بالتقدّم. لم تكن آنا قادرة على تصوّر ماذا كانا يفعلان: وهذا دليل على براءتها. حتى وهي تمضي أيامها تتوق لتجديد حلمهما الداكن، شعَرت كما لو أنه كان يحصل في مكان آخر، لفتاة أخرى. في مَراد الدوابّ الداكن، كانت تنسلّ من حياتها مثل دبوس بين ألواح الأرضية. *لا أعرف ماذا تقصد، فأنا لم أفعل تلك الأشياء*، تخيّلت نفسها تقول، بصدق، لمتّهِم مجهول. حتى *إنني لا أعرف ما هي*.

كاد يُكتشَف أمرهما في مرات عديدة، حيث يأتي مالك القبو ليتفقّد شيئاً؛ أو غاسلة الملابس؛ أو أعضاء العائلة الإيطالية التي كانت تخزّن تفاحها في براميل. لكن فداحة ما كانا يفعلانه سهّل عليهما إخفاءه نسبياً؛ لم يكن أحد ليفهمه. كانت هناك مداعبات في الحيّ، قبلات مسروقة وقسرية، ثلاثة فتيان وفتاتان في خزانة في بيت مايكل

فاسّو - حدثٌ لم يتوقف أحد عن التكلم عنه لأسابيع. كان هناك أحباب يراقبهم الأهل الحذِرون، ولا يفارقوهم لدقيقة واحدة. لكنهم يخططون للقاءات غرامية طوال أشهر؛ فيجلسون عراة بالكامل في حرّ الصيف؟ كان أمراً لا يُصدَّق. لو حاوَلت آنا إخبار ليليان وستيلا بالأمر، لظنّتا أنها تكذب أو فقدت عقلها. لذا أخبرت ليديا فقط.

اليوم الذي خسِرت فيه آنا عذريتها، أحضَرت مسطرة معها. كانت تعرِف من ستيلا، التي أخبرتها أختها المتزوجة، أن المسألة مؤلمة جداً. عندما بدأ الألم، حشرت المسطرة في فمها مثل كلب وتركت أضراسها تعضّ الخشب. لم تُصدِر أي صوت أبداً.

وقد عرَف أن عليه الخروج، بالطبع. كل الفتيان يعرفون ذلك.

كان سرها يؤرقها بشكل كبير أحياناً لدرجة أنها تريد تغطية أذنيها والصراخ. سيتبرّأ منها والدها. شَعَرَت آنا به يراقبها بانتباه حذِر وخشِيَت أن يكون قد خمَّن حصول ذلك بطريقة أو بأخرى. لكن لا يمكنه أن يعرف. فعمله يأخذ كل وقته، وغالباً ما يجعله يغيب طوال الليل. كان يحاول التكلم مع آنا بطريقتهما القديمة من وقت لآخر، لكنها فقدت عادةْ التكلم معه ولم تعد تريد ذلك. شعَرت بخيبة أمله لكنها لم تكن قادرة على منع نفسها من فعل ذلك. فقد خيَّب لها أملها قبل أن تخيِّب له أمله.

عندما اختفى، لم تشعر آنا سوى بارتياح. وبعد أسبوع أو أسبوعين تقريباً، عندما بدأت جسامة غيابه تسبّب لها الشعور بالغثيان، ذهَبت إلى مَراد الدوابّ مع ليون لكي تنساه.

سرت إشاعات في المدرسة الثانوية عن فتيات اضطررن إلى ترك مقاعد الدراسة فجأة لكي "يعشن مع علاقاتهن". إحداهن، لوريتا ستون، كانت متأخرة الآن سنة خلف نظيراتها: فتاة منعزلة معاقَبة كان سبب خرابها المزعوم هو طبق كثير العصارة يلتهمه الأولاد الآخرون. لكن آنا كانت محظوظة: كانت الوحيدة بين صديقاتها التي لم تُصبها اللعنة بعد.

في نوفمبر، بعد ثمانية أشهر من زيارتها الأولى إلى مَراد الدوابّ، أحضَر المالك مجموعةً من أنسبائه ليحفروا ذلك القبو ويحوّلوه إلى مقصف - الطريقة الوحيدة المتبقية لجني بعض المال، حسبما قال. ملأوا أكياساً من الخيش بأحجار وأتربة وبراميل محطّمة وأجزاء مواقد فحم ونقلوها إلى الشارع. راحت آنا تراقبهم مع الأولاد الآخرين الذين صدف أن كانوا في الهواء الطلق. وفي ضوء النهار غير المتسامح، رأت كومة سجاد موبوءة

بالغُثّ ومغطاة بشرشف قذر ملطَّخ بالدم. دخلت مبناها، وأغلقت على نفسها داخل مرحاض في الطابق الأول، وتقيأت.

كانت وليون منزعجين من المودّة المتذلّلة للغرباء الذين ظهروا في أحلام بعضهما البعض. لاحَظت أظافره القذرة، والفجوات بين أسنانه. كان والدها قد غاب منذ شهرين وقتها، لكنها لم تتمكن من التخلّص من الشعور أن ليون سيروِّعه. لم يلمسا بعضهما البعض مرة أخرى أبداً. بل تابَعا عدم التعرّف على بعضهما البعض، وقد نقل والد ليون العائلة غرباً في السنة التالية.

لم يُبنَ المقصف أبداً.

طوال بقية سنوات المدرسة الثانوية وخلال سنتها في كلية بروكلين، حاوَلت آنا التظاهر أنها فتاة لا تعرف شيئاً. كيف ستتصرّف تلك الفتاة عندما يحشرها فتىً على جدار ويحاول تقبيلها؟ هل ستخاف عندما يمرِّر يديه على صدرها تحت كنزتها؟ كان مدى خبرتها خطيراً؛ فإذا عرَف الفتيان ولو بشكل طفيف كل ما فعلته، ستُنبَذ مثل لوريتا ستون. لذا فالحذر الشديد جعَلها جامدة، وراح الفتيان يسمّونها الباردة. "يمكنني رؤية أنك خائفة، لكنني لن أؤذيكي"، قال أحد مواعديها. "أريد فقط إعطاءك قبلتك الحقيقية الأولى". لكن بإمكان القبلة الحقيقية، مثلما تعرف آنا، إطلاق العنان لأمور كثيرة. وتلك المواجهات تنتهي في أغلب الأحيان مع خروج الفتى مصعوقاً. بعد فترة طويلة من فقدانها الأمل بعودة والدها، كانت آنا لا تزال تستحضره من وقت لآخر: شاهد نظريّ على فضيلتها. *هل ترى؟* ستقول. *لستُ امرأة فاسقة في النهاية*.

لكن شاهدها الحقيقي الوحيد، حينئذ والآن، كان ليديا. وتستطيع أختها أن تستمع فقط. لا يمكنها أن تنصحها، أو تردّ على الأسئلة التي تزعجها كثيراً: متى سيُسمَح لها بمعرفة ما تعرفه؟ أو متى ستكون قد نسيته؟

الفصل 10

صباح الأربعاء قبل احتفال الشُكر، كان دكستر ينتظر مع هنري فوستر تحت الأشجار العارية لأكاديمية ألتون. وكانت أصوات الفتيان تلعلع في الهواء، رغم أنه لم يكن يمكنهما رؤية أي واحد منهم. "آسف على التأخير"، قال شقيق زوجته وهو يلقي نظرة سريعة عصبية على منزله الخشبي الآيل للسقوط على مَرجته المتواضعة، المُحاط بمباني الطلبة. "أصبحت بيتسي تستغرق وقتاً أطول من المعتاد لتحضير نفسها".

مثل معظم إخوانه في العشيرة، كان هنري غير قادر على التعبير عن مشاعره في الصميم. لكن دكستر رأى من تعابيره المتألمة أن الوضع لم يتحسَّن في المنزل. "لا تُعِر ذلك أي أهمية"، قال وهو يربِّت على كتف هنري بينما يفحص ساعته خلسةً. كان العجوز واضحاً جداً: لا يجب التأخر على آمر الساحة البحرية. "كيف حال الطفلة؟".

"الصغيرة الجميلة"، قال هنري. "تبكي كثيراً. وبيتسي لا تستطيع تحمّل ذلك". لاحظ دكستر أن المدرِّس يهزّ يديه.

"سيسير كل شيء على ما يرام"، قال.

"هل تعتقد ذلك؟". كانت عينا هنري الزرقاوان الوديعتان مركَّزتين على دكستر بقوة غير اعتيادية، كما لو أنهما تنتظران الرد بفارغ الصبر.

"بالطبع"، قال دكستر.

أخيراً ظهرت بيتسي في ملابس كان دكستر سيعيدها – لو كانت تابي – إلى البيت لتغيِّرها. كانت كنزتها من صوف الأنغورة المكشوفة الصدر وتنورتها الحرير المنفوشة تجعَلانها تبدو مثل سكرتيرة على علاقة غرامية – أو تأمل أن تكون على علاقة غرامية – مع المدير. كان لها نفس شعر هارييت العنّابي وعينيها الشبيهتين بالقطط، لكن طبع بيتسي

النيِّق مَنَع دائماً الأختين من أن تبدوا متشابهتين. كان شعرها الآن مسكوباً، بلا دبابيس، تحت قبعة صغيرة. تبادَل دكستر نظرةً مع هنري - هنري المسكين المفرط الاحتشام - حاوَلا فيها الإقرار بعدم احتشام بيتسي وطمأنته إلى أنه لا يكترث لهكذا أمور. ولماذا عليه أن يكترث؟ كانوا سيلتقون العجوز؛ دعه يؤدِّب إبنته إذا أراد ذلك.

عبير المِسْك اللاذع في عطر بيتسي كاد يُخنق دكستر عندما أُغلقت أبواب الكاديلاك. وأثناء إسراعه على الجادة محاولاً تعويض الوقت الضائع، أدهشَته بإشعال سيجارة. لو كانت رجلاً، لنزعها دكستر من فمها بقوة ونقفها من النافذة مباشرة. لا يُشعِل المرء سيجارة في سيارة رجل من دون إذنه، وبالطبع ليس في سيارة جديدة من السلسلة 62 قشدية اللون مقاعدها من جلد الحَمَل. هزَّ رأسه باقتضاب عندما عرضت عليه علبة السجائر.

"هل أقلعت عن التدخين؟". بدت خائبة الأمل.

"منذ سنوات".

"وأنت تعارض. لقد كلَّمك هنري".

"ولا كلمة".

"أفترض أنه لن يكلّمك".

"هنري يعشقك، أنتِ تعرفين هذا".

"يستحق أفضل"، قالت وهي تزفر سحابة دخان.

"لماذا لا تعطيه إياها إذاً؟".

لم تردّ بيتسي. عندما ألقى دكستر نظرة سريعة عليها، ذُهل من رؤية دموع تنهمر من عينيها، تلطّخ وجهها بالمَسكَرة. "بيتسي"، قال.

"لقد أفسدتُ كل شيء".

"لا تكوني ساذجة".

"أنا أم بغيضة. كل ما أريده هو أن أُترَك وشأني. أتمنى لو يمكنني الهروب والبدء من الصفر كشخص آخر".

بدأت تشهق. سمع دكستر ارتعاشاً في بكائها وأراد أن يركن جانباً على الجادة

ليحاول تهدئتها. لكن لم يكن هناك وقت لذلك. عندما لم يهدأ البكاء بعد عدة دقائق، قال بصرامة، "اسمعيني يا بيتسي. يجب أن تتمالكي نفسك وتحاولي التفكير بوضوح. أنت فتاة رائعة؛ والعالم كله خاتم في إصبعك. أنت فقط...".

هدأت وبدت أنها تُنصت له جيداً. شَعَر دكستر أنها تنتظر تشخيصه بفارغ الصبر على غرار هنري. لكن المشكلة هي أنه لم تكن لديه أي فكرة عن حقيقة الأمر مع بيتسي. "... متوتّرة"، أنهى جملته بشكل مخيّب للآمال.

ضحكت ضحكة ساخرة. "هذا ما يقوله هنري. لقد أصبحت مثله يا دكستر؛ لم أكن لأتصوّر ذلك. أنت وهاتي معاً. أفترض أنك لم تكن جامحاً أبداً مثلما يبدو عليك".

"المظاهر لا تدوم"، قال، لكن ملاحظتها جرحته. ازداد انزعاجه بينما قاد سيارته، ووجَد نفسه يجادل نظرياً (بينما يدوس دواسة الوقود إلى حدها الأقصى): زوجة مدرِّس تتّهمه بوحشية غير كافية؟ هل نسيَت مع مَن تتكلّم؟ يا إلهي!

بالكاد تكلّموا طوال بقية الرحلة. بقيت بيتسي تدخّن - أربع عشرة سيجارة بالإجمال، لكن مَن يعدّ - وأصلحت وجهها بعناء بعلبة ماكياج صغيرة. حين ركَنَ دكستر السيارة خارج بوابة الساحة البحرية قبل ثلاث دقائق من الموعد المحدَّد، شعَر كما لو أنه دخَّن علبة سجائر كاملة بنفسه. كان أكيداً أن لون مقعد السيارة ازداد قتامة قليلاً.

لاقاهم أربعة مارينز عند البوابة ووزّعوهم على سيارات مُعدّة للجولات. لم يضيِّع دكستر الوقت في مناورة بيتسي إلى سيارة مختلفة عن سيارته. ثم رَكِب مع العجوز، الذي جلس على المقعد الأمامي مع تابي والجندي السائق. لهفة تابي لهذه الزيارة، التي ذكرتها بحماسة عدة مرات، أعادت ثقة دكستر بوقارها. كانت المقارنات لعبة البلهاء، لكنه وجدها مؤثِّرة بالكامل، بشعرها المرفوع كامرأة ناضجة ووجهها الواعي المهتم، مثل غرايدي في زيّه الأزرق، الجالس على يمين دكستر على المقعد الخلفي.

بدأوا من مستشفى الساحة البحرية، حيث كان صفّ من الرجال والفتيات ينتظرون في الخارج للتبرّع بالدم. وكانت هناك فرقة موسيقية تعزف "تذكَّروا بيرل هاربر". راح دكستر يتفحّص وجوه الفتيات، متسائلاً إن كان سيرى الفتاة التي التقاها في النادي منذ بضعة أسابيع، لكن إما أنها لم تكن هنا أو أنه لم يتذكَّر شكلها جيداً لكي يتعرَّف عليها. ترجّلوا من السيارات بعد ذلك ليشاهدوا رافعة تقبض على برج مدفع بحجم الترامواي،

وتلوّح به فوق الماء، وتضعه على ظهر بارجة عائمة. تشبّثت بيتسي بذراع جورج بورتر، الذي كان قد جاء من دون ريجينا، الحمد لله. ليتولى جورج مهمة الاهتمام ببيتسي لبعض الوقت.

"التخرّج بعد ثلاثة أسابيع؟"، سأل دكستر غرايدي أثناء مراقبة الرافعة.

"نعم سيدي. ثلاثة ونصف".

"عندما تقول لي 'سيدي' يا غرايدز، أشعر أن ضابطاً يقف خلفي".

"أقول له هذا باستمرار"، قال كُوبر بنبرة مسبِّبة للدوار.

"قوة العادة، س–"، ومنع غرايدي نفسه من إكمال الكلمة مع ابتسامة. كان طويلاً ووسيماً، وهناك تلألؤ ماكر في عينيه الواسعتين.

"أي فكرة متى ستُبحرون؟"، سأل دكستر.

"خير البِرّ عاجله"، قال غرايدي. "لقد سئمتُ من كتابة مقالات عن الحروب القرطاجية في حين أن لدينا حربنا لنخوضها".

"لسنا على عجلة من أمرنا لنراك تذهب"، تشدَّق كُوبر مُلقياً ذراعه حول كتفَي إبنه، الأعرَض من كتفيه بوضوح. "ستكون هناك حروب كثيرة لكي نخوضها".

تصلَّب غرايدي من لمس والده له. "هذا ما كنتُ أتدرَّب عليه يا أبي"، قال.

كان المبنى 128، محطتهم التالية، ورشة ميكانيكية شاسعة تضم مكابس وتُربينات وبكرات تتحرّك كلها نحو هدف غامض. والرياح تهبّ من جهة النهر، فتجعل أوراق شجر جافة تتطاير في دوائر. كانت تابي ترتعش. لم يكن دكستر قد ارتدى معطفاً طويلاً، لكن غرايدي، الذي كان يحمل معطف جَدّه على إحدى ذراعيه (فالعجوز كان منيعاً ضد أحوال الطقس بشكل غريب)، ذهَب إلى تابي ووضعه على كتفَيها. بدا أنه تلكّأ هناك للحظة زائدة، حاضناً المعطف حول تابي – حاضناً تابي – ورفعت وجهها لتنظر إليه، راسمةً ابتسامة خاصة على شفتيها. جمُد دكستر في أرضه، مركِّزاً عينيه على إبنته وإبن أخيه، وأصوات الآلات تصمّ أذنيه. *ماذا أرى؟* فكّر في سرّه. عادت إليه صورة دبوس علبة أمانيها، المطلي بالأحمر، والسر المكوَّر داخله.

بعد عودتهم إلى السيارة، حاوَل طرح السؤال من باله. غرايدي كان في الحادية

والعشرين تقريباً، وعاش بعيداً عن المنزل طوال القسم الأكبر من السنوات السبعة الأخيرة، منذ أن غادر إلى تشوت. كان رجلاً تقريباً، بينما تابي فتاة بالكاد في السادسة عشرة من عمرها. لكنهما أمضيا الصيف الماضي في نيوبورت معاً، يُبحران على يخت كُوبر، ويتسكّعان في النادي بعد كرة المضرب. ماذا حصل بينهما؟ غرايدي كان مُطيعاً، نعم، لكنه عابث أيضاً - كان كل ذلك جزء من سحره. كافح دكستر ليسحب نفسه من دوامة التفكير هذه. لم يكن تقبيل الأنسباء لبعضهم شيئاً جديداً، طالما أن المسألة توقفت عند حدود التقبيل فقط.

هل كانت المسألة بأكملها من بنات أفكاره فقط؟

هناك ثمانمئة فتات يعملن داخل المبنى 4، ورشة إنشائية، محطتهم الأخيرة. كان من الصعب تمييزهن عن الرجال - خاصة عاملات التلحيم، بقفازاتهن السميكة ودروع وجوههن. عليك أن تلجأ إلى تفحّص القوام، بينما تنتقل مجموعتهم من خليج إلى خليج. أصبح دكستر بارعاً في هذا. فتيات يحملن مواقد لحام. فتيات يقطعن المعدن إلى قِطع؛ فتيات يصنعن قوالب لِقطع السفينة من الخشب. هناك واقعية حتى في الجميلات منهن؛ *انظر أو لا تنظر*. كانت هناك أوشحة مربوطة فوق شعرهن. غالباً ما كان دكستر يرثي نعومة الفتيات المعاصِرات، لكن هذه السيدات بدَونَ أكثر من قادرات على تلقيم مسدَّس. تباً، يمكنك ارتداء قِراب كتف تحت إحدى تلك البذلات من دون أن ينتبه لك أي شخص.

"مؤثّر، أليس كذلك؟"، قال معلّقاً لتابي.

استدارت، متورِّدة الخدّين. "ماذا؟".

"الفتيات. ألم يكن هذا ما أردتِ رؤيته؟"، سألها بنبرة لاذعة. "أليس هذا سبب قدومنا كلنا إلى هنا اليوم؟". لكنها كانت كلمات فارغة. كان يعرِف الجواب: كانت حماسة تابي لرؤية غرايدي، وليس الساحة البحرية. كان الأمر برمّته مخصصاً له فقط لا غير.

"لا أتذكّر يا أبي"، قالت وهي تلمس شعرها بذهن مشتت. "اعتقَدتُ أنك أنت مَن أراد القدوم إلى هنا".

عندما وَصَلت آنا إلى مقدمة صف التبرّع بالدم، سمِعت ديبورا، وهي امرأة متزوجة

تلقّبها روز "الحنفية"، تسأل إن كانت هناك طريقة لضمان ذهاب دمها إلى زوجها مباشرة.

"آسفة، لكن هذا غير ممكن"، قالت الممرضة. "كما أن فئة دمك ليست نفس فئة دمه".

"إنهما نفس الفئة"، ناحت ديبورا. "أنا متأكدة من هذا".

"ها هي تنفجر"، همَست روز.

"هل أنتِ متأكدة تماماً؟"، سألت الممرضة بنبرة مهدئة للأعصاب بينما أدخلت الإبرة في ذراع ديبورا. "هناك شيء واحد لا يجب أن تفعليه أبداً بتاتاً هو إعطاء أحدهم الفئة الخطأ من الدم. هذا سيكون خطيراً جداً. إلا إذا كانت فئة دمه AB، والتي يمكنها تقبّل أي فئة دم أخرى. هل يصدف أن تعرفي فئة دم زوجك؟".

ضاع جواب ديبورا في الضجيج. رفعت لها الممرضة ذراعها بلباقة بينما راح الدم يتدفّق منها إلى أنبوب بلاستيكي شفاف. كانت الفرقة الموسيقية تعزف "لا تجلس تحت شجرة التفاح".

"خمس سنوات زواج"، قالت روز لآنا بلطف. "ستوقف نحيبها، أعدُك". كانت روز في الثامنة والعشرين، أكبر من معظم المتزوّجات، ولديها شعر مجعَّد داكن تحسدها عليه معظم الفتيات. كانت تتكلّم عن زوجها وهي تقلب عينيها ساخرةً وتقول إنها قادرة على النوم أكثر في غيابه. وصفت مَلْفين، إبنهما الصغير، "مصدر إزعاج"، لكن مع نظرة مُتيَّمة بحيث فهِمت آنا أنه ليس أمامها أي خيار سوى أخذ كلامها على سبيل المزاح.

بينما كانت آنا تراقب دمها يتدفّق عبر الأنبوب، سألت، "هل يُفترَض أن يكون أحمر إلى هذا الحدّ؟".

ضحِكت الممرضة. "بأي لون آخر سيكون؟".

"إنه... ساطع جداً".

"هذا الأكسجين. لن تريدينه أن يكون بأي لون آخر".

ألقت آنا نظرة سريعة على صف الكراسي القرمزية المتماثلة بحثاً عن نَلْ. لقد اختفت صديقتها من دون إنذار مسبق قبل أسبوع. بقيت آنا تنتظرها بجانب المبنى 4

خلال خمس استراحات غداء متتالية قبل أن تصعد إلى علّية القوالب لتستفسر عنها. كانت مُحرَجة من عدم معرفتها كنية صديقتها، لكن الجميع كان يعرف مَن هي نَلْ. وذِكر إسمها أحدَثَ صمتاً مُطبقاً بين الفتيات كان مألوفاً جداً لدى آنا من ورشتها. قال النزِق إن نَلْ لم تأتِ إلى العمل ذلك الأسبوع. ولم يكن يتوقع عودتها.

لم يكن هناك شيء مفاجئ كثيراً في ذلك، لكن آنا بدت غير قادرة على تخطّيه. ربما الدراجة الهوائية دلّلتها. وهي تشعر الآن أنها مسجونة بين أزقة الساحة، وضوء الشمس المائل بالكاد يتخطى أسطح البيوت حتى في وقت الغداء. ربما كانت كآبة ورشتها الآن بعد أن انقلبت المتزوّجات عليها. فباستثناء روز، كنَّ يعاملنها بتهذيب قسري، كما لو أزواجهن يهمسون إسمها في نومهم. كانت آنا تواسي نفسها بفكرة الهرب من ورشتها لكي تصبح غطّاسة. وتركض كل مساء إلى الرصيف البحري C بعد انتهاء دوام العمل لتبحث عن البارجة قبل زوال الضوء. أرادت أن تسأل السيد قوسّ عن كيفية التطوّع للغطس، لكنها لم تتمكن من إيجاد طريقة لتفعل ذلك من دون أن تبدو جاحدة.

بعد تبرّعهن بالدم وأخذهن فترة الاستراحة الإلزامية، ركبت آنا وروز حافلةً عائدتين إلى بوابة ساندز ستريت. كانتا ترتديان ملابس عادية من قبل؛ فقد كان يُسمَح للفتيات بمغادرة العمل لبقية اليوم بعد التبرّع بالدم. ويتم تشجيعهن على شرب عصير فاكهة، وقرّرت روز أن هذا يعني أنها يجب أن تتناول وآنا كوب شراب عنب مع الغداء. "إنه عصير فاكهة، بصراحة وأمانة"، قالت.

اقترحت آنا الذهاب إلى محطة ساندز ستريت، التي كانت مُعجبة ببحّارتها، لكن روز كانت مقتنعة بفكرة أن الفتيات اللطيفات لا يستطعن السير هناك بأمان، حتى في ضوء النهار. استقلّتا الترامواي إلى فندق سانت جورج، في شارع هنري، وركبتا مصعداً إلى "مصطبة برمودا"، التي تُطلّ على بروكلين وتشهد حفلة رقص ليلاً. طلبتا طبقَي معكرونة – أرخص بند في القائمة – ودَورق صغير من شراب العنب الأحمر. كانت آنا قد كرِهت شراب العنب الذي تذوّقته لدى ستيلا إيوفينو، لكنها شَعَرَت أن تناول بعضٍ منه مع روز قد يجعل نوعاً مختلفاً من المحادثة ممكناً. وبالتأكيد، عندما أعاد النادل ملء كوبيهما، قالت روز، "يجب أن تعرفي ماذا تقول الفتيات. عنك وعن السيد قوسّ".

"أظن أنه يمكنني التكهّن".

"يقولون إنه هجر زوجته وأنتِ السبب".

"إنه لا يرتدي أي خاتم".

"كان يرتدي في السابق - هذا ما يقلنَه. أنا لم ألاحظ أبداً. هل هذا صحيح يا آنا؟".

"بالطبع لا".

"كنتُ متأكدة! وقد أخبرتهن بذلك: 'إنها ليست من هذا الصنف من الفتيات'".

"أتساءل إن كان السيد ڤوسّ يعرف بأمر الإشاعات"، قالت آنا.

"لقد فعل كل شيء ليتسبَّب بها!".

"هل يمكنهن إيقاعه في متاعب؟".

حدَّقت بها روز بطريقة أشعرتها أنها ساذجة ومُراوِغة. "أنتِ مَن سيقع في متاعب على الأرجح يا آنا"، قالت. "استدعاؤك إلى مكتبه، إرسالك في مأموريات خاصة؛ لن يتوقف الأمر عند هذا الحد. سيتوقع منك شيئاً في المقابل - أنا متفاجئة أن ذلك لم يحصل بعد. لقد سمِعتُ نفس هذه القصة عشر مرات خلال عملي في شركة الهاتف: سيريد مكافأته عاجلاً أم آجلاً، ثم تجدين نفسك في موقف مريع. إذا رفضته، سيغضب - وقد يطردك أو يُطلق بعض الإشاعات البغيضة عنك. وإذا استسلمتِ له، حسناً. عندها ستصبحين صنفاً مختلفاً من الفتيات".

"كيف يمكن أن تؤذيني الإشاعات إذا لم تكن حقيقية؟".

بدت روز مصدومة. "لا يهمّ إن كانت حقيقية أم لا"، قالت. "إذا ساءت سُمعة الفتاة، لن يعود الفتيان اللطيفون يرغبون بها".

"لأنهم سيعتقدون أنها أذنبَت؟".

"وفق كلماتك، نعم، أفترض ذلك. آه، من الصعب التكلم عن هذا يا آنا".

"سأنظر في الاتجاه الآخر". استدارت إلى النوافذ، حيث كانت أصوات زحام النهر الشرقي مكتومة عند هذا الارتفاع. كان هناك شيء أرادت إخبار روز به، لكنها لم تجد طريقة مناسبة لقوله من دون أن تبدو فائقة الخبرة أو غبية بشكل ميؤوس. لم يكن السيد

فوسّ مهتماً بها بتلك الطريقة. ولم يكن هناك أي شعور من ذاك القبيل بينهما؛ كانت آنا متأكدة من ذلك.

"إذا لم تكن الفتاة لطيفة، سيظنّ الناس أنها مصدر للمتاعب"، قالت روز بصوت ناعم بينما كانت آنا تراقب النهر. "سينظرون إلى الاثنين ويقولون: *إنه مصدر لمتاعب زوجية*. لا يوجد رجل يحترم نفسه يتحمَّل ذلك".

"لكن عملياً كل الرجال غائبين في الخدمة"، قالت آنا. "كيف يستطيع أي شخص أن يتذكَّر مَن كانت لطيفة ومَن لم تكن لطيفة عندما ينتهي كل شيء؟".

"السُمعة تدوم"، قالت روز. "تتبعك إلى كل مكان. ويمكنها أن تتدخّل على نحو مفاجئ كلياً، ولا توجد أي طريقة لمحوها. بعد الحرب، سيعود العالم صغيراً من جديد. وسيعرف الجميع كل شيء، تماماً كما من قبل".

عادت نظراتهما من توهانها. ورأت آنا جدّية وجهداً على وجه روز وشَعَرت بمَوَدّة عميقة تجاهها. "لا يجب أن تقلقي"، قالت. "لديَّ فتى لطيف من قبل".

"آه!".

"من حيي"، أكملت آنا تقول. "كنا في نفس المدرسة. والعلاقة واضحة بيننا منذ فترة طويلة".

"آه، آنا. لم تذكريه أبداً".

كانت قد مرّت سنوات عديدة منذ أن اختلقت قصة من خيالها. أعطاها ذلك شعوراً بالعودة إلى زمن سابق عندما كانت تُستجوَب أكثر ولم تكن هناك حِيل كثيرة تحت تصرّفها. بالإضافة إلى ذلك، فكّرت في سرّها وهي تنظر إلى وجه روز المرتاح والفرِح، الناس يخبرونك عملياً بالأكاذيب التي يريدون سماعها.

"لا بدّ أنه ما وراء البحار"، قالت روز، وأومأت آنا برأسها، وكانت على وشك أن تضيف "البحرية" عندما اختنق صوتها وشعرت بألم غير مفهوم في عينيها. عزت ذلك إلى زهرة القرنفل الحمراء الوحيدة على طاولتهما وراقبته يتلاشى.

"أنت كتومة جداً بشأنه، يمكنني رؤية هذا"، قالت روز وهي تُمسك يد آنا. "لن أقول كلمة واحدة للفتيات".

استأذنت آنا لتذهب إلى حمّام السيدات، وأسرعت لتمسح عينيها بمنديلها، مُحتارة من ارتفاع منسوب الأحاسيس لديها. لا شكّ أنه شراب العنب.

انتظرتا وصول الترامواي الذي يذهب إلى شقة روز لكي تستطيع آنا التعرّف على مَلْفين الصغير. وراحت تفكّر بالسيد ڤوسّ خلال الرحلة. لقد تقصَّد أن يميّزها عن بقية الفتيات، لكن ليس للسبب الذي يظنّه الجميع. ماذا كان السبب الحقيقي؟ بينما كانت آنا تقلّب هذا السؤال في ذهنها، وجدت أن الجواب لا يشكّل أي فرق لها. كان يريد شيئاً منها. وهي تريد شيئاً منه.

قُدِّم الغداء في غرفة الطعام البيضوية الشكل في مقرّ الآمر، وهو عبارة عن دفيئة استعمارية صفراء كبيرة على تلة عشبية لا شكّ أنها كانت تطلّ على شَطّ نقي فيما مضى، وتوفّر الآن منظراً فخماً لمداخن متماوجة. شرحات ليمون في أباريق الماء، لفائف زبدة على ثلج، مُمالح فردية: يعرف ضباط البحرية كيفية إقامة حفل غداء. جلَس آرثر بيرينجر على يمين الآمر؛ فقد خدما معاً في الفيليبين في العام 1902. وكانت كل كلمة من حديثهما موجَّهة لتثقيف الضيوف العشرين ونيّف: مصرفيون ومسؤولون في الدولة وبضع زوجات.

"اسمع، سيكون لطيفاً استعادة تلك الجُزُر"، قال العجوز مع ضحكة خافتة. كان يقصد الفيليبين.

"آه، أنا واثق أننا سنستعيدها"، قال الآمر. كان أميرالاً بحرياً استُدعي من التقاعد، ثرثاراً وبديناً. لاحَظ دكستر أن مسؤولياته الجديدة الكبيرة لم تؤثر على قدرته على التمتّع بتناول ديك مسمَّن.

"نادراً ما يقبل الجنرال ماكآرثر الرفض، هذا صحيح"، ردَّ عليه العجوز.

تبادَل دكستر وجورج بورتر النظرات. كان كلاهما يعلم أن حماهما يزدري ماكآرثر، ويسمّيه "دوغ المخبأ"، بما أن اليابانيين طردوه من الفيليبين في مارس الفائت.

جلس تابي وغرايدي مقابل دكستر، وكانا يتجاهلان بعضهما البعض بشكل لافت قليلاً. فأصبح لديه شكّ أن قدميهما متشابكتان تحت الطاولة، وفكَّر في إيقاع منديله عن قصد لكي يتمكن من إلقاء نظرة، مثل ممثل في فيلم كوميدي.

"كان نوفمبر أفضل شهر للحلفاء، بفضل شباب مثل هذا الشاب"، قال الآمر وهو يرفع كوبه نحو غرايدي. "لدينا حصار في ستالينغراد وعمليات إنزال في شمال أفريقيا. وقد بدأ أعداؤنا يعانون بشكل جدي: عشرون ألف قتيل ياباني على طريق كوكودا في غينيا الجديدة! ملاريا، عفن الأدغال... ذلك اللحم النتِن يتورَّم فلا يعودوا قادرين حتى على ارتداء أحذيتهم. إنهم يزحفون حفاةً في الوحل".

"الوحل مرتعٌ لنمو الطفيليات"، قال جورج بورتر مقدِّماً وجهة نظره كجرّاح. "تدخل الجراثيم عبر أي شقّ صغير في الجلد، وسرعان ما يصبح لديك زُحار، ديدان شريطية ...".

وضع عدة ضيوف شوَكهم من أيديهم، لكن العجوز أضاف مستمتعاً، "وماذا بشأن ذلك الذباب اللادغ في طبرق؟ الألمان معتادون على الغابات؛ ولم يروا ذبابة صحراء رأيت. تلتهب اللدغات، وسرعان ما يجدون أنفسهم يجرّون أطرافاً مصابة بالغنغرينا على الرمل!".

"الشتاء في روسيا"، قال الآمر بصوت مدوٍ، وهو يلوِّح بيده طالباً ديكاً مسمَّناً آخر. "أصابع الألمان المصابة بلسعة الصقيع تنكسر مثل جصّ باريس!".

ابيضَّ وجه السيدة هارت، إحدى السيدات القليلات الحاضرات، تماماً. فقال دكستر، بعد أن أحسَّ الحاجة إلى موضوع جديد، "سُررتُ كثيراً لرؤية عدد كبير من الفتيات يعملن في ساحتك البحرية، حضرة الأميرال".

"آه، يسرّني أنك لاحَظت ذلك"، قال الآمر. "لقد فاقت الفتيات كل توقّعاتنا. ستتفاجأ - أنا شخصياً تفاجأتُ - في الواقع أن لديهن بعض الحسنات. إنهنّ أصغر حجماً، وأكثر مرونة؛ ويمكنهن أن يتّسعن داخل مساحات لا يستطيع الرجال الاتساع فيها. والأعمال المنزلية جعلتهن رشيقات، مع كل أعمال الحياكة والخياطة، ورتق الجوارب، وفرم الخُضار ...".

"نعامل فتياتنا بلطف كبير، هذه حقيقة"، صرَّح رجل بدا مُتخَماً عند طرف الطاولة البعيد. "في الجيش الأحمر، تعمل الفتيات كمُسعِفات - ينقلن الجرحى من ساحات القتال على ظهورهن".

"يقودون الطائرات أيضاً"، قال شخص. "القاذفات".

"هل هذا حقيقي؟"، سألت تابي.

ضحك العجوز ضحكة خافتة. "لقد تربَّت الفتيات السوفياتيات بشكل مختلف قليلاً عنك يا تَبِثا".

"دعونا لا ننسَ"، قال الآمر، "أن الجيش الأحمر يتضمن كتيبة كاملة وظيفتها الوقوف خلف الجنود وإطلاق النار عليهم إذا حاولوا الفرار. هؤلاء أشخاص غير لطيفين".

"آمل أنك لا تدع الفتيات يفعلن كل شيء يفعله الرجال، حضرة الأميرال"، قال كُوبر.

"بالطبع لا"، قال الآمر. "الأعمال التي تتطلّب قوة جسدية أو تحمُّل ظروف قاسية محظورة عليهن. في تلك الأعمال، الفتيات تسمّى 'مساعِدات' - يساعدن رجلاً أعلى مقاماً منهن. ونُبقيهن خارج السُفن".

بيتسي، التي لم تنطق بأي كلمة حتى الآن، تكلّمت فجأة. "ألا يحق للفتيات بالتواجد على السُفن؟"، سألت. "هل هذه قاعدة؟".

"آه نعم. نحن حازمون جداً بهذا الشأن".

"ألا يحق للفتيات التواجد على السُفن في *ساحةٍ بحريةٍ*؟".

استدار الجميع للنظر إلى بيتسي. بدت جميلة بوجهها المتورِّد وشعرها المتطاير في الريح، كما لو أن تعاستها المضطربة زكَّت بعض النار فيها. راح دكستر يراقب العجوز، متسائلاً إن كان سيلجمها، لكن آرثر نظر إليها بفتور بينما غَمغَم الآمر شيئاً عن الأماكن المغلقة والمساحات الضيقة. قال، "أنتم تفهمون"، أكثر من مرة، وكان كل الضيوف - ما عدا بيتسي، التي كانت تنظر إليه بمرارة - يومئون برؤوسهم مثل عفاريت العُلب.

بعد الانتهاء من تناول خوخ ميلبا، عرضت زوجة الآمر تقديم جولة في المنزل الذي عاش فيه الكومودور بيري قبل مئة سنة. وافَق غرايدي وتابي، وعدة آخرين. كان دكستر ينوي المشاركة في الجولة لكنه غيَّر رأيه عندما نهض كُوبر؛ يمكنه أن يعيش من دون مزيد من التبجّح بشأن غرايدي. قدَّم الآمر بعض الشراب والسيجار، وعاد الحديث إلى سحق

الانتفاضة الفيليبينية، وشكَّل عدة ضيوف جمهوراً شرِهاً.

كان دكستر خاملاً من الغداء الثقيل؛ أراد أن يطرطش بعض الماء البارد على وجهه. قاده زنجي مسنّ إلى حمّام تبيَّن أنه مشغول؛ ثم إلى حمّامٍ ثانٍ أبعد قليلاً، بالقرب من المطبخ. وعندما تبيَّن أن الباب مُقفل أيضاً، أخبره دكستر أنه سينتظر. كان على وشك أن يفتح باباً يؤدي إلى الدفيئة عندما سمِع ضجيجاً خلفه. عاد إلى باب الحمّام ووَقَف بالقرب منه، مستمعاً. همسات، تأوهات، تنهّدات - لا مجال لِلَّبس بشأن ما يجري خلف ذلك الباب. فكرته الأولى - عن إبنته وغرايدي - جعلت الدم يجفّ في جمجمته.

"آه... آه... آه...".

أنين أنثوي إيقاعي ترتفع حدّته من داخل الحمّام. تطوَّح دكستر بعيداً وخرج من الباب إلى العشب الجاف مترنِّحاً. جَعَله الدوار يرى الساحة البحرية تتراقص تحته، وارتخى عند الدفيئة، وهو يلهث. انحنى أخيراً، واضعاً مَرفقيه على رُكبتيه، وترك الدم يعاود الانسياب إلى رأسه. كان قد أوشك على فقدان الوعي.

"أبي؟".

قوَّم ظهره بسرعة، مرتبكاً. كان صوت تابي آتياً من فوق، ورفع رأسه ليبحث عنها. كانت هناك، تلوِّح من نافذة في أعلى الجزء من المنزل. الارتياح الكبير الذي شعر به دكستر أحدَثَ موجة جديدة من الدوار. وشَعَر أن رُكبتيه رخوتان. لا بدّ أن هناك خطأً ما فيه لكي يفكِّر بهكذا أمر بشع.

"ما الأمر يا أبي؟".

"لا شيء"، قال بصوت ضعيف. "أنا في عافية تامة".

"تعال وانظر. المنظر رائع على مدار المنزل".

"أنا قادم"، صاح لها، وعاد إلى الداخل في نفس اللحظة التي فُتح فيها باب الحمّام وخرج جورج بورتر نصف مبتسم، وراح يعدِّل صُدرته بيدين لا تزالان رطبتين من غسله لهما. بدا جافلاً مثل دكستر تماماً. أغلَق جورج باب الحمّام بسرعة، لأن المرأة على ما يبدو كانت لا تزال في الداخل. عرَف دكستر فجأةً أنها بيتسي - كما لو أنه تعرَّف على نبرة صوتها في كل تلك التأوهات التي سمعها خلف الباب. كان من المستحيل عليه إخفاء

دهشته الكبيرة، وقد رأى جورج ذلك. ابتسم بانزعاج وابتسم له دكستر بدوره، جاهداً ليحافظ على حياده الدائم تجاه طيش شقيقة زوجته. بينما سارا بصمت نحو غرفة الطعام، شَعَر دكستر بالحاجة ليقول شيئاً ليصدّ الشيء المروِّع الذي شهِده. لكن شيئاً لم يتبادر إلى ذهنه.

جلَسا بعيداً عن بعضهما. عاودت بيتسي الظهور بعد حين، وبدت مسالمة لأول مرة خلال هذا اليوم. جلَست بجانب والدها ووضعت ذراعها حوله، وأراحت خدّها على كتف العجوز. تدريجياً، أثمَرَ ارتياح دكستر المشوَّش الذهن بشأن براءة تابي شعوراً بسوء وشيك. فخيانة جورج لحميه بهذه الطريقة - أن يهدِّد سُمعة أكبر بناته وأصغرها خلف ظهره مباشرة، في منزل أميرال استضافه كضيف شرف - كانت إثماً رديئاً جداً لدرجة أنه بدا أنه يعرّضهم جميعاً للخطر. ماذا سيحصل إذا عرَف آرثر بيرينجر؟ وكيف لن يعرف، عندما عرَف بعمليات الإنزال في شمال أفريقيا قبل حصولها بأسابيع؟ وشَعَر دكستر أن جورج بورتر كان بمثابة الميت.

لكنه كان يمزج ممالكه. فقط في عالم الظل كان الرجال يموتون لهكذا أسباب. وليس في فلك العجوز - ما عدا مجازياً على الأرجح. لكن دكستر لم يكن قادراً على التخلّص من شعوره بتهديد وشيك. تذكَّر التأوهات التي سمعها خلف باب الحمّام. وما زاد من خِزيه وإرباكه أن إيقاعها استثاره الآن، ووجَد نفسه يستذكرها مراراً وتكراراً: متعة متفجِّرة جداً، جارفة جداً، لدرجة أنها تبرِّر حتى خطر الإبادة.

كان دكستر يعرف خطر مطاردة متعة ممنوعة. فقد علّمته ذلك امرأة على متن قطار إلى سانت لويس، ويمكن القول إنه لم يتعلَّمه بعد منذ ثماني سنوات، عندما طرقت بخفة كبيرة على باب عربة نومه في الدرجة الأولى بعد منتصف الليل. كانا قد لاحَظا بعضهما البعض في عربة العشاء، وتبادَلا بضع كلمات في الرواق. كانت ترتدي خاتم زواج (على غراره) وقلادة ذهبية صغيرة في عنقها، لكن كانت هناك شهوانية متمرِّدة جليّة فيها. زيارتها الليلية أطلقت فترةً من الفِسق امتدّت إلى اليوم التالي - انحفرت في ذاكرة دكستر مع الأرض الزراعية المتجمِّدة التي كانت تمرّ خارج ستائر النافذة. حتى الآن، وأثناء قيادته السيارة في يناير عبر نيوجيرسي أو لونغ آيلند، غالباً ما يجد نفسه يستذكر الومضات المتلاشية لتلك الحقول المتجمِّدة.

ترجّلا بعد ظهر ذلك اليوم في آينجل، إنديانا، وهما عازمان على - ماذا؟ عازمان على المتابعة. حجزا غرفة في فندق قديم كبير بالقرب من المحطة تحت إسم السيد والسيدة جونز. شَعَر دكستر بتغيير فوراً: الآن وقد أصبحت مناظر الشتاء الجرداء من حوله، بدلاً من المناظر المتحرّكة بشكل جذاب، خفّ إعجابه بالأمر. وتلت ذلك عوامل مزعجة أخرى: كره مفاجئ لعطرها؛ كره مفاجئ لضحكتها، قطعة اللحم الجافة التي قُدِّمت له في مطعم الفندق، بيت عنكبوت متدلٍّ من فتحة الضوء فوق السرير. بعد المجامعة، نامت نوماً عميقاً. لكن دكستر بقي مستيقظاً، يستمع إلى عواء الكلاب، أو ربما كانت ذئاب، وقرقعة الرياح على زجاج النوافذ الرخوة. كل شيء كان يعرِفه بدا بعيداً بشكل لا يمكن إبطاله: هاربيت، أولاده، المهمة التي طُلب منه إنجازها للسيد كيو - بعيداً جداً لكي يكون قادراً على استعادته. شعَر بمدى سهولة انزلاق حياة الرجل من بين يديه، فتنفصل عنه آلاف الأميال.

في الضوء الخافت ما قبل الفجر، ارتدى ملابسه، ووضّب حقيبة سفره، وأغلق باب غرفة الفندق بهدوء. سار إلى المحطة تحت خطوط الهاتف المتهدِّلة وإشارات المرور المتمايلة واشترى تذكرة في القطار التالي. كان ذاهباً في الاتجاه الخطأ، نحو سينسيناتي، لكنه استقلّه على أي حال. كان قد ترك ورقة عشرين دولاراً على المكتب، وهي حركة ندِم عليها فور وصوله إلى الشارع، وندِم عليها أكثر عندما فكّر فيها. لم تكن بائعة هوى. كانت شخصاً مثله.

عندما وصل إلى سانت لويس، متأخراً يومين تقريباً، وجَد برقيات عاجلة من هاربيت: كاد فيليب يموت من التهاب الزائدة الدودية. وقد أتى مساعد السيد كيو وذهب من دون إيجاده؛ كانت الرحلة بلا طائل. ادّعى دكستر أنه أصيب بحمى مفاجئة: هلوسات على القطار، فقدان للوعي، نقل إلى المستشفى. كان ذلك من نوع القصص التي قد تُفلِت من عواقبها مرةً في حياتك، عندما تكون بعيداً جداً، إذا لم يكن لدى أحد أي سبب ليشكّ بك. في الواقع، فكّر لاحقاً أن ذلك لم يكن بعيداً جداً عن الحقيقة.

كان جنود المارينز ينتظرون في سيارات الجولة في الممر الدائري الخاص لمسكن الآمر لكي يعيدوا الضيوف إلى البوابة قبل موعد تغيير جنود الحراسة. وكانت هناك سُفن راسية

كأنها أشباح عند الأرصفة البحرية. قرّرت بيتسي قضاء الليلة في ساتون بلايس، بمعنى أن دكستر تحرَّر منها، الحمد لله. بالطبع، كان جورج وريجينا يعيشان على بُعد بضعة أبواب فقط عن العجوز – هذا سيكون مريحاً. *لقد أصبحتَ مثل هنري*، قالت بيتسي. ربما هي محقة في ذلك.

أرادت تابي أن تذهب إلى ساتون بلايس وتخبز لمأدبة الشُكر غداً. وافَق دكستر بسهولة وقبَّلها مودِّعاً. بدا غزلها مع غرايدي بريئاً جداً الآن، بالمقارنة مع ما شهِده للتو – لدرجة أنه شعَر بنوع من العطف تجاهه.

واقفاً لوحده خارج بوابة ساندز ستريت، شعَر دكستر بالحاجة إلى تحرير نفسه من العبء. قرَّر أن يهاتف هارييت قبل أن يقود سيارته عائداً إلى النادي، ويتوارى داخل "مقصف ومطعم ريتشارد"، القائم عند الزاوية. كان هناك بحّار يضيف نقوداً إلى حصّالة الهاتف، ويتضرَّع لموعدٍ مع فتاة. تململَ دكستر، وراح ينظر خارج النافذة. فجأة، اندفعت كتلة ضخمة من البشر من البوابات: آلاف الرجال في ملابس العمل وفتاة بين الحين والآخر في فستان احتشدوا في ساندز ستريت مثل مشجّعين خارجين من ملعب إيبيتس بعد مباراة. راح دكستر يراقبهم بشكل خفي، ويحسد صداقتهم الحميمة. كانوا يعملون على الحرب. كان إدراكهم لهذه الحقيقة جلياً في طريقة سيرهم المتحرّرة. ربما كانوا يشعرون بالمستقبل المتلألئ الذي شرحه العجوز في الغداء، يشعرون بدورهم فيه.

تبعثرت الحشود بنفس سرعة تجمُّعها. كان البحّار قد ذهب، وتحرَّر الهاتف. لكن رغبة دكستر بالتكلم مع زوجته زالت. كانت هارييت شخصاً ذا أعصاب باردة – في أيام تهريبه الشراب، ربضَت في سيارته تقهقه خلال تبادلٍ لإطلاق النار. لكن إخبارها عن بيتسي وجورج سيجبرها على حفظ سرّ شنيع أو كشف سمومه. لا. إخبار هارييت كان خطوة خاطئة تماماً – بماذا كان يفكّر عندما قرَّر فعل ذلك؟ لن يُخبر أحداً. سيترك الأمور تسير مسارها الطبيعي على أمل أن تنتهي قريباً، من دون ندوب أو رضوض لدى الطرفين. كان دكستر معتاداً جداً على حفظ الأسرار.

بدأ الغسق يحلّ عندما غادر المقصف. وعندما اقترب من سيارته، رأى فتاة مألوفة تمرّ مسرعةً على الرصيف المقابل. "آنسة فيني"، ناداها. كانت الفتاة التي يبحث عنها، الفتاة التي أخبرته عن الساحة البحرية في المقام الأول.

استدارت، وبدت مرعوبة.

"دكستر ستايلز"، قال. "هل أنت ذاهبة إلى العمل؟".

"لا"، قالت، وابتسمت أخيراً. "تبرَّعت بالدم وغادرت باكراً".

"هل يمكنني إيصالك المنزل؟". كان متلهّفاً لصُحبتها.

نظرت آنا إلى دكستر ستايلز. كانت قد فكّرت فيه كثيراً منذ لقائهما الأخير لدرجة أنه بدا مألوفاً لها بشكل مُوحِش، مشبَّعاً بأهمية داكنة. كان يقف بجانب سيارته كرجل عصابات.

"شكراً لك على أي حال. أحتاج إلى التكلم مع مُشرفي"، قالت، ممنونةً لعذر كان صحيحاً أيضاً. فقد كانت ذاهبة لتسأل السيد ڤوسّ عن التطوّع للغطس. وقد بقيت تنتظر موعد تغيير نوبة العمل.

"لا داعي للشكر. عمتِ مساءً آنسة فيني".

بينما كان يلمس قبعته مودّعاً، شعرت آنا برغبة قوية مفاجئة لإبقائه تحت نظرها. "هل ممكن"، قالت من دون تفكير، "أن أقبل عرضك في وقت آخر؟".

كاد دكستر يتأوه بصوتٍ عالٍ. فامتلاكه سيارة سليمة كان يصرّ على قيادتها بنفسه يعني أنه غالباً ما تُطلب منه خدمات هذه الأيام، حيث أوصلَ إبن أحد الجيران كان يعاني من وجع في أسنانه إلى طبيب الأسنان؛ وأوصلَ هيلز إلى صيدلية تفتح أبوابها طوال الليل عندما احتاجت أمه إلى حبوب لضغط الدم. وطُلبت منه خدمةٌ في إحدى المرات وجَد صعوبة في رفضها؛ احتاج إلى أن يكذب في وقت سابق. "بالتأكيد، سيسرّني ذلك إذا التقينا مرة أخرى"، قال وهو يستعد ليفتح باب سيارته.

"أختي ليست بخير. لقد وعدتُها أن آخذها إلى الشاطئ".

"من الأفضل أن تنتظري حتى الربيع، إذا كانت مريضة".

"ليست مريضة. مشلولة. هناك فتى يحملها نزولاً إلى الشارع".

مشلولة. فتى. سلالم. شعَر دكستر بعناصر هذه الحكاية الكئيبة تسقط حوله مثل أحجار. كانت الآنسة فيني ترتدي معطفاً عادياً من الصوف، بالياً عند كُمَّيه. كان الانتباه لمحن الآخرين نقطة ضعف فيه.

"متى كنت تأملين فعل ذلك؟"، سألها بإصرار.

"الأحد. أي أحد. إنه يوم عطلتي". كانت أمها تمضي أيام الأحد خارجاً، فتترك آنا لوحدها مع ليديا.

كان ذهن دكستر يعمل مسبقاً: إذا ساعَدوا المشلولة بدلاً من دار العبادة، يمكنه تجنّب الموقَّر الجديد (الذي يلاحقه الآن لإصلاح المقعد الخشبي الطويل) ويظل قادراً على الانتهاء قبل موعد الغداء. ومساعدة إنسان مشلول قد يكون الفرصة المناسبة لتذكير أولاده المدلَّلين بحظهم السعيد.

"ما رأيك بهذا الأحد؟"، قال. "قبل أن يحلّ الشتاء".

"رائع!"، قالت. "ليس لدينا هاتف، لكن إذا قلت لي الوقت من الآن، يمكنني أن أطلب من الفتى تجهيز نفسه لإنزالها".

"آنسة فيني"، قال موبِّخاً، وانتظَر.

نظرت إليه، لكن صورته الظلّيّة كانت تحجب عمود الإنارة، مما ترك وجهه في الظلمة.

"هل أبدو أنني أحتاج إلى فتى ليُنزلها السلالم؟".

الفصل 11

"أنتِ مهتمة"، قال الملازم أكسل وهو يحدِّق في آنا الواقفة أمام مكتبه. لم ينهض عن كرسيه عندما أدخلها الجندي إلى مكتبه.

"نعم سيدي"، قالت. "مهتمة جداً".

"وما الذي أوحى لك أن الغطس سيكون مثيراً للاهتمام؟".

تردَّدت، غير متأكدة كلياً. "لقد راقبتُ الغطّاسين على البارجة"، قالت. "من الرصيف البحري C. خلال استراحة الغداء. وبعد نوبة عملي". أتبَعت كل جملة بصمت قصير، منتظِرةً دلالةً منه بأنه فهِم.

"لقد راقَبتِ الغطّاسين خلال استراحة الغداء"، قال أخيراً.

بما أن ذلك لم يكن سؤالاً، وبما أن كلماتها، التي ردَّدها الملازم أكسل، كانت تبدو مضحكة، بقيت آنا هادئة. خلال ذلك الصمت، انتبهت إلى أنها كانت تنظر إلى الملازم من أعلى. ربما شعَر بذلك هو أيضاً، لأنه نهض فجأة: رجل صغير الحجم عريض الصدر في زيّ بحري، ووجهه مسفوع وصبياني بشكل غريب، من دون أي دلالة على وجود لحية. "إذا لم يكن لديك مانع من سؤالي، آنسة كيريغان، فكرة مَن هذه؟".

"فكرتي"، قالت. "فكرتي بالكامل".

"فكرتك بالكامل. لكن فكرتك بالكامل لم تجعل الآمر يهاتفني البارحة ويطلب مني رؤيتك".

"مُشرفي، السيد ڤوسّ –".

"آه. مُشرفك. السيد... ڤوسّ". أخرَجَ الإسم من فمه كما لو أن مقاطعه اللفظية كانت آخر قِطع لحم يمصّها عن عظمةٍ. ثم ابتسم. "أظن أنه متلهّف مثلك تماماً لكي

يُرضيكِ مثلما تُرضينه".

السخرية صدمت آنا، لكن فظاظة الإهانة توضَّحت بشكل أبطأ تدريجياً، مثل حِرق. وجَعَلت الملازم يبدو معتوهاً. لاحَظت سكوناً غير طبيعي يحيط بهما في المبنى الصغير، وتساءلت إن كان يؤدي مشهداً لجمهور خفيّ.

قالت ببرودة، "هل هناك اختبار تُخضِع الأشخاص له لترى إن كان يمكنهم الغطس؟".

"لا يوجد اختبار. فقط الملابس. هيا نجرّبها لنرى الحجم".

"عليَّ؟".

"لا، على ذلك الإسكيمو الواقف هناك".

كان السيد ڤوسّ قد حاوَل ثنيها عن القدوم. "لا يريدونك"، قال بعد مهاتفة الآمر. "أخشى أن العملية لن تكون لطيفة". افترَضت آنا، بغباء، أنه لم يكن يريد أن يخسرها.

تبعت الملازم في رواقٍ كله أبواب مائلة إيحائياً، ثم إلى الخارج. كان المبنى 569 محشوراً عند جدار خارجي غرب ممرات التصنيع، وهذا جزءٌ من الساحة لم تره من قبل، حتى على الدراجة. كان مصنع إديسون في أعلاه مباشرة، ومداخنه الخمسة تنفث دخاناً يبدو رطباً.

قادها الملازم أكسل إلى مقعد في أعلى الرصيف البحري للشارع الغربي، حيث رأت بذلة غطس ضخمة وصلبة مطوية كما لو أنها شخص متكوِّر على نفسه. أسرَعت آنا خطاها عند رؤيتها لها.

"سيكون السيد غْرير والسيد كاتز المموِّنين لك"، قال الملازم أكسل وهو يشير إلى رجلين مسترخيين على مقربة منهما بلا مبالاة، والأرجح أنهما اندفعا من موقع تنصّتهما قبل وصول الملازم بلحظات. "السادة الأفاضل، الآنسة كيريغان مهتمة بالغطس. ساعداها رجاء على ارتداء البذلة".

بدا أمره بسيطاً تماماً، لكن كان هناك شيء في المصطلحات - المموِّنين، البذلة - جعل آنا تتساءل ما إذا كانت أصلية أو مخصصة لإرباكها. شعرت بالراحة عندما عاد الملازم أكسل إلى الداخل.

"سنضع البذلة فوق ما ترتدينه الآن يا عزيزتي"، قال الرجل الذي يدعى غْرير. كان

هزيلاً وذا ذقن واهنة، وشعره خفيف ويضع خاتم زواج. "فقط اخلعي حذاءك".

كان الرجل الآخر، كاتز، يبدو متبجّحاً. "هل قياس هذه واحد؟"، سأل وهو يرفع بذلة الغطس أمام آنا، التي كانت تقف الآن في جوربها النسائي. "يا للصدفة يا غْرير، إنها ترتدي نفس قياسك".

قلَبَ غْرير عينيه. انبعثت رائحة حُبيبية من القماش المطاطي ممزوجة بحموضة ترابية ذكَّرت آنا بمزرعة جَدّها في مينيسوتا. خَطَت فوق الياقة المطاطية السوداء العريضة ودفعَت قدميها داخل الرِجلَين المشدودتين على شكل جوارب في القعر. كان عليها الاتكاء على الرَجلين من أجل فعل ذلك، وهي مسألة مربكة بدا أن كاتز وغْرير معتادان عليها كجزء من طبيعة المهنة. رفَعا الياقة المطاطية فوق جذعها وكتفيها، ومايلت ذراعيها عبر الكُمَّين، حتى انتهيا في قفازَين ثلاثيي الأصابع موصولين بالبذلة. شدّا حزامَين جلديَين ضيقَين حول معصميها.

"يجب أن يكون الحزامان أضيق"، علَّق كاتز. "فمعصماها صغيران جداً وقد ينزلق منهما القفازان. رغم أنك تبدو قادراً على تدبير أمرك يا غْرير، بيديك هاتين اللتين تشبهان يدي امرأة".

"السيد كاتز فخور بقامته"، قال غْرير لآنا بنبرة تآمرية. "تحسَّن له شعوره تجاه كونه غير مناسب للخدمة العسكرية".

شعرت آنا بالذعر، لكن كاتز ترنَّح لفترة وجيزة فقط. "غْرير يحبّ أن يذكر هذا. إنه يحسدني على ذقني".

"حتى مع هذا الذقن، لا يمكنه إيجاد فتاة تقبل الزواج به"، ردّ غْرير بنبرة حاسمة.

"لو رأيتِ كم أن غْرير خاضع لسيطرة زوجته، لعرفتِ لماذا آخذ وقتي".

حاوَلت آنا أن تبدو مبتهِجة وسط هذا الوابل من الإهانات، لكن الرَجلين بالكاد لاحظا ذلك. كانا خلفها، يشدّان الأربطة التي تمتد على طول الجهة الخلفية لكل رِجل في البذلة. "بالمناسبة، لماذا أنتَ غير مناسب للخدمة العسكرية؟"، سأل غْرير كاتز.

"طبلة أذن مشوَّهة. لكمني الأستاذ على أذني في الصف المدرسي الثاني".

"كنتَ تثرثر كثيراً وقتها أيضاً، أليس كذلك؟".

"هذا مريع"، قالت آنا، لكنها شَعَرَت فوراً أنه لم يكن عليها قول ذلك. فقد بدا كاتز خجِلاً لأول مرة. "هذه حسنة للغطس"، قال بعد لحظة. "لا ضغط على تلك الجهة".

وجّها رِجلَي آنا لكي ترتدي "الحذاء": كتلة من الخشب والمعدن والجلد. كانت هناك مودّة في لمسة يديهما؛ كاتز في الواقع انحنى على يديه ورُكبتيه ليشدّ رباط إحدى فردتيَ الحذاء. "وزن الحذاء ستة عشر كيلوغراماً"، قال لآنا. "ووزن البذلة كاملة تسعون. كم وزنك؟".

"لا عجب أنه لا يمكنك الحصول على فتاة"، تمتم غْرير وهو يهزّ رأسه.

"نصف ذلك، أظن"، أكمل كاتز يقول، متجاهلاً شريكه. "لكي أعطيك فكرة، وزني مئة وعشرة كيلوغرامات، وبالكاد أستطيع السير في البذلة".

"توازن سيئ جداً"، قال غْرير. "لا شك أن السبب طبلة أذنك".

"وزني أكثر من خمسة وأربعين كيلوغراماً بكثير، في الواقع"، قالت آنا، لكنها بدت نيّقة، وندِمت على كلامها مرة أخرى. كانت جالسة. رفع الرَجلان درع صدر نحاسياً فوق رأسها، وحَفرت حافاته الحادة في النسيج الناعم بين كتفَيها وعنقها.

"آه مهلاً"، قال غْرير. "لم نعطها...".

ولمعت ابتسامة شريرة على وجه كاتز. "ماذا؟".

"أنت تعرف...". احمرّ وجه غْرير خجلاً. "بالله عليك يا كاتز. كن رحوماً".

"آه، *وسادة العضو التناسلي*"، قال كاتز أخيراً. "أنت محق، لقد نسينا ذلك. إنها وسادة من نوع خاص" – قال لآنا من دون أن ينظر إلى عينيها في الواقع – "تخفّف حدّة حافات الياقة الحادة. ستريدها عندما نضع لك القبعة؛ وزن الاثنين معاً خمسة وعشرين كيلوغراماً".

لم تكن لدى آنا أي نيّة بطلب وسادة العضو التناسلي – بالطبع ليس بهذا الإسم. أصبحت فروة رأس غْرير قرمزية اللون. بدأ الرَجلان الآن يصارعان الياقة المطاطية للبذلة لوضعها فوق درع الصدر، وراحا يُدخلان سلسلة فجوات في المطاط فوق دعامات نحاسية طويلة. وعندما أصبحت هناك دعامة في كل فجوة في المطاط، وضعا مِلزمات

نحاسية فوق تلك الدعامات وثبّتاها في مكانها بواسطة عزقات مجنَّحة. راحا يستخدمان مفاتيح ربط تائيّة ليشدّا العزقات، غْرير أمام آنا، وكاتز خلفها، يناديان بعضهما البعض بينما يدوران حول الياقة إلى أن أصبح هناك انغلاق تام بين النحاس والقماش.

"الآن الحزام"، قال كاتز مع ابتسامة. "ثمانية وثلاثون كيلوغراماً".

كانت هناك كتل من الرصاص موصولة بالحزام. فعلّقاه حول وركَي آنا بينما كانت تجلس وأوثقاه عند ظهرها. ثم مرّرا رباطين جلديين بشكل متقاطع فوق صدرها ورفعاهما فوق كتفَيها. "قفي وانحني لكي نستطيع تأمينك"، قال كاتز.

كان النهوض أصعب الآن، مع وزن درع الصدر والحزام. مالَت إلى الأمام، شاعرةً بالأربطة المارّة بين رجلَيها صعوداً إلى ظهرها. لم تكن تدري إن كانت هذه هي الطريقة الاعتيادية أو تعديلاً مُذِلاً ابتكراه خصيصاً لها. لم ينظر غْرير إلى عينيها منذ قصة وسادة العضو التناسلي.

"اجلسي"، قال كاتز. "حان وقت القبعة".

كانت "القبعة" خوذة نحاسية كروية، تبدو عن قُرب مثل غرض للسمكرة أو قطعة ميكانيكية من شيء سيرتديه الإنسان. لم تصدِّق آنا عينيها عندما رأت كاتز وغْرير يرفعان القبعة فوق رأسها. ثم أصبحت داخلها، محاصرةً برائحة معدنية رطبة كادت تتذوّقها على لسانها. ثبّتا براغي قاعدة الخوذة بدرع الصدر مثل لمبة توضع في مقبسٍ. شعرت آنا بوزن ساحق يضغط عليها عند الحافات الحادة للياقة. راحت تتلوّى تحته، محاولةً الابتعاد عنه. سمعتَ طرقتين على الخوذة، وفُتحت النافذة الأمامية المستديرة، فدخل نسيم عليل صادم. كان غْرير هناك. "يجب أن تُخبرينا إذا كنت تشعرين بدوار"، قال.

"أنا بخير"، قالت.

"قفي"، قال كاتز.

حاولَت أن تقف، لكن درع الصدر والخوذة والحزام الرصاصي ثبّتاها بالمقعد. كانت الطريقة الوحيدة للنهوض هي بتركيز كل وزنها على تلك البقعتين حيث تلتصق الياقة بكتفَيها. فعلت آنا ذلك وشعرت كما لو أن أحدهم يغرز مسامير في لحمها. الألم جَعَل عينيها تدمعان، والوزن هدَّد بثني رُكبتيها، لكنها قوّمت ظهرها، وكل لحظة مرّت دفعتها

إلى القلق عما إذا كانت قادرة على تحمّل الوزن لثانية أخرى. نعم. ونعم. نعم مرة أخرى. نعم، نعم، نعم.

راح كاتز يحدِّق من خلال فتحة خوذة الرأس. لاحَظت ندبةً بيضاء رفيعة تشطر شفته العليا وشَعَرت ببعض البغض تجاهه أُضيف إلى الألم الكبير في كتفَيها. كان كاتز يستمتع بهذا. "سيري"، قال.

"سيُغمى عليها".

"فليكن".

"أنا لا يُغمى عليَّ"، قالت آنا. "لم يُغمَ عليَّ أبداً في حياتي".

موازنةً وزن الخوذة على نقطتَي الألم الاثنتين تلك، خطت خطوةً وهي تجرّ إحدى فردتَي الحذاء فوق الطوب كما لو أن رجليها مقيَّدتان بسلاسل. ثم خطوة أخرى. سال العرق على فروة رأسها. مئة كيلوغرام. القبعة والياقة تزنان خمسة وعشرين، والحذاء خمسة وثلاثين، والحزام ثمانية وثلاثين. أم هل كان وزن كل فردة خمسة وثلاثين، مما يجعل مجموع الوزن سبعين؟

خطوة أخرى. ثم أخرى. كانت تجرّ حذاءها من دون أي فكرة إلى أين تذهب أو لماذا. كان الألم يطمس تلك الحقائق.

ضغط أحدهم غرضاً في قفاز يدها الثلاثي الأصابع. "فكّي هذا".

"بينما أسير؟"، صرَخت.

ظهر غْرير أمام فتحة الوجه. "يمكنك التوقف عن السير"، قال بلطف. بدا قلقاً؛ افترَضت أن تعابير وجهها تُظهر ألماً كبيراً. رفعت آنا الغرض إلى حيث يمكنها رؤيته: حبل، معقود بإتقان. أعادت ترتيب يديها في القفازين الثلاثيي الأصابع - الخنصر والبنصر في الفسحة الأولى، والسبابة والوسطى في الفسحة الثانية، والإبهامَ في الفسحة الثالثة - وضغطت على العقدة برؤوس أصابعها العشرة. من خلال الجزء الداخلي الساخن والرطب قليلاً للقفازات، استكشَفت أصابعها محيطها، وبدا الألم في كتفَيها قد اختفى فجأة. كانت هناك ناحية في أي عقدة ستنحلّ عندما تضغط عليها بقوة ولمدة كافية. أغمضت آنا عينيها، وتركت يديها تأخذانها إلى عالم محسوس بكل معنى الكلمة

بدا أنه يتواجد في دنيا أخرى. كان الأمر أشبه بالضغط على جدار لإيجاد حجرة سرية وراءه. شعَرت بنقطة ضعف العقدة، مثل الرضّة الخفيفة على تفاحة، ودفعت أصابعها فيها. إرخاء أي عقدة يبدو مستحيلاً دائماً إلى أن يصبح محتوماً؛ عرَفت آنا هذا من سنوات التعامل مع لعبة تبادل الخيوط المُضفرة على الأصابع، وأربطة الأحذية، وحبال القفز، والمقاليع - أشياء كان أولاد الحيّ يُحضرونها لها دائماً لكي تحلّها. بذلت العقدة جهداً أخيراً لتحافظ على نفسها، ومقاومتها جعلتها تبدو حيّة تقريباً. ثم استسلَمت، وانحلّ الحبل في يديها.

مدَّت يديها إلى الأمام وأخذه أحدهم. نظر إليها كاتز من خلال النافذة. توقَّعت آنا نظرة عدائية منه، لكنه تكلَّم بتعجّب واضح. "أحسنت". لكن المدهش أكثر من إعجابه المحسوس كان شعور آنا بالفخر؛ فقد بدا لها أنها لم تكن تريد أن تهزم كاتز في النهاية، بل أن تثير إعجابه.

فكّا براغي الخوذة ورفعاها عن كتفَيها، ثم الحزام ودرع الصدر. متحرِّرةً من كل ذلك الوزن، شعَرت آنا كما لو أنها تعوم، وحتى تطير. شعورها بالطفو انتقل إلى المموِّنين، كما لو أن نجاحها هو نجاحهما أيضاً - أو أنه يضعها في فئة قريبة من فئتهما. ساعَداها في خلع حذائها والحزام والبذلة بنفس الروح المعنوية العالية التي بدأا بها، ما عدا أن تلك الروح المعنوية العالية كانت على حسابها، وقد شملتها. سرعان ما وجدت نفسها تقف على الرصيف البحري في ثيابها العادية، كما في السابق. وقد حلّ الظلام من دون أن تنتبه.

"هل تريد إخباره؟"، سأل غْرير كاتز.

"هل تعتقد أنه سيلومنا؟".

"سيلوم أحداً".

"أخبريه أنتِ"، قال كاتز. "تروقين له أكثر".

"مثل معظم الآخرين"، قال غْرير مع غمزة إلى آنا.

راح الملازم أكسل يستمع جافلاً لرواية غْرير عن إنجازات آنا، ثم صَرَفه بجفاء من مكتبه. لمس غْرير طرف قبعته لآنا، جاعلاً إياها جزءاً من مؤامرة.

"تفضلي بالجلوس، آنسة كيريغان"، قال الملازم.

إشراق آنا الكبير صعَّب عليها عدم الابتسام، لكنها كبحت ذلك الإلحاح، مصمِّمة على ألا تبدو معتدّة بنفسها. راقَبها الملازم للحظة طويلة، وهو ينقر أصابعه على مكتبه. "ارتديتي البذلة"، قال بنبرة استرضائية أقلقتها. "لكن ذلك ليس مثل الغطس".

"لقد قلتَ أن هذا هو الاختبار".

أخذ نَفَساً عميقاً. "العمل تحت الماء مسألة شاقة جداً على الجسم البشري"، قال. "أفهم أنه قد يكون من الصعب تصديق هذا؛ أنت ترين الأمواج الجميلة، ورغوة البحر اللطيفة. تحبّين السباحة. لكن الحال ليس هكذا تحت الماء. الماء ثقيل. وضغط كل ذلك الوزن شديد جداً. ليست لدينا أي فكرة كيف سيتفاعل جسم الأنثى".

"دعني أحاول"، قالت، وشعرت أن حلقها جفَّ فجأة.

"أنت فتاة قوية، آنسة كيريغان، لقد برهنتِ ذلك. لكنني أقول لك بضمير مرتاح إنني لا أستطيع أن أسمح لك بالنزول إلى هناك مثلما لن أسمح لإبنتي بفعل ذلك".

كان وقائياً، ودوداً، متأسفاً - مختلف كلياً عن الرجل الساخر الذي استقبلها. كانت آنا تفضّل ذلك الرجل الأول أكثر. فمعه، بدا لها أن لديها فرصة.

"دعني أحاول"، قالت مرة أخرى. "إذا فشلتُ، سنعرف عندها".

"هل رأيتِ في حياتك رجلاً يعاني من مرض انخفاض الضغط؟"، سأل الملازم وهو يميل إلى الأمام كما لو أن يتشارك لحظة مودّة معها. "فقاقيع النتروجين العالقة في دمه يجب أن تجد وسيلة للخروج، لذا تندفع عبر الأنسجة الطرية. فينزف الرجل من عينيه وأنفه وأذنَيه. أو الضغط؟ الغطّاس بأكمله - أقصد الرجل بأكمله - يُهرَس تحت ضغط المحيط في تلك الخوذة التي يرتديها. لذا عندما تقولين، *إذا فشلتُ*، فإن الفشل تحت خمسة عشر متراً من الماء ليس مماثلاً للفشل فوقه".

"تلك الأشياء يمكن أن تحصل لأي شخص يُخطئ"، قالت آنا. "وليس للفتاة فقط". لكنها شعَرت بإحباطٍ من شعور حتمي بالفشل.

ابتسم الملازم: أسنان بيضاء، وبشرة مرداء مسمَرّة. "أنا معجب بك، آنسة كيريغان"، قال. "أنت تنبضين بالحيوية. نصيحتي لك أن تعودي إلى ورشتك - إلى ما تفعلينه هناك في الساحة - وتعطي ذلك العمل أقصى ما لديك. ساعدينا في الانتصار في

هذه الحرب لكي لا نجد أنفسنا نأكل وينر شنيتزل وأخطبوطاً مجفَّفاً على العشاء أيام الآحاد عندما ينتهي كل هذا".

خبط يده على المكتب، معتقِداً على ما يبدو أن هذه هي نهاية الحديث. لكن آنا بدت غير مستعدة للتحرّك. لقد كانت قريبة جداً من هدفها. لقد فكّت العقدة! بدا الوقت وكأنه يطول، يسمح لها بدراسة كل خطوة يمكن أن تقوم بها الآن وتعرف نتيجتها. الغضب سيجعله يثور؛ الدموع ستجعله يتعاطف معها لكنها ستُظهرها ضعيفة؛ الغزل سيعيدها إلى حيث بدأت.

كان ينتظرها أن تغادر.

"حضرة الملازم أكسل"، قالت أخيراً بنبرة محايدة. "لقد فعلتُ كل شيء طلبته مني. كيف يمكنك أن ترفضني؟ لا منطق في هذا".

"بما أننا نتكلَّم بصراحة، آنسة كيريغان، سأخبرك أنه لم تكن لديك أي فرصة للغطس من البداية". لقد زالت النبرة الأبوية المتملّقة، وهو يتكلَّم الآن بنبرة عادية غير منمّقة مثل نبرتها إلى حد بعيد. "يجب أن يكون سيدك قوسّ أعمى من الحب إذا اعتقَد أنني سأضع فتاة تحت الماء. لقد أخبرتُ الآمر عندما هاتفني أن المسألة غير واردة على الإطلاق. وقلتُ له إنني سأدعك ترتدين البذلة لكي تري بنفسك".

"لكنني ارتديت البذلة"، قالت آنا. "وسرتُ. وفككتُ العقدة".

"لقد فاجأتني، أقرّ لك بذلك"، قال. "لكن غطسك لم يكن وارداً أبداً، لذا لن يصبح وارداً الآن. آسف؛ أستطيع أن أتخيَّل كم أن هذا مُحبِط لك. لكن هذه هي الحقائق".

بقيا ينظران إلى بعضهما البعض عبر المكتب في حالة فهم تام. نهضت آنا عن كرسيها.

وجَدت نفسها واقفة أمام المبنى 569 من دون أن تتذكر ارتداءها معطفها أو ما إذا كانت قد رأت كاتز وغْرير مرة أخرى خلال خروجها. بدأت نزهة العودة الطويلة إلى بوابة ساندز ستريت في الظلمة. لقد أزالت الرياح الباردة ذكرى الفرحة العارمة التي شعَرت بها من انتصارها. مرَّت بجانب ممرات التصنيع، وصفوف الأضواء الاصطناعية تُظهر هياكل

السُفن الميتة في الداخل بشكل مبالغ.

كان الجواب لا.

لم تختبر آنا هكذا إجحاف أبداً في حياتها. *هذه هي الحقائق*، قال الملازم، لكن لم تكن هناك أي حقائق. بينما تابعت آنا سيرها، ازداد بؤسها وخيبة أملها وتحجّرا إلى معارضة صخرية أضافت إلى البغض الذي شعَرت به سابقاً تجاه كاتز. لن يسحقها الملازم؛ بل ستسحقه هي. كان عدوها. بدا لها الآن أنها لطالما أرادت عدواً.

تخيَّلت العقدة في يديها، بملمسها المشدود. هناك نقطة ضعف دائماً، وكل المسألة تقتصر على إيجادها.

هذه هي الحقائق.

لم تكن هناك حقائق. كان هو فقط. رجل واحد. حتى دون لحية.

الفصل 12

في الأيام الأربعة التي مرَّت بين موافقته على توصيل الأخت المشلولة للآنسة فيني إلى الشاطئ وبين صباح الأحد المحدَّد، تبدَّدت كلياً حماسة دكستر الدنيا لتلك المغامرة. لن يكون أولاده هناك. وخلال عشاء احتفال الشُكر، كشفت بيث بيرينجر عن خطة للعائلة بأكملها لزيارة دار العبادة في سانت مونيكا، على جادة يورك، كتمهيد للتطوّع في جمعية "رُزم لبريطانيا". كانت الرُزم مشروعاً بدأته فتاة في جادة بارك أفينيو؛ وقد صَرَف دكستر النظر عنه بصفته وسيلة ليساهم المجتمع في الأعمال الحربية. كان الكثير من هذه الأمور تجري هنا وهناك.

بدا العجوز متلهّفاً مثله لتفادي الإجراءات، ودعا دكستر بدلاً من ذلك إلى الغداء والبلياردو في النيكربوكر. كان هذا العرض مغرياً، سواء للجدارية الرائعة عند المشرب أو لنظرات الذعر من المترمّتين الذين يعرفونه. لو كان لدى الآنسة فيني هاتف، لكان أجّل الموعد كخطوة أولى نحو جعله يتلاشى كلياً. لكن لم يكن لديها واحد، والرسالة قد لا تصل في الوقت المناسب في هذه الفترة من الاحتفالات. الطريقة الوحيدة للتهرّب ستكون بعدم القدوم أبداً، لكن مهما تكن الصفة التي يمكن إطلاقها على دكستر، إلا أنه لم يكن سافلاً. لذا أخبره حماه أنه وعدَ بإيصال الأخت المشلولة لموظفة إلى الشاطئ في ذلك الصباح، وأقسَمَ أنه سينضم إليه في النادي حالما ينتهي.

لذا: لا تابي. لا توأمان ولا هارييت. يوم معتدل، دافئ على غير العادة لنهاية نوفمبر، مما ألغى إمكانية تحجّجه بأن الطقس سيئ. بدا شارع الآنسة فيني مثلما كان يتوقع، حيث راح الأولاد يتجمهرون حول الكاديلاك حتى قبل أن يركنها. لا يشاهدون سيارة من السلسلة 62 كثيراً، هذا إذا كانوا قد رأوا واحدة من قبل. ترجّل دكستر من سيارته، وثبّت قبعته على رأسه، ورفع نظره مُحوِلاً عينيه في الوهج. يدٌ ملوِّحةٌ من نافذة عليا

قضت على أمله الأخير: بأن تكون الآنسة فيني قد نسيت.

دفَع باباً أمامياً أصدَر صريراً ودخل ردهةً لا تزال تعبق برائحة السمك من الجمعة. كل شيء في ذلك المكان كان مألوفاً؛ قبل كل شيء، صدى قرقعة خطواته على السلالم. يا إلهي، كم طابق بعد؟ لمن البربرية جعل فتاة مشلولة تعيش في هكذا طابق مرتفع.

كانت الشقة صغيرة ومزدحمة. والأنوثة تفوح من كل مكان وصولاً حتى الألواح الخشبية الرخيصة للجدران. عطر، شعر نسائي، أظافر، عادتهن الشهرية - كل ذلك محصور في سحابة حميمية نتِنة سبَّبت له دواراً. كان مفاجئاً له تقريباً أن يجد الآنسة فيني، بحاجبَي عينيها المقنطَرين ومصافحتها الذكورية، واقفة في هذا الجو الأنثوي الخانق. بدت كما لو أنه لا علاقة لها بكل ذلك.

قادته إلى ما بعد المطبخ الكئيب إلى الغرفة الأمامية، حيث كان كل شيء تمكّنت عائلتها من الاحتفاظ به خلال الانهيار الاقتصادي معروضاً. لم يكن هناك الكثير. تمثال من الزجاج الملوَّن لسانت باتريك يطرد الأفاعي، ومروحة مريَّشة مثبّتة على الجدار بجانب تقويم لتوائم دِيُون الخمسة. وكانت هناك عدة مستطيلات فارغة أُزيلت منها الصور. كاد يسأل عن السبب، لكن الجواب أتاه في تلك السحابة الأنثوية: لا يوجد رجل هنا. ميت أو مغادر. على الأرجح الخيار الثاني، بناءً على تلك الفراغات على الجدران. فالجميع يحبّون تذكّر الميت.

امتزج صراخ الأولاد من الشارع مع تكتكة ساعة قديمة يوجد طفلان ذهبيان عند قاعدتها وكانت متأخرة بعشرين دقيقة. إنها كنز المنزل: الشيء الذي يندفع الجميع لإنقاذه في الحريق. مثل جرس أمه. "أحضر لي جرسي"، كانت تقول له، فيركض دكستر ليجلبه، ماسكاً المُصفِّقة. لقد أحضَرته معها من بولندا، وصوته الفضيّ يذكّرها بطفولتها: دُور العبادة، الركام الثلجي، التزلّج على البرك المتجمِّدة في الظلمة. الخبز الساخن المسحوب من الأفران المتوقِّدة. لم يكن معتاداً على التفكير بأمه. الشقة المألوفة، أصوات خطواته على السلالم، ذكَّرته بها. أو ربما وجود إنسان مريض.

"أين أختك؟"، سأل.

قادته إلى غرفة بالكاد تتّسع لسريرين ضيقين. كان الستارة مُغلقة على النافذة الوحيدة. وهناك فتاة جميلة ترقد على أحد السريرين في ما بدا كأنه إغماء إغرائي،

وجدلات شعر باهت مبعثرة في الضوء الشحيح مثل عملات معدنية مرمية. المنظر أربك دكستر. فاقترب وهو يومض عينيه لتبديده، ورأى أن وجهها كان وجه شخص خائف جداً أو في سكرات الموت. ارتعَشت أطرافها بينما كان ينظر إليها: انعدام سيطرة كان دائماً. كانت ترتدي فستاناً مخملياً أزرق وجوارب صوفية وبدت نائمة. تخيَّل دكستر الجهد الذي لا شك أنه بُذلَ لإلباسها، وشعر بالراحة لإيفائه وعده بالقدوم لاصطحابها.

"تبدو... جيدة"، قال وهو يشعر أن عليه إبداء ملاحظةٍ ما.

"أليس كذلك؟". كانت الأخت تحدِّق بحب وفخر كبيرين بالمخلوقة المشوَّهة أمامهما، مما جعل دكستر يشكّ بحكمته لتدخّله في آلام هذه العائلة. لكن الخيار لم يكن خياره. لقد هندست ذلك.

"إذاً. ماذا الآن؟"، سأل متلهّفاً ليخرج من الجمود الذي كان فيه.

"سأُحضر معطفينا".

كاد يتبعها إلى خارج الغرفة، مرتبكاً من تركه لوحده مع المشلولة. ذهَب إلى النافذة وفتح الستارة ليلقي نظرة على الكاديلاك. ثم ألقى نظرة سريعة على السرير، واطمأنّ من إيجاد عينَي الفتاة الواهنة القوى لا تزالان مغلقتين. فكّر بالأب، فيني، واضطراره إلى النظر إلى هذه الإبنة يوماً بعد يوم. عذابه. همسٌ بما كان يمكن أن يصبح داخل ذلك الشعر الجميل. ألهذا السبب غادر - إذا كان قد غادر؟ كان دكستر يحبّ الإيرلنديين، يجد نفسه منجذباً إليهم، رغم أنهم برهَنوا مراراً وتكراراً أنهم غير جديرين بالثقة. لم يكن ذلك نِفاقاً بقدر ما كان نقطة ضعف جوهرية ربما كانت ناتجة عن تناول الشراب أو عما يقودهم إلى تناوله. فأنت تريد إيرلندياً ليساعدك على ابتكار مخططات، لكنك تحتاج في النهاية إلى إيطالي أو بولندي لإنجازها.

عادت الآنسة فيني، وانحنت فوق السرير، وأدخلت يدي أختها الملتويتين في معطف صوفي أزرق بحري مشذَّب بذكاء. خبرتها لم تترك مجالاً للشك بمقدار الوقت الذي أمضته في العناية بها. كل حياتها، افترضَ دكستر.

حملَ المشلولة من السرير ورفعها على ذراعيه. فقط عندما وصلته رائحتها حتى أدرك أنه كان يخشى ذلك، متوقعاً تلك الرائحة الكريهة للأجسام التي تبقى في غرف غير مهوّاة كثيراً. لكن رائحتها كانت منعشة، حتى مدهشة، تعبق برائحة تلك الزهور المستخدمة في

المراهم والشامبوهات الأنثوية. كانت رائحتها تشبه رائحة فتاة استحمَّت ذلك الصباح، مادَّةً أصابع قدميها من رغوة الصابون لكي تحلق رجلَيها بشكل ناعم. حمى رأسها من إطار الباب ووصل إلى الغرفة الأمامية، وكان شعرها الذهبي يغطي كُمَّيه.

"ما اسمها؟"، سأل.

"آسفة، هذه ليديا. ليديا، هذا السيد ستايلز. لقد تلطَّف وعرض أن يأخذنا إلى الشاطئ".

ليس تماماً، فكَّر دكستر في سرّه، وترك نفسه يتبسم ابتسامة ساخرة بينما تبعها إلى باب الشقة، حاملاً أختها. عندما أعاد النظر إلى ليديا، وجدها قد فتحت عينيها وتحدِّق بوجهه. أجفله هذا، كما لو أن يدين أمسكتا به. كانت عيناها زرقاوين ضيائيتين، ولا تطرفان، مثل عيون الدمى التي كانت تابي تلعب بها.

أثناء نزول السلالم، راح يراقب الجدران المتسخة، متلمّساً الدرجات بقدميه لكي لا يتعثّر. كان عملاً مربكاً. "إنها هادئة جداً"، قالت الأخت السليمة متعجِّبة من ورائه. كانت تحمل كرسياً ذا عجلات مطوياً بدا أثقل من ليديا. "إنها تتذمَّر وتبكي عندما يحملها سيلفيو".

"أشعر بالإطراء".

في الخارج، ألقت التحية على ولد أو ولدين بالإسم. حرَّك المشلولة في ذراعيه وبدأ يفتح الباب الخلفي، لكن الأخت قالت باندفاعٍ، "نودّ الركوب على المقعد الأمامي، إذا لم يكن لديك مانع".

"سيكون لديكما مجال أكبر في الخلف".

"أريدها أن ترى الطريق".

"كما تشائين". استعجالها انتقل إليه أيضاً، فاستدار بسرعة ليفتح لها الباب الأمامي. فانزلقت إلى الداخل، ووضع دكستر المشلولة على ذراعيها بعناية. كانت المساحة ضيقة، حتى في السلسلة 62. وفقط بعد أن أغلق الباب حتى أدرك كم كان يتوق لأن يلعب دور سائق وليس رفيقاً لهاتين الفتاتين.

العمل الصالح لا يحتاج إلى عذر. هكذا كان والده يطمئنه عندما كان يقاوم، مُحرَجاً،

حمل طبق مُغطى من فضلات كرات اللحم إلى المشرَّدين الذين يتسكّعون بالقرب من مطعمه. تمتم دكستر الجملة لنفسه وهو يرفَع الكرسي المطوي الثقيل إلى صندوق سيارته. *العمل الصالح لا يحتاج إلى عذر.*

قاد بعيداً عن الأولاد وتوجَّه عائداً نحو فلاتبوش، مسروراً من فكرة أنه لن يجد أي صعوبة بهذه السرعة في الوصول إلى نيكربوكر قبل موعد الغداء. سِمع همساً على المقعد. "هل يمكنها أن تتكلم؟"، سأل.

"في السابق. ليس كلاماً، بل تكرِّر بعض الأشياء".

"هذا كلام، أليس كذلك؟ كم يمكنها أن تفهم؟".

"نحن لا نعرف حقاً".

نحن. لا شك أنها تقصد الوالدة؛ وإلا كيف بإمكان الأخت السليمة أن تَشغَل وظيفة في الساحة البحرية وتسهر في مُونشاين في إحدى الليالي؟ مشلولةٌ كهذه تحتاج إلى عناية متواصلة - وستكون في مركز متخصص عادة. متذكراً استعجالها ركوب السيارة، ضغط على نفسه لكي لا يسألها إن كانت أمها تعلم بمغامرة اليوم. هذه ليست مسؤوليته. فقد غاص في شؤون هذه العائلة بالقدر الذي أراده فقط.

أسرعوا سيرهم مخترقين ساحة غراند آرمي ومارّين بجانب منتزه بروسبكت بارك نحو جادة أوشن أفينيو. راحت والدة دكستر تحوم في ذهنه - كما لو أنها متردّدة في تركه وشأنه بعد أن ذكّره الجرس بها. كانت بصحة جيدة فيما مضى، قبل وفاة أخيه في بطنها، عندما كان دكستر في السابعة من عمره. ذلك أضرَّ بقلبها، فتحوَّل شيء قوي داخلها إلى شيء سريع العطب بشكل رهيب: ساعة مصنوعة من سكر. كانت هشاشتها الداخلية تميّزها عن بقية الأمهات، اللواتي كنَّ غالباً ما يتجاهلن زعيق أولادهن أو يضربنهم بقفا أيديهن على وجوههم. سيكون عليها التخلّي عنه قبل أوانه: هذا كان السر الذي ادَّعى كلاهما عدم معرفته. انسحَبت من المطعم الذي فتحه والده - مطعم مُلك له، بعد طول انتظار - وخصّصت نفسها لدكستر. كانت تبقى نائمة في أغلب الأحيان. كان وقت غداء دكستر هو الفجر بالنسبة لها، ويبزغ مع صوت حذائه وهو يصعد السلالم ركضاً إلى شقتهم في الطابق الرابع. كان الأولاد الآخرون يعودون إلى منازلهم إلى فضلات الخبز والحليب واللحم، لكن دكستر كان يستمتع بتناول وجبة طعام كاملة أحضَرها والده معه

من المطعم ليلة أمس، مسخّنة في الفرن. وكانت أمه تستقبله بنشاط وبعشرات الأسئلة، وتبقى تضحك وتقبّله إلى أن يحين وقت عودته إلى المدرسة، فتعود عندها لتغوص في جُحرها، المبطَّن بوسادات اشتراها والده خصيصاً لها، لكي تجدِّد نفسها لعودته.

كان دكستر يحبّها كثيراً إلى درجة غير مألوفة لدى فتيان الحي. كانت شخصاً قد يختفي في أي وقت، لكنها كانت حاضرة دائماً: مزيج آسر من الابتعاد الكليّ والتملُّك الكامل. كيف كانت تفعل ذلك؟ شعوذة؟ غبار التخفّي؟ علِم لاحقاً من والده أن الطبيب أخبرهما أنها قلبها لن يصمد أكثر من سنة بعد وفاة الجنين في بطنها. لكن بعد ست سنوات، عندما أصبح دكستر في الثالثة عشرة من عمره، كانت لا تزال على قيد الحياة. بدأ يمتعض منها، ويبقى خارج المنزل يلعب البيسبول إلى ما بعد حلول الظلام. وكان يسرق التفاح والنعناع والطباشير: ضروب احتيال صغيرة كان يخشى أن تتمكن من رؤيتها عندما تضع وجهه المذنب في يديها المُرهَفتين. تدهورت صحتها بسرعة فائقة بدت ذات مفعول رجعي، كما لو أن الساعة تفتَّتت منذ زمن طويل، وجسمها لم يُدرك ذلك إلا الآن.

"اسمع، لم أسألك أبداً"، قالت آنا بعد صمت طويل. "إلى أين نحن ذاهبون بالضبط؟".

"شاطئ مانهاتن"، أجابها. "إنه قريب من كوني آيلند لكن أنظف، ومنعزل. منزلي بجانب الماء مباشرة - في الواقع، يمكنك أخذها إلى الشرفة الخلفية وتجنّب الرمل كلياً".

"هذا يبدو رائعاً"، جهدت آنا لتقول برفق. فالعودة إلى شاطئ مانهاتن يضع ضغطاً لا يُطاق على السؤال الذي لا يزال يؤرقها منذ أن اتفقا على هذه النزهة قبل أربعة أيام: هل عليها أن تُخبر دكستر ستايلز عن الرابط بينهما؟ عدلت عن رأيها في الدقيقة الأخيرة؛ فهدفها كان تجميع معلومات وليس إفشاءها. لذا أسرعت إلى إزالة صور أمها وبرِيان في أزياء رقصهما عن الجدران؛ وصور والديها يوم زفافهما؛ وصورة في صالة سينما تبيَّن برِيان مرتعدة عند المدخَل بينما يغمرها ظل رجلٍ.

لكن ركوب سيارة دكستر ستايلز إلى نفس المكان الذي تعرَّف فيه عليه منذ سنوات كان نِفاقاً رديئاً جداً لكي تتحمّله. أرادت أن تُخبره، أن تبوح بالسر. لكن ذلك لم يكن صحيحاً - لأنها تخاف من إخباره. فما أرادته هو أن تكون قد أخبرته من قبل.

احتضنت جسم ليديا النحيل على جسمها، ولفّت يديها حول خصر أختها، التي كان قلبها ينكز عظام صدرها الناعمة. كانت عينا ليديا مفتوحتين. وبدا أنها تنظر من النافذة إلى الأشجار الرمادية الشائكة في منتزه بروسبكت بارك. شعَرت آنا بانتباه أختها، وأثار فيها ذلك موجة من التوقّع: كانتا ذاهبتان إلى البحر! ستريا معاً! لقد طلبت ذلك من دكستر ستايلز بدون تفكير، مستخدمةً أي عذر لتُبقيه تحت أنظارها. لكن الآن وقد أصبحتا في الطريق إلى هناك، بعد أن خرجت أمها وبريان لتمضية اليوم في التسوّق وتناول الغداء في أحد المطاعم، شعَرت بغنى المشروع الذي بدأته. لا يجب أن تعرِّضه للخطر. وهذا يعني عدم إخباره مَن تكون إلى أن ينتهي يومهم.

"هل يعجبك العمل في الساحة البحرية؟"، سأل السيد ستايلز فجأة. "ما الذي تفعلينه بالضبط؟".

"أقيس قِطعاً صغيرةً جداً تُستخدم في السُفن"، بدأت آنا تقول، وكانت كل كلمة تنطقها على وشك أن تنفجر تحت ضغط كل ما كانت تُخفيه. لكنه بدا مهتماً، أو ربما سئم فقط من القيادة بصمت. وكلما تحدّثت أكثر، كلما بدا لها ذلك طبيعياً أكثر. أخبرته عن بغضها لعملية القياس، ورغبتها بأن تصبح غطّاسة. في نهاية المطاف، وبدافع من أسئلته، وجَدت نفسها تروي له ما حصل مع الملازم أكسل أمس.

"ذلك الأحمق"، قال بنبرة غاضبة بحقّ. "يا لهم من مجموعة من غريبي الأطوار. قولي لهم أن يقفزوا في النهر".

"عندها سأفقد وظيفتي".

"تباً لهم ولوظيفتهم الرديئة. تعالي واعملي لديَّ".

جمدت آنا في أرضها، وذراعاها حول ليديا، التي بدا أيضاً أنها تستمع إليهما. "أستقيل من الساحة البحرية؟".

"لما لا؟ سأدفع لك أجراً أفضل منهم".

"أنا أجني إثنين وأربعين في الأسبوع بلا ساعات العمل الإضافية".

بدا مندهشاً. "حسناً، سأدفع لك نفس هذا الأجر".

شعَرت آنا بقُرب غريب مفاجئ من والدها. ليس أنها تصوّرته، بالضبط - كانت لا

تزال غير قادرة على تذكّره. كان ذلك أشبه بوقوفها في محطة تعرِف أنه مرَّ فيها سابقاً، ومحاولة التكهّن أي قطار استقلّ. لأول مرة منذ سنوات، كان الهواء يعبق بأثر خفيف جداً له.

"ماذا يفعل الأشخاص؟ مَن يعمل لديك"، سألته بحذر.

"حسناً، لديَّ عدة أعمال. وقد رأيتِ أحدها، النادي الليلي، وهناك المزيد من هذا الخط هنا وفي مدن أخرى. ثم هناك أعمال... تتفاعل مع تلك. يمكنك القول إنها تنساب من خلالها".

"فهمت"، قالت آنا، لكنها لم تفهم.

"ليست كل تلك الأعمال قانونية، بأدق معنى لهذه الكلمة. أنا ميّال إلى الاقتناع أن الأشخاص يجب أن يقرّروا بأنفسهم كيف يريدون أن يستمتعوا بأوقاتهم، بدلاً من أن يقرِّر لهم القانون ذلك. قد يكون رأيك مختلفاً، بالطبع. فليس لدى الجميع الجرأة لهذا النوع من الأمور".

"لديَّ جرأة"، قالت آنا. شعَرت كما لو أنها أليس في بلاد العجائب، تحاول تمرير نفسها عبر أبواب أصغر وأصغر من دون أي فكرة إلى أين يمكن أن تأخذها.

"لهذا السبب عرضتُ عليك الفكرة"، قال. "اعتبريه عرضاً دائماً. اقبليه متى تشائين".

كانت آنا تتذكَّر منزل السيد ستايلز كحصنٍ على منكشف صخري مُحاط بالثلج والبحر. لكن ما رأته عندما رَكَن سيارته كان مربعاً سكنياً تصطف حوله منازل مستقلة – كبير، نعم، لكن ليس أكبر من المنازل التي رأتها بالقرب من كلية بروكلين. شعَرت بخيبة أمل.

"سأُحضِر الكرسي"، قال. اهتزّت السيارة وهو يخرجه من الصندوق.

"لقد وصلنا يا لِيدي"، قالت آنا بلطف. "نحن أمام البحر تقريباً".

فُتح باب السيارة إلى أقصاه، ورفع السيد ستايلز ليديا عن ذراعيها. خَرَجت آنا من السيارة. في نهاية الشارع، تحت فُسحة رمادية من السماء، شَعَرَت بالمحيط مثل شخص

نائم. انتزَعت الرياح الدبابيس من شعرها الملفوف، وراحت تتلألأ على الرصيف. تبَعت السيد ستايلز إلى منزله وهي تحمل الكرسي. أدار مقبض الباب الأمامي، وليديا لا تزال على ذراعيه، ودفعَ الباب لفتحه.

بقيت المشلولة هادئة على ذراعيه بينما فتحت أختها الكرسي ذي العجلات وحضَّرته في القاعة الأمامية. كان دكستر يصبح معتاداً على التواء وجهها، وتحديق عينيها بلا أي طرْف. عندما أصبح الكرسي جاهزاً، وَضَعها عليه، وثبّتتها الأخت بأحزمة وأربطة. كان هناك مسند شكله U لإبقاء رأسها في وضع مستقيم. كانت يداها ملتويتين ومطويتين عند المعصمين؛ شعَر برغبة قوية ليضغطهما لكي تصبحا مسطَّحتين. "كيف أصبحت بهذه الحال؟"، سأل.

"حصَل ذلك عندما وُلدَت".

"إنني أسأل عن السبب".

"لم تحصل على كمية كافية من الهواء".

"لكن لماذا؟ لماذا لم تحصل على ما يكفي من هواء؟". لم يكن قادراً على إخفاء نفاد صبره. فالمشاكل التي لا يمكنه حلّها تُغضبه.

"لا أحد يعرف".

"أحدٌ ما يعرف. يمكنك أن تكوني أكيدة من هذا. يجب أن ترى طبيباً".

"نفس الطبيب لسنوات". كانت تفعل الشيء الذي أراد أن يقوم به بالضبط: تقويم المعصمين الملتويين بما يكفي لتثبيتهما بالكرسي، ولمستها الرشيقة واللطيفة في آن.

"وهل أفادها؟ هذا الطبيب؟".

"لا يوجد علاج لحالتها".

"أي نوع من الأطباء يقبل أن يسوء حال مريضه؟".

"أظن أنه يحسِّن لنا شعورنا".

"عمل جيد إذا كنت تستطيعين الحصول على ذلك"، تمتم، ورآها تجفل. لا شك أن تلك الحجج قديمة.

"هل يمكننا إخراجها إلى الهواء الطلق؟"، سألت.

"نعم، بالطبع"، قال بنبرة أقل حدّة. "الشرفة هنا مباشرة".

قادها إلى الغرفة الأمامية، نحو باب الشرفة. خارج النوافذ، كان البحر عبارة عن تقزُّح لوني رمادي مسطَّح. بدا هادئاً، لكن لحظة فتحه الباب، اجتاحتهما رياح قوية. اهتزَّت المشلولة على كرسيها كما لو أن أحدهم صفَعها.

"البرد قارس"، صاحت الأخت، مكروبةً. "لم أُلبسها ملابس ملائمة كي لا تبرد".

"لا تقلقي. لدينا الكثير من البطانيات".

لم يكن متأكداً تماماً أين تضعها ميلدا. كانت قد ذهبت كالعادة لقضاء الأحد مع عائلتها في هارلم، وستعود في الوقت المناسب لإعداد الفطور لهم صباح الاثنين. بينما كان يفتح الخزائن والجوارير بحثاً عن البطانيات، شعر ببعض الامتنان من أن عائلته لم تكن في المنزل. فالحالة مؤلمة جداً، وليديا مُقلقة جداً. لم يرغب أن يراها أولاده.

لم يكن يُدرك وجود خزانة بياضات في الطابق الثاني، لكن ها هي، بطانيات مطوية بشكل أنيق داخلها. رأى بطانية الصوف الطبيعي الهائلة التي أحضَرها لهم جورج بورتر كهدية بعد رحلة صيد إلى لابلاند. أخذها، إلى جانب أربع بطانيات أخرى، وأسرع في النزول عائداً إلى الطابق السفلي. بدأ والأخت يحشران البطانيات بشكل محكم حول ليديا. كانت قبعتها غير كافية إلى حد مضحك - لفَّ دكستر إحدى البطانيات الأصغر حول كتفَيها واستخدَم بطانية الصوف الطبيعي ليقمِّط رأسها، وهي لا تزال ترتدي القبعة. لكنّ لكي يتمكن من فعل ذلك، اضطر إلى رفع رأسها عن مسنده وأمسكه بين يديه. تفاجأ من وزنه الموازي لوزن كل الرؤوس الأخرى، ومن شعرها الناعم إلى حد لا يُصدَّق، والجمجمة داخله كثيرة النتوءات وفي حالتها الخام. مُمسكاً رأسها، شَعَر دكستر بالجزء المحتَجّ في نفسه - الغاضب، المتلهّف لينتهي من هذه المسألة - ينزلق بعيداً فجأة. لقد قرر تنفيذ مشروع إعطاء هذه المخلوقة المسكينة فكرةً عن البحر. وأدرك أهمية التفاني في هذه المهمة. فشعر بارتياح.

عندما أصبحت ليديا محزَّمة بالكامل، دفعت آنا كرسيها ذي العجلات إلى الشرفة للمرة الثانية. ففتحت أختها عينيها بقوة من أول لفحة من الرياح. انحنت آنا إلى أن أصبح رأسها عند نفس مستوى رأس ليديا وراحتا تنظران إلى البحر، مثبِّتة نظرها عند نظر أختها. كانت المياه والسماء كل ما رأته. لا تقارب بين المحيط واليابسة؛ فالحاجز المصنوع

من حجر وأسمنت كان تحتهما على مسافة بعيدة. بمعنى آخر، لا شاطئ.

"سيد ستايلز"، قالت، "أودّ أخذها إلى الرمل، إذا لم يكن لديك مانع. أستطيع أن أفعل هذا لوحدي".

"هراء. هناك مسار في الأسفل يؤدي إلى شاطئ خاص".

أمسك كل واحد منهما كرسي ليديا من جهة وأنزلاها الدرجات. كان المسار مصنوعاً من حصى مضغوطة، وعريضاً ومُصاناً بشكل جيد بحيث تستطيع آنا أن تدفع الكرسي عليه بسهولة. كانت عينا أختها مغلقتين - ربما نامت. تساءلت آنا إن كانت ليديا، بعد كل هذا الجهد، قادرة حتى على استيعاب الشاطئ؛ ما إذا كانت ستنجرف في استراحة نوم مثلما تفعل معظم وقتها. شعرت آنا بخيبة أمل: برغبة أن تبذل أختها مجهوداً أكبر، أن تكون أكثر.

قادتها عدة درجات من المسار نزولاً إلى الرمل. رفع دكستر الكرسي وحمله، آخذاً عدة أنفاس عميقة من هواء البحر. كان الكرسي ثقيلاً ومرهِقاً بوجود ليديا عليه، لكنه كان يحبّ إخضاع عضلاته للاختبار. كان الرمل باللون الأبيض الرمادي للعظام، وبدا أنه ارتفع وطوّق قعر العجلات عندما وضع الكرسي من يديه. "سآخذ نصف ساعة"، قالت، رغم أنه شكَّ بقدرتها على نقله بعيداً على الرمل. كان الماء بعيداً قليلاً. لكنها فعلت ذلك. دُهش من قوتها الجسدية.

صاحت له آنا بأن ينتظر وخلعت حذاءها، ووضعت فردتَيه جنباً إلى جنب على الرمل. كانت قبعتها عديمة الجدوى؛ فثبّتتها تحت حذائها. جدلت شعرها بسرعة وأدخلت الضفيرة داخل ياقة معطفها. شعَرت بالرمل القوي البارد تحت جوربها النسائي بعد أن عاودت السير. راحت الرياح تعصف، كما لو أنها تتحداهما أن تواصلا التقدّم.

توقَفا مرة أخرى، ليستريحا. لفَّ دكستر بطانية الصوف الطبيعي بإحكام أكثر حول الجزء السفلي لوجه ليديا، لكي تلفح الرياح عينيها فقط. كانتا مفتوحتين لكن فارغتان، مثل نوافذ منزل لا يسكنه أحد.

أخيراً، وضعا الكرسي بالقرب من الماء. أحنت آنا، التي كانت تلهث من هذه النزهة، رأسها نحو أختها وراحتا تراقبان موجة طويلة تتشكَّل وتتمدَّد إلى أن أصبحت نصف شفافة، ثم تشقلبت إلى الأمام واندثرت إلى زبد أبيض اقترب منهما على الرمل،

وكاد يلمس عجلات كرسي ليديا. ثم تشكَّلت موجة أخرى، وراحت تتمدَّد، وضوء الشمس يلمع بلون فضيّ على سطحها. البحر الغريب، العنيف، الجميل: هذا كان ما أرادت أن تراه ليديا. كان يلمس كل أطراف العالم، ستارة متألقة مُغلقة على سرّ. لفَّت آنا ذراعيها حول أختها. "لِيدي"، قالت داخل البطانيات حيث اعتبرت أن أذن أختها يجب أن تكون. "هل يمكنك رؤية البحر؟ هل يمكنك سماعه؟ إنه أمامك مباشرة – هذه فرصتك. الآن، لِيدي. الآن!".

انظري إلى البحر البحر.

رينفرونيو. لِيدي! لِيدي!

كانييريت؟

هراشا هراشا هراشا البحر

"انظرا إلى هذه السفينة"، قال السيد ستايلز، وهو يومئ إلى الماء. "انظرا إلى حجمها".

نظرت آنا وهي لا تزال تحضن أختها. رأت الصهاريج وزوارق القَطر الاعتيادية، وبضع سُفن شحن وناقلات نفط بدت ثابتة في مكانها. وخلفها، بهكذا مقياس لم تستوعب عيناها معناه في البدء، سفينة عملاقة، رمادية شاحبة، تتجاوز بريزي بوينت بسرعة هائلة. كانت آنا متيقّنة أنها لم تكن هناك قبل دقيقة فقط. "ما هذه؟"، سألته.

"ناقلة جنود"، قال. "سفينة ركاب. أظنها *الكوين ماري*. لقد نزعوا كل تلك الزخرفات الخشبية الفاخرة وملأوها بالجنود. يمكنها أن تستوعب خمسة عشر ألفاً، كتيبةً كاملةً".

كان قد قَطَع المحيط الأطلسي على متن الكوين ماري مع هارييت بعد زفافهما – ووصلا إلى ساوثهامبتون في ثلاثة أيام للقاء العجوز، التي كانت عمّته، السيدة هيويت، تربّي خيول سباقات في كنتْ. كانت مهمة دكستر أن يكسب رضاها، وقد فعل ذلك.

"إنها سريعة جداً لقافلةٍ"، أكمل يقول، رغم أنها يجب أن تعرف هكذا أمور، بما أنها تعمل في الساحة البحرية. أراد أن يشرح لها – أن يكلّمها عن سفينة الركاب بينما لا تزال مرئية أمامهما. "يجب أن تُبحر القوافل بسرعة أبطأ سفينة: هذا يعني إحدى عشرة عقدة

إذا كانت تشمل ليبرتي، وحتى أبطأ من ذلك إذا كانت تشمل حارقات فحم. لكن الكوين ماري تستطيع بلوغ سرعة ثلاثين عقدة. يسمّونها الشبح الرمادي. لا تستطيع الغواصات اللحاق بها".

شعَر بتوقٍ غريبٍ تجاه السفينة، كما لو أنه يتمنى لو كان على متنها. لكن ليس مع الجنود. قبل الحرب؟ لكن لم يكن هذا ما يشعر به أيضاً. ربما مع الجنود في النهاية.

"هل أعمالك التجارية تنفّذ أي أعمال حربية؟"، سألته بعد أن اختفت السفينة عن الأنظار.

"إذا كنتِ تعتبرين إبقاء الجنود مستمتعين وتخفيف آلام الاقتصاد جزءاً من الجهد الحربي، فإننا نفعل أكثر من المطلوب منا"، قال.

ضحِكت. "أنتَ استغلالي"، قالت من دون أن تقصد إدانته. لكن الكلمة لم تعجبه.

"أفضِّل 'معزِّز معنويات'"، قال. "أُبقي معنويات الناس مرتفعة، رغم الحرب".

"هل تودّ القيام بالمزيد؟".

بدا شيئاً نادراً: سؤال صادق طُرح بدافع الحشرية فقط لا غير. وَقَفت مستقيمة، ويداها على كتفَي أختها، وراقَبته من تحت حاجبيها المقنطَرين. كانت نظراتها ساطعة وصافية.

"نعم"، قال. "نعم، أودّ ذلك". بدا له الآن أن هذه الأمنية لا تزال تنتظره منذ زمن بعيد. شعَرَ بنفاد صبر كبير من عدم تحقيقه لها بعد.

شعَرت آنا بهزّة تحت يديها، مثل جارور أُغلق بعنف. نظرت إلى وجه ليديا قلِقةً ووجدت عينَي أختها مفتوحتين إلى أقصى حد، تسجّلان صعود الأمواج وهبوطها. "لِيدي"، صاحت. "هل تعرفين أين أنت؟".

انظري إلى البحر. انظري إلى البحر البحر البحر

"إنها تتكلم"، صاحت آنا. "أنصِت!".

كان دكستر قد نسي أمر ليديا، بعد أن غاص في السؤال الذي طرحته أختها عن الأعمال الحربية. لكنه نظر إلى ليديا مرة أخرى الآن. مع مجرد ظهور عينيها الزرقاوين فوق

بطانية الصوف الطبيعي، وبضع جدلات من الشعر ناتئة بين طيّاتها، كانت تبدو مثل امرأة جميلة مُلثَّمة، امرأة غامضة. اقترب منها وانحنى وسمع همساً داخل الصوف.

"شعَرتُ بها تستيقظ"، قالت أختها. "كما لو أن أحداً هزَّها".

نظر دكستر إلى التورّمات الفضيّة. لفحت الرياح معطفه الطويل وكانت طيور النورس تزعق فوقه. "إنه جميل"، قال. "لا عجب أنها تنتبه لما يجري حولها. يجب أن يرى الجميع هذا ولو مرةً في حياتهم".

"هذا رأيي أيضاً"، قالت.

لقد أردتُك أن تري البحر. تري البحر البحر

إيشيوارمينوف؟

العصفور رِي رِي روك ريك روك أنتِ تعرفين ما هي العصافير، هل تتذكَّرين العصافير الصغيرة التي تأتي إلى عتبة النافذة، هل تتذكَّرين؟

كُرِي كُرِي عصفور

الرياح تشتد.

يمكنك رؤية أنها تراقب

آه نعم، إنها ترى. ضحِكت منذ دقيقة

شيلافلامينغو. فلامينغو. عصفور كُرِي كُرِي.

قبلة

آه، لِيدي!

قبلة

حبيبتي لم تفعلي هذا منذ زمن بعيد. انظر، إنها تقبّلني إذا سحبتُ البطانية جانباً.

إنها تقبِّلللل.

هذه قبلة. هل ترى؟

أظن أنني أرى. المسكينة.

شفتاها ناعمتان جداً.

آنا

أنصِت، إنها تتكلم. إنها تحاول أن تتكلم. التواجد في الخارج يجعلها أفضل.

آنا بابا ماما ليدي

إنها تكلّمكَ. إنها تنظر إليكَ.

ليست لديها أي فكرة عمَّن أكون. ربما تتساءل مَن هو هذا الغريب.

مَن هو هذا الغريب مَن أنا بابا

"شكراً لإحضارنا سيد ستايلز"، صاحت آنا، دامعةً فجأة. لم يفعل أحدٌ هذا أبداً من قبل – أخذهما إلى الشاطئ معاً. "شكراً لإحضارنا. نحن ممنونتان جداً". حضنت يديه ووَقَفت على رؤوس أصابعها لكي تقبِّل خده. لكنها لم تصل إلى أكثر من فكّه.

"هذا لا شيء"، تمتم، رغم أنه شعَر بتأثّر غريب. فالتغيُّر في الفتاة المشلولة كان مذهلاً. وقد وجدها ممدَّدة وغير واعية، كما لو أنها سقطت من مكانٍ عالٍ، لكنها تجلس بشكل مستقل الآن، ورأسها بعيد عن المسند. سقطت بطانية الصوف الطبيعي عن وجهها بعد أن واجهت البحر، وتحرّكت شفتاها، كما لو أنها مخلوق خرافي يملك القدرة على إحداث عواصف وزوابع، وعيناها الزرقاوان ثابتتان نحو الأفق البعيد.

فَقَد الإحساس بالوقت. إنها الثانية عشرة والنصف. ليس متأخراً بالقدر الذي كان يخشاه، لكن الأوان فات للقاء العجوز. لا بأس. لم يكن يهتمّ لذلك حقاً – كان مسروراً بعدم حاجته إلى أن يُسرِع إلى أي مكان آخر. وَقَف بجانب الفتاتين وراح يراقب البحر. لم يكن البحر هو نفسه أبداً في أي يومين، ليس إذا نظرتَ جيداً. خطوة ذكية أن يأخذ الطفلة المسكينة إلى الشاطئ. أمر جيد لأي شخص أن يتنفس هذا الهواء العليل.

قبلة آنا

عصفور كُري كُري

انظري إلى الأمواج هراشا هراشا هراشا

انظري إلى البحر البحر انظري إلى البحر

قبلة آنا

عصفور أزرق صه

تنفّس

فاااا لاااا

انظري إلى انظري إلى البحر انظري إلى البحر انظري إلى

لا أريد... عندما سوف

بابا

مَن أنا مَن هو هذا الغريب

قبلة لِيدي

قبلة آنا

بابا مَن هو هذا الغريب

خائفة من أن تغادر قد

هراشا هراشا هراشا

ليست على عجلة من أمرها. ابقي هنا بقدر ما تشائين.

الجزء الرابع

الظلمة

الفصل 13

عادت والدة آنا من بعثتها ليوم الأحد في ساعة متأخرة من بعد الظهر. فتحت الباب بسرعة وركَضت إلى ليديا، وتوتّرها الظاهر لا يترك مجالاً للشك بأنه تم إبلاغها، خلال صعود الطوابق الخمسة، عن أمر السيارة، والرجل الغريب، والغياب الطويل. كانت ليديا تجلس قرب النافذة، تراقب عصفوراً على سُلَّم الحريق. استدارت إلى أمهما وابتسمت.

"يا إلهي"، صاحت أمها، ورمت ذراعيها حولها. "بالله عليك إلى أين أخذتها؟".

"اسمعي"، قالت آنا.

دهشة أمها من التغيّر الذي أصاب ليديا سهَّل على آنا إخبارها الأكاذيب التي بقيت تحيكها بعناية طوال رحلة العودة إلى المنزل: أن المُشرف عليها، السيد ڤوسّ، أتى لزيارتهم بشكل غير متوقع في سيارته. وأنه أخذهما في نزهة إلى منتزه بروسبكت بارك، حيث جلست ليديا (المحمية جيداً من الرياح، بالطبع) في الهواء الطلق. ثم معلومة ختامية عفوية: للسيد ڤوسّ أخت مثل ليديا! وهذا الذي جعله مهتماً بالقدوم ورؤيتها، وجعل آنا تثق به لكي يحملها إلى الشارع.

"الجو بارد في المنتزه"، قالت أمهما وهي تلمس جبهة ليديا. "لكنها تبدو متيقظة جداً".

"ربما تحبّ البرد".

كانت نظرات ليديا مليئة بالإدراك – ليس فقط للأكاذيب التي كانت آنا تنطقها الآن، بل بتراجعها عن قرارها بإخبار السيد ستايلز عن الرابط بينهما. خلال رحلة العودة من شاطئ مانهاتن، شغَّل الراديو على نشرة الأخبار. خبر الإغراق المتعمّد للأسطول

الفرنسي في تولون طغى عليه خبر الحريق الهائل المروِّع ليلة أمس في نادٍ ليلي في بوسطن، الكوكونت غروف، بعد اشتعال شجرة نخيل اصطناعية. بدا السيد ستايلز يعرف بأمر الكارثة من قبل، لكن التفاصيل أزعجته: ثلاثمئة قتيل، ومئات الجرحى في المستشفيات. كل ذلك نتيجة إصابة فتيات الجوقة بالذعر واندفاع الزبائن مذعورين نحو المخارج المسدودة.

"حمقى"، تمتم. "مجرمون. يا إلهي، مَن يحتاج إلى الألمان عندما نحرق أنفسنا أحياء؟".

"هل هو أحد نواديك الليلية؟"، سألت آنا.

ردَّ بنظرة لاذعة. "لم يمت أحدٌ قط في أحد نواديَّ"، قال.

بعد أن حمل ليديا إلى الطابق العلوي، بدا على عجل للمغادرة. لذا لم تقل آنا شيئاً عن أبيها. لم تندم على ذلك - بل كانت فخورة، في الواقع، من عدم إفشائها أي شيء. كانت ليديا لا تزال تراقبها. لم تشعر بالإحراج، مثل الأشخاص الآخرين؛ بل كان على آنا أن تشيح بنظرها. ففعلت ذلك أخيراً، منتظرةً أن يزول تيقّظ أختها. عندما عادت والتفَتت إليها، كانت ليديا لا تزال تراقبها.

في ذلك الاثنين والثلثاء، بينما كانت آنا في العمل، حَمَل سيلفيو ليديا إلى الطابق السفلي، ودفعَتها أمهما طول الطريق ذهاباً إلى منتزه بروسبكت بارك وإياباً منه - نزهة لساعات في الطقس المنعش والعاصف، حسبنما أخبرتها. في الليل، حافظت ليديا على ثرثرة هادئة بشأن العصافير والقبلات وآنا وماما. "بقيت تذكر البحر"، قالت أمهما. "أتساءل ماذا تقصد بذلك". تبادَلت آنا وليديا الابتسام.

في يوم الأربعاء، عادت آنا من العمل لتجد أمها والعمّة برِيان تتناولان الشراب في الغرفة الأمامية مع رجل يدعى والتر ليب، الذي قدَّمته برِيان كـ "صديق قديم". بشرته الشاحبة وشاربه الرفيع ذكَّرا آنا بـ لُوي، صديق نَلْ في نادي مُونشاين. تبيَّن أن والتر ليب أخذ أغنِس وبريان وليديا في سيارته الفورد إلى مكان مخصص للنزهات تحت جسر جورج واشنطن، حيث جلست ليديا على كرسيها، مطوَّقةً بمعاطف، تشاهد حركة مرور الزوارق. لقد ضحِكت وثرثرت وأكلت القسم الأكبر من طبق بطاطا حلوة اشتروه من كشك. كان والتر ليب يستمع بانتباه شديد لشرح والدة آنا لتلك الأحداث، ويومئ برأسه من وقت لآخر كما لو أنه يصادق على روايتها. كان يفتقر للحسّ الاحتفالي الذي يتميّز به

معظم أصدقاء برِيان "القدامى"، ولم يُنه كوب شرابه.

"بعد فوات الأوان تقريباً"، همَست برِيان بصوت مسموع بينما خفت صوت خطوات والتر ليب وهو ينزل السلالم.

"لقد أعجبني"، قالت أمها. "لديه حس فكاهة".

"هذا يشبه القول، *يا لها من فتاة مثيرة للاهتمام كثيراً*".

"لماذا دعوته؟"، سألت آنا.

الرجال الذين يشكلّون أفضل صُحبة هم أسوأ السائقين، شرحت عمّتها. "أما الآن، ومع الحرب، فلا يمكنهم شراء عجلات جديدة، لذا يرقِّعون العجلات القديمة". كان والتر رجلاً يمكنها أن تتّكل أنه لن يحطّم سيارته بوجود ليديا داخلها.

جلست ليديا على كرسيها في حالة تورُّد حيوي. من الواضح أن زيارتها الثانية إلى الواجهة المائية لاءمتها. أطالوا السهر قليلاً، أربعتهم جميعاً، مع فتحهم النوافذ على برد ديسمبر، والمدينة المعتمة المستكينة تتمايل على ألحان كلارينت بِيني غُودمان. ليديا تتوق إلى التحفيز، كان هذا واضحاً؛ والمسألة الآن هي كيفية المحافظة عليه. كان لدى برِيان أسماء أخرى في ذهنها لمزيد من النزهات في السيارة. تكلَّمن عما يمكن أن يحصل إذا استمرت الأمور على هذا المنوال: لنفترض أن ليديا تستطيع أن تتعلّم السير والتكلم؟ لنفترض أنه يمكنها أن تتزوّج وتُنجب أولاداً؟ راقبت آنا عمّتها، وتساءلت إن كانت مقتنعة بهذه الأشياء حقاً، ثم تساءلت لماذا تساءلت. فقد أتاها الجواب تدريجياً: كانت هي وأمها مَن تتخيّلان وتستفيضان، بينما قالت برِيان ما يكفي فقط لحثّهما على ذلك. لقد أصبحت عمّتها سارية مايو. فقد كانت مقتنعة بالمرح، وكنَّ يمرحن فعلاً.

انطوت ليديا على نفسها قليلاً في الصباح التالي، واتفقت آنا وأمها على تركها مستيقظة حتى وقت متأخر. لا مزيد من هذا! لكن عندما وَصَلت آنا إلى المنزل من عملها في ذلك المساء، كانت أختها كسولة أكثر؛ ووجدتا صعوبة في التملق لها لكي تأكل. لم تسعل أو ترتعش أو تعطس. لم تكن لديها حمى. كانت فقط لا تزال بعيدة جداً.

"أخشى"، قالت أمها. "أنها لا تبدو بخير".

"لماذا لا تُخرجيها غداً؟".

"أخشى أن نكون قد أذيناها بفعلنا ذلك".

"لم تتأذَّ يا ماما". لكن كانت هناك مسحة ذعر في قلب آنا.

في الصباح التالي، كان من الصعب إيقاظ ليديا. وفي الساحة، كانت آنا قلقة جداً لكي تخرج خلال استراحة الغداء؛ حتى الألفة الشائكة للمتزوِّجات بدت أقل سوءاً من تناولها الطعام لوحدها بين ظلال ديسمبر الطويلة. أسرعَت إلى المنزل بعد العمل، وهي تدعو في قلبها بأن تلاقيها أمها بابتسامة؛ بأن تجد ليديا وقد عادت لتجلس على كرسيها، مبتسمةً أيضاً. لكن قبل أن تصل إلى الجزء الأخير من السلالم، فُتح الباب وهرعت أمها إلى الردهة. "حالتها أسوأ"، صاحت بآنا فوق الدرابزين. "لا أعرف ماذا أفعل!".

انقبض قلب آنا. لكنها تمكّنت من أن تقول بهدوء، بعدما أصبحتا داخل الشقة، "يجب أن نتصل بالدكتور ديروود".

"لا يقوم بزيارات منزلية في بروكلين"، زعَقت أمها.

مرتعشةً، ذهَبت آنا إلى غرفة نومها، حيث كانت ليديا ممدَّدة. بقيت أمهما تقف مضطربةً عند الباب، ثم انسحَبت. سمِعتها آنا تشهق. تمدَّدت بجانب ليديا مثلما فعلت في ليالٍ كثيرة - آلاف الليالي منذ أن كانتا صغيرتين. "لِيدي"، همَست. "يجب أن تستيقظي".

فُتحت عينا ليديا جزئياً. كانتا تبدوان كسولتين، وجامدتين بشكل غير طبيعي، كما لو أن أنفاسها ونبضات قلبها تباطأت.

"لِيدي"، قالت آنا بإلحاح هادئ. "ماما تحتاج إليك وأنا أحتاج إليك".

كانت كل كلمة ترنّ بإدراكها المذعور بأن أي سوء يمكن أن يكون قد حصل كان ذنبها. شعَرت بأنها على وشك أن تتقيأ من الخوف. لكن ليديا كانت حيّة. كانت تتنفس، وقلبها يخفق. كوَّرت آنا نفسها حول أختها وركَّزت على الحياة التي تنبض داخلها كما لو أنها كانت تثبّتها في مكانها - تبتلع ليديا، أو هذه الأخيرة تبتلعها. انجرَفت في ذكرياتها: مزرعة جَدّهما في مينيسوتا، حيث أخذتها وأمها مرتين في الصيف بينما بقي

والدهما لوحده في المنزل. حشد الأنسباء الذكور الذين انكمَشوا عنها كما لو أنها شيء كريه، وشعَرت آنا بالوحدة مع ليديا بينما كان الباقون يطاردون بعضهم البعض في الغابة، ويصيحون مثل الهنود الحمر. بدوا أنهم يتواجدون في صيغة الجمع: فيُكلّمون كأنهم شخص واحد، ويُوبِّخون ويُكافأون معاً، ويضطرون عندها إلى التعارك بين بعضهم البعض على المكافأة نفسها. كانوا يقتربون من ليديا ككتلة واحدة، يدرسون شعرها، والياقة المخرَّمة التي خاطتها آنا لها على فستانها. "هل *تفعل* أي شيء؟"، سألوها.

"لا"، قالت آنا، وهي تشعر بكره تجاه أختها. "لا تفعل أي شيء أبداً".

لكن في الأسابيع التالية، بدأ يحصل شيء غير متوقع: بدأ فتيان فرديون ينفصلون عن المجموعة، كما لو أن ذلك يحصل لأول مرة، ويأتون ليجلسوا بهدوء مع ليديا. كانوا يتوسَّلون لقضاء مزيد من الوقت معها، وبدأت آنا تشعر أنها مهمة، فترتّب لهم تلك الزيارات. ادّعى الفتيان أن ليديا تُخبرهم ببعض الأمور: كانت تحبّ الفطائر؛ تخاف من العناكب؛ وتحبّ الأرانب أكثر من كل بقية الحيوانات. لا ماعز. دجاج. أحصنة. خراف. *حتى إنها لم تر خروفاً أبداً أيها الأبله!*

"إنها تفتقد منزلها"، قال فريدي، أصغر فتى، بعد أن أمسك يد ليديا لرُبع ساعة.

"ما الذي تفتقد له؟"، سألت آنا، وانتظَرت فريدي أن يقول، *والدها*. لكن رغم أن فريدي كان يعيش على بُعد ثمانين كيلومتراً من أقرب بحيرة، قال، "إنها تفتقد البحر". كانت هذه أول مرة تُدرِك فيها آنا أن أختها لم تره أبداً.

أعدّت والدة آنا الحمّام تلك الليلة، وغسَلت آنا شعر ليديا. كانتا تأملان أن تدفعها متعة الماء الدافئ إلى الوعي، لكن ما حصل كان العكس تماماً: عامت ليديا مُغلقة عينيها، وأخفتّ ابتسامة على شفتيها. تولَّد لدى آنا شعور مُوحِش بأن الجسم المكوَّر الذي تحمله بين يديها لم يعد يحوي أختها، أو ليس كلياً. كان الأمر كما لو أن ليديا تضمحلّ في السر الذي سكنته جزئياً دائماً، كما لو أن قوة جذبه كانت كبيرة جداً لكي تقاومها.

في الصباح التالي، أطالت آنا في النوم واضطرت إلى الإسراع للوصول إلى ورشتها قبل الساعة الثامنة. بقي منظر ليديا وهي لا تتحرّك في السرير يُقلقها طوال يومها. فكانت تقيس القِطع في حالة شبه غيبوبة، والرعب والأمل يعصفان في قلبها. *أرجو أن يكون اليوم*

نقطة تحول لديها. أرجو أن تصبح أفضل اليوم.

وَصَلت المنزل لتجد معطفاً وقبعةً غير مألوفين معلَّقين على باب الشقة من الداخل، وعصا سير مسنودة على الجدار. وضعت آنا جزدانها من يدها، وخلعت حذاءها، ودخلت غرفة نومها بهدوء. كان الدكتور ديروود يجلس على كرسي مطبخ عند الباب، وأمها جالسة على سرير آنا. وليديا ممدَّدة على سريرها، وجسمها مستقيم بشكل غير طبيعي. كان هناك تجويف جديد حول عينيها المُغلقتين. والبطانية ترتفع وتنخفض على صدرها مثل رقّاص يلوح ببطء شديد.

نهض الدكتور ديروود عن كرسيه وصافح آنا. كان يبدو خارج مكتبه الفخم كأي طبيب عادي يقوم بزيارة منزلية. ورغم أن حقيبته السوداء الجامدة كانت مغلقة ولا شيء طبيّ يجري بشكل خاص، إلا أن حضوره أضفى إحساساً بالترتيب والأمان. استعادت آنا ثقتها به فوراً. لا يمكن أن يحصل أي سوء بينما الطبيب هنا.

ركَعت في المساحة الضيقة بين السريرين وألقت رأسها بجانب رأس ليديا، وراحت تتنفّس رائحة الأزهار من شامبو ليلة أمس.

"لم يكن عليَّ إخراجها أبداً"، قالت أمها. "كانت الريح شديدة".

"هراء"، قال الدكتور ديروود.

"هذا جَعَل حالتها أسوأ".

"يجب أن تُخرجي هذه الفكرة من رأسك سيدة كيريغان"، قال بنبرة سلطوية هادئة. "هذا التفكير ليس خطأً فحسب، بل مضرّاً. لقد أعطيت ليديا خبرة لطيفة إضافية في حياة كانت مليئة بها".

"كيف تعرف ذلك؟"، ألحّت أمها. "كيف يمكنك أن تعرف؟".

"انظرا إليها"، قال الطبيب، وفعلتا ذلك، بعد أن رفعت آنا رأسها لتتأمل بشرة أختها المتألقة، وعظام وجهها المُرهَفة، وشعرها المترف. بدت عيناها تلمعان تحت رمشَيها الطويلين كما لو أنها كانت تراقبهم من خلال الستارة الحريرية لجفنَيها.

شيء تحطّم في والدة آنا. فانحنت وبدأت تصرخ ملء صوتها. لم تكن آنا قد سمعت هكذا صوت أبداً في حياتها، وقد أرعَبها جداً – كما لو أن أمها ستُصاب بالجنون أو

ترمي بنفسها من النافذة. تولَّد الذعر فيها؛ لقد تسبَّبت بهذا! لكن لا، لم ترتكب أي خطأ. هذا ما قاله الطبيب، ووجوده جَعَل كلامه صحيحاً.

أخذ الدكتور ديروود يدَي أمها في يديه. يداه الكبيرتان والعريضتان والخشنتان مثل يدَي عامل. راحت آنا تراقبهما بذهول - كيف لم تلاحظ تلك اليدين الضخمتين أبداً من قبل؟

"يجب أن تصدِّقيني سيدة كيريغان"، قال. "لقد فعلتِ كل شيء يمكن فعله".

"هذا غير كافٍ"، صاحت أمها.

"كان أكثر من كافٍ".

جمدت كلماته في الهواء مثل صدى. حتى عندما رفض تناول كوب القهوة الاعتيادي الذي يلي كل زيارة منزلية وأخذ معطفه وقبعته وعصاه، كانت آنا تركّز على جموح حاجبَي عينيه الفضيين؛ وبعدما صافحهما، فهموا كلهم أنهم لن يلتقوا مرة أخرى، وراح صوت دعساته على السلالم يخبو تدريجياً؛ عندما عادت آنا وأمها إلى غرفة النوم لتعتنيا بليديا، كانت لا تزال تسمع صوت الطبيب: *كان أكثر من كافٍ*.

خلا وجه أمها من أي تعبير. "لم يفتح حقيبته أبداً"، قالت.

جرت الجنازة يوم أحد بارد قبل أسبوع من احتفال الشتاء. جلَست آنا على المقعد الخشبي الطويل الأمامي بين ستيلا إيوفينو وليليان فيني؛ وجلَست أمها بين العمّة برِيان وبيرل غراتزكي، التي كانت قد أصبحت صديقة أكثر منها مديرة منذ وفاة السيد غراتزكي قبل سنتين. كانت بيرل مَن اشترت باقات الزنابق البيضاء للصالة التي عبقت رائحتها في الهواء بينما كان الموقَّر ماكبرايد يرثي ليديا.

شعرت آنا بخَدَر رحوم يغمرها منذ وفاة أختها، مما مكّنها من إنجاز المهام اللوجستية العديدة المطلوبة منها: أخذ إجازة قصيرة من الساحة البحرية؛ ترتيب أمور الجنازة، والدفن، والغداء الذي يليه؛ وشراء تابوت ومدفن. فمسألة المكان الذي يجب أن تستريح فيه ليديا شَلَّت تفكير آنا وأمها لفترة قصيرة. كانت كل عشيرة أمها مدفونة في مينيسوتا، وفكرة دفن ليديا لوحدها هنا بين غرباء كانت لا تُطاق. قرَّرتا أخيراً اختيار نيو كافاري، حيث وهبت بيرل غراتزكي ليديا الموقع الذي اشترته بجانب زوجها، وحيث كانت هناك

مساحة إضافية على الجهتين لأغنِس وآنا. كانت بيرل مغتبِطة من هذا الترتيب. "يمكننا زيارة المدفن سوية"، صاحت بنبرة ارتياح طمّاعة لشخص ظنَّ أن هذا مدَّد له فترته الأرضية.

بينما تبَعوا تابوت ليديا إلى الخارج، كانت آنا مندهشة من مدى الازدحام على المقاعد الخشبية الطويلة خلال مراسم الدفن. مَن كان كل أولئك الأشخاص؟ كانت تتوقع حفنةً، آل موتشاروني، آل إيوفينو، آل فيني، لكن كانت هناك عشرات الوجوه الأخرى، مألوفة لكن من الصعب تذكّر أسماء أصحابها. السيدات العجائز من المبنى في الجانب المقابل للشارع اللواتي يسندن مَرافقهن على مناشف الحمّام ليتجسّسن على الحيّ. الجيران الذين كانت آنا تعرفهن لمجرد إلقاء تحية الصباح عليهم. سيلفيو موتشاروني الذي كان يجهش بالبكاء على ذراعَي أمه. السيد وايت، الصيدلي، الذي كان يبكي دون خجل في منديله. عشرات النساء اللواتي أخفضن شبكات قبعاتهن وحجبن عيونهن. كان فتيان الحي غائبين، بالطبع، مجنَّدين أو تم استدعاؤهم، وقسم كبير من الآباء كانوا مسافرين لإنجاز أعمال حربية أو للعمل ساعات إضافية أيام الآحاد. واقفةً تحت السماء الرمادية بين هذا العدد الكبير من النساء، بدأت آنا تفهم معنى الحزن الجماعي: كانت ليديا لا تزال النقطة الساكنة الأخيرة وسط هذا الكمّ الكبير من التغيير.

أشرَفت برِيان على غداء المأتم، فراحت ترتِّب الأطباق المُغطاة التي أحضرها الجيران وتوزِّع كميات سخية من شراب الشعير والشراب الاسكتلندي اللذين أحضَرتهما بنفسها. ملأ الضيوف شقتهم وصولاً حتى الردهة والسلالم، حاملين الطعام في مناديل كوكتيل ورقية يبدو أن برِيان سرقتها من مقصفٍ في خليج شيبسهَد يدعى ديزي سواين. كان كل منديل مدموغاً بصورة كرتونية لراعٍ: قلبين في عينيه، وخروف عند قدميه، وعصا في إحدى يديه، وزجّاجة كوكتيل في يده الأخرى.

تسلَّقت آنا سُلَّم الحريق مع ليليان وستيلا، ووقفن معاً في معاطفهن وقبعاتهن على الشبكة الحديدية القارسة البرودة. كان جيداً شعورها محشورةً بين صديقتيها القديمتين، اللتين اختبأت معهما في الخزائن وتشاركت معهما فِراشاً واحداً في الليالي الحارة عندما كانت عائلاتهن تصعد للنوم على السطح. كنَّ قد جدَلن شعر بعضهن البعض ومسحن مرهماً عليه، واستخدمن شفرة السيد إيوفينو لحلاقة إبط بعضهن البعض. كانت ليليان،

ذات الوجه المستدير المنمَّش الذي يجعلها تبدو في الرابعة عشرة من عمرها، تعمل كمُختزِلة وتعيش مع عمّة لها في مانهاتن. وستيلا، الجميلة، خطبت حديثاً. بقيت تمدّ أصابعها الطويلة لتُبدي إعجابها بالماسة الصغيرة جداً على شكل دمعة التي قدَّمها لها خطيبها، وهو راكع على ركبته، قبل أن يغادِر إلى مخيَّم التدريب.

"أَدين لشيموس برسالة"، قالت آنا لليليان.

"يقول أخي إنك ستتزوَّجينه إذا عاد بطلاً"، قالت ليليان.

"سأفعل ذلك"، قالت آنا. "أي شيء لبطلٍ".

كانت السيدة فيني قد نظَّمت مشروع كتابة الرسائل عندما جُنِّد شيموس، ووجَدت آنا نفسها الآن تراسل بإطناب فتيان الحي الذين كانت بالكاد تعرفهم عندما كانوا لا يزالون في الوطن.

"تريدنا أمي ألا نذكر خطبة ستيلا في رسائلنا"، قالت ليليان، مقلِّدةً اللكنة في الأفلام السينمائية التي يكزّ فيها الممثل على أسنانه والتي كنَّ يقلدنها كثيراً. "اعطي الشباب شيئاً ليعيشوا من أجله".

"لا يجب أن نسلب الجندي أحلامه"، قالت آنا بنفس النبرة، لكن بفتور.

"حقاً يا فتيات، ستجعلن رأسي يتورَّم مثل بالون كبير"، تشدَّقت ستيلا، لكن جو المزاح تبدَّد، وأخفَضن نظرهن إلى الشارع بصمت.

"أي خبر عن والدك؟"، سألت ليليان.

هزَّت آنا رأسها.

"مريع ألا يعرف"، همسَت ستيلا.

"أعتقد أنه ميت"، قالت آنا.

استدارتا نحوها، محُتارتين. "هل سمعتِ شيئاً؟"، سألت ليليان.

بحَثت آنا عن جواب. فهي بالكاد رأت صديقتيها في الأشهر منذ أن بدأت العمل في الساحة البحرية - فالحرب جعَلت الجميع مشغولاً جداً. وبدا لها مستحيلاً إخبارهما عن دكستر ستايلز أو تشرح لهما التغيير في تفكيرها. كانت هناك محطات كثيرة لشرحها لهما.

"وهل هناك أي سبب آخر يمنعه من العودة؟"، قالت أخيراً. "كيف يمكنه أن... ينسى؟".

أخذت ستيلا يدها. وشعَرت آنا بخاتم الخطبة الجديد مثل شظية جليدية على بشرة صديقتها الدافئة.

"إنه ميت بالنسبة لك، هذا ما تقصدينه"، قالت ستيلا.

في منتصف الليل، استيقظت آنا من هزّ أمها لها. "نحن لا نعرف السيد غراتزكي!"، همَست في أذن آنا. *"ماذا لو لم يكن لطيفاً؟"*.

"إنه لطيف"، قالت آنا بشكل مهزوز.

"إنك تصدقين كلام بيرل عنه، لكننا لم نلتق بالرجل. فهو لم يغادر سريره أبداً!".

"لقد التقيتُه مرةً"، قالت آنا.

صُعقَت أمها تماماً. "التقيت السيد غراتزكي؟".

"أراني جرحه"، قالت آنا.

في الصباح التالي، يوم الاثنين، أيقظت نفسها بالقوة في ظلمة زمن الحرب. كانت منضدة المطبخ مليئة بمناديل كوكتيل ديزي سواين. باتت برِيان ليلتها عندهم، وسمِعت آنا شخيرها الصاخب من سرير أمها.

شَعَرت بارتخاء في أطرافها وهي تستقلّ الترامواي، لكن حين انضمت إلى الحشود خارج بوابة ساندز ستريت، شعَرت أنها استعادت قوتها. كان شروق الشتاء الذي يغمر عينيها في جادة فلاشينغ والرياح المالحة مقوّية. لم تأت ليديا إلى الساحة البحرية أبداً. وما عدا السيد ڤوسّ وروز، لم يكن أحد هناك يعلم بوجودها.

عند عودتها إلى المنزل ذلك المساء، وجَدت أن مفتاحها لم يعد يفتح القفل. فتحت لها أمها الباب وأعطتها مفتاحاً جديداً بدا مصقولاً بمبرد حديثاً. "في حال عاد والدك"، قالت، "لم يعد مرحباً به في هذا المنزل".

شعرت آنا بارتيابٍ. "هل تتوقعينه؟".

"ليس بعد الآن".

أمضت أمها اليومين التاليين وهي تفرّغ خزانة الملابس والمكتب من كل قطعة ثياب تخصّ والدها. البذلات الجميلة التي ساعَدت آنا في خياطتها وتعديلها، الأحذية الفاخرة والمعاطف وربطات العنق الملوّنة والمناديل الحريرية - تم طي كل شيء بشكل مشين في صناديق حبوب شوفان وشراب بطعم الشوكولا. أخرجت آنا سترة بذلة من أحد الصناديق قبل أن تغلقه أمها. كانت قد أصبحت غير متماشية مع الموضة، وينقصها الكتفان المربّعان والطراز العسكري الذي يفضّله الجميع هذه الأيام. حَمَل سيلفيو الصناديق إلى دار العبادة ليوزّعها الموقَّر ماكبرايد على الفقراء.

بالكاد تغيَّرت حياة آنا على السطح. فكانت تغادر إلى عملها في الظلمة (وأمها لا تزال نائمة) وتعود عند الشَفَق. أتى احتفال الشتاء ومضى، والسنة تبدّلت إلى 1943. كانتا تخيطان لكي تُلهيا نفسيهما في المساء: معطف منزلي ذي طيّات صدر مطرَّزة هدية لعرس ستيلا؛ أثواب لاحتفال المدرسة لأنسباء آنا البِكر - أولئك الفتيان الوسخين الصاخبين من المزرعة، الذين أصبحوا كلهم في الجيش الآن - وزوجات بعضهم حوامل من قبل. كما تستمعان إلى المسلسلات الإذاعية *الجاسوس المضاد* و*مانهاتن في منتصف الليل* و*الطبيب المتوحش*. ويُحضِر الجيران بعض الطعام، الذي تسخّنانه للعشاء. شكَّل هذا الروتين جسراً مؤقتاً سريع العطب فوق هاويةٍ. كانت والدة آنا تمضي أيامها داخل تلك الهاوية؛ وكان هناك همود فيها، خَدَرٌ كانت آنا تخشى من أن يصيبها هي أيضاً. ما أنقذها منه كان الذهاب إلى العمل. فتقيس قِطعها في حالة انسحاب صامت. كان الجميع يعلم بحصول حالة وفاة في عائلتها، وعادت المتزوِّجات ليكنّ لطيفات معها من جديد. لكن لم يعد بإمكان آنا استعادة دور الأخت الصغيرة الجامحة الذي كانت تلعبه معهن من قبل.

الغريب في الأمر أن الشقة بدت أصغر من دون ليديا فيها. وراحت آنا وأمها تصطدمان ببعضهما بينما تتنقّلان بين الغرف، وتنعطفان دفعة واحدة نحو الثلاجة، النافذة، المغسلة. كانت تعود إلى المنزل في بعض الأمسيات لتجد أمها لا تزال نائمة، من دون أي دلالة على أنها نهضت من السرير لتفعل أي شيء أكثر من زيارة مرحاض الردهة. وفي إحدى المرات، لم تكن أمها في المنزل، وسارت آنا بين الغرف الصغيرة وهي تأخذ أنفاساً عميقةً، وشعرت بالارتياح لإيجادها نفسها لوحدها، ثم شعرت بالذنب

بسبب ذلك الارتياح. تبيَّن أن أمها كانت تستخدم الهاتف العمومي في صيدلية وايت لتتصل بأخواتها في مينيسوتا. بدأت تتصل بهن أكثر من قبل، وتجمِّع العملات المعدنية في علبة القهوة لتتمكن من إشباع موظفي الاتصال النَهِمين.

في إحدى الليالي، لاحَظت آنا بعض أزياء رقص أمها القديمة موضوعة على السرير: تنورة قصيرة مصنوعة من ريش أصفر؛ صُدرة مع جناحين خضراوين؛ صُدرة حمراء متلألئة مُزدانة بالترتر. ثم اختفت في الليلة التالية. "ستبيعها لي بيرل"، قالت أمها وهما تتعشّيان كانيلوني السيدة موتشاروني وتستمعان إلى المسلسل الإذاعي إيزي آيسز. "يبدو أن قيمتها ازدادت، الآن بعد أن توقفت فرقة الفوليز عن الرقص. قد يضعها أحدهم في متحف". وضحكت ضحكة عدم تصديق.

"هل جرّبتِ ارتداءها من جديد؟".

"بدينة جداً".

"ستصبحين أنحف إذا عاودت الرقص".

"في الحادية والأربعين؟ يستطيع أي شخص أن يرى أنني فاشلة".

كانت هناك طريقة عرَفت آنا أنها يجب أن تشعر بها، وهي تشاهد كَرْب أمها، وسحابة الحنان والشفقة التي بدا أنها تحوم بعيدا عن متناولها. بدلاً من ذلك، ارتَدت. كانت أمها ضعيفة، على عكس آنا. فكانت تُسرع إلى عملها كل صباح، مرحِّبةً باللا مبالاة التي تلفّها أثناء عبورها بوابة ساندز ستريت. حاوَلت نسيان الشقة وكل شيء فيها.

في يناير، بعد ثلاثة أسابيع من عودتها إلى العمل، ناداها السيد ڤوسّ إلى مكتبه وسألها إن كانت لا تزال مهتمة في تعلّم الغطس.

"نعم"، قالت ببطء. "بالطبع".

يحتاج الملازم أكسل إلى المزيد من المتطوّعين المدنيين؛ فعدد كبير منهم فشلوا في إكمال التدريب. "وقد تذكّرك"، قال السيد ڤوسّ. "لا شك أنك تركتِ انطباعاً جيداً لديه".

"أتذكره"، قالت آنا.

أثناء صعودها السلالم بعد بضع ليالٍ، شمَّت رائحة طبخ حقيقي من خلف باب

شقتها لأول مرة منذ أوائل ديسمبر. فتحت الباب ونظرت غريزياً نحو النوافذ الأمامية، حيث ستكون ليديا. كان الكرسي الفارغ مطوياً عند جدارٍ. انقبضت معدة آنا كما لو أن شخصاً ضربها بركبته.

"مرحبا ماما"، نادت، لكن صوتها خرج مخنوقاً. عانقتها أمها بذراعيها واحتضنتها لوقت طويل.

لقد أعدّت مأدبة: شرائح لحم وبطاطا مهروسة، وجزر وفاصوليا خضراء وعصير جريب فروت. "جيراننا يُطعموننا منذ فترة طويلة، ونحن غارقتان في القسائم التموينية"، قالت. "أحضَرتُ بعضها إلى آل فيني وآل إيوفينو بعد ظهر اليوم".

"ماذا حصل يا ماما؟".

"دعينا نستمتع بوجبتنا أولاً".

تناول الطعام في المطبخ الدافئ جَعَل آنا تشعر بالنعاس. وعندما انتهيتا من تناول الكرز المعلَّب مع بوظة الفانيليا، وضعت أمها ملعقتها من يدها وقالت، "أعتقد أنه حان الوقت لنعود إلى المنزل".

"المنزل...؟".

"مينيسوتا. نقضي بعض الوقت مع أهلي وأخواتي... وأنسبائك، بالطبع".

"المزرعة؟".

"إنك تحملين ثقلاً هائلاً يا آنا. وأنا ممنونة جداً لك. لكن الوقت حان لتسنح لك الفرصة لترميه عن كاهلك. لندع عائلتنا تهتّم بنا لبعض الوقت. لا أقصد أن هناك أموراً كثيرةً يمكن القيام بها في مزرعة"، أضافت همساً.

"أنت تكرهين المزرعة!".

"كان هذا منذ زمن طويل. وأنت لطالما أحببتها".

"أحبّها كزيارة بالتأكيد، لكن – لا يمكنني المغادرة يا ماما"، قالت وهي تخرج من حالة نعسها المطمئنة. "سيسمحون لي بالغطس".

"ماذا قلتِ؟".

لكن آنا لم تكن قد ذكرت موضوع الغطس لأمها أبداً – لكي تحميه من برودة لا

مبالاتها. "لا يمكنني المغادرة"، قالت مرة أخرى.

ظهور عقبة، حتى واحدة لا يمكنها تعريفها، أثارَ رعباً فورياً لدى أمها. "لقد تكلّمت مع الجميع هناك"، قالت بصوتٍ رفيعٍ عالٍ. "كلهم متلهّفون لاستقبالنا".

"اذهبي أنتِ. أنا سأبقى هنا".

وَثَبت أمها إلى قدميها، موقعةً كرسيها وراءها. "هذا غير وارد على الإطلاق"، قالت، وفهِمت آنا أن رعبها من الاعتراض كان السبب الحقيقي وراء شرائح اللحم والبطاطا والكرز، وربما حتى العناق الطويل.

هل سمعت آنا *يوماً* عن فتاة غير متزوجة تعيش لوحدها، دون احتساب الخادمات العجائز أمثال الآنسة ديويت في الطابق الثاني، التي يظن الأولاد أنها كانت مشعوِذة؟ لا، لم تسمع بهذا أبداً، لأن الفتيات غير المتزوجات لا يعشن لوحدهن - إلا إذا كنَّ من صنف مختلف من الفتيات، والذي لم تكن آنا منه. ماذا سيقول الجيران؟ مَن سيستقبلها في نهاية كل يوم؟ يعدّ لها الفطور والعشاء؟ لنفترض أن متطفلاً تسلَّق سُلَّم الحريق؟ لنفترض أنها مرضت أو تأذت؟ أشارت آنا إلى أنه يمكنها الانتقال للعيش في فندق للنساء، مثلما فعلت أمها عندما أتت إلى نيويورك. نعم، لكن ذلك الزمان كان مختلفاً؛ الآن قد يشنّ الألمان هجوماً خاطفاً، وكيف ستهرب آنا؟ لنفترض أنه حصل غزو بحري - ألم يُغلَق الميناء بسبب بعض الهلع في نوفمبر الفائت؟ ألم ينزل الألمان على شاطئ أماغانستّ في الصيف الماضي؟ وبالإضافة إلى ذلك، هناك أمور كثيرة تجري في فنادق النساء تلك أكثر مما يظن المرء.

لأن أمها كانت يائسة للذهاب وآنا مصمِّمة على البقاء، لم تكن نتيجة النقاش موضع ريب جدّي أبداً. لحَظت آنا هذا من البداية، وقد جَعَلها هادئة بشكل كافٍ لتطمئن أمها من كل النواحي: لديها آل فيني في الطابق الثالث، وآل إيوفينو وآل موتشاروني في آخر الشارع، وبيرل غراتزكي بالقرب من قاعة بورو، وليليان فيني في مانهاتن. يمكنها أن تترك رسالة للعمّة برِيان في منزل شقتها في خليج شيبسهَد. وسيساعدها المُشرف عليها، السيد ڤوسّ، إذا احتاجت إلى مساعدة. الغطس سيعني قضاءها فترات أطول في العمل؛ وستعود إلى المنزل لمجرد النوم في أغلب الأحيان. وعلى أي حال، كانت بروكلين مليئة بفتيات أزواجهن ما وراء البحار - كيف سيكون عيش آنا لوحدها مختلفاً؟

وهكذا، بعد ظهر أحدٍ في أواخر يناير، بعد خمسة أسابيع من دفن ليديا، ساعَدت آنا أمها على نقل حقيبتَي سفر إلى سيارة أجرة. ستستقلّ قطار برودواي ليميتد الليلي إلى شيكاغو ثم تستقلّ الـ 400 (بفضل سخاء ملك الكركند) إلى مينيابوليس في أواخر اليوم التالي.

كانت محطة بنسلفانيا تعجّ بجنود يحملون حقائب بنية متماثلة. سُرَّت آنا بضجيج أصواتهم ودخان سجائرهم. جلَست بجانب أمها في القاعة الكبيرة وراحت تراقب الحمام يرفرف عند السقف المليء بالثقوب مثل قرص العسل. شعَرت آنا أن هناك شيئاً يجب أن تقولاه لبعضهما البعض، لكن كل شيء خطر على بالها بدا غنياً عن الكلام. بقيتا تتلكّأان، بانتظار موعد الرحيل، ثم اضطرتا إلى الإسراع إلى الباحة الخارجية العاصفة حيث تقودهما السلالم نزولاً إلى المنصات. حمل جنديان حقيبتَي سفرها. وتبعتما آنا نزولاً مع تزايد شعور التوقّع لديها، كما لو أنها هي أيضاً على وشك أن تستقلّ قطاراً. هل أرادت الذهاب إلى مينيسوتا في النهاية؟ لا. أرادت أن تذهب أمها.

كانت أغنِس، أيضاً، تتوق إلى تبادل كلمات ذات معنى - هذا كان سبب توديعها بيرل وبريان ليلة أمس وقدومها إلى المحطة مع آنا فقط. "لا أستطيع تحمّل فكرة بقائك لوحدك"، قالت بارتباك على المنصة.

"لن أكون لوحدي"، قالت آنا، وكان صعباً عليها تخيُّل نفسها وحيدة؛ كانت مستقلة بذاتها كثيراً.

"سأكتب لك كل يوم. سأرسل أول رسالة غداً، من شيكاغو".

"حسناً يا ماما".

"هاتفيني في أي وقت؛ لقد تركتُ لك العلبة مليئة بالعملات المعدنية. الهاتف موجود في المنزل الرئيسي، لكنهم سيرنّون الجرس إذا لم أكن هناك".

"أتذكّر هذا".

كل هذا لم يكن صحيحاً، لكن بدا أن أغنِس غير قادرة على التوقف. "السيدة موتشاروني أكثر من مسرورة لكي تطبخ لك. وقد دفعتُ لها لهذا الأسبوع من قبل. يمكنك أخذ الطبق في طريق عودتك إلى المنزل غداً".

"ممتاز يا ماما".

"وأعيديه في الصباح".

"نعم".

"يجب أن تعطيها قسائمك التموينية".

"بالطبع".

"وستزورين ليديا؟".

"كل أحد".

سُمعت صفّارة القطار. شَعَرت أغنِس بنفاد صبر إبنتها بأن تذهب، وهذا جَعَلها تريد أن تلتصق بها، كما لو أن معانقة آنا ستوقِظ لدى إبنتها بطريقة أو بأخرى الحاجة إلى أن تُحتضَن. عانقتها أغنِس بشراسة، محاولةً من خلال القوة البَحتة أن تفتح الجزء المطوي الغائر جداً في آنا. للحظة، بدا لها الكتفان المفتولان اللذان كانت تحتضنهما أنهما كتفَي إيدي. كانت أغنِس تودِّع كل حياتها: زوجها، إبنتها، وإبنتها الصغرى السريعة العطب التي أحبّتها أكثر من غيرها. صعدت إلى عربة النوم من الدرجة الثانية ولوّحت لآنا من النافذة. بدأ القطار يتحرّك، مُحدثاً سرباً من الأذرع الملوّحة. خطر على بال أغنِس أن هذه المحطة بالذات – وربما هذه المنصة بالذات – هي نفسها التي وَصَلت إليها، في السابعة عشرة من عمرها، بحثاً عن نصيبها في الحياة. بينما كانت تلوِّح، فكّرت في سرّها، *هذه نهاية القصة*.

انعطف القطار عند ناصية، وانخفضت أذرع الجميع كما لو أن الخيط الذي كان يرفعها عالياً قد قُصَّ. غادر الناس بسرعة ليفسحوا المجال أمام مسافرين جدد يصعدون إلى القطار المنتظر عند المنصة، وأحباء جدد يودّعونهم. بقيت آنا في مكانها، تراقب السكة الفارغة. أخيراً، صعدت السلالم التي تؤدي إلى الباحة، وتنحّت جانباً لتسمح للجنود والعائلات بالمرور مسرعين. بدأ إدراك جديد يفرض نفسه عليها: لم يكن هناك أي مكان عليها أن تتواجد فيه. كانت منذ دقائق فقط تُسرِع مثل هؤلاء الأشخاص على السلالم، لكن لم يعد لديها الآن أي سبب لتُسرِع أو حتى لتسير. ازدادت غرابة هذا الإحساس عندما وجَدت آنا نفسها قد عادت إلى الجادة السابعة. وَقَفت في الشَفَق، متسائلةً ما إذا

كانت ستستدير يساراً أو يميناً. أعلى المدينة أو وسط المدينة؟ لديها مال في حقيبة يدها؛ ويمكنها الذهاب أينما أرادت. كم كانت تتوق إلى حرية عدم اضطرارها إلى القلق بشأن أمها! لكنها جاءتها كنوع من الارتخاء، مثل سقوط تلك الأذرع الملوّحة عندما انعطف القطار.

بدأت تسير شمالاً، نحو الشارع الثاني والأربعين، بعد أن عقدت العزم على مشاهدة فيلم في نيو أمستردام. كان *ظلال الشك* قد بدأ منذ عشر دقائق فقط عندما وَصَلت إلى السينما؛ يمكنها الجلوس في القاعة الرئيسية - وربما نفس المقعد أيضاً - حيث جلست، عندما كانت طفلة، لتشاهد أمها ترقص. لكن آنا لم تعد ترغب بمشاهدة فيلم رعب. أرادت تقليد الهدف الذي بدا أنه يحرّك الجميع في الشارع الثاني والأربعين: بحّارة يضحكون؛ فتيات ذوات شعر مليء بالدبابيس ومرشوش؛ أزواج مسنّون، سيدات يرتدين فراءً، كلهم يتحرّكون على عجل في الضوء الشحيح الضبابي. راحت آنا تراقبهم بنظرات فاحصة. كيف يعرفون إلى أين يذهبون؟

قرّرت العودة إلى المنزل. أثناء سيرها نحو المترو على الجادة السادسة، مرّت بجانب سيرك برغوث، ومطعم صيني، ولافتة إعلانية لمحاضرات حول ما قتل رودلف فالنتينو. بدأت تلاحظ تدريجياً أشكالاً منعزلةً أخرى تتلكّأ عند المداخل وتحت الظُلاّت: أشخاص من دون مكان واضح عليهم أن يتواجدوا فيه. من خلال اللوح الزجاجي لمطعم غرانت عند زاوية الجادة السادسة، رأت جنوداً وبحّارة يأكلون لوحدهم، وحتى فتاة أو فتاتين. راقَبتهم آنا من خلال الزجاج بينما كان باعة الصحف يصيحون عناوين المساء خلفها: "سقوط طرابلس!"، و"الروس يتقدّمون في روستوف!"، و"يقول النازيون إن الرايخ مهدَّد!". بدت تلك العناوين لآنا كعناوين فرعية للمطاعم الصغيرة المنعزلة. الحرب زعزعت الناس. وأولئك الأشخاص المنعزلون في مطعم غرانت تزعزعوا أيضاً. وهي أيضاً تزعزت الآن. شعَرَت بمدى سهولة انزلاقها في صدع مظلم في المدينة المعتمة وتلاشيها. الاحتمال أثّر فيها جسدياً، مثل قوة الشفط الضعيفة لتيارٍ سفليٍ معاكسٍ. أخافها هذا، وأسرعَت نحو مدخل المترو.

لكنها عندما وَصَلت إلى السلالم المؤدية إلى المترو، منعتها الحشرية بشأن حالتها الجديدة من النزول. تابَعت سيرها إلى الجادة الخامسة، حيث غطّت أعمدة الإنارة الباهتة

كهفها القاتم. كانت المكتبة العامة تقف صامتة مثل مَشرَحة. وقد راقب والدها تشييد تلك المكتبة في موقع خزّان مائي عندما كان لا يزال فتى. استذكرت آنا هذه الحقيقة قبل لحظة من تذكّرها صوت والدها، الذي همس لها بشكل غير رسمي أنها بدت له موجودة هناك دائماً: *قبعات عالية سوداء رسمية على طول الشارع وعرضه... أحصنة مدلّلة تتكبّر على جزرة إذا عرضتَها عليها... قصر واحد حيث يقبع فندق بلازا الآن، هل يمكنك تخيل هذا؟* صوته: مرتجَل، كأنه يستودعها سراً، وجاف من الإرهاق والتدخين. صوته في السيارة، حتى عندما لم تكن تستمع إليه.

بعد سنوات من البُعد، عاد إليها والدها. لا يمكنها رؤيته، لكنها شعَرت بالألم الكبير ليديه تحت إبطَيها بينما يرفعها عن الأرض ليحملها. سمِعت الخشخشة المكتومة للعملات المعدنية في جيب سرواله. كانت يده مقبضاً تشبك يدها به دائماً، أينما ذهَبا، حتى عندما لم تكن تكترث لفعل ذلك. توقَّفت آنا عن السير، مذهولة من قوة تلك الانطباعات. رَفَعت أصابعها إلى وجهها من دون تفكير، وهي نصف متوقعة أن تشمّ الرائحة الدافئة المرّة لتبغه.

الفصل 14

إحدى الحقائق الغريبة في الشراكة الطويلة لدكستر مع السيد كيو - ثلاثين سنة تقريباً، إذا بدأت الاحتساب من لحظة إعجابه بالأتباع في مطعم والده - كانت نُدرة رؤيته الرجل. أربع مرات في السنة كحد أقصى، إلا إذا حصلت بعض المتاعب. ومع ذلك كان طيف السيد كيو موجوداً في كل مكان: الشريك الصامت والمستثمر الرئيسي في كل مشاريع دكستر، وأول شخص يربح منها. كان انتقال المال بينهما متواصلاً ومعقّداً. ويحصل على شكل شيكات شرعية وحزمات سرية تنتقل في الاتجاهين - الوظيفة الأساسية لدكستر هي حماية إيرادات زعيمه الهائلة وغير القانونية من الشهية العنكبوتيّة لدائرة الإيرادات الداخلية. لم يكن هناك رجل يملك القوة ليُرعِب السيد كيو، لكن القوة الميكانيكية للضرائب والتدقيق كانت قصة أخرى. حتى آل كابون العظيم استسلَم لها. كانت النقابة التي لا تستطيع أي نقابة أن تهزمها.

للعين المجرَّدة، كان السيد كيو لا يزال جزءاً من اقتصاد زراعي يعود تاريخه إلى القرن السابق، عندما وصل شاباً على متن سفينة شراعية سريعة ووجد بروكلين تعجّ بالمزارع. راح يصنع شراب عنب ومربّيات وحليب وأجبان في المنزل في بنسونهورست ويبيعها في متجر ذي واجهة غير جذّابة على بُعد كيلومتر، يديره أولاده الأربعة.

ركن دكستر سيارته أمام ذلك المتجر، مثلما يفعل صباح كل اثنين (وهو اليوم الوحيد الذي يستفيق فيه مع بقية العالم)، ودفتر الشيكات في جيب صدره، وحزمات أموال ملفوفة جيداً في عدة جيوب أخرى. رُنَّ جرسٌ عندما فتح الباب. كان فرانكي، الإبن البِكر للسيد كيو والذي يبدو في حوالي الستين من عمره (رغم أن لا أحد يعرف حقاً)، يجلس وراء المنضدة. مثل إخوته، جوليو وجوني وجوي، كان لفرانكي شعر خفيف مُلمَّع بدهان تلميع الشعر ووجه غير معبِّر. ورائحتهم جميعاً تعبق برائحة القرنفل أو الفلفل،

رائحة المواد الغذائية المجفّفة، رغم أنها قد تكون رائحة المتجر نفسه. نادراً ما رآهم دكستر خارجه.

"صباح الخير يا فرانكي".

"صباح الخير لك أيضاً".

"هل استمتعت بعطلة نهاية أسبوعك؟".

"آه بالتأكيد".

"كان البرد قارساً، أليس كذلك؟".

"نعم، كان قارساً، بما أنك ذكرته الآن".

"السيدة بخير؟".

"إنها بخير".

"والأحفاد؟".

"آه، بالتأكيد، إنهم رائعون".

"أظنهم يكبرون".

"يمكنك أن تقول ذلك مرة أخرى".

باستثناء بعض التغييرات الطفيفة حول الحرارة وفصل السنة وتكوين العائلة (لم يكن لدى جوي، الأخ الأصغر، أي أحفاد بعد)، لم يكن يمكن تمييز هذه المحادثة عن كل المحادثات التي يجريها دكستر صباح كل اثنين مع أي ولد من أولاد السيد كيو الذي يصدف أن يراه في المتجر. كانوا كلهم وكلاء مثاليين لأبيهم بحيث كان مُغرياً له اعتبارهم كرجال آليين: رجال يتم التحكم بكل حركاتهم من بعيد. لكن دكستر كان يشعر من وقت لآخر أنه يلمح، في شغور وجوههم، بعض الذاكرة والمعرفة والرأي الذكي.

كتَب شيكاً للسيد كيو بقيمة ثمانية عشر ألف دولاراً: إيراداته الشرعية للأسبوع السابق. ثم قال وهو يلوِّح الشيك ليجفّف الحبر، "الحرب جيدة للنوادي الليلية، وهذه حقيقة".

"سيكون بابا سعيداً من معرفة ذلك".

"الأنزال غير مُربحة جداً، بما أن البنزين غير متوفر كثيراً. لكن نوادي المدينة تعوّض عنها أكثر من الحاجة".

"يا ابن اللذين".

"اسمع، أودّ التكلّم مع أبيك بعد ظهر اليوم، إذا كانت لديه دقيقة".

"تعرف أين يجب أن تبحث".

"لماذا لا أمرّ عند حوالي الثالثة".

هذه الخطة، التي أُعدَّت بشكل غير رسمي بحيث أنه بالكاد يمكن اعتبارها موعداً، لا يمكن أن تكون مؤكَّدة أكثر مما لو كتبتها في دفتر يوميات المدير التنفيذي خرِّيجةٌ من معهد السكرتاريا بارعة في الاختزال.

قبل توديعه، مرَّر دكستر ثلاثة مغلفات ممتلئة نقوداً إلى فرانكي: أرباح الأسبوع غير الموثّقة. والمغلف الأسمك، دائماً، كان مغلف أرباح صالة الألعاب، والمكتوب عليه "الرقم 1" بقلم رصاص.

"اسمع، ألم ترَ بادجر مؤخراً"، قال وقد استدار لينصرف.

"لا يأتي إلى هنا معظم الأيام"، قال فرانكي.

"يبرع في عمله، بما أنه جديد على المدينة؟".

"بشكل جيد بما فيه الكفاية"، قال فرانكي مع ضحكة خافتة لا يمكنها إلا أن تعني أن بادجر كان يُحضِر مالاً. كيف – من النشل في حلبة السباق؟ حتى ذلك بدا كثيراً عليه. الولد فاجأ دكستر بعدم العودة بعد أن أنزله من السيارة في أكتوبر الفائت. وقد وَصَله الخبر لاحقاً أن بادجر ألصق نفسه بألدو روما، تاجر ممنوعات غير مجارٍ للعصر وأحد الرؤساء الأقل شأناً لدى السيد كيو، والذي حافظ دكستر على مسافة ودّية حذِرة معه.

بعد عودته إلى الكاديلاك في طريقه إلى بيت هيلز، بدأ تحضيراته لزيارة السيد كيو. كان المدراء الآخرون يمضون أيامهم بالتسلية في النوادي الاجتماعية، والثرثرة مع الملازمين التابعين لهم – ليس هذا الواحد. لأنه على حد ما يذكُر دكستر، سرت إشاعات بأن السيد كيو انتهى، بأنه أصبح معتوهاً خَرِفاً يعبث ببذور الخيار، ويقود عربة خيل مليئة

بمرطبانات مربى طماطم مرتدياً خُفّ غرفة نومه. رغم ذلك كانت سلطته تمتدّ من بنسونهورست إلى ألبَني إلى شلالات نياغارا، وكنساس سيتي، ونيو أورلينز، وميامي. العمل المتماسك لهذه المجموعة كان خدعة مُتقَنة لا تتطلّب قليلاً من الدَجَل. هل الأمور تسيِّر نفسها بنفسها؟ متى – وكيف – كان السيد كيو، الذي كان قد دخل في التسعينات من عمره بالتأكيد، يُشرِف عليها؟ هل هناك رجل آخر خلفه – عاهِل أعمق أصبح السيد كيو وكيله سراً؟ كيف يُنفِق ماله؟ هل صحيح أنه اشترى دولة صغيرة في أميركا الجنوبية؟

تراءت رؤيا لدكستر – من النوع الذي يحاصره مرةً كل بضع سنوات، والذي يتّكل السيد كيو بأنه سيُطلعه عليها. تراءت له بينما كان يقف على الشاطئ مع الفتاة المشلولة، بعد احتفال الشُكر مباشرة، وتعزّزت وتشعَّبت في الأسابيع اللاحقة: مكسب غير متوقع من ذلك التصرّف الخيري.

كان هيلز يعيش مع أمه المتوعّكة في نفس المنزل في دايكر هايتس حيث ترعرع: زينة رخيصة وقِطع بلّور، وستائر دانتيل لا يمكن تمييزها عن بيوت العناكب. كان أعزب ملتزماً، مثلما يقولون. ظهَر عند الباب مرتدياً رداء حمّام ذي طيّات صدر مخملية، وآخر خصل شعره الأصفر والأبيض مُلمَّع بدهان تلميع الشعر فوق رأس لامع. كان يحمل سيجارة في حاملة عاجيّة طويلة. "عذراً زعيم"، قال. "أمي نيِّقة هذا الصباح؛ لم يتسنَّ لي الوقت لكي ألبس".

"هذه من ماركة سولكا؟"، سأل دكستر وهو يشير إلى البيجاما ذات أشرطة التزيين الفيروزية المرئية تحت رداء حمّامه. كان لدى هيلز نظر ثاقب – وهذا واحد من عدة أشياء كان دكستر يحبّها فيه. كان يملك عدة معاطف من وبر الفيكونيا.

"مُخاطة خصيصاً لي"، قال هيلز. "أجد ماركة سولكا خشنة قليلاً".

"أنت زهرة طرية"، ردّ دكستر بجفاف.

"قهوة يا زعيم؟".

بينما ذهَب هيلز ليُحضر القهوة، استوى دكستر على أريكة في القاعة. كان دفتر النوتات الموسيقية مفتوحاً على البيانو العمودي: شوبان. لطالما افترض دكستر أن والدة هيلز تعزف البيانو، لكنها بقيت تلازم فراشها في الأسابيع الماضية. "هيلز"، قال دكستر عندما عاد مع القهوة. "لا تقل لي إنه يمكنك عزف موسيقى شوبان".

"فقط عندما أكون متوتراً".

كان هيلز يدير البابنز مباشرة، لكنه أصبح رجل دكستر على جميع الأصعدة في نوادي نيويورك في السنتين الماضيتين. وكل منتصف صباح، بعدما يكونان قد ناما لبضع ساعات، يراجعان لائحة هموم – أو صُداعات، مثلما بدأ دكستر يعتبرها. أول بند على جدول أعمال اليوم كان مداهمة الشرطة ليلة أمس لنادي هَلز بَلز، في فلاتلاندز. واعتُقل ثلاثة موزّعي أوراق لعب ومسؤول طاولة؛ سيدفع هيلز كفالتهم.

"نفس الملازم؟"، سأل دكستر.

"بذاته".

"هل كلّمته؟".

"حاوَلت. يدّعي أنه لا يفهم لغتنا".

"يرفض أو يتباهى؟".

"أظن أنه الثاني، بما أنه لم يقدِّم أي مَطالب. وكان هناك ذِكرٌ لـ 'تنظيف المنزل' و'الفساد الأخلاقي' و'حثالة الأرض'".

قلَبَ دكستر عينيه. "إيرلندي؟".

"كنيته فيلَن". ابتسم هيلز. كان إسمه هيلي.

"سأحلّ المسألة"، قال دكستر.

كانت التفاهمات مع القانون بديهية، بالطبع، وأكبر مصاريفه المهنية إلى حد بعيد. كانت الترتيبات مطلوبة عند كل مستوى، من شرطيي الدوريات الذين يستمتعون بكوب شراب بين الحين والآخر إلى المغلف العَرَضيّ الذي يُوزَّع على قادة المقاطعات وما بعدهم. في هذه المملكة، حيث ضباط الشرطة ذوو الرُتب العالية يصادقون قادة الاتحاد وسياسيي الولاية، كانت أعمال دكستر وأفراد عائلته أقرب ما يمكن إلى بعضهما. لا شك أن نبالة سلالة حميه وصداقته الحميمة المعروفة مع رئيس الجمهورية وفّرا لدكستر درجة من الحماية تفوق ما كان يدفعه من رشاوى. كان خارج حدود المساءلة بنفس القدر الذي يمكن أن يكون عليه أي رجل في مجال عمله، لكن سيكون هناك دائماً ملازمون يافعون يحملون قيماً مثالية يريدون بناء شهرة لأنفسهم. كان يمكن استمالة معظمهم بالتركيبة الصحيحة

من المداهنات. والمتشدِّدون، أمثال فيلَن، نقلهم رؤساؤهم إلى مقاطعات أخرى.

المشكلة التالية: السيدة هيو ماكي. أتت إلى البايِنز مرتين، مع الشرطة، وطالبت بصوتٍ عالٍ بإجراء تحقيق حول اختفاء زوجها.

"الرجال يفرّون كل يوم في الأسبوع"، قال دكستر. "حتى عندما لا يحاولون ابتزاز أصحاب عملهم السابقين".

"تقول إن زوجها لن يهرب أبداً. زوج مخلص، أب حنون. دموع".

"ماذا تريد؟".

"أظن نفس الشيء الذي كان يريده".

"هذا سهل. ادفع لها".

نادلٌ بدا أنه يختلس أموالاً من عمله. ومدير ربما وقع تحت سيطرة المخدرات. ومشاجرات بين الفتيات اللواتي يُدِرنَ الطاولات في صالة الألعاب في البالاسايدز. "صراخ، خمش بالأظافر، شدّ للشعر"، قال هيلز. "علينا أن نتقاضى رسوماً إضافيةً".

"شكواهن؟".

"يسرقن مُراهِني بعضهن البعض، هكذا يقلنَ. لكن هناك حبيباً في مكان ما".

"ستهتم بأمرهن؟". كان يزداد اضطرابه.

"لديَّ شوكولا وشراب ذا فقاقيع في السيارة. إذا لم ينفع ذلك، سأقرع رؤوسهن ببعض".

"وماذا أيضاً؟".

بعد ثلاثين دقيقة أخرى، عاد دكستر إلى الكاديلاك في حالة نفاد صبر. الفتيات، الثيران، السيدة ماكي المتملِّقة - كل ذلك كان تافهاً وعديم الفائدة عند مقارنته برؤياه الجديدة. كان يتوق لبعض الإحساس بالتقدّم، بظهور أشياء جديدة بينما تنحسر الأشياء القديمة المألوفة. بدا له أنه مرّ وقت طويل جداً منذ أن راوده هكذا شعور لآخر مرة.

عند الساعة الثالثة، رَكَن الكاديلاك خارج منزل خشبي أصفر متواضع بدا مرتخياً ومائلاً بالمقارنة مع المنزل المجاور له. كان قد مرّت سنوات عديدة منذ آخر مرة سار فيها السيد كيو بجانب عرائس في زفافهن، وقبّل فيها أطفالاً رطبين يزعقون خلال الاحتفاء

بولادتهم. وهو يغادر منزله هذه الأيام لزيارة متجره فقط. لم يكن لديه جرس للباب، أو هاتف، وكان مولَعاً بالقول إنه لم يرسل - أو يتلقى - برقية أبداً. إذا أردتَ التكلم مع السيد كيو، عليك أن تقرع هذا الباب وتنتظر بينما تضخِّم كلبته الترْير، لولي، خبر قدومك.

بعد ثلاث دقائق من بدئها النباح، فتَح السيد كيو الباب واحتضن دكستر في عناق حار يعبق برائحة الفواكه. كان ضخماً وغائراً في آن، ولونه مائل إلى البني مثل خشب الماهوجني. لقد ضخَّمه الزمن بطريقة عضوية معدنية، مثل جذع شجرة، أو الأملاح التي تتكدَّس في كهف. كانت هشاشة سنّه المتقدم تظهر في أنفاسه المتقطعة.

"تفضل بالجلوس"، همَس بينما راحت لولي السريعة الانفعال تحوم عند قدميهما، والأشرطة البيضاء ترتعش في فرو رأسها. "سأُعدّ... القهوة".

من اللحظة التي تمكّن فيها دكستر، في سنّ السادسة عشرة تقريباً، من قراءة الإشارات المشفَّرة في مطعم والده بدقة كافية ليتتبّع مصدرها إلى هذا المنزل؛ عندما وقف عند عتبة باب السيد كيو من دون أي سابق إنذار كما لو أنه كلب تائه، كانت كل زيارة تبدأ بإعداد القهوة على نفس موقد الفحم هذا. بدا له أن العملية تتطلب لمسة مُرهَفة أكثر مما تستطيع يدا السيد كيو المرتخيتان توفيره، لكن دكستر لم يره أبداً يُسقط نقطة واحدة على الأرض.

خلال فترة الصمت التي سادت بينما كان السيد كيو منحنياً فوق الموقد، راح دكستر (وكل زائر آخر، افتراضياً) يحدِّق في النافذة الخلفية ويجمِّع أفكاره. كان حوض استحمام الطيور الحجري مليئاً بالثلوج من الأسبوع الماضي، وبدت أشجار الخوخ والإجاص المقمَّطة - وهي من بقايا بستان قديم - كما لو أنها ملاكمين تحجَّروا أثناء تسديدهم لكمات. وما كان مدلَّلاً أكثر هي أشجار الكرمة الستة التي أحضَرها السيد كيو معه على متن السفينة القادمة إلى نيويورك، واضعاً جذورها داخل تربة داخل طين داخل خيش داخل طبقات من صحيفة صقليّة. كرمة شبابه. فقط الرجال الذين كان يعتبرهم من العائلة يُطلَب منهم مساعدته في قطف عنبها. وقد فعل دكستر ذلك عدة مرات. حتى الآن يمكنه تذكّر الرائحة الجافة الحامضة التي تُصدرها العناقيد عندما تُقَصّ، والملمس المخملي لحبّات العنب في يده. كان المحصول رمزياً؛ فشراب العنب الذي يعتقّه

السيد كيو في براميل سنديان في قبوه كان في أغلبه خليطاً يتألف من عنب يشتريه ويستلمه في أقفاص.

عندما بدأت القهوة تغلي على الموقد، صَبَّها السيد كيو في فنجانين صغيرين وأحضَرهما إلى الطاولة. "تبدو بصحة جيدة"، قال بلطف وهو يربّت على خد دكستر. "لكن هذا حظ... أن تكون شاباً وسيماً. كيف تشعر؟".

"بحال جيدة"، قال دكستر. "بحال جيدة جداً".

"هل أنت قوي؟ تبدو قوياً".

"نعم. قوي".

رغم أنه بالكاد كان أكثر من همس، إلا أن صوت السيد كيو كان يزخر بالقوة الملعلِعة اللزِجة لزفير الأزمنة القديمة. وكان يتمكّن من نفث دفء بركاني من دون حتى أن يبتسم أبداً - وهذه عادةٌ اعتاد الذين من حوله على عكسها في حضوره. عندما يُبدي السيد كيو ملاحظةً، أو يسلّم بصحة ملاحظةٍ، تصبح حقيقية فوراً. كان دكستر قوياً *حقاً*. وهو لطالما عرَف ذلك، وأصبح يعرِفه الآن بشكل خاص.

"أنت... أقوى رجالي"، قال السيد كيو، متوقفاً مؤقتاً بين كلماته ليأخذ نَفَساً. "آمل ألا تمانع... بعض التعليب...".

"من دواعي سروري يا زعيم".

لقد علَّب مرةً في السابق مع السيد كيو: خوخ من أشجاره. على مقياس الأشغال الروتينية المحتملة، كانت مرتبة التعليب في الوسط: مرهِق أكثر من قطف الخُضار من الدفيئة الكبيرة (سواء عن طريق التأجير أو المراسيم، كان السيد كيو يتحكّم بالأرض الواقعة خلف كل المنازل في حيّه، مما أعطاه مزرعة مساحتها حوالي ثلاثة فدادين)؛ ومفضَّل على جَرف الرَوث من عربته، أبل. وأسوأ الأشغال هي حَلْب - إما بقرته، أنجلينا، المليئة ضروعها المطاطية بأوردة وذباب خيل، أو - وهذا أسوأ - ماعزه، التي ترفس، وتقضم ربطات العنق، ولا تُنتِج تقريباً أي كمية تستحق كل ذلك العناء. كانت أشغال السيد كيو الروتينية مصدر مَرَح لطيف بين رؤسائه في الحالات النادرة التي يلتقيهم فيها، لكنه مَرَح حذِر - فلا أحد يريد أن يضحك بقوة أكثر من أي شخص آخر.

اليوم سيعلّبان فاصوليا صفراء من الدفيئة. "تذوّق حبةً"، ألحّ عليه السيد كيو عندما بدأ دكستر يقصّ الأطراف القاسية على لوح رخامي رثّ. كان مذاقها يشبه أي فاصوليا عادية، تقريباً، لكنه أبدى إعجابه الكبير بها. "ربما تكون قد سمعت"، بدأ يقول وهو يعمل، "أنني أريتُ بادجر بعض الويل الضروري منذ بضعة أشهر".

"بادجر"، تنفَس السيد كيو، "يملك طاقة".

"لم أره أبداً مرة أخرى".

"يا له من وقح. لقد أعدَّ... لعبة أرقام حظ".

كان دكستر مسروراً من وجود الفاصوليا لينظر إليها، لأن هذا الخبر فاجأه. لقد أعدّ بادجر لعبة أرقام حظ خاصة به بعد ثلاثة أشهر في نيويورك؟ غير ممكن إطلاقاً؛ لا شكّ أنه يُشرف على إحدى ألعاب ألدو روما. فالسيد كيو يعطي الرؤساء المفضَّلين لديه درجة غير اعتيادية من الاستقلالية. وكان دكستر يستمتع بالمسافة عن نظرائه – فهو لا يريد أي علاقة بالأرصفة البحرية في ريد هُوك، مثلاً، حيث يتصرّف الرجال كالحيوانات. لكن الطبيعة "العمياء" والمترامية الأطراف لإمبراطورية السيد كيو سمحت لبعض الحشرية المتبادلة بين الرؤساء، ناهيك عن تبادل الإشاعات. لهذا السبب شعر دكستر بالسرور عندما قال زعيمه، "أودّ أن يُحضِر بادجر... لعبته إلى... ناديين".

"بالطبع. أي ناديين؟".

"قرِّر أنت".

أومأ دكستر برأسه، راضياً. فقد أراد إبقاء بادجر تحت أنظاره.

كان وعاء كبير يغلي ببطء على الموقد، ويجعل الهواء في المطبخ الصغير يعبق بالبخار. جمَّع السيد كيو حبوب الفاصوليا في يديه المرتعشتين ورماها فيه.

"لديَّ فكرة جديدة يا زعيم"، قال دكستر. "الخطوة التالية، مثلما أراها".

أحسَّ السيد كيو ببعض الحيوية تسري في عروقه مثل الرعد واستقرّت في عينيه البنيتين الرطبتين. "أنت تعرف أنني... أتّكل عليك في هذا"، قال.

كان دكستر مَن تكهَّن، حتى قبل رفع الحظر في العام 1933، أنه بدلاً من العواء مثل كلاب مسعورة، على غرار الكثيرين في عالم الإجرام، عليهم أن يفتحوا سلسلة نوادي

شرعية ستغسل إيرادات السيد كيو الكبيرة من تجارة الشراب. وعلاوة على تحصينه له ثروته ضد دائرة الإيرادات الداخلية، سمح لهم هذا التدبير بتحقيق أرباح من عدد من الأعمال الإضافية القانونية وغير القانونية - كل شيء من تخزين قبعات الزبائن إلى السجائر إلى الزيجات عن حب، مثلما اعتبرها دكستر. وكان دوره كرئيس صوَري أساسياً: لم يُعتقَل أبداً؛ أصبح جزءاً من شجرة العائلة بفعل الزواج، مع حكمته بالتخلّي عن إسمه الصعب اللفظ لصالح إسم قصير أنيق (بمكنك القول) قبل فترة طويلة من أن يصبح أي شخص مهتماً ليعرفه.

وآه، كم نجحت الخطة! رفعتهما معاً على موجة من الشرعية عرَّفت دكستر على نجوم سينمائيين وصحافيين ومسؤولين منتخَبين، محليين ووطنيين، تأثّرت جيوبهم بكرم السيد كيو. تدبير جميل للجميع. لكن كان هناك خطأ واحد: إد كيريغان، خطأ دكستر الوحيد في التقدير طوال مسيرته التي امتدت على سبعة وعشرين سنة. فتأذّى بعض الأشخاص. لكن المتاعب في النهاية قضت على منافسٍ وتركت السيد كيو سالماً. كانت هذه النتيجة السعيدة بالتأكيد هي التي جعلت السيد كيو يصرِّح منذ ثلاث سنوات، بصوته الهامس، "لقد نسينا الأمر. لن نتكلَّم عنه مرة أخرى". بعد ذلك، في خصوصية سيارته، بكى دكستر من الارتياح.

عندما غَلَت الفاصوليا بشكل كافٍ (وهذا شيء يبدو أن السيد كيو يعرفه فطرياً)، وَقَعت مهمة وضعها في مرطبانات زجاجية على كاهل دكستر. عندما بدا كل مرطبان كمصعد شديد الازدحام، أمَره السيد كيو أن يصبّ ماءً مغلياً في كل مرطبان حتى الشفّة.

"والآن نُغلق الأغطية بشكل مُحكم... لكن ليس مُحكماً كثيراً... ثم... نضعها في طنجرة ضغط"، قال السيد كيو بصوت بدا لاهثاً أكثر مما ينبغي للجهد البسيط الذي قاما به. "ثم... أخبرني... فكرتك".

أراد دكستر أن يمهِّد لها تدريجياً، مثل الخطوات في رقصة الفالس، إلى أن لا يعود هناك أي مكان للانتقال إليه ما عدا استنتاجه المحتوم. لكن غلي حبوب الفاصوليا أزال تلك الخطوات من ذهنه، ربما مثلما كان يجب أن يحصل. في هذا الجو من الحرارة والحقيقة، تزول المقدمات وينتهي بك المطاف في قول الشيء بلا لفّ ودوران. ساعَد

السيد كيو في إغلاق المرطبانات الزجاجية ووضعها بعناية في وعاء مطلي بالقطران بدا كما لو أنه سُحب من قعر البحر. غطّى السيد كيو الوعاء وزاد حدّة اللهب تحته. ثم غرق في كرسي، يتنفّس بصعوبة.

مسَح دكستر وجهه بمنديله، وأعاد الجلوس على المقعد عند الطاولة الصغيرة، وبدأ يتكلم. "أودّ التحدّث مع العمّ لأعرض عليه خدماتنا، وأعمالنا، لجهود الحرب".

لا جواب مباشر؛ لم يكن هناك جواب مباشر أبداً. كانت مسؤولية دكستر أن يُنير طبقات الصخور في القعر.

"سينتصر الحلفاء، إنها مسألة وقت فقط"، قال. "عندها، ستصبح الولايات المتحدة أقوى من أي وقت مضى. أقوى من أي دولة في كل التاريخ".

اقتبس كلمات آرثر بيرينجر عمداً؛ كان دكستر يُسَرّ من شعور المجاوَرَة بين الاثنين. فقد كان وديعاً جداً في وقت عرسه لكي يجيز حضور السيد كيو؛ وعلى حد علمه، زعيمه وحموه لم يلتقيا أبداً. لكنه شعَرَ بحشرية غير مباشرة لدى كل واحد منهما تجاه الآخر، وكان ممكناً أن مساراتهما قد تتقاطع من دون معرفته. أحبَّ الفكرة.

"ألن يتوقع السيد ستالين... مكافأة؟"، سأل السيد كيو.

"سيحصل عليها. لكن دولته ستكون مدمَّرة".

أخفض السيد كيو ذقنه، وهذه طريقته بالإيماء.

"الأوروبيون"، أكمل دكستر يقول. "مفلسون ومدمَّرون. هذا يترك العمّ. أريدنا – أريدك – أخذ حصة شرعية من النصر. مقعد على الطاولة".

أيقظ السيد كيو نفسه للعلعة السقراطية التي ستلي بشكل محتوم، وتمتدّ أحياناً إلى زيارة لاحقة. "طالما أننا نملك... المال"، قال، "سيكون لنا... مقعدنا".

"على الطاولة"، قال دكستر. "وليس تحتها".

"ما الأفضلية؟".

"السلطة. السلطة الشرعية".

"كل سلطة... شرعية".

"حسناً، إذاً، الشرعية. والتي ستمكّننا من استخدام سلطتنا بطرق لا نقدر عليها

الآن".

شَعَر برغبة قوية ليُفصح عن شكّه بأن ولاياتٍ متحدةٍ معزَّزة قوتها حديثاً قد تستخدم سيادة القانون لتقضي على طريقة عيشهم. لقد زال تاماني من قبل – وهذا شيء لم يتوقعه أحد. لكن السيد كيو لم يكن يحبّ الأمور المقلِقة. وشَعَر دكستر أنه بدأ يقتنع بالفكرة.

"أبرَم لاكي اتفاقاً"، قال السيد كيو، قاصداً لوتشيانو. "ساعد العمّ على ختم... الميناء".

"وهذا سيجعله على الأرجح ينبت من كومستوك".

"لقد أتوا إليه".

"سنذهب إليهم".

"وماذا... سنعرض عليهم؟".

هنا كان بيت القصيد. أخذ دكستر نَفَساً عميقاً وانحنى على الطاولة. "نشتري إصداراً للسندات الحربية بسعر مخفَّض ونعيد بيعها من خلال كل فروع أعمالنا. نسيِّل كل شيء في عملية الشراء. نبيع ما لا نريده، ونساهم به أيضاً. تصبح مهنتنا السندات الحربية".

"نحن... مصرف".

"إن جاز التعبير، نعم. مؤقتاً. عندما تنتهي الحرب، يكون مالنا نظيفاً. نأخذه إلى أي مكان يحلو لنا".

بدأت طنجرة الضغط تصفُر، والبخار يتصاعد خلف فجوة صغيرة جداً في أعلاها. ترنَّح السيد كيو عن كرسيه وضغطَ وزناً، ليسدّ تلك الفتحة ويثبّت الغطاء في مكانه. بدأت إبرةٌ على جانب الوعاء تقفز. أعاد عينيه البنيتين الناعمتين إلى دكستر، الذي شَعَرَ أن اللحظة حانت ليلعب ورقته الرابحة.

"إذا عملتَ لدى العمّ يا زعيم، لن تستطيع دائرة الإيرادات الداخلية لمسك. وربما إلى الأبد". بدأ الوعاء المختوم يرتجف على الموقد الموجود خلف رأس دكستر مباشرة. "لكم من الوقت يجب أن يستمر الغلي؟"، سأل بلطف.

"ما يكفي... لقتل أبواغ التسمُّم الوشيقي"، قال السيد كيو. "الغلي لا يكفي. يجب على المَرطبان أن... يتحمّل بعض الضغط". بقي يقف مستقيماً، يثبّت الطنجرة بحاملة وعاء أزهار كانت من بقايا أناليزا، زوجته الراحلة.

"أنت... وطني"، قال السيد كيو وهو ينظر إلى دكستر بحنان.

"إنه الصواب الذي يجب فعله"، قال دكستر. "كم مرة يمكننا أن نقول هذا؟".

"مصالحنا ... متماشية مع... مصالح العمّ".

تفاجأ دكستر من مدى سهولة تقبّل السيد كيو لهذا. هل كان يفكِّر بنفس الفكرة من قبل؟ راحت الطنجرة ترتعش مثل سنجاب عالق عند موقد حديدي، وكانت على وشك أن تحرّر الضغط المتهدِّج للسيد كيو. نهض دكستر، قلقاً من أن يتقيأ الوعاء محتوياته التي تغلي فوق رأسه.

"كلنا نريد أن نربح"، قال السيد كيو بلطف وسط الضجة.

وجد دكستر نفسه يبتسم، لم يكن قادراً على منع نفسه من فعل ذلك. وابتسم له السيد كيو بدوره. كان هناك شيء خطأ في ابتسامته، شيء ناقص - كانت الأسنان دائماً أول شيء يخطر على بال المرء، لكن أسنانه كانت موجودة؛ ما عدا أنها كانت صغيرة جداً. كانت النتيجة فراغاً داكناً غير متماثل، جرحاً بليغاً أكثر مما هو وجهٌ. ذبلت ابتسامة دكستر أمام هذا المنظر.

"هل... تكلّمت مع... العمّ بشأن هذا؟"، سأل السيد كيو.

"بالطبع لا"، صاح دكستر، ممنوناً من زعيق الطنجرة الذي أخفى دهشته. هل يُعقَل أن يظن السيد كيو أنه غبي كفاية - أو غير وفي أو مجنون كفاية - ليكلِّم رجال مكتب التحقيقات الفدرالي من دون إذنه؟

أطفأ السيد كيو اللهب، واختفى تنافر النغمات فجأة وساد صمت عميق جَعَل دكستر يرغب بأن يفرقع طبلتَي أذنيه.

"المشكلة هي"، تنفَس السيد كيو، "أنك تفتح قناة... فتصبح موجودة. من الصعب تنظيم ما... يمرّ عبرها أو... في أي اتجاه".

لم يقل دكستر شيئاً. إلى أي استنتاج لعين يريد أن يصل؟

"قد تكون هذه... بقعتك العمياء".

كيريغان. كان هذا أول تلميح يقوم به السيد كيو إلى ذلك الخطأ منذ تأكيده لدكستر أنه نُسي. يبدو أنه لم يُنسَ.

والآن كان زعيمه يُمسك خدَّي دكستر، بيديه الناعمتين غير الرشيقتين والمليئتين بالدم. "لدينا خطط عديدة في مستقبلنا"، قال. "خطط عديدة، عديدة".

تصلَّب دكستر. كانت هناك شيفرة في جمل السيد كيو: التكرار يستحضر قانون الأضداد. فقوله "خطط عديدة" مرتين يعني: ليس هذه الخطة.

"خطط عديدة"، قال السيد كيو مرة أخرى وهو يحدِّق في عينَي دكستر برفق.

لا خطط.

الاجتماعات مع السيد كيو تنتهي بفعالية متخفِّية، ووجد دكستر نفسه خارج الباب الأمامي بعد لحظات فقط. عانَقه زعيمه مثلما فعل عندما وصل، بمَوَدّة غير منقوصة – وحتى مضخَّمة. كان يفضِّل دكستر، يحبّه كثيراً. وكان دكستر يعلم ذلك.

"آه! راح... عن بالي"، قال السيد كيو وهو يخبط جبهته بيده. "كم عدد... الطماطم الناضجة... التي قطفتها هذا الأسبوع؟".

"ليس لها أي مذاق"، قال دكستر. كان يحاول استيعاب ما حصل للتو. وَقَف على الشرفة بينما اختفى زعيمه داخل المنزل. وراح ضوء الشمس الخافت يتلألأ على كومات ثلج مجروف. وكان الأولاد المحليون يلعبون بعيداً جداً عن هذه الكتلة؛ علاوة على صياح ماشية السيد كيو، لم يكن هناك صوت سوى ضجيج الميناء البعيد. وكانت عربة خيل السيد كيو مركونة عند حافة الرصيف. لا يزال يستخدمها لتسليم المحصول إلى متجره – وهي نادرة هذه الأيام ما عدا لموزِّعي الحليب، الذين لم يجدوا بعد سيارة ستتقدَّم إلى محطتهم التالية بينما يسلِّمون الزجاجات في محطتهم السابقة.

في نهاية المطاف، عاد السيد كيو وضغط كيساً بنياً صغيراً مليئاً بالطماطم الناضجة في يدي دكستر، إلى جانب مرطبان مربى خوخ لا توجد لصقة عليه. إذا لم يكن دكستر مُخطئاً، كان هذا نفس المربى الذي ساعد زعيمه على وضعه في مرطبانات قبل سنوات. يا إلهي، لكم من الوقت يدوم منع التسمُّم الوشيقي؟ "شكراً زعيم"، قال.

"سُررتُ برؤيتك يا بُني"، قال السيد كيو بأنفاس تصفر. اتكأ على إطار الباب وهو يلهث. بدا لدكستر أن حالته تدهورت بشكل ملحوظ منذ زيارته الأخيرة قبل عدة أشهر. بدا شاحباً تقريباً في ضوء الشتاء الجاف. "يجب أن تزورني... أكثر. تعال أكثر. لا... تترك عجوزاً لوحده".

المعنى: لقد استنزف وقته مع السيد كيو لعدة أشهر. أخذ دكستر الفاكهة والمربى، وقبّل زعيمه على خدّيه، وسار إلى سيارته.

راح يقود من دون أي وجهة محدَّدة في ذهنه. أراد التفكير، لكن حاجته للتحرّك - للتصرّف - صعّبت عليه التفكير إلا إذا كان يقود. كان مصعوقاً من رفض السيد كيو لفكرته فوراً. هل رفضها حقاً؟ هل كان ذلك واضحاً تماماً؟ هل كان الانتظار لعدة أشهر - وهي أقصر مدة قبل أن يستطيع أن يفكّر بالعودة إلا إذا تم استدعاؤه - مماثلاً للرفض؟ هل فهم السيد كيو ما كان يقترحه عليه بالكامل؟

سرعان ما وجد نفسه في كوني آيلند، وكل شيء مُغلق للشتاء، بما في ذلك متاجر النقانق والزلفية. كان هذا الوقت من السنة هو المفضَّل لديه في طفولته؛ لا سيّاح رحلات نهارية. فقط الأشخاص الذين يعيشون هنا - أو الذي يأتون من كل حدب وصوب ليأكلوا في مطعم والده.

رَكَن سيارته وصعد إلى الممشى الخشبي المهجور. كان حرّاس خفر السواحل يقومون بدوريات عند الواجهة المائية. والأمواج البنية الموحِلة آتية من الخليج السفلي عند الرمل المكسو بالثلوج. تذكّر والده: رجل شغوف بالطبخ - بتقديم الطعام. بقي دكستر يوقِّره إلى أن تُوفِّيت أمه، عندما كان في الرابعة عشرة. في تلك اللحظة انعكس تزلُّفه من دون تحذير، مُثمراً رسماً كاريكاتورياً لوالده كمتذلِّل وخانع. لم يتمكن دكستر من تبديده من ذهنه.

لم يقل شيئاً لوالده عن زيارته الأولى إلى منزل السيد كيو الأصفر، لكن ذكراها عاشت في بطنه مثل أفعى، وتعيد لفّ نفسها بترف. عندما علِم والده بالزيارة بعد بضعة أشهر، شدَّ دكستر بأذنه وسحبه إلى مكتبه، رغم أن دكستر كان قد أصبح وقتها في السادسة عشرة من عمره وأضخم من والده. حدَّق فيه والده، ومنخراه يشتعلان. "هذا هو أكثر شيء كنتُ أخشاه على كوكب الأرض"، قال.

"أكثر من وفاة أمي؟"، ردَّ دكستر معارضاً، وقدماه تتلوّيان في طِماق الكاحل الجديد المشدود الذي كان قد تسرَّع واشتراه.

"أكثر".

"أكثر من الإفلاس؟".

"أكثر. إذا أخذت مالاً من ذلك الرجل، ستصبح مُلكه مدى الحياة".

"أفضِّل أن آخذ ماله من أن أعطيه مالي".

كانت هكذا قلة احترام صريحة عادة ستستجلب صفعة لدكستر. لكن والده انحنى صوبه على عجل. "أنت لا تزال صغيراً"، قال. "إذا انسحبتَ الآن، سيدعك تذهب".

"أبتعد!".

"افعل ذلك الآن وافعله بشكل نظيف. ضع اللوم عليَّ".

رأى دكستر أن والده كان خائفاً – عليه. وبدافع رغبة بدائية بطمأنته، قال، "السيد كيو عجوز يا أبي. لن يعيش إلى الأبد".

صفَع والده وجهه بقوة كبيرة لدرجة أن الدموع تطايرت من عينَيه مثل عصيرٍ من تفاحة تهشَّمت بين فكَّي حصان.

"لن أقول لك لا تتكلم بهذه الطريقة"، قال والده بلطف شديد. "لا تفكِّر بهذه الطريقة. وإلا سيتكهّن بذلك. سيشمّه فيك".

"أنت لا تعرفه يا أبي"، قال بصوت مهزوز.

"السيد كيو هنا منذ زمن طويل. وقد رأيتُ أشخاصاً يختفون كما لو أنهم لم يُولدوا أبداً. بين يوم وآخر. تظن أنني أمزح؟ تظن أنه عجوز، يساعد زوجته في تعليب الفواكه الطازجة؟ هَه!".

"لم تلتق به أبداً".

"بين يوم وآخر. ولا أحد يذكر أسماءهم".

"ربما يجب أن تحذَر *أنت*".

"أنا لا آخذ ماله".

"ربما يكون قد قرأ*لك* أفكارك".

"سأقول له ذلك في وجهه".

"قد تختفي يا أبي. هل فكَّرت في هذا؟".

أراد أن يشعر والده بمقدار قوة السيد كيو، وهشاشته أمامه. لكن خوف والده كان قد زال، تاركاً القرف فقط. "اخرج".

غادر دكستر المطعم ولم يعُد أبداً بمعنى من المعاني، رغم أنه كان يأتي ويذهب بالطبع. كانت سنوات العمل تلك لدى السيد كيو خرافية، بفضل عضو الكونغرس أندرو فولستد من مينيسوتا وأمثاله الذين كانوا مقتنعين أن الشراب سيجلب الخراب للولايات المتحدة. بالكاد كان دكستر في التاسعة عشرة من عمره عندما سُنَّ القانون، وكان تحدّيه ضرباً من الجنون. كان يحبّ قيادة السيارات الفاخرة على الطرقات الريفية، وكان بارعاً في المطاردة. في أسوأ الأحوال، كانت هناك غابات دائماً، ويمكنه أن يقود بسرعة جنونية. ثم يستلقي بجانب غدير ليحجب صوت لهيثه، ويشمّ روائح الطحالب والصنوبر والرماد، ويتأمل النجوم فوقه – جمالٌ وابتهاجٌ يفوق أي شيء يمكن أن يخطر على باله.

عاد دكستر إلى سيارته وقاد شمالاً مسافة بضعة أحياء، إلى ملتقى شارعَي ميرمايد ووست ناينتينث. كان المطعم قد أغلقه أبوابه في العام 1934. كان بإمكان دكستر إنقاذه من الإغلاق، لكن والده لم يكن ليقبل أكثر من ارتياحه من تسديده دفعات الحماية. أصابه السرطان في سنّ الثامنة والخمسين، رغم أن دكستر لم يكن قد سمعه يسعل أبداً قبل أن يستولي المصرف على مطعمه.

مرَّت سنوات منذ أن وَقَف على هذه الناصية، لكن المكان بدا كما هو بشكل مُوحِش: ستائر النوافذ المائلة والمقصف المليء بالغبار، الأحرف الذهبية لإسمه الصعب اللفظ تتقشّر داخل زجاج النافذة. طاولة واحدة محطَّمة ومقلوبة. لا شك أن دكستر قدَّم أطباق سمك والده المشهورة على هذه الطاولة، ومنديل كتّاني أبيض يتدلّى على ساعده بينما يصبّ شراب العنب. اهتزّت مشاعره من المنظر غير المرئي الذي اكتشفه: شبكة شيفرات واتصالات قلَّصت العالم اليومي إلى حالة من عدم الوجود. كان يظن أحياناً أنه قادر على *سماع* قوة السيد كيو تنبض في تفاصيل الحياة العادية غير المسموعة مثل صفّارة

الكلاب. لا شيء كان يمكنه أن يمنعه من تتبّع طريقه حتى مصدره.

"ما أريده لك يا دكستر"، قال له السيد كيو في تلك الزيارة الأولى، "هو أن تكون رجُل نفسك. رجُل *نفسك*". ثم حاضناً خدَّي دكستر اللذين لم تنمُ عليهما اللحية بشكل تام بعد بيديه الساخنتين الثقيلتين، ومحدِّقاً في عينيه العاشقتين: "رجُل نفسك، هل تفهم؟".

فهِم دكستر كلماته وصدّقها. والآن فقط، وهو يقرأ شيفرة التكرارات والأضداد، فهِم ما كان السيد كيو يقصده حقاً.

إنه عجوز، فكَّر دكستر في سرّه، متذكِّراً أنفاس زعيمه المُجهِدة على منصة المنزل بعد ظهر اليوم. *لن يعيش إلى الأبد*. وشَعَر مرة أخرى بلسعة صفعة والده، والوجع الرطب في عينيه.

t.me/ktabpdf

الفصل 15

أصبح سبب إعادة استدعاء الملازم أكسل لآنا واضحاً في صباح أول يوم تدريب، عندما صاح في مجموعة الخمسة وثلاثين متطوّعاً، "وزن البذلة تسعون كيلوغراماً. ووزن القبعة لوحدها خمسة وعشرون. وفردتا الحذاء ستة عشر. الآن، قبل أن تبدأوا بقَلب عيونكم بشأن حمل كل هذه الأوزان، يجب أن تعرفوا أن تلك *الفتاة* الواقفة هناك – كانت تقف في جهة الأشخاص الطويلين، لكنها لم تكن دبابة شيرمان، مثل الكثير من الإناث اللواتي تراهنَّ هنا – لم ترتدِ البذلة من دون اعتراض فحسب، وتسير بالبذلة من دون اعتراض، بل حلَّت أيضاً عقدة أنشوطة مرتديةً القفازات الثلاثية الأصابع. كم واحد منكم يا سادة يستطيع حتى أن يعقد عقدة أنشوطة؟".

ارتفعت يدان. ألقى بقية الرجال نظرة سريعة حذرة على آنا. شعَرت بخدّيها يتورّدان – من الإحراج لكن من الإدعاءات الكاذبة أيضاً. لم تكن تعرف إسم العقدة التي حلّتها، وحتى كيف تعقدها. كما لم يبدُ أن أحد هؤلاء المتطوّعين – ومعظمهم من أهل المهنة، بناءً على بنيتهم القوية – ارتعد خوفاً من فكرة حَمل تسعين كيلوغراماً على كتفيه. كان الملازم أكسل رجلاً يبتهج من إحراج الآخرين؛ وكان وجهه الذابل والأمرد يذكّر المرء بطفلٍ ساديٍ. فتمكَّن في سياق ذلك اليوم من لفت الانتباه إلى بدانة دلبانكو، ونحافة غْرير، وربو هامرشتاين، وعيون ماجورن "الأربعة"، وقدمَي كاريتزكي المسطَّحتين، والعرج الخفيف في مشية فانتانو، وتوازن ماكبرايد السيئ، وامتلاء بطن هوغان بالغازات، الخ. كان سنّ معظم الرجال كبيراً جداً على هذا النوع من الخدمة، لكن بالنسبة للملازم أكسل، وهو كان غطّاساً بحرياً خبيراً عند تقاعده، سيّان عنده لو كانوا مصنّفين غير مناسبين للخدمة العسكرية. وهل من طريقة أفضل لمضايقتهم من تهديدهم بالفشل حيث نجحت فتاةٌ؟

كان لزاماً على الجميع ارتداء البذلة ما عدا آنا. وكان لكل شخص منهم مموّنان، مثلما فعل كاتز وغْرير معها تماماً. وَقَف الملازم أكسل على مقعد، وراح يصيح تعليماته بغزارة خارج المبنى 569. كانت آنا مموّناً خلفياً لمشغِّل آلات يدعى أولمستد، ويملك معصمين ضخمين جداً لربط الأربطة حول كُمَّي بذلته ذات القياس ثلاثة. وعندما تمكَّنت آنا من ربط أحدهما أخيراً، نَهَق أولمستد تأوه ارتياح مبالغاً فيه، تلته نظرة خبيثة. أبقت نظرها منخفضاً وتظاهرت بعدم الانتباه، وارتاحت من أن المموّن الآخر – وهو ذو شعر فاتح ووجه فارغ مُتخَم – بدا غافلاً بحقّ. تمكّنا سوية من ربط حزام أولمستد، الذي وَقَف عندها ليتم "تأمينه".

"أضيق يا عزيزتي"، دندَن أولمستد بينما كانت آنا تمرِّر الأربطة بين فخذيه لكي يثبِّتها المموِّن الآخر بمقدمة الحزام. "شدِّي مرة أخرى. آه، أحسنتِ يا عزيزتي. فقط بعض... آه...".

"ناديني عزيزتي مرة أخرى يا هذا"، قال المموِّن الأمامي بنبرة حادّة، "وستتلقى ضربة على وجهك".

"ليس أنتَ! هي!"، قال أولمستد وهو يشعر بالخزي.

"ليست هي مَن يشدّ". ضاقت عينا المموِّن وراحتا تلمعان مثل الشُصوص. لم ينظر نحو آنا أبداً.

بصَق أولمستد على الرصيف البحري وصمتَ. وعندما رفعت آنا والمموِّن الآخر الخوذة الهائلة لوضعها فوق رأسه، قال، "مهلاً". ثم استدار نحو آنا وسألها، "هل يمكنني أن أتنفس داخلها؟".

"بالطبع"، قالت ببرادة وهي تحارب ارتعاشاً في ذراعيها بينما كانت تحمل الخوذة عالياً مع المموِّن الأمامي. "إنها متعفِّنة قليلاً، لكنك ستتنفس بشكل طبيعي".

"مهلاً"، قال أولمستد مرة أخرى.

"إننا نتأخر"، قال المموِّن الأمامي. "هيا نُلبسه إياها".

أخفضا الخوذة، مع مطابقة فتحاتها مع الأسنان الموجودة على ياقة درع الصدر وشدّ براغيها. ربَّت المموِّن الأمامي على أعلى الخوذة، لإفهام أولمستد أن عليه أن يقف

ليفحصه الملازم أكسل. نهض عن المقعد وبدأ يسير. أعاقت البذلة حركته، وغرسه الحذاء في الرصيف البحري، مما أعطى الانطباع بأنه شجرة تضايقها عاصفة. وفقط عندما تمكّن المموِّن الأمامي من فتح خوذة رأسه حتى عمَّ زئير كل الأرجاء: "لا يمكنني التنفس. أخرجوني! لا يمكنني التنفّس هنا!".

وصل الملازم أكسل إلى هناك مع غْرير بعد لحظة، وأزالا الخوذة عن أولمستد بخبرة، وحرّراه من الحزام والياقة والحذاء والبذلة. انصرف مشغِّل الآلات خلسةً عن الرصيف البحري. فأخبرَ الملازم أكسل المجموعة والانشراح يملأ وجهه، "هذا أيها السادة الأفاضل ما يسمّونه رُهاب الأماكن الضيقة. يوجد عادة شخص في كل مجموعة يعاني من هذه الحالة، وأنا شخصياً أرغب بإبعاده باكراً. لا يجب على هكذا رجال أن يحاولوا أن يصبحوا غطّاسين".

"يا له من تافه"، تمتم المموِّن الأمامي – لنفسه، حسبما افترَضت آنا، بما أنه بدا غير مُدرك لوجودها. "لقد جهّزناه بشكل مثالي، ولم يُعترَف بفضلنا في ذلك".

الاختبار الثاني تضمَّن حجرة إعادة الضغط التي تهدف إلى محاكاة ضغط التواجد تحت الماء. والرجال المسدودة قنواتهم السمعية بسبب تلف أو التهاب في الأذن سيجدون صعوبة في موازَنة الضغط على جانبَي طبلات آذانهم. سيعاني أولئك البؤساء من ألم كبير في الأذنين، وحتى من تمزّق طبلتَي الأذنَين، في حال قرّروا أن "يلعبوا دور البطل" (حذَّرهم الملازم، مبتسماً) ويعانون بصمت. والذين يعانون من مشاكل في الرئتين قد يجدون أنفسهم غير قادرين على التنفس داخل الحجرة. ثم هناك الرجال الذين يُصابون بتشنّجات عندما يتنشّقون أكسجيناً نقياً مضغوطاً، ولا أحد يعرف السبب الدقيق لذلك.

عندما ازداد توتّرهم بشكلٍ كافٍ، أدخلهم الملازم أكسل إلى حجرة إعادة الضغط على دفعات من ستة أشخاص. كانت عبارة عن أسطوانة بحجم الغرفة مقسَّمة إلى أقسام، وأكبر قسم فيها يحتوي على مقعد حشر خمسة رجال أنفسهم عليه مثل حمام على سلك ليتركوا مساحةً حول آنا. كان المموِّن الأمامي ذو الوجه غير المعبِّر بينهم؛ بول باسكومب، علِمت إسمه عندما عرَّف كل واحد عن نفسه.

"نجحتِ نجاحاً باهراً في هذا الاختبار أيضاً؟"، سأل باسكومب، وهو يلقي نظرة سريعة عامة في اتجاه آنا.

"لا، إنها أول مرة لي"، قالت، وبدا لها صوتها مرِحاً أكثر مما ينبغي. "ولم أكن جيدة جداً في البذلة. إنهم يستخدمونني فقط لتحفيزكم".

"تصوَّرتُ هذا".

أغاظها هذا. "لقد فككتُ العقدة فعلاً".

ساد صمتٌ في المجموعة مع ارتفاع حرارة الهواء. "حاولوا أن تصفِّروا"، قال باسكومب.

حاوَل الجميع، بما في ذلك آنا، لكن أحداً لم ينجح. "تباً"، قال أحدهم.

"إنه الضغط. استمعوا إلى أصواتنا"، قال باسكومب. "أؤكِّد لكم أن صوتي ليس بهذا الصرير دائماً".

اختبَرت آنا صوتها بلطف بينما أغرقها الرجال بمحاولات لتقليد أصوات العصفور تويتي والأرنب باغز باني. وكلما استطاعوا نسيانها أكثر، كلما بدوا مسترخين أكثر.

خفَّضت حجرة إعادة الضغط عددهم الإجمالي بأربعة آخرين - هكذا أخبرهم الملازم أكسل المغتبِط قبل أن يصرفهم في نهاية اليوم الأول. فقد عانى ساكو وموهيلي من ألم في الأذن؛ وبدأ هامرشتاين يتنفّس بصفير؛ وماكبرايد "شَعَر بشيء مضحك في رأسه" واستُبعد فوراً.

أمضوا الأيام الأربعة التالية في غرفة التدريس، حيث ألقى عليهم الملازم محاضرة عن فيزياء الغطس، والمعدات القياسية وصيانتها، وتركيبة الهواء، ومخططات العمق. لكل ساعة يقضونها على عمق عشرة أمتار أو أكثر، عليهم قضاء ثماني ساعات على اليابسة لكي يُعتبروا "نظيفين" ليغطسوا مرة أخرى. "لا توجد طرق مختصرة يا شباب"، قال محذِّراً إياهم. "لا تحاولوا لعب دور الشاب القوي إلا إذا كنتم تريدون أن تظهر فقاقيع نتروجين في آذانكم وعيونكم ومناخركم إلى أن يبدأ كل نسيج ناعم في جسمكم ينزف. وأطول مدة يمكنكم قضاءها على عمق اثني عشر متراً من دون إعادة ضغط هي ساعتين. وهي ثماني وسبعين دقيقة على عمق خمسة عشر متراً. لا يجب أن تكون هذه الأرقام أشياءَ عليكم التفكير فيها - يجب أن تكون مألوفة مثل تاريخ ميلادكم، أو ذكراكم السنوية، أو السابع من ديسمبر 1941".

كان هناك درس عن الأخطار المحتملة أيضاً. "بصفتكم غطّاسين، ستتقاضون دولارين وخمسة وثمانين سنتاً في الساعة"، قال الملازم أكسل. "لكنني لاحظتُ أن الغطّاسين المدنيين ينسون أحياناً أن 'أجر المخاطرة' يعني أن العمل خطير". وبمتعة رجل يلتمظ بشفتيه أثناء قراءة قائمة حلوى، راح يصف لهم خطر أنابيب الهواء الغادرة؛ وخطر أن يسحبهم زورقٌ، وخطر أن "ينفجروا"، وخطر أن يطيروا إلى السطح مثل فلينة؛ وخطر تخدير النتروجين؛ وبالطبع، خطر "الانعصار" السيئ السمعة. ليتنبرغ ومالوني، وكلاهما متزوجان ولديهما عدة أولاد، لم يعودا في الصباح التالي. "ذهَبا إلى المنزل وكلّما زوجتيهما"، قال الملازم أكسل بشماتة. "نخسر أشخاصاً بهذه الطريقة كل مرة".

ثم مرَّت نظرة تفكير مُقلقة بشكل واضح فوق حاجبه الطفولي. "يا كاتز"، قال بصوت خفيض. "كم شخص بقي لدينا؟".

كان هناك زنجي واحد: عامل تلحيم يدعى مارل بدا سنّه قريباً من سنّ آنا وأكمل كل التحديات بسهولة. كانت مُدركة لوجوده تماماً لكنها متلهّفة أيضاً لتجنّبه - وهي رغبة أخجلتها، رغم أنها شعَرَت أن مارل يشاركها إياها. كانت تجلس في زاوية معاكسة له في غرفة التدريس - آنا في الخلف، حيث لن تشعر أنها مراقَبة من ورائها؛ ومارل في المقدمة، حيث يدوِّن ملاحظات صغيرة جداً وشديدة التدقيق بيده اليسرى. في الحالات النادرة التي تتقاطع فيها مساراتهما، كان التقدير يتوهّج بينهما، ثم يشيحان بنظرهما فوراً.

في نهاية كل يوم، كان الغطّاسون المدرَّبون من قبل يعودون إلى المبنى 569 من وظائفهم في خليج والأباوت أو من عملهم على خط أنابيب المياه العذبة الذي يمتدّ من ستاتن آيلند إلى مركز مراقبة بحرية في مكان آخر في الميناء. وتتفرَّق آنا والمتدرِّبون الآخرون في الغسق، بعضهم عبر بوابة صغيرة بالقرب من حوض الغطس، وبعضهم الآخر على المسار الطويل الذي يمرّ عبر بوابة ساندز ستريت. كانت آنا تسلك الدرب الأطول دائماً بحثاً عن نَلْ، رغم أنها لم تعد تتوقع إيجادها حقاً.

في الليلة الخامسة لمدرسة الغطس، رأت روز تغادر مبنى التفحّص. تعانَقتا وخرجتا من بوابة ساندز ستريت متأبطتَي ذراعَي بعضهما. "الورشة ليست نفسها من دونك"، قالت روز. "كل الفتيات يقلن هذا".

"لا أحد ليتبادلن الإشاعات بشأنه"، قالت آنا.

"يقولون إن السيد قوسّ يتألم. يبدو شاحباً ونحيلاً قليلاً".

"يبدو أنهن اللواتي يحببنه".

قهقهت روز. سارت آنا معها إلى جادة فلاشينغ أفينيو وانتظَرت الترامواي معها، على أمل أن تدعوها صديقتها إلى العشاء. لكن عندما وصلت العربة المزدحمة، وثَبت روز إلى متنها وأمسكت مقبضاً متدلياً من السقف، وراحت تلوّح لآنا مودِّعةً من النافذة.

راقَبت آنا الترامواي ينزلق شرقاً نحو تلة كلينتون. وفقط عندما استدارت لتسير نحو محطة الترامواي الذي تريد أن تستقلّه على هادسن حتى شعرت بالوحدة تغمرها. كان ذلك الشعور يتراجع خلال النهار؛ حتى إنها حاوَلت عبثاً أن تتذكره خلال دروس الغطس. لكنه يعيد الإطباق عليها تماماً عند الغسق. كما لو أنه يملك نبضاً. كانت قبضته تُخرج آنا من مملكة الأمهات اللواتي يسحبن أولادهن بأيديهن، والرجال الذين يُسرعون إلى منازلهم حاملين صحف المساء تحت إبطهم. استقلّت عربة الترامواي، وانغلقت أبوابها الأكورديون خلفها، وراحت تراقب الليل ينزلق خارج النافذة. كان يرتجف بخطر أنشأ روتينها الوحيد آخر خط دفاع رفيع ضده. لكن ما كان التهديد؟

كان العشاء ينتظرها، لا يزال ساخناً، على منضدة بقالة السيد موتشاروني. بينما كانت تأخذ الطبق المُغطى من سيلفيو، عادت إلى ذاكرتها صورة ليديا وهي تئنّ على ذراعيه. في مبناها، فتَحت علبة البريد وعثرت على الرسالة الاعتيادية من أمها، إلى جانب رسائل بريد نصر من فتَيين في الحي. صعدت السلالم، حاملةً رسائل البريد في يد وطبق العشاء في اليد الأخرى، ومرَّت بجانب شقّتَي آل فيني، اللتين كانتا بمثابة ملحق عندما كانت صغيرة. لم تتمكن في وحدتها من إجبار نفسها على قرع بابهم. *لا يجب أن تفعلي هذا*، فكّرت في سرّها. *لا يتوقعونك*.

حصل الشيء نفسه عندما تخيَّلت استخدام الهاتف العمومي في صيدلية وايت للاتصال بستيلا أو ليليان أو العمّة برِيان. كانت قد ذهبت إلى الدار البيضاء مع برِيان وتزلَّجت مع أصدقائها في حلبة التزلّج إمباير. لكن في نهاية تلك الاستراحات، عادت الأخريات إلى منازلهن وآنا إلى عزلتها. لا أحد يستطيع حمايتها منها.

أغلقت باب الشقة، وأسدلت الستائر، وأضاءت كل الأضواء والراديو. نشرة الأخبار أولاً، ثم موسيقى. كانت قد تخلّت عن المفضّلين لديها، كاونت باسي وبِيني

غُودمان؛ فقد كان صوتهما العاصف إيحائياً جداً لظلمة المدينة العابسة. بدلاً من ذلك، راحت تدير زر الراديو بحثاً عن تومي دورسي وغْلنّ ميلر، وحتى الأخوات أندروز، اللواتي كانت دندنتهن العذبة جداً تُضحكها. كان لهن تأثير مطمْئِن الآن مثل التصفير أثناء السير في شارعٍ مظلم. قرأت رسالة أمها. كانت خِطاباتها قصيرة وتقتصر على الحقائق في الأغلب: شتاء مينيسوتا القارس، صحة الأبقار والخِراف، أخبار أنسباء آنا في التدريب أو ما وراء البحار.

في كل رسالة، كانت أمها تبدو أنها تنسى نفسها - أو آنا - في لحظة من اللحظات وتبدأ تتجوَّل في منطقة استبطانيّة أكثر: *أستمر في توقّع أن أستيقظ في صباح أحد الأيام وأعرف ماذا عليَّ أن أفعل، بنفس الطريقة التي عرَفتُ فيها أنني أريد الذهاب إلى نيويورك بعد التخرّج من الثانوية. لكن كل قرار آخذه يبدو أنه يدوم لأربع وعشرين ساعة كحد أقصى.*

وفي وقت آخر:

فتيان شبابي بدينون، وصُلع، وموتى في ثلاث حالات (1 جرّار مقلوب، 1 حادث سيارة، 1 سرطان في الحنجرة). أنظر إلى وجهي ولا أرى أي تغيير حقيقي؛ من الواضح أنني أكذب على نفسي!

ومرةً:

القمر هنا ساطع جداً.

عندما أنهت تناول الطعام، غسلت آنا طبق السيدة موتشاروني وجفَّفته ووضعته جانباً لكي تعيده في الصباح التالي. ثم بدأت تكتب رسالة إلى أمها، وشعرت بالرضى من سردها تفاصيل لم تكن لتهمّها لو كانت هنا. كتَبت لها هذه الليلة عن انشراح الملازم أكسل من إخافتهم. وبقيت تكتب إلى أن شعَرت أنها مُتعَبة كفاية لكي تنام، ثم ختمت الرسالة وأطفأت الراديو وكل الأضواء ما عدا الضوء في غرفة نومها. تمدّدت على سريرها وعانَقت وسادة ليديا. فلطالما كانت معتادة على وجود شخص آخر قريب منها في الليل، يتنفّس، يشعّ دفئاً. أمسكت الوسادة بقوة كما لو أنها تضغط على جرح، وراحت تستنشق الرائحة الخفيفة الباقية من أختها عليها.

أخيراً، فتَحت رواية إيليري كوين. لكل مسارح أحداثها المتنوّعة والغريبة، بدت

روايات الغموض وكأنها تحصل في عالم واحد - عالم مألوف قليلاً لآنا منذ زمن طويل. وكان إنهاء كل رواية يتركها خائبة الأمل دائماً، كما لو أن شيئاً فيها كان خطأ، كما لو أنها تضمّنت توقّعاً لم يتحقّق. كان استياؤها يعلّل عدد روايات الغموض التي قرأتها، وغالباً ما تعيد عدة روايات إلى المكتبة في الأسبوع الواحد. منذ رحيل أمها، أصبحت تلك الروايات أبواباً سريةً تقودها إلى ذكريات مرافقتها والدها في طفولتها. إلى إمساكها يده في مصعد بينما يُدير عجوزٌ ذو شعر منفوش ذراع تدوير بأسلوب يدّل على النعاس. إلى سيرها بجانبه في رواق فارغ مليء بالأبواب، والأحرف الذهبية المحفورة على ألواح زجاجية غير شفافة، وصوت دعساتهما ترنّ على الجدران. إلى نظرها إلى أسفل من نافذة في ناطحة سحاب نحو سيارات الأجرة الصفراء التي تطنّ كالنحل تحت السُحُب الرعدية المُخضَرَّة. كانت آنا تعرِف أن عليها البقاء مُديرة ظهرها إلى أن تسمع حفيف ورقٍ، ثم وزن طردٍ ينزلق على مكتبٍ، ثم جارورٍ ينغلق بهمس. بعد ذلك يعمّ الهدوء، ويصبح الجميع سعداء فجأة.

ماذا كان يفعل بالضبط؟ هل كان أمراً خطيراً؟ هنا كان الغموض الذي بدا الآن أنه يومض لها إشارات مشفَّرة من خلف كل رواية قرأتها لأغاثا كريستي وركس ستاوت وريموند تشاندلر. إدراكها لهذه القصة الأعمق جعَلها تخترق السطح المجازي لأي مؤامرة كانت تقرأها إلى أن وجَدت نفسها لا تقرأ أبداً، بل تُمسك الكتاب وتتذكّر. تتحيَّر. كان السيد ستايلز جزءاً من الغموض. لكن السيد ستايلز *ذاك* - الذي كان يعرف والدها - بدا رجلاً مختلفاً عن الذي أخذها وليديا إلى شاطئ مانهاتن. سلوكه اللطيف ترك آنا مع إحدى أسعد ذكرياتها. وعودته إلى السيد ستايلز مالك النادي الليلي، رجل العصابات - أو رجل العصابات السابق - بدت كمصادرة ليومهم الغامض المغتبِط. رفَضت ذلك. عادت إلى كتابها وبقيت تقرأ حتى نامت. استيقظت في منتصف الليل، وأطفأت النور.

في الصف في الصباح التالي، سمِعت همساً خفيفاً، يختلف عن صوت الملازم أكسل. كان باسكومب يجلس إلى يسارها وهو ينظر أمامه مباشرة. كانت نظراته فارغة، لكنها عرَفت بطريقة أو بأخرى أن الهمس صدر منه. هل كان يكلِّم نفسه؟ كان موضوع كلامه القواعد والقوانين التنظيمية - أهمية الامتناع عن تناول شراب الشعير قبل الغطس بأربع

وعشرين ساعة.

"إنهم يخبرونك كل أصناف الهراء غير الحقيقي"، تابَع يهذر. "لا علاقة للفقاقيع في الدم بالفقاقيع في الشراب. لا أقصد أنه يهمّني بتاتاً – فأنا لا أتناول الشراب أصلاً".

حدَّقت أمامها مباشرة، متأكدةً أن الملازم أكسل سيسمعه ويلومه.

"لا تدعيهم يملأون رأسك بكل هذه القذارة. يعتقدون أنك ستصدِّقين أي شيء لأنك فتاة. على فكرة، ليست لديهم أي نيّة للسماح لك بالغطس".

"ماذا تقصد؟"، هسهَست آنا رغماً عنها.

"يتوقعون أن تفشلي عندما تنزلين الماء في الأسبوع القادم"، قال بنبرة رتيبة. "سمِعتهم بالصدفة".

بدأت نبضات آنا تتسارع. راحت تحدِّق بالملازم أكسل وتذكرت لقاءهم السابق – يأسها من محاولة إقناعه حتى بعد أن ارتدت البذلة. هل لا يزال يخطِّط لإحباطها؟

بسبب تشتّت تركيزها، نسيت أن ترتدي معطفها قبل أن تغادر المبنى 569 لتسير إلى كافيتيريا ممرات التصنيع لتتناول الغداء. أحضَر باسكومب المعطف ولحِق بها. "تسلّق السُلَّم في البذلة الرطبة هو أصعب جزء"، تمتم كما لو أنه لا يزال في غرفة التدريس، وقد أخذ يسير بجانبها. "خاصة للغطّاسين ذي الوزن الخفيف".

"هل غطَست من قبل؟" سألته، مُبقيةً عينيها تنظران أمامها.

"لا. عمِلتُ ممِّوناً في بيوجت ساوند".

"كندا؟".

"الساحل الغربي. بالقرب من سياتل، واشنطن. كانت وظيفة أجساد: كان هناك غطّاس بالتعاقد يسحب الجثث من حاملتَي طائرات قبل نقلهما إلى حوض السُفن الجاف. يناير 1942. أجل، تفكيرك صحيح، تفكيرك صحيح: لقد قَطَروهما من هاواي".

ألقت نظرة سريعة عليه، غير مصدِّقة.

"سري للغاية. لم يكن أي واحد منا جندي بحرية".

"كان هناك ممِّون ثانٍ؟".

"لا، سيدتي. أنا فقط. علّمني الغطّاس ماذا عليَّ أن أفعل. كان يضَع الجثث في أكياس تحت الماء، وكنتُ أسحبها. كانت إمداداته الهوائية تأتي من حوض السُفن مباشرة".

كانت آنا تحبّ هذه الطريقة في الكلام: تبادل للمعلومات من دون الاضطرار إلى مشاهدة العمق الرطب لنظرات الشخص الآخر. "ألهذا السبب تريد أن تغطس؟"، سألت.

"أظن ذلك"، قال. "أواصل محاولة الانضمام إلى البحرية. حاوَلت في سياتل، وحاوَلت مرة أخرى في فريسكو، ثم سان دييغو، لكنني لا أستطيع جعل عينيَّ اللعينتين تقرأان تلك الأحرف الصغيرة جداً على المخطط. يقولون إنه إذا كان الشخص جيداً كفاية، يمكنه الانتقال من الغطس المدني إلى البحرية".

ألقت آنا نظرة سريعة على وجه باسكومب. رأت لأول مرة أن نفاد صبره المتجهِّم وتركيزه الغاضب كانا يُقرأان ككفاحٍ. "لقد قطعتَ كل هذه المسافة إلى هنا"، قالت.

"بالتأكيد. لا يوجد مكان أفضل للغطس المدني من مدينة نيويورك. كانت لدينا النورماندي معطَّلة في الرصيف البحري 88 منذ أن اشتعَلت فيها النيران قبل سنة - إنها ساحة تدريب طولها ثلاثمئة متر. وقد جهّزوا مدرسة إنقاذ كاملة لإصلاحها، وهل تعرفين إلى أين ستذهب لإعادة تجهيزها في النهاية؟ هذه الساحة البحرية بالذات. وشيء آخر"، أضاف عندما اقتربا من مدخل المبنى 81. "لا يهمّ أبداً كم نظرك اللعين جيد؛ فلا يمكنك رؤية أي شيء تحت الماء". وفور قوله هذا، ابتعد عنها فجأة، كما لو أنهما لم يكونا يتكلّمان أبداً.

في أسبوع تدريبهم الثاني، بدأ بعض طلاب الغطس الأصغر سناً يغادرون الساحة معاً في نهاية اليوم. وقد سمِعتهم آنا يناقشون المقاصف - ليو، جو رومانيللي، المقصف البيضوي، والمقصف المربّع - وهذان الأخيران مقابل بعضهما البعض قطرياً على ساندز ستريت وهما مُلك أخوين متنافسين. الآن وقد استسلم الألمان أخيراً في ستالينغراد، كانت المعنويات عالية. وكلما بدت حلقة صداقة حميمة تتشكّل بالقرب من آنا، كانت تتراجَع من المشهد في اللحظة المناسبة التي قد يبدو فظّاً عندها عدم دعوتها. كان غريباً، نظراً للإلهاء الذي يسبّبه حضورها، مدى السهولة التي يمكنها التلاشي بها. كان مارل، الزنجي،

قد أتقَن هذا الفن ببراعة تامة. فرغم حضوره الجسدي القوي، كانت لديه وسيلة ليفصل نفسه عن الجو العام إلى أن يتلاشى من دونه. فقط آنا لاحَظت ذلك، لكنها أخفت إدراكها له؛ فأي ولاء بينها وبين مارل سيعرِّض للخطر الرابط الخفيف الذي يربط كل واحد منهما بالمجموعة. وهكذا فإن الابتعاد عن الباقين الذي كان مشتركاً بينهما أبعدهما عن بعضهما البعض أكثر فأكثر.

معظم الليالي، كانت تأتي فتاة ذات شعر أشقر خفيف تنتظر باسكومب خارج بوابة ساندز ستريت. اكتشَفت آنا من حديثه مع الغطّاسين الآخرين أنها خطيبته، روبي، الذي تعرَّف عليها بعد وصوله إلى بروكلين الصيف الماضي. مقارنة مع فتيات بروكلين، كانت روبي سيئة التجهيز للشتاء بشكل غريب، فتقف مرتعشة في معطف رقيق، ثم تحيط باسكومب بذراعين مفتولتين وتتعلَّق بعنقه، وجبهتها مضغوطة عليه. كانت آنا تحبّ باسكومب، أو بالأحرى يمكن القول إنها تحبّ نفسها في حضوره. كانت تبادلاتهما الصريحة وغير المتكافئة أقرب شيء اختبرته لشعورها كرجلٍ. أما باسكومب في قبضة تلك الذراعين الطمّاعتين سيكون مسألة أخرى، لكن آنا لم تشعر بأي حسد. لقد كان لديها باسكومب الذي تريده.

في صباح أول غطس لهم، ملأ اثنا عشر غطّاساً البارجة، وقادها الملازم أكسل حول ممرات التصنيع، مصطدماً بقِطع الجليد المسطَّحة الشمعية المظهر ومعانقاً الأرصفة البحرية ليتجنّب زحمة الزوارق. كان هناك رجال يراقَبون من الأرصفة البحرية، تماماً مثلما كانت آنا تفعل في السابق. كانت متوترة، وتعلم أن الملازم أكسل يتوقع فشلها. لكنه أرادهم كلهم أن يفشلوا. هذا لم يكن سراً.

أرسى الملازم أكسل البارجة عند قدم حوض السُفن الجاف 1. وبدأ يشرح لهم أن غطّاسين سينزلان دفعة واحدة، وسيكون لكل واحد منهما مموِّنان، بينما يدير الباقون الحذّافات الضخمة على ضاغطَي الهواء، الذي يزوِّد أحدهما هواءً لأحد الغطّاسين. سيتبادلون الأدوار طوال اليوم إلى أن يكون الجميع قد غطسوا.

متظاهراً أنه يختار عشوائياً، اختار آنا ونيومان ليغطسا أولاً. لكن آنا كانت قد أمضت وقتاً كافياً في دراسة وجهه الطفولي القديم لكي تتعرَّف على الأذى الكامن فيه.

كان الملازم يخطّط شيئاً. ربما سيكون دورها إشعار الآخرين بالخِزي، كما في السابق – راحت آنا تأمل ذلك، بما أنه يعني نجاحها. ثم اختار باسكومب ومارل، الزنجي، ليكونا مموِّنيهما. فقط عندها شعرت آنا بوجود خطأ ما: مارل، وهو عامل تلحيم، لم يكن يجب أن يتواجد على البارجة أبداً. فعمّال التلحيم والحرق كانوا يقومون بأول غطسة لهم هناك على الرصيف البحري للشارع الغربي في حوض الغطس الجديد: أسطوانة ستة أمتار بخمسة مع كُوَّات لكي يتمكن كاتز وغْرير من النظر إلى داخلها. فهِمت الآن. الوحشية تكمن في إجبار قُرب بينها وبين مارل، الدخيلين اللذان بذلا جهداً كبيراً ليبقيا بعيدين عن بعضهما. كانت نيّته أن يحتكّا ببعض وبالتالي تضعف فرصة نجاحهما.

رأت آنا اضطرابها منعكساً على وجه مارل. ولم يكن التعبير على وجه باسكومب يُظهر شيئاً، لكن عضلات فكه راحت تلتوي مثل خياشيم سمكة تلهث. كان الفشل عدو باسكومب؛ ولم يكن يريد أي صلة به. غمرت موجة قلق ثلاثتهم بينما كان الرجلان يُمسكان أطراف البذلة لآنا وهي تخطو داخلها بحذر شديد، محاولةً عدم لمسهما. كانت مهمة المموّن أن يشغّل الغطّاس ويرشده، لكن العمل مع هذين الرجلين، أحدهما زنجي، أيقَظ خجلاً لدى آنا كانت متأكدة أنهما غير قادرين على الإحساس به. راح ثلاثتهم يتطوّحون في الخطوات الأولى: أربطة المعصمين والحذاء وشدّ أربطة الرِجلين. لكن بينما كان باسكومب ومارل يسحبان الياقة المطاطية فوق الدعامات النحاسية، بدأ الروتين يحيِّد الانزعاج. راحا يشدّان العزقات المجنَّحة فوق الدعامات، ويناديان بعضهما البعض فوق كتفَي آنا. ثم رَفَعا القبعة فوق رأسها أخيراً، ووجدت نفسها محاطة برائحتها الناشزة. تسعون كيلوغراماً أثقلت كاهلها عندما وَقَفت. كانت قد تذكرت حقيقة هذا الوزن لكن ليس الإحساس الوحشي لسحقه لها. هل يمكنها أن تتحمّله؟ يمكنها. والآن؟ نعم. كانت المسألة مثل شخص يقرع باباً باستمرار، منتظِراً رداً جديداً. والآن؟

ألقى باسكومب نظرة سريعة عليها من خلال لوح خوذة رأسها، وكان مسروراً أكثر من أي وقت مضى – وهذا يعني أنه لم يكن عابساً. "أقل من خمس دقائق"، قال. "ياقة نيومان ليست مُغلقة بالكامل حتى".

محاولةً عدم الترنّح، بدأت آنا تجرّ قدميها نحو سُلَّم الغطس. فحَص مارل حبلها السُرّي – خرطوم الهواء وحبل الإنقاذ، المربوطين ببعض – وسمِعت صفير الهواء أثناء دخوله

الخوذة. عند السُلَّم، أدارها لكي يصبح ظهرها إلى الماء. نظَرَ مارل إليها نظرة حيوية غريبة. "تشرّفت بمقابلتك آنسة كيريغان".

"وأنا أيضاً سيد مارل".

"حظاً سعيداً في الأسفل".

"شكراً".

أحكَمَ مارل إغلاق لوح خوذة رأسها. لقد أجريا أول محادثة لهما.

مُمسكةً القضبان الملتوية لسُلَّم الغطس، بدأت تأخذ خطوات عكسية حذرة، متلمّسةً كل درجة بالرأس المعدني لحذائها قبل أن تُلقي كل وزنها هناك. أحاط الماء رجلَيها بقوة باردة، ممتصاً التجاعيد في بذلتها ومُحدثاً ألماً قارساً على بشرتها. راحت قِطع الجليد المسطَّحة تنكز بذلتها، وسرعان ما أصبح الماء عند مستوى صدرها، ثم يخبط أسفل خوذة رأسها. ألقت آنا نظرة أخيرة إلى الأعلى ورأت باسكومب ومارل يراقبانها من السُلَّم. درجتان أخريان وأصبحت مغمورة كلياً بالماء الأخضر البني لخليج والأباوت المرئي من خلال نوافذها الأربعة. لا صوت سوى صفير الهواء.

توقفت مؤقتاً على الدرجة الأخيرة للدرجات الأربعة عشرة للسُلَّم لكي تزيد إمداداتها الهوائية. وكما هو متوقع، فقد انتفخت بذلتها قليلاً مما خفَّف ضغط الماء على رجلَيها. تلمّست الحبل النازل، ولوَّحت رِجلها اليسرى حول حبل مانيلا، وتركته ينزلق عبر قفازها الأيسر بينما انجرَفت نزولاً تحت ثقل البذلة، والماء يزداد ظلمة وهي تبتعد عن السطح. أخيراً، لمس حذاؤها قعر خليج والأباوت. لم تكن آنا قادرة على رؤيته: فقط أجزاء من رجلَيها تختفي في الظلمة. شعَرت بفورة رفاهية لم يكن مصدرها واضحاً فوراً. ثم أدركَته: لقد تلاشى ألم البذلة. وكان ضغط الهواء داخلها كافياً لموازنة الضغط خارجها مع المحافظة على طفو سلبي – أي، أنه يُبقيها في الأسفل. والوزن الذي كان مرهقاً جداً على الأرض يسمح لها الآن بالوقوف والسير تحت تسعة أمتار من الماء كانت ستبصقها مثل بذرة.

شعرت بشدّ واحد على حبلها السُرّي: *هل أنت بخير؟* كرّرت الشدّ لتُشير إلى أنها فهِمت وأنها بخير. *كل شيء على ما يرام.* وجَدت نفسها تبتسم. كان الهواء في منخريها شهياً؛ حتى صفير وصوله، الذي كان الملازم أكسل قد شبَّهه بـ "بعوضة لا يمكنك إبعادها"، كان مرحباً به وعذباً. كان قد قيل لهم إنهم لن يحتاجوا إلى تعديل صمام العادم

عن الدورتين ونصف اللتين تم ضبطه عندهما، لكن آنا لم تستطع مقاومة تضييق الفوهة النجمية الشكل قليلاً لتسمح لمزيد من الهواء بالتجمّع داخل البذلة. بدأت تصعد قليلاً، والوحل يتمسّك بأسفل حذائها. شعرت بموجة عارمة من المتعة. كان هذا أشبه بالطيران - كما لو أنها داخل حلم. فتَحت صمام العادم لتُخرج الهواء الزائد إلى أن استقّرت قدماها على أرضية الخليج من جديد.

كان هناك كيس أدوات، كله ثقوب ويبدو مُضحكاً على اليابسة، يعوم قربها على حبل قصير مربوط بالحبل النازل. كان يضم مطرقة، ومسامير، وخمس قِطع خشب عليها صنع صندوق منها. كان التحدي أن تمنع قِطع الخشب - والصندوق نفسه - من الطفو إلى السطح قبل إنهاء المهمة. سيتم توقيت كل غطّاس، بالطبع. "صوت تكّات الساعة أعلى بكثير تحت الماء"، حذَّرهم الملازم أكسل. "وإذا اضطررتم إلى الصعود إلى السطح لتسترجعوا خشبكم، ستكونون قد أهدرتم الكثير من الوقت النفيس".

فتَحت آنا فوهة كيس الأدوات بما يكفي لتُدخل يدها فيه. راحت قِطع الخشب تطرق بصخب على معصمها، متلهّفة للهرب، لكنها تمكّنت من إخراج قطعتين فقط قبل أن تُدرك أنها تركت المطرقة والمسامير في الداخل. ثبّتت القِطع الرخوة تحت ذراعها اليسرى وراحت تتلمّس داخل الكيس بحثاً عن المطرقة. انطلقت قطعة خشب من الكيس، وفي محاولتها إمساكها، أفلَتت القطعتين من تحت ذراعها. بالكاد تمكّنت من اعتراض سبيل القِطع الثلاثة التائهة والإمساك بها قبل أن تطفو بعيداً عن متناولها. انقبض قلبها، وشعَرت بدوار. الذعر، أو أي مجهود تحت الماء، يجعلك تزفر ثاني أكسيد الكربون أكثر، وهذا يُضعفك عندما تعيد تنفّسه. أعادت آنا كل شيء إلى الكيس وأغلقته. أخذت نَفَساً عميقاً وأغمضت عينيها وشَعَرت فوراً بتجاوب جديد في رؤوس أصابعها، كما لو أنها استيقظت من النوم فجأة. بالطبع. ستُبقي عينيها مُغلقتين. أرخت آنا فوهة الكيس وتركت قِطعتي خشب تجدان طريقهما إلى يدها اليمنى. ثم أخذت المطرقة ومسماراً واحداً بيدها اليسرى. علّقت الكيس على كتفها وثبّتت قِطع الخشب عند زاوية قائمة على كتل الرصاص التي على حزامها. وبحركات بطيئة تحت الماء، راحت تطرق المسمار إلى أن ثقَب الخشب الناعم وأوصل اللوحين الخشبيين. كانت يداها تتحكّمان بمجريات الأمور؛ وبالكاد نظرت. وسرعان ما كانت تطرق الجهة السفلى إلى صندوقٍ، وتتمنى لو أن

العملية استغرقت وقتاً أطول. لم تكن تريد العودة إلى السطح.

من دون أن تشير للمموّنين، خبّأت الصندوق داخل كيس الأدوات وضيّقت صمام عادمها بما يكفي لتنفيذها سلسلة خطوات الطفو. شعَرت بأنقاض تحت حذائها، الطوبوغرافيا الخفية لخليج والأباوت. ماذا يوجد هناك بالضبط؟ تمنّت لو يمكنها أن تركع وتتلمّس بيديها. رافعةً حبلها السُرّي لكي لا يتشابك، استدارت دورة كاملة، وشعرت بضغط الأمواج والتيارات من النهر والمحيط وراءه.

ثلاث شدّات عنيفة على حبلها السُرّي وضعت حداً لهذا السلوك. *استعدي للصعود*. لا شك أن فقاقيعها خانتها؛ تخيّلت انزعاج باسكومب من رؤيته لها تشرد بعيداً عن السُلَّم. سيكون همّه التوقيت والأداء، إنهاء المهمة قبل الفريق الآخر. بحَثت عن الحبل النازل، لكن حبل مانيلا ذا الثماني سنتيمترات كان قد اختفى. بدا لها أنها بالكاد تحرّكت من مكانها، ومع ذلك يبدو أنها ابتعدت ما يكفي ليصبح الحبل بعيداً عن متناول ذراعيها الممدودتين في كل اتجاه سارت فيه.

سبع شدّات: لقد علموا بالمشكلة وسينتقلون إلى إشارات البحث لإرشادها. كرَّرت آنا الشدّات السبعة، ثم تلقّت ثلاث شدّات، مما يعني *استديري يميناً*. لكن كيف يعرفون الاتجاه الذي تنظر إليه؟ أطاعت الأمر واستدارت وبدأت تسير، وهي تلوّح ذراعيها أملاً بإمساك الحبل. راح صوت نبضات قلبها يقرع في أذنيها وهي تتخيَّل الخِزي من الاضطرار إلى إخراجها باستخدام حبل إنقاذها.

ثم خطر على بالها أنه يمكنها الصعود إلى السطح من دون استخدام الحبل النازل أبداً، بمجرد تعديل صمامَي توجيهها وعادمها. تركت البذلة تنتفخ بما يكفي لترتفع بلطف، ويبتعد حذاؤها عن الوحل. أبقت يديها على الصمامين، إمداد الهواء والعادم، تنفخ البذلة بما يكفي لترفعها عبر الماء المُشرِق من دون أن "تنفجر" وتطير إلى السطح منفرِجة الذراعين والساقين.

اخترقت خوذتها سطح الماء، وملأ ضوء النهار عينيها. كانت الرافعة أمامها، مما يعني أنها كانت تنظر بعيداً عن البارجة. بتحريكها ذراعيها تحت الماء، أدارت نفسها ورأت البارجة على بُعد ستة أمتار فقط عنها. لا يمكنها السباحة بالبذلة، لكن بتحريكها رجلَيها كما لو أنها تركب دراجة هوائية، كانت قادرة على دفع نفسها إلى الأمام ببطء. كان

تحريك الحذاء مُرهقاً؛ وراح العرق ينساب على صدورها، وملأ الضباب لوح خوذة رأسها. عرَفت أن عليها أن تتوقف مؤقتاً وتنفِّس ثاني أكسيد الكربون، لكنها بذلت آخر طاقتها لسدّ الفجوة بينها وبين السُلَّم. أخيراً، أمسكت قضيباً بكل قفاز وتركت نفسها تغوص مرة أخرى، مُريحةً حذاءها المعدني على أدنى درجة ومحاولةً التقاط أنفاسها.

بينما كانت تلهث في خوذتها الحارة كثيراً، أدركت آنا ثمن ابتكارها: لقد خارت كل قواها. حاوَلت تسلّق السُلَّم، لكن حالما خرقت خوذتها سطح الماء، اضطرت إلى التوقف مؤقتاً مرة أخرى، تحسّباً لوزن عشرة سنتيمترات من الماء على عمودها الفقري وكتفيها. أخيراً، جمّعت كل قوتها لتصعد درجة أخرى. تمكّنت من صعود ثلاث درجات أخرى، فأصبح الماء عند خصرها، لكنها لم تعد قادرة على الصعود أكثر.

فُتحت خوذة رأسها، وراح باسكومب يحدِّق بها من فوق على السُلَّم. كان وجهه متجهّماً مثلما كانت تتوقع. "قرفصي ودعي الماء يخرج من البذلة"، أخبرها. "هذا سيخفّف وزنها".

استنشقت آنا الهواء المنعش البارد عبر فتحة خوذة رأسها. "أحتاج إلى... العودة إلى أسفل"، قالت لاهثةً.

"لا تقولي لي هذا. قرفصي".

قرفصت آنا وشعَرت بالماء يُدفَع إلى خارج البذلة. لكن القبعة والياقة كانت لا تزالان ثقيلتين جداً.

"اخطي خطوة"، قال باسكومب وهو يتراجع ليُفسح لها المجال. تمكّنت من وضع رِجلها اليسرى على الدرجة التالية، لكن عندما حاوَلت رفع باقي جسمها إلى السنتيمترات العشرة التالية، انثنت ركبتها وكادت تسقط إلى الوراء. أمسك باسكومب بساعدَيها وثبّتهما بقوة بقضبان السُلَّم. كلاهما استوعبا ما كاد يحصل: السقوط في الماء مع خوذة الرأس مفتوحة كان سيعني غوصها إلى القعر مباشرة.

"هل تريدينني أن أسحبك بمساعدة مارل؟"، قال باسكومب. "حسناً، سنسحبك. وسيقول أولئك المغفلون، *يا إلهي. أعيدوها إلى أحضان أمها*. تباً لذلك". وراح يحدِّق في عينيها مباشرة. كانت عيناه زرقاوين جداً، وصلبتين مثل الكوارتز. شعَرت آنا كما لو أنها لم ترهما من قبل أبداً. "جِدي القوة يا كيريغان"، قال لها. "جِدي. القوة".

رأت أنه كان يائساً. "لن يُحسَب هذا عليك"، قالت بشقّ النفس، "إذا لم أستطع".

أحدَثَ صوت ازدراء. "لن يلمسني"، قال. "نيومان انفجَر، سافينو دقّ مسماراً في رِجل بذلته مُحدثاً فجوةً فيها، أخشاب فانتانو تعوم في النهر. موريسي في طريقه إلى الصعود، لكنني أشكّ أنه صنعَ الصندوق. في هذا المعدل، مارل وأنا الوحيدان اللذان سينجحان".

"لقد صنعتُ الصندوق"، قالت آنا لاهثةً.

لمعت المفاجأة في عينيه. "حسناً إذاً"، قال. "اصعدي هذا السُلَّم اللعين ونالي الاحترام الذي تستحقينه. ارفعي رِجلك! جيد. الآن الأخرى. إلى الأعلى. إلى الأعلى". كان لا يزال يثبّت معصميها بالسُلَّم، منحنياً نحوها نزولاً مثل وطواط. "سأراك على اليابسة"، قال، وأغلق خوذة رأسها.

أثّرت غطرسته على آنا مثل أملاح النشادر. أو ربما كان ذلك بسبب استراحتها القصيرة. أو تنفّسها الهواء المنعش. مهما يكن السبب، تسلّقت السُلَّم. خطوة تلو الأخرى. كانت أقوى مما ظنّت.

بعد عودتها إلى البارجة، قادها مارل نحو مقعد الغطس، وغرقت فيه. عندما فتَح مارل خوذة رأسها، رأت الملازم أكسل يحمل صندوقين مكتملين. صمتَ الجميع ترقباً لسماع ما سيقوله، وكان آنا وموريسي لا يزالان يرتديان خوذتيهما.

"لقد نلنا نصيبنا من المِحن هذا الصباح"، قال الملازم للمجموعة بخجل. "لكن يسرّني أن أقول لكم إن لدينا هنا فتَيين غطّاسين أصيلين".

"أحدهما كيريغان، سيدي"، صرَخ مارل ملء صوته.

حتى وهي مرهقة، عرَفت آنا أنها لن تنسى نظرة الارتباك المروَّع على وجه الملازم الطفولي. راح يحدِّق بمقاعد الغطس وهو يهزّ رأسه.

"لا"، قال. "لا، لا". ثم، "أي واحدة؟".

الفصل 16

بكلمات جارحة، طرد الملازم أكسل الرجال الثلاثة الذين فشلوا في غطستهم في خليج والأباوت من البرنامج. لكنهم بقوا على متن البارجة بما أنه لم يكن هناك أي مكان ليذهبوا إليه فوراً (كانت البارجة محاطة بالماء من كل الجهات)، وبما أنه كانت لا تزال هناك حاجة إلى خدماتهم - كمموِّنين وكمشغّلين للحدّافة على ضاغطات الهواء - وبقي الملازم يرمقهم بحذر طوال اليوم. كان عدد الغطّاسين الباقين لديه أقل مما يحتاج إليه. من بين أمنيتيه المتناقضتين - أن ينشئ برنامج غطس قوي ويطرد كل غطّاس منه - حقّقت الثانية بعض التقدّم.

عندما غطَس الباقون جميعاً بنجاح، قدَّم الملازم على مضض فرصة لنيومان وسافينو وفانتانو ليعوّضوا عن فشلهم. هذه المرة تمكّن ثلاثتهم من تجميع صناديقهم والعودة بالغنيمة إلى البارجة. عمّ الاحتفال المجموعة أثناء عودتهم إلى الرصيف البحري للشارع الغربي. وزادهم قوة بينما راحوا يُنزلون بذلات الغطس الرطبة الثقيلة وضاغطات الهواء ويعيدونها إلى المبنى 569.

"قمنا بعمل جيد بالتخلّص من التفاح الفاسد باكراً"، قال الملازم أكسل للمجموعة بنبرة موافقة خافتة. "ما بقي لدينا الآن هم أقوى الرجال، أبرع الرجال، للغطس. سيضمُر بعضكم"، قال وبعض الإثارة في صوته. "الحوادث والإصابات أمر محتوم. لكن في الوقت الحاضر، مبروك يا رجال".

كانت عيناه ترمقان آنا كلما استخدَم كلمة "رجال"، كما لو أنه يستحضر اختفاءها. فبالنسبة له، كانت من المخلّفات المزعجة لتجربة فاشلة - وكانت آنا تعرف ذلك. حتى إن المبنى 569 لم يكن يضم حمّاماً للسيدات. لذا عندما كانت تريد استخدام المرحاض، كان كاتز أو غْرير يضطر إلى إخلاء حمّام الرجال ويقف لها حارساً في الخارج.

وكانت مُرتعِبة من وصول عادتها الشهرية. في ورشتها القديمة، اشتكت المتزوّجات من تفحّص الحارس البحري فوطهنّ الصحية في حقائبهن عند بوابة ساندز ستريت. كانت ستحبّ أن تراهنّ يتفاعلن مع هذا التدبير!

كانت خزانة المكانس هي غرفة ملابسها المؤقتة. وبينما كانت تعاود ارتداء ملابسها العادية، سمعت بالصدفة الغطّاسين الذكور يهرِّجون في غرفة ملابسهم في آخر القاعة. كانوا يتفقون على اللقاء في أحد المقاصف. كانت ليل السبت؛ والغد يوم راحة. بقيت آنا مختبئة بينما مرّوا بجانب خزانتها على دفعات صاخبة في طريقهم للخروج.

عندما عاد الهدوء إلى المبنى، اختلَست النظر من الخزانة ورأت مارل يسير لوحده نحو المخرَج. لا شك أنه كان مثلها ينتظر مغادرة الآخرين. شعرت آنا بحافز لتنضم إليه. كانت على وشك أن تخرج من خزانتها عندما سمِعت باسكومب يناديه من الخارج: "مارل، هل لا تزال هنا؟".

"لا أزال هنا"، ردَّ عليه مارل، مُبطئاً خطواته.

"سيمشي الشباب الآن. سأنتظرك".

تردَّد مارل، ملقياً نظرة سريعة على ساعة معصمه. شعرت آنا بإحساس غريب كما لو أنها داخل ذهنه - شعرت بتردّده، بخجله من ارتباك الانضمام إليهم لكن بتلهّفه لكي يُضَمّ إلى الشلّة. الاعتذار الآن، وباسكومب ينتظر، سيجعله يبدو فظّاً؛ وقد لا يُدعى مرة أخرى. "حسناً"، قال مارل، وسار نحو الباب بخطوات هادفة.

سمِعت آنا دعساتهم على طوب الرصيف البحري بينما خفتت أصواتهم في الضجيج الباهت لأعمال التشييد وزحمة الزوارق. ساد الصمت حولها، ممهِّداً للتراماواي، والطبق المُغطى، والشقة الفارغة. هذا المشهد صدمها. فقد بقيت طوال اليوم تخدم غطّاسين آخرين ويخدمونها بالمقابل بطريقة أعادت لها ذكريات الطفولة: التدافع مع أولاد آخرين، والشعور بأنفاسهم وأيديهم اللزجة، والرائحة السميكة لفروات رؤوسهم. بعد أن ذاقت طعم هذا القُرب الكثير، لا يمكنها أن تتحمَّل العودة إلى وحدتها.

أسرعَت إلى مبنى التفحّص للبحث عن روز، وهي عازمة على دعوتها إلى العشاء. إذا اعترَضت روز - مثلما ستفعل على الأرجح، بوجود مَلْفين الصغير في المنزل - فإنها ستدعو آنا على الأقل. لكن موعد تغيير نوبة العمل فاتها، وعندما وَصَلت إلى الطابق

الثاني، وجَدت روز والمتزوِّجات الأخريات قد غادرن، وفتيات غريبات مكانهن.

كان باب المُشرف مفتوحاً جزئياً. قرعته آنا، غير أكيدة ما إذا كانت ستجد السيد ڤوسّ أو واثب الليل.

"ادخل".

"سيد ڤوسّ!"، صاحت.

كان مرتدياً معطفه ويحمل قبعة بيده. "آنسة كيريغان"، قال مبتسماً. "يا لها من مفاجأة جميلة".

"كنتَ – لقد أتيتُ –"، تلعثمت محاولةً تعليل وجودها. "لقد غطَستُ في خليج والأباوت هذا الصباح".

"في البذلة الضخمة؟".

"تسعون كيلوغراماً".

"مدهش. هل سُرَّ الملازم؟".

"على الإطلاق"، قالت. "كان يأمل أن أفشل، وكان من دواعي سروري أن أُخيّب له أمله". لم يكن الصوت صوتها كلياً – بل عودة إلى الإيقاع المازِح الذي كانت والسيد ڤوسّ يعتمدانه سابقاً.

"هذا يدعو إلى الاحتفال"، قال. "هل يمكنني أن أدعوك إلى العشاء؟".

"سأحتاج إلى أن أستحمّ". كانت تزخر بعرق جفَّ على جسمها. وكان السيد ڤوسّ يرتدي بذلة رمادية أنيقة.

"لماذا لا آخذك إلى المنزل وانتظر في الخارج بينما تجهّزين نفسك".

الآن وبعدما لم يعد المُشرف عليها، لم ترَ آنا أي ضرر في أن يراها الآخرون مع السيد ڤوسّ؛ وكانت مجلة *عمّال السُفن* تنشر روتينياً مقالات صغيرة عن أعراس أزواج يعملون في الساحة. سارت بجانبه في ساندز ستريت، قادرةً أخيراً على إرضاء فضولها بشأن متاجره المتماثلة وقاعات وشومه ونوافذه المليئة بالغبار ذات اللافتات الصغيرة التي تُعلن عن وجود "غرف". لكن وحدتها نظرت إليها شزراً من خلف تلك الزحمة مثل كلب ضخم في نافذة. في الترامواي، أبقت عينيها على السيد ڤوسّ وتجنَّبت النظر إلى الظلمة.

في شقتها، فتحت الصنبور لتملأ المغطس بالماء الساخن. كانت نَلْ قد أخبرتها عن مراكز تسوّق تستطيع الفتاة زيارتها بعد العمل لكي تستحمّ وتجهِّز نفسها قبل المواعدة. فكرة التحوّل هذه أعجبت آنا. فقد سئمت من نفسها. راحت تبحث بين الأثواب التي تركتها أمها وعثرت على فستان عاري الكتفين من الساتان الأخضر البحري. عدَّلت الدرزات قبل حتى أن يمتلئ المغطس. ثم فرَكت نفسها برقائق الصابون في الحمّام الساخن وحلقت إبطَيها. بعد أن جفَّفت نفسها، رشَّت بودرة على صدرها وعنقها، ووضعت أحمر شفاه على شفتيها، وحمَّرت خدّيها بمستحضرات تجميل أمها. ارتدت عقداً من اللآلئ وقرطين ألماسيين – من الألماس غير الحقيقي، بالطبع، لكنه جميل من بعيد. وجَدت قفازين من الساتان الفضي يصلان إلى مرفقيها. رفعت شعرها عن عنقها، وثبّتته بأفضل ما يمكنها – كان ثقيلاً ولامعاً للدبابيس – ثم أضافت قبعة مستديرة صغيرة لتلائم الفستان. عندما نظَرت إلى مرآة المطبخ، أضحكتها الفتاة الفاتنة التي تحدِّق بها. تنكُّر! لماذا لم تفكّر في هذا من قبل؟ تبادَلت غمزةً مع شريكتها الجديدة في الجريمة.

كان السيد ڤوسّ يتكئ على جدار في المدخل القارس، يقرأ صحيفة المساء. "آنسة كيريغان"، قال عندما وَصَلت إلى أسفل الدرجات في معطف أمها المطرَّز. "أنا مذهول".

"ولماذا سيد ڤوسّ؟".

مكتبة

"رجاءً، ناديني تشارلي".

"فقط إذا ناديتني آنا". شعَرت ببعض القلق؛ هل كانت أكيدة من أنه لا يهتم بها بهذه الطريقة؟

"كنتُ أنوي أن آخذك إلى مطعم مايكل، في فلاتبوش"، قال. "أما الآن فلا أعتقد أن شيئاً أقل من سيارة أجرة إلى مانهاتن سيفي بالغرض".

"لا أعرف ما إذا كان عليَّ أن أشعر بالإطراء أو بالإهانة". قالت بأحد أصوات الأفلام السينمائية التي كانت تحبّ استخدامها مع ليليان وستيلا.

لوَّحا لسيارة أجرة على الجادة الرابعة وسرعان ما كانا يجتازان جسر مانهاتن. كان النهر الشرقي فراغاً من الأزرق والأسود، وومضات الضوء الخفيف تقترح كثافة الزوارق. أخذت آنا نَفَساً عميقاً. من دون الكابح المألوف لوحدتها، شعَرت غير مثبّتة بأي قيود، كما لو أنها قد تسقط عن الجسر إلى النهر الداكن.

"أخبرني شيئاً يا تشارلي"، قالت. "هل هناك امرأة في المنزل الآن تتساءل أين يمكن أن تكون؟".

استدار إليها بنظرات جدّية. "لا توجد امرأة تنتظرني"، قال. "صدّقيني".

"الفتيات في المكتب...".

"آه، يحببن الثرثرة".

"هل يمكن أن يؤذيك ما قلنه؟".

"فقط إذا كان صحيحاً".

كانت محقة؛ كانا مجرد أصدقاء. "ولا حتى أولاد؟"، سألت. "ينتظرونك في المنزل؟".

"أنا، حتى الآن، بلا أولاد".

"شخص وسيم مثلك يا تشارلي"، قالت موبِّخةً، وقد عادت إلى نبرة المزاح. "كيف يُعقَل ذلك؟".

"أظن أنه حظ سيئ. قبل هذه الليلة. ابتسم لي الحظ أخيراً".

"لقد استخدمتَ هذه الجملة مئة مرة. وقد أخذتَها من كعكة حظ".

"سبعون أو ثمانون مرة بالحد الأقصى".

كانا يضحكان معاً، ويستمتعان بكل إجابة سريعة ذكية يقولانها. لطالما أرادت آنا أن تغازل؛ وفجأة أصبح ذلك سهلاً عليها.

في مطعم تشاندلر، عند شرق الشارع السادس والأربعين، أكَلا شرائح لحم همبرغر مع بصل مطهو وبطاطا مقلية، ثم شرحات من فطيرة تفاح. وشربِا الشراب ذا الفقاقيع. كان لدى تشارلي فوسّ طريقة لطرح الأسئلة أبقت المحادثة بأمان في العالم الذي تمنّت آنا أن تقطنه: اختبار غطسها، غرابة أطوار الملازم أكسل، تقدّم الروس ضد الألمان في أوكرانيا. حلّت العتمة على هذه البقعة المضاءة جيداً دون أن ينتبها. شَعَرَت آنا بوجود عتمة مماثلة في تشارلي فوسّ. وشعَرت في بعض اللحظات أنها على وشك فهمها – فبعض الحقيقة فيه كانت معروضة أمام الملء عملياً. لكنها بقيت محتارة فقط.

بعد العشاء، وبينما كانا يسيران نحو الجادة الخامسة، أمسكت آنا بذراعه. كان شعورها مشابهاً لما شعَرت به هذا الصباح تحت الماء – غير راغبة بالعودة إلى السطح. لا

بدّ أن تشارلي ڤوسّ شعَر هكذا أيضاً، لأنه قال، "دعينا لا نُنهي هذه الليلة باكراً. هل لديك نادٍ ليلي مفضَّل؟".

"لم أذهب إلا إلى نادٍ ليلي واحدٍ"، قالت.

* * *

كان بوّاب مُونشاين الذي يرتدي قبعة عالية سوداء رسمية يختار الداخلين على ذوقه من الجمهور المحتشِد خارج الباب المطلي بالورنيش. خطر على بال آنا أنه يمكنها القول له، مع بعض الحقيقة، إنها تعرِف دكستر ستايلز، لكن تبيَّن لها أن ذلك ليس ضرورياً. فقد أدخلهما البوّاب، وكانَ انطباعها الأول أن شيئاً لم يتغيَّر في المكان - أن هذه الليلة استمراريةٌ لليلة السابقة. على حلبة الرقص المتألقة والمصمصة على شكل رُقعة داما، بحثت عن الطاولة التي جلست عليها مع نَلْ. كان هناك غرباء يجلسون هناك الآن، ولم يكن دكستر ستايلز على مرأى في أي مكان. بعد خيبة أمل أولية، شعرت آنا بالراحة من عدم العثور عليه. بإمكان اليوم مع ليديا على شاطئ مانهاتن أن يبقى بأمان.

قادهما نادل إلى طاولة عند الحافة الخارجية للغرفة، وطلب تشارلي الشراب ذا الفقاقيع. بدت أبواق الأوركسترا وأوتارها المُنذِرة بالسوء كأنها عاصفة رعدية أو جيش يقترب منهما. أصمتت مغنيةٌ تبدو سفيهة القاعة للحظات بصوتها الزلزالي. وأسرع آنا وتشارلي إلى حلبة الرقص مع عشرات الأزواج الآخرين. كانت آنا متوترة من تذكّرها كم رقَصت بشكل سيئ مع ماركو في أكتوبر الفائت، لكن تشارلي ڤوسّ سهَّل عليها الأمر. "الحمد لله أنك راقص بارع"، قالت.

"الفضل لك".

"هَه! كذّاب بارع أيضاً". كانت تشعر بدُوار من الشراب ذي الفقاقيع ومن متعة احتضان شخص آخر. وكانت هناك تيارات من الهواء الدافئ تدغدغ عظام ترقوتها.

"آنا؟ هل هذه أنت حقاً؟".

استدارت ورأت نَلْ، في فستان من الشيفون الخوخيّ بلا حمّالات للكتفين، ترقص مع رجل عجوز في بذلة سهرة. تركت آنا تشارلي ورمت ذراعيها حول صديقتها. "لا

أستطيع تصديق ذلك"، صاحت. "لقد بَحَثتُ عنك في كل مكان".

"بالكاد عرفتُك"، قالت نَلْ. "ماذا حصل؟ أنت فاتنة!".

بدت نَلْ خلاّبة، كالعادة، ومتأثرة قليلاً. كانت لفائف شعرها بلون جديد ضارب إلى الحُمرة وبشرتها بيضاء بشكل لا يُصدَّق، كما لو أنها لم تخرج إلى الهواء الطلق أبداً. "أنا أكيدة أنكما جالسان في سيبيريا؛ لدينا مكان على طاولتنا"، قالت. "هذا هاموند، خطيبي".

ابتسم هاموند ابتسامة فاترة، ومنخراه المعقوفان يلمعان تحت عينين خضراوين خاملتين. افترَضت آنا أنه كان وسيماً. قدَّمت تشارلي ڤوسّ، وشقّ أربعتهم طريقهم بين الأزواج الراقصين بعيداً عن الأوركسترا. "لسنا خاطبين حقاً"، همَست نَلْ. "أنا أقول ذلك فقط لكي أضايقه".

"هل هو... ذلك الشخص ؟".

"نفسه. لقد وَضَعني في أجمل شقة صغيرة على غرامرسي بارك. لديَّ مفتاح إلى المنتزه! يجب أن تأتي لزيارتي. الشقة ذات الرقم الحادي والعشرين. قوليه، لكي أعرف أنك حفظته. واحد. وعشرون".

"واحد وعشرون"، كرَّرت آنا بشكل ببغائي. بدت صديقتها متقلّبة، وربما ثملة. "هل وجدتِ وظيفة أفضل؟".

"ليست لديَّ أي وظيفة أبداً"، قالت نَلْ. "إلا إذا احتسبتِ محاولتي أن أبدو خلاّبة طوال الوقت لكي لا يطردني هاموند".

أجلسوا أنفسهم بين مجموعة تحتلّ عدة طاولات بالقرب من حلبة الرقص. لاحَظت آنا ماركو واحمرّ خدّاها عندما نظرَ في اتجاهها. لكنه كان يراقب نَلْ.

"هل سيطردك حقاً؟"، همَست آنا.

"هاموند حقير"، قالت نَلْ، مما صعق آنا، لأن هاموند نفسه كان على بُعد سنتيمترات عنهما، وذراعه حول كتفَي نَلْ. أشاحت آنا بنظرها كما لو أنها مذنبة بارتكاب عمل طائش. "لماذا إذاً –".

"المال"، قالت نَلْ بشكل ساطع. "إنه ثري جداً، ويدفع ثمن كل شيء. يعيش في

قصر بثماني غرف نوم في راي، نيويورك، مع زوجته وأولاده الأربعة. لن يتركهم أبداً – كنتُ حمقاء لاعتقادي أنه سيفعل ذلك. أليس هذا صحيحاً يا عزيزي"، صاحت لهاموند. "كانت آنا تعمل معي في الساحة البحرية. لا يحبّ هاموند أن يسمع عن هذا الأمر. يعتقد أن الفتيات لا يجب أن يعملن أبداً؛ بل عليهن ابتكار وسائل جديدة لإبهاجه".

قبّلت خدّ هاموند الشاحب، مخلفةً وراءها بعض آثار أحمر شفاهها الفوشيا. كما لو أنه كان يمكنه رؤيتها، مسَح هاموند الآثار بيده، مكرِّراً ذلك عدة مرات. بدا هادئاً بشكل غير طبيعي، كما لو أنه يسير بتثاقل لإخفاء ثمالته. لكنه لم يكن ثملاً؛ كان هناك تحلّل آخر يصدّه هاموند.

"سنذهب إلى حمّام السيدات"، صاحت نَلْ وهي تُمسك يد آنا وتُنهضها إلى قدميها. "أحضري حقيبة يدك يا آنا، يجب علينا نحن الفتيات أن نتبرَّج!".

وجَدت آنا صعوبة في منع نفسها من الضحك، فتصرّف نَلْ كان مبالَغاً فيه كثيراً. مَن كان الجمهور؟ ليس تشارلي ڤوسّ، الذي تبادلت معه آنا نظرة ساخرة على الطاولة من قبل. لم يبقَ سوى هاموند. لكن هاموند، المشلول في مكان ما بين الغضب والذعر، كان مشغول البال جداً لكي يتساءل عن سبب تصنُّع حبيبته.

"لن نذهب إلى حمّام السيدات أبداً"، قالت نَلْ حالما ابتعدتا عن الطاولة. "الجميع يتنصّتون هناك، والفتيات كالأفاعي. الكثير منهن يرغبن اصطياد هاموند".

توقفتا عند دوّامة بجانب عمود. وكان بعض الرعب قد بدأ يصيب بصر صديقة آنا. "هل أنت سعيدة؟"، سألت. "في الشقة؟".

"تقريباً"، قالت نَلْ. "هاموند يجهد كثيراً ليزورني قدر الإمكان". وابتسمت لها ابتسامة سر. "هناك شخص آخر يزورني".

"ماركو؟".

مذعورةً، أمسكت نَلْ كتفَي آنا بيديها الساخنتين المرتعشتين. "إذا أخبرك هذا شخصٌ ما، يجب أن أعرف مَن بالتحديد"، قالت.

بلَعت آنا ريقها، مرعوبة من عدم تماسك نَلْ. "كان مجرد تكهّن"، قالت. "فقد جلَس ماركو معنا من قبل، ألا تتذكَّرين؟ عندما أتينا إلى هنا أكتوبر الفائت؟".

نظرت إليها نَلْ نظرة طويلة، ثم أفلتتها. "آسفة. شعرتُ ببعض... لا أعرف ماذا".

"أنت خائفة من أن يعرف هاموند؟".

"أجل. رغم أنني لا يجب أن أكون خائفة. فإذا طردني، سأتصل بزوجته وأخبرها كل شيء. ثم سيُطرَد هو أيضاً. لكن السؤال هو ماذا سيفعل هاموند عندها؟ ستكون مثيرةً للاهتمام معرفة ذلك".

"لا يبدو أنك تحبين هاموند كثيراً".

"أكرهه. وهو يكرهني أيضاً. الوضع يشبه زواجاً مريعاً، ما عدا أنه من دون أولاد – حسناً، ربما كان ليكون عندنا طفل، لكننا لن نفعل".

حدَّقت آنا في وجه نَلْ العذب وتعجَّبت من وصول الأمور إلى هذا الحد. "آسفة"، قالت.

"لستُ نادمة. لم أرد إنجاب إبن شخص حقير – لن أتمكن من أن أحبه أبداً. وسأكون قد خسرت قوامي بلا طائل".

"آه يا نَلْ"، قالت آنا. كان الرعب عليها، إحساسٌ بشيء يُنذِر بسوء لصديقتها. فجأت أصبحت الحكايات الحزينة التي كانت قد سمعتها طوال حياتها – أوليف توماس، ليليان لوراين – حقيقية لأول مرة. كانت تلك الفتيات المشؤومات مجرد فتيات في البدء، مثل نَلْ. "لماذا لا تتخلّين عن كل شيء – الشقة، هاموند، ماركو؟ وتعودين إلى الساحة البحرية! أنا غطّاسة الآن. ربما يمكنك أن تغطسي أنت أيضاً. في البذلة الكبيرة، أتذكُرين؟ لقد رأيناهم يتدرَّبون على البارجة؟".

انفجرت نَلْ ضاحكةً، لكن آنا أصرّت، حتى وهي تعرف أنها بدت ساذجة. "ماذا بشأن الحرب يا نَلْ؟ هل فكَّرتِ بها؟".

"حربي مع هاموند أو الحرب العُظمى؟".

ضحِكت آنا رغماً عنها.

"ماذا يمكنني أن أفعل؟ لن يدعني هاموند أعمل؛ قال إنه يستطيع أن يشمّ رائحة الساحة عليَّ حتى عندما أستحمّ مرتين وأرشّ العطر على نفسي من رأسي إلى أخمص قدميَّ".

ابتسمت آنا ابتسامة عجز لصديقتها. وعانَقتها نَلْ فجأة، وقد ساهم كتفاهما وذراعاهما العاريان في جعل العناق مُجفِلاً، حميماً. التقَطت آنا الرائحة المالحة الحادة المميّزة لإبطَي نَلْ والتدفق الحيواني لأضلاعها. "أنت مختلفة"، همست نَلْ في أذنيها. "هذا لطيف جداً".

"هذا مضحك. كنتُ لأقول إنك مختلفة".

"هذا يعني أنه يمكننا أن نكون أصدقاء"، قالت نَلْ وهي تبتعد وتحدِّق في عينَي آنا. "أصدقاء حقيقيون، وليس كالثعابين حول هذا المكان. أنت تعملين بجهد وتعودين إلى المنزل منهكة، لكن لديَّ حساسية من هذا النوع من الحياة. تقول أمي إنني أعتبر نفسي أرقى من هذا، لكنه المسألة غير ذلك. أنا أحاول فقط أن أعيش بطريقة مختلفة. حتى ولو بدا ذلك هراءً".

"يبدو... خطيراً".

"أحبّ ألا أعرف ماذا سيجري، ألا أستيقظ في وقت محدَّد، أن أشرب الشراب ذا الفقاقيع عند العاشرة صباحاً إذا أردتُ ذلك. وألا أفكر أن هذه هي النهاية لي - لديَّ خطط كبيرة، لا تُخطئي".

لاحَظت آنا نزعة التسرُّع لدى صديقتها. أرادت أن تسألها، *أي خطط؟* لكنها كانت قلقة بشأن العودة إلى تشارلي فوسّ.

"الآن وقد أوضحنا كل شيء، يمكننا زيارة حمّام السيدات"، ختمت نَلْ الحديث مُشبكةً أصابعها بأصابع آنا وسحبتها وراءها عبر الحَشد.

كانت المرآة الطويلة في حمّام السيدات مزدحمة بوجوه فتيات يقيّمن مظهرهن بابتهاج مندهش كما لو أنهن لم يتوقعن أبداً أنهن سيجدن أنفسهن في مكان مماثل. تبادلت نَلْ تحيات متلهّفة مع عدد منهن. وغمزت آنا صديقتها ولوّحت لها بيدها وتسلّلت إلى الخارج.

قبل أن تصل إلى طاولتها، استوقفها نادل مسنّ. "آنسة فيني؟".

بدا أن الإسم، المألوف وغير المألوف، وصل إلى مسمعها عبر فُسحة متعرّجة. "نعم..."، قالت أخيراً.

"يودّ السيد ستايلز رؤيتك في مكتبه".

"آه، لكنني لا أستطيع الآن. أحتاج إلى -".

لكن النادل كان قد استدار من قبل، متوقعاً منها أن تتبعه. رأت تشارلي فوسّ عبر الغرفة وحاوَلت أن تلوِّح له بيدها لكنها لم تتمكن من أن تجعله يراها. شعَرت آنا بحتمية المسألة. بالطبع كان السيد ستايلز هنا. بالطبع ستراه. فقد أخذت هذا الخيار بمجرد مرورها عبر الباب المطلي بالورنيش.

تبَعت النادل إلى القرقعة المضطربة للمطبخ، ثم صعوداً على سلالم ضيقة وبالية، وعبر باب آخر إلى رواق هادئ. بدا هذا المكان كأنه تابع لمؤسسة مختلفة: سجادة ناعمة سميكة، لوحات زيتية مُضاءة بمصابيح صغيرة موصولة بأطرها. سمِعت آنا ضحكاً مكتوماً من خلف الأبواب المُغلقة. كان الهواء نتِناً برائحة سيجار وغليون.

قرَع مرافِقها الباب الموجود في نهاية هذه الردهة وفتحه. دخلت آنا إلى غرفة مكسوة بألواح خشبية ووجدت السيد ستايلز يستريح خلف مكتب يبدو باهظ الثمن. "آنسة فيني"، قال بصوت متكلِّف وهو ينهض إلى قدميه. "رائع منك أن تزورينا".

شعَرت آنا بأنها متَّهمة، كما لو أنه قُبض عليها وهي تحاول تجنّبه. "لقد بحَثتُ عنك"، قالت. "اعتقَدتُ أنك لست هنا".

"لكنني دائماً هنا"، قال. "وإلا سينهار كل شيء في هذا المكان. أليس هذا صحيحاً يا شباب؟".

كان هناك أربعة شباب بوجوه غير ودودة يسترخون في الغرفة كما لو أنهم مزاريب منحوتة. تمتموا موافقتهم، عارفين على ما يبدو الطبيعة البلاغية لدورهم التحادثيّ.

"في تلك الحالة"، قالت آنا، "أظن أننا محظوظون أنك بقيت".

بقيت قناة المزاح مفتوحة لديها؛ فوجهّت حديثها نحوها وراحت تستمتع بكل ما يخرج منها.

راح السيد ستايلز يراقبها بنظرات جدّية لا تمتّ بأي صلة لنبرته المرِحة. "يا شباب"، قال، "رحّبوا بالآنسة فيني الفاتنة بشكل استثنائي".

تمتموا هتافات ترحيب. كان دليلها قد غادر، مُغلقاً الباب خلفه. راحت آنا تراقب

رجل العصابات الوسيم في بذلته الجميلة وشَعَرت أن يومهما مع ليديا على شاطئ مانهاتن يتلاشى مثل حبّة أسبرين في كوب ماء. أرادت أن تنسحب، أن تترك الذكرى سليمة، لكن قوة الاستدعاء والصرف بدت بين يدي السيد ستايلز كلياً. شعرت بالغضب فجأة.

"انصرفوا يا شباب"، قال وهم يرتدون قبعاتهم. "سأرافق الآنسة فيني إلى الخارج".

عندما غادروا، وَقَف وراء مكتبه، وألقى نظرة سريعة على صفحة أو صفحتين موضوعة أمامه. ثم عاد إلى آنا وتكلَّم بصوت مختلف كلياً. "تسرّني رؤيتك. كيف حال أختك؟".

جمدت في أرضها، وراحت تحدِّق في يديها الفارغتين. ثم أجابته بأهدأ صوت ممكن، "هذه قصة ليوم آخر. أحتاج إلى العودة إلى موعدي".

"تباً لموعدك". كان يبتسم.

"قد لا يشعر هكذا".

"لا شكّ".

ملأ طنينٌ رأس آنا. كانت غاضبة من دكستر ستايلز ويمكنها أن تشعر بغضبه هو أيضاً. لم تكن لديها أي فكرة عن السبب.

"سأوصلك إلى المنزل"، قال.

"شكراً، لكنني لا أنوي أن أغادر الآن، ولا أحتاج إلى مَن يوصلني. بالإضافة إلى ذلك"، أضافت بسخرية، "ألن ينهار كل شيء في هذا المكان؟".

"هذا حافز إضافي!"، قال ضاحكاً.

دفَعته لتخرج من الباب إلى الرواق المكسو بالسجاد. فقال دون أن يبذل أي مجهود ليتبعها أو حتى ليرفع صوته، "سيارتي في الخارج. سيلاقيك أحدهم في غرفة تعليق المعاطف".

ادّعت عدم السماع. لكن بينما كانت تسلك طريقها عائدة إلى القاعة، وجَدت نفسها تخطِّط عذرها لتشارلي فوسّ. هذا الاكتشاف زاد من حنقها. مَن يظن نفسه السيد ستايلز؟

شقّت طريقها بارتباك عبر أروقةٍ ودرجاتٍ واندفعت إلى غرفة الطعام عبر باب

مختلف عن الذي كانت قد دخلت عبره. كان هاموند يجلس لوحده إلى طاولتهم، ويحدِّق في حلبة الرقص بنظرات حنق شاحب. تتبَّعت نظراته ورأت نَلْ ترقص ملتصقة بماركو.

شعرت بالراحة عند رؤيتها تشارلي ڤوسّ جالساً على بُعد عدة طاولات مع عدة رجال بدا أنه يعرفهم. "لقد قابلتُ صديقاً قديماً لأمي بالصدفة"، أخبرته. "يرفض سهري في الخارج ويصرّ على إيصالي المنزل. آمل ألا تمانع".

إذا كان تشارلي قد تفاجأ، وحتى انزعج، فإنه تمكَّن من إخفاء كل أثر لذلك في صوته. "طالما أن تعديني أنك ستكونين في أيدي أمينة".

"شكراً يا تشارلي لهذه الأمسية الرائعة. دعنا نكرّرها مرة أخرى".

"سأعدّ الساعات".

كان هناك طابور انتظار في غرفة تعليق المعاطف والقبعات، لكنها وجدت النادل المسنّ الذي كان قد قادها إلى مكتب السيد ستايلز ينتظرها. أخذ إيصال آنا وأحضر لها معطفها وقبعتها بعد بضع لحظات. خرجا من النادي عبر مخرَج قادهما إلى مكان في آخر الشارع يبعُد مسافة بضعة أبواب عن المدخل المطلي بالورنيش. كانت كاديلاك السيد ستايلز تنتظر هناك بتكتّم.

بينما كان النادل يفتح لها الباب الأمامي، اقترب رجل من نافذة السائق. فأنزل السيد ستايلز الزجاج. "مرحبا يا جورج"، قال وهو يصافحه عبر النافذة بينما جلست آنا على المقعد الأمامي بجانبه.

"مغادر باكراً؟"، سأله جورج.

"فقط لإيصال الآنسة فيني إلى منزلها. آنسة فيني، هذا الدكتور بورتر، شقيق زوجتي. الآنسة فيني تعمل لديَّ".

راح الطبيب يحدِّق في آنا داخل السيارة الداكنة. لمحت نظرات مرِحة فوق وميض شاربه. زير نساء.

"اطلب زجاجة على حساب المحل"، قال له السيد ستايلز. "سأبحث عنك بعد قليل. وإذا لم أجدك، سأراك في ساتون بلايس غداً".

رفع زجاج نافذته وانطلَق. بينما كانت السيارة الكبيرة تندفع نحو أعلى المدينة،

وأضواؤها الأمامية تغشي الهواء الجليدي، قال، "أخبريني ماذا حصل".

شرَحت له آنا ما حصل بعد يومهم على شاطئ مانهاتن. كانت هذه أول مرة تروي فيها القصة، وقد روتها بعناية. أعادتها رائحة جلد السيارة إلى ذلك اليوم بالذات: احتضانها وزن ليديا الدافئ، ونبضات قلبها الصادرة من مكان عميق داخلها. كانت مكروبةً من فقدانها، كما لو أن أختها نُزعَت من ذراعيها للتو. تذكَّرت هدير الحياة تحت بشرة ليديا حتى في سكونها، وشعرت بتوق إلى تلك الحياة بطريقة تركتها ضعيفة.

عندما انتهت، قال السيد ستايلز بصوت صارم، "يؤسفني سماع هذا".

وصلا إلى أعلى المدينة ثم بدأا ينزلان. مرّا بجانب المكتبة العامة على الجادة الخامسة، حيث سارت آنا بعد رؤيتها أمها في محطة بنسلفانيا. كان هنا أول مكان أحسّت فيه بالظلمة الجاذبة وشَعَرت بخطرها. وهي لا تزال تصدّ ذلك الخطر منذ ذلك الحين. *نوع مختلف من الفتيات*. كيف عرفتِ نوع الفتاة التي أنت عليه، بما أنه لا يوجد أحد حولك؟ ربما *تلك الأنواع من الفتيات* كانت مجرد فتيات لا يوجد أحدٌ ليُخبرهن أنهن *لسنَ* من ذلك النوع من الفتيات.

كان الليل سائداً في كل مكان وحالك السواد؛ ملأ السيارة وأحاط آنا. لكن رعبها من الظلمة كان قد تلاشى. من دون أن تعرف متى أو كيف، كانت قد حرَّرت نفسها منه – اختفت عبر شقٍّ في الليل. لا أحد على الإطلاق يعرف أين سيجدها. ولا حتى دكستر ستايلز.

بقي ينظر أمامه مباشرة بينما كان يقود السيارة، لكن آنا شَعَرَت بتململه المحموم على المقعد. وراحت عظام حنجرته تتحرّك مثل مفاصل الأصابع عندما يبلَع ريقه. لا شكّ أنه شَعَر بعينيها عليه، لكنه انتظَر وقتاً طويلاً قبل أن ينظر إليها. بدأ فهمٌ جديدٌ بينهما.

"تبدين مختلفة"، قال بلطف. "بالأخضر".

"لهذا السبب ارتديتُه"، قالت.

الفصل 17

فتح دكستر نافذة السيارة قليلاً وترك رياح الشتاء تلفح وجهه. كان هناك شخصٌ ذكيٌ يجلس بجانبه، فتاةٌ لم تكن ساذجة، فتاةٌ ستفهم أي شيء يعطيها إياه لتفهمه، فتاةٌ أَسَرته بسماتها الجسدية وصلابتها الذهنية، لكن الميزة الثانية هي السبب الفعلي حقاً، لأن السمات الجسدية تحيط به يومياً ولا تحثّ شعوراً عميقاً فيه. ومع ذلك كانت هناك مشكلة مع الفتاة الجالسة في السيارة - هذه الفتاة الذكية العصرية التي تتمتّع بقيم صحيحة، والتي انضمت إلى الجهد الحربي، والتي أنضجتها الأزمنة الصعبة ومأساة عائلية - وتلك المشكلة هي أن كل ما يمكنه أن يفكّر في فعله، بطريقة ملموسة، هو مجامعتها. أما الباقي - الفكرة الغامضة بأنها قد تعمل لديه، بأن صلابتها يمكن أن تكون مفيدة له، بأنها تجربة جيدة على الأرجح (رغم ذراعيها النحيلتين المشدودتين، المرئيتين في الفستان الذي ترتديه هذه الليلة)؛ الإرباك بشأن طريقة تعرّفهما على بعضهما في الأصل (هل قدّمها أحدٌ له؟) - فكان يومض باضطراب على مسافة وسطية، خلف حاجته *بالحصول* عليها. وحتى عندما كانت تلك الحاجة تصعّب عليه قيادة هذه السيارة اللعينة، كان يفكّر أيضاً: هذه هي مشكلة الرجال والنساء، ما يجعل تحقيق التناغم المحترف الذي يتخيَّله صعباً جداً. فالرجال يديرون العالم، ويريدون مجامعة النساء. ويقول الرجال "الفتيات ضعيفات"، في حين أن الفتيات في الواقع يجعلنهم هم الضعفاء. في الوقت نفسه، كان هناك حبل أفكار آخر يتوضَّح: لماذا هذا؟ لماذا الآن؟ لماذا هي؟ لماذا يخاطر بعد أن رآهما جورج بورتر معاً؟ لكن هذه الأسئلة كانت نظرية، وسيناقشها في لحظة مستقبلية ما. في الوقت الحاضر، كان السخط المتفجّر الذي بدأ يتراكم داخله منذ زيارته الأخيرة للسيد كيو منذ أسبوعين وجدَ هدفاً أخيراً. وحبل أفكار آخر: إلى أين يمكنهما أن يذهبا؟ إلى مكان خصوصي، إلى مكان داخل أحد البيوت. الشهوة تجعل أي شخص يلمسها أحمق

– شَعَر دكستر بالغباء يلفّ رأسه بغطاء يشبه قبعة الأغبياء. أين؟ أين؟ أين؟

كان الغريب في الأمر أنه بالكاد فكَّر بالآنسة فيني منذ أن أوصلها إلى شاطئ مانهاتن بعد احتفال الشُكر. بينما الأخت المشلولة لاحقت تفكيره قليلاً، فبقي يتذكّر عينيها البرّاقتين فوق الأوشحة المنتفخة في أوقات غريبة طوال أسبوع تقريباً. أما الأخت الصحية، لا. لكن رؤيتها هذه الليلة في هذا الفستان الأخضر سبَّب له ضيقاً في صدره. فراح يراقبها عبر نافذته السرية وينتظر زوال ذلك الشعور. لكن الشعور اشتدّ أكثر وهو يصيغ رفضه لصُحبتها: تلك الفتاة مدمنة الكوكايين، وحبيبة زوج امرأة أخرى، والرجل الذي يرافقها في هذا الموعد: مثليّ الجنس؛ إنه متأكد من ذلك. خلال مراقبته لها في ذلك الفستان، وجد نفسه يتذكّر تأوهات بيتسي وراء باب الحمّام.

عندما اجتازا جسر بروكلين، أخبرته أنها ستصبح غطّاسة. قالت ذلك بطريقة هادئة – لكي تكسر الصمت، حسبما افترَض، وقد قدَّر لها ذلك. وصدَفَ أن يجد الموضوع والإحساس بالتكلم مع نفس الفتاة في نفس السيارة مثيرَين للاهتمام، لكن مع موضوع مختلف كلياً أمامهما. سألها عن المعدات، وكيف تنفَست تحت الماء، وما إذا كانت قد اصطدمت بأي جثث. لكنهما ربما كانا يقولان أي شيء.

بينما تابَع القيادة على الشَطّ المنحني نحو باي ريدج، عَقَد دكستر أصابعه بأصابعها، التي كانت نحيلة ودافئة. ضغطت إبهامها في لحم راحة يده، وغمره إحساسٌ يشبه البرق، كما لو أن يدها كانت داخل سرواله. راح الهواء في السيارة يرنّ ويهتزّ. كان هناك علاج واحد لذلك، وهو أن يستنزفه.

كان عنبر الزوارق القديم خياراً غير محتمل للقاء غرامي، بما أنه كان موقعاً لعدة صفقات تجارية عقدها على مر السنوات، ولم تكن لطيفة كلها. لكن نفس الحسنات أوصت به للأمرين: فقد كان مكاناً منعزلاً ومُقفلاً. ويبعُد حوالي كيلومتر شرق منزله، وقد تُرِك ليستخدمه خفر السواحل لإصلاح الزوارق في زمن الحرب. كان دكستر يتساءل كلما اقترب من هناك عما إذا كان سيجده مُهدَّماً كلياً.

رَكَن السيارة في شارع فارغ، وتنهَّدت السيارة وصمتت تماماً. كان الظلام دامساً. مالَ نحوها وقبَّلها لأول مرة، وقد فرُغ ذهنه كلياً من المذاق الغَضّ لفمها. يبدو أنها آخر فتاة لا تدخِّن في نيويورك. شَعَرَ بالشهية تنبض داخلها مثل قلبٍ ثانٍ، أكبر وأنعم من

قلبها الحقيقي، وحثّه اندفاعه – المراهِق، بالتأكيد – على أن يبدأ هنا بالذات، الآن. لكن ذلك كان خطيراً جداً. فتَح بابه ودارَ حول السيارة وفتح باهما.

"هيا ننظر"، قالت، وأدرَك أنها تقصد البحر، ملاحظاً فجأة كم كان صاخباً. سارا إلى نهاية الطريق المسدود وراحا ينظران إلى موكب شبحي للأمواج، مثل صفوف أشخاص في قبعات بيضاء يُمسكون أيادي بعضهم بينما يغطسون في النسيان. قام دكستر بما كان قد وعد نفسه بأنه لن يقوم به: قبّلها في العراء. لو كانت أكثر حرارة، لكان رغب بأن يُخلعها ملابسها في هذا المكان بالذات، مثلما فعل تحت الممشى الخشبي لكوني آيلند مع أكثر من فتاة أيام شبابه، وأقدام السبّاحين توقِع حبوب رمل فوقهما عبر الفتحات التي بين الألواح الخشبية. لكنه لم يكن على عجلة من أمره. فقد غادرا النادي الليلي قبل الواحدة؛ ولن يحصل الشروق في زمن الحرب قبل الثامنة. هناك وقت كافٍ للقيام بكل ما هو مطلوب القيام به.

كان عنبر الزوارق على مقربة منهما، بجانب رصيف بحري قصير. فتح دكستر القفل بمفتاحه ودفَع الباب اللزج، وشعر فوراً أن المكان تم شغله منذ زيارته الأخيرة قبل أشهر قليلة. أشعل عود ثقاب على حذائه وأضاء فتيل مصباح الإعصار الذي كان عند الباب دائماً. أكّد ضوؤه المتموِّج حدسه: زجاجة شراب اسكتلندي وأعقاب سجائر. بالكاد اكترث لهذا في حالته الراهنة. فعليه أن يُدفئ المكان. ولم تكن هناك كهرباء، بل مجرد موقد صغير يعطي دفئاً كافياً حالما يشتغل بكامل قوته. وضع بعض الأخشاب. كان الإضرام جيداً، لكنه وجَد صحيفة وأشعلها، وأدرَك متأخراً جداً أنه كان عليه فحص تاريخها ليأخذ فكرة عن توقيت قدوم الأشخاص إلى هنا من دون معرفته أو موافقته.

استدار عن الموقد الملتهِب، نصف متوقعٍ أن تكون قد اختفت أثناء انهماكه في تجهيز المكان. لكنها كانت لا تزال هناك، تُخرِج الدبابيس من شعرها الداكن. انسكب وزنها السخي على يديه عندما حضنها. تغاضى عن مزيد من الهموم العملانية: هل عليهما أن يستلقيا على معطفيهما؛ أن يتسلّقا أحد زوارق التجذيف المعلّقة على حاملات على الجدران؟ شبَكَ يديه تحت مؤخرتها ورفعها عن الأرض، وحملها إلى طاولة عند الجدار خلف الموقد، وأجلسها عند حافتها. لم يكن هناك أي ضوء تقريباً. قبّل فمها وعنقها، ثم فتح معطفها وأَخلَعها فستانها وقميصها الداخلي، كاشفاً الجوارب ومشدّاتها.

خلع سرواله وألقى نفسه فوق بطنها العاري، وقِطع الحطب تطقطق في الموقد خلفهما.

"هل تريدين هذا؟"، همَس لها.

"نعم"، قالت، وعندها اندفَع الجزء المغفّل الأعمى من دماغه إلى الأمام مثل كلب صيد في رحلة صيد للثعالب. نزَع سروالها الداخلي ودخلها بهدوء، وكان يسمع لهاثه المرتاح كما لو أنه قادم من الغرفة المجاورة. بعد لحظات، ارتجَف كما لو أنه أُصيب بطلق ناري، وراحت رُكبتاه ترتخيان بينما ضغطها عليه واستنفد نفسه. تنفّسه المتعرّج ملأ الغرفة. وعندما أصبح قادراً على السير، رمى معطفيهما أمام الموقد، حيث بدأ الدفء يتجمَّع، وساعدها على خلع فستانها وقفازيها الطويلين. فَكَّ لها حمّالة صدرها ومشدّ جاربيها وأخلعها إياهما ببطء. بدت يافعة جداً في ضوء النار. استلقت على المعطفين وأغمضت عينيها، ويمكن أن تبدأ الأمور الآن حقاً، من دون أي كلمة. نقَل فمه فوق جسمها إلى أن بدت أنها لا تتنفس. وعندما أبعد لها رجلَيها، كان مذاقها كالبحر، الذي كان يسمع صوته حتى الآن، صخب ارتطام أمواجه خلف الجدران. بلغت ذروتها مثل شخص يتعرَّض لنوبة قلبية، وكان داخلها مرة أخرى قبل أن تنتهي.

ناما بشكل متقطّع، ودكستر يستيقظ بين الحين والآخر ليضيف بعض الخشب إلى الموقد. ثم في ساعة مظلمة، أيقَظته يداها، تلمسانه في الضوء الباهت الضارب إلى الحُمرة بفعالية كبيرة لدرجة أنه شعر أنها لا شكّ موجودة على جهتَي بشرته، تسكنه - وإلا كيف استطاعت أن تعرف بماذا يشعر عند كل حركة تقوم بها؟ كانت عيناها مغمضتين وأغمضَ عينيه، وانجرَف في عذاب عذب بدا أنه دام ساعات. عندما أتاحت له الانتهاء أخيراً، ترَك نفسه كلياً، وعاد إلى رشده فقط لكي ينفجر ضاحكاً: في سنوات حياته الإحدى والأربعين، لم تكن العملية أفضل من هذا أبداً. وفي الوقت نفسه، كان جزءٌ آخر منه يقيس اقتراب الفجر، متلهّفاً لينتهي من هذه المسألة قبل بزوغه. كم سيستغرق الأمر أكثر؟ استلقت فوقه، وكانت ترتجِف مثل وتر القوس لكي يلمسها، وشعَر نفسه مستثاراً مرة أخرى. لن تكون هناك نهاية، فكَّر في سرّه - كل شيء إلا هذا، أبداً مرة أخرى. لكنه كان يعرِف أن عليه عدم تصديق هذا.

"آنا".

اخترق الهمس طبقات النوم الخفيف ونفذ إلى أذنها بحدّة. فتَحت عينيها. كان هناك ضوء باهت يتسرَّب عبر النوافذ المغلقة. ولم يكن الموقد يحتوي سوى على جمراتٍ. شعرت بالبرد وأرادت أن تبوِّل. كان قد غطّاهما ببطانية خشنة، وشعَرت بلحمه العاري يلمسها تحتها. "آنا"، همَس لها قرب أذنها. "عليَّ أن أوصلك إلى المنزل".

جمدت في مكانها، وعيناها بالكاد مفتوحتان. شعَرت بخوف من أن تتحرّك. وتذكّرت موعد نَلْ من الليلة السابقة: سكونه غير الطبيعي. أصبحت تشعر مثله الآن: همود لدرء الكارثة.

"هل أنت بخير؟"، سأل.

"نعم"، قالت. "نعم، أنا بخير". لكنها لم تكن بخير. الفجر، الذي كان يريحها عادة من بؤس لياليها، يهدِّد الآن بإحداث فضيحة مأساوية. راح قلبها ينبض بشكل متشنّج، وأذناها ترنّان.

نهض وسار في الغرفة؛ أول رجلٍ عارٍ تراه في حياتها: غريبٌ فارع الطول ذو شعر داكن بدا ينسدل من صدره نزولاً إلى جذعه ويتجمَّع بين فخذيه، مما بدا مثل زوج حذاء متدلٍّ من أربطته على عمود إنارة. لم تختبر آنا عواقب الشغف أبداً، فتصل سراً إلى مخبأ القبو وتتسلّل بعيداً بشكل منفصل عن ليون. لم يكن هناك تجميعٌ للثياب في ضوء النهار، ولا استرجاعٌ *لمسدس* يتدلّى في قِرابه من ظهر كرسي. الفِسق الذي جرى بينها وبين رجل العصابات هذا روَّعها. هل كانت ثملة؟ فاقدة عقلها؟ حاوَلت تبديد الذعر بالمنطق: لن تعرف أمها أبداً؛ كان يوم عطلتها من الساحة البحرية – لم تكن متغيِّبة أو حتى متأخرة عن عملها. لكن كيف ستدخل المبنى في ملابس ليلتها السابقة من دون أن تفضح نفسها؟ عليها أن تخرج من هنا الآن، قبل انتشار الضوء بالكامل؛ أن تبوِّل، وتستحمّ، وتنام في سريرها قبل أن يبدأ اليوم الجديد بشكل صحيح. عليها أن تكون الآن في آخر مرحلة من ليلة في طريقها إلى الزوال كلياً.

انتظَرت حتى ارتدى سرواله قبل أن تنهض بتردّد. أدارت له ظهرها وارتدت سروالها الداخلي، وأوثقت حمّالة صدرها، وتمايَلت في قميصها الداخلي. كانت لا تزال ترتدي مجوهراتها. ورأت أن أحد جاربيها المصنوعين من نايلون كان قريباً من الموقد وانكمش من الحرارة. ترَكت رجلَيها عاريتين وخطت بقدميها فوق فستانها، وأفهمَته برجوعها خطوةً إلى

الوراء أنها لا تحتاج إلى مساعدة. رغم أنه لم يكن يعرضها عليها. بدا مشتت الذهن مثلها، وراح يُجوِل عينيه على لصقة زجاجة شراب فارغة. رفَع عقبَي سجائر عن الأرض، وتفحّصهما، ثم رماهما. زرَّرت آنا معطفها حتى عنقها وارتدى قبعتها. كانت القشعريرة تملأ رجليها العاريتين.

انتظَرت عند الباب بينما راح يتفحَّص جيوبه. شعَرت أكثر هدوءاً الآن وقد أصبحا شخصين في معطفين وقبعتين. عندما انضم إليها عند الباب، ابتسمت له، مرتاحة. أمسك ذقنها بأصابعه وقبَّلها قبلة لا مبالية - قبلة وداع - قبل فتحه قفل الباب. ثم قبَّلها مرة أخرى، بحرارة أكبر، وشعَرت آنا بنافذة تُفتَح داخلها رغم كل شيء - أمنية بالبدء من جديد، حتى مع اقتراب الشروق. فالجوع الذي أيقَظه فيها ألغى كل تردّد كانت تشعر به - ستفكّر بتلك الأمور لاحقاً. وإعادة دخول الحلم جعَل خِزيها من الدقائق الماضية يذوب كلياً.

أعاد إقفال الباب، وخلعَ قبعته، وبدأ يفكّ أزرار معطفها. شعَرت بالسهولة التي يمكن أن يتم بها هذا. بدون انقطاع. كم كانت تتمنّاه!

"لقد التقينا من قبل"، قالت وهي تشعر بتأثير تلك الكلمات فقط عند خروجها من فمها. "أظن أنك لا تتذكّر".

"في النادي؟"، همس.

"لا. منزلك".

لقد شدّت انتباهه. توقفت يداه على أزرارها. ورغم أنها كانت تتوق بأن يواصل ما كان يفعله، إلا أنها عرَفت أنها أوقفته.

"منزلي".

"منذ سنوات. كنتُ فتاة صغيرة".

هزَّ رأسه ببطء، وعيناه على عينيها. "كيف يُعقَل ذلك؟".

"لقد أتيت مع أبي"، قالت. "إدوارد كيريغان. أعتقد أنه ربما كان يعمل لديك".

الإسم ملأ الغرفة كما لو أنها غنّته بأعلى صوتها. أو كما لو أن شخصاً آخر نطقه. لأن سماعه للإسم - إسم والدها - بدا أنه قذفها خارج ظروفها الفاسقة فوراً. والدها هو

إيدي كيريغان. كل شيء حصل بينها وبين دكستر ستايلز بدا الآن أنه كان يؤدي إلى هذا الإفشاء.

لم يقم بأي ردة فعل مرئية تجاه الإسم، كما لو أنه لم يسمع به أو يتذكَّره. أدار خاتماً ذهبياً في إصبعه، وقوَّم طيّات معطفه. لكن آنا رأت في سكونه الرعب والحذر اللذين شعَرت بهما بنفسها، عند استيقاظها الأول. "لماذا لم تخبريني من قبل؟"، سألها بلطف.

"لم أجد الطريقة المناسبة".

"لقد قلتِ إن إسمك فيني". بدا مرتبكاً أكثر منه متهِماً، كما لو أنه يربِّت على جيوبه بحثاً عن شيء أضاعه.

"لقد اختفى"، قالت آنا. "منذ خمس سنوات ونصف".

أعاد دكستر ستايلز ارتداء قبعته، وتفحّص ساعته، وفتح الباب قليلاً لينظر إلى الخارج. "علينا الخروج من هنا"، قال.

سارا إلى السيارة بعيدين عن بعضهما قليلاً. كان الفجر بارداً وأزرق متلألئاً. فتَح لها الباب الأمامي، وانزلَقت آنا إلى داخل جوّها العطِر. أغلَق بابه، بحدّة، وانطلَق. بعد عدة دقائق من القيادة الصامتة، قال، "هذا يضعني في موقف غير مريح. معرفة هذا الآن".

"إذاً كنت تعرفه"، قالت آنا. "كان يعمل لديك". أدرَكت أنها لم تصدِّق ذلك كلياً أبداً. فالذكرى كانت أشبه بحلم أو أمنية.

"كنتُ لأقول لك في أي وقت تسأليني فيه".

"هل تتذكَّر عندما أحضَرني إلى منزلك؟".

"لا".

"كان شتاءً، مثل الآن. وقد خلعتُ حذائي".

"كوني أكيدة"، قال، "أنني لو تذكّرتُ أي شيء من هذا، لما كنا نجلس معاً في هذه السيارة".

"هل تعرف ماذا حصل له؟"، سألت. "لإيدي كيريغان؟".

"ليست لديَّ أدنى فكرة".

راحت آنا تراقبه، منتظرةً أن ينظر إليها، لكنه بقي يحدِّق في الطريق. "لا أصدِّقك"، قالت.

فَرْمَل فجأة لدرجة أن العجلات زعقت قليلاً، ولمست حافة رصيف شارع سكني هادئ. استدار نحوها بوجه أبيض. "لا تصدِّقيني *أنا*؟".

"آسفة"، تلعثمت.

"أنتِ مَن كان يكذب وبشكل فاضح. ليست لديَّ أي فكرة عمن تكونين - عما تكونين. هل أنتِ بائعة هوى؟ هل دفع لك أحدهم لكي تجامعيني وتقولي هذه الأشياء؟".

صفعته على وجهه، وذهنها متأخر نصف ثانية عن يدها، فأحدثت علامةً حمراء على خده. "لقد أخبرتُك مَن أكون"، قالت بصوت مرتعش. "أنا آنا كيريغان، إبنة إيدي كيريغان. هذا ما كنتُه طوال هذا الوقت".

اعتقَدت أنه قد يصفعها بدوره. كانت هناك ندوب على اليدين الممسكتين بالمِقوَد، مثل يدَي ملاكم. أخذ نَفَساً عميقاً. واستدار نحوها أخيراً. "ما الذي تريدينه؟ مال؟".

كادت تصفعه مرة أخرى. لكن الغضب كان قد خرج منها وتركها هادئةً، وأكثر صفاءً مما شعَرت به منذ عدة أسابيع.

"أريد أن أعرف إلى أين ذهَب"، قالت. "أو ما إذا كان حيّاً".

"لا يمكنني مساعدتك في ذلك".

"ألن تريد أن تبحث عنك إبنتك إذا اختفيتَ؟"، سألت. "ألن تتوقع منها ذلك؟".

"هذا آخر شيء سأريده".

شعرت بالذهول. "لماذا؟".

"سأريدها أن تبقى بعيدة قدر الإمكان"، قال. "لكي أحميها".

كان ينظر أمامه مباشرة. راحت آنا تراقب يديه اللتين تشبهان يدَي ملاكم على المِقوَد وشَعَرت بكلماته تملأ ذهنها. فتحت بابها وقفزت من السيارة من دون أي فكرة عن المكان الذي تتواجد فيه. بدأت تسير في الشارع أمام السيارة، نصف متوقعةٍ أن يتوقف بجانبها، أن تسمع صوته. لكن دكستر ستايلز تجاوزها من دون حتى أن يلتفت صوبها.

الجزء الخامس

الرحلة

الفصل 18

قبل خمسة أسابيع

في يوم السنة الجديدة عام 1943، تسلَّق إيدي كيريغان تلة تلغراف هيل وصولاً إلى برج كويْت - أو إلى أقرب ما سيسمح به الجنود المتأهبون - لكي ينظر إلى الأرصفة البحرية للإمباركاديرو. شاهد ثلاث سُفن ليبرتي تحمِّل بضائع. كانت متماثلة، بالطبع، لكنه عرَف أن الوسطى هي إليزابيث سيمان، حيث كان عليه الحضور لأداء الواجب في أقل من ساعة. كان إيدي يخاف من هذا. فهو تسلَّق تلة تلغراف هيل في الواقع أملاً بأن يساعده هذا الارتفاع، والمنظور الشامل الذي يوفّره، على تقليص تقاعُسه.

كان قد خضع لامتحانات منصب الضابط البحري الثالث الأسبوع الفائت، على مدى خمسة أيام متتالية، في مبنى الجمارك الشاسع والكثير الأعمدة في سان فرانسيسكو. ومجرد صعود تلك الدرجات - كما لو أنه يصعد إلى مكتبة أو دار البلدية - روَّعه. لم يكن قد حصَّل تعليماً مدرسياً كثيراً، ولم يقرأ سوى الصحف قبل أن يصبح بحّاراً. لكن الجميع يقرأون على متن السُفن - ليست هناك أمور كثيرة يمكن القيام بها إذا كنت لا تلعب بورق اللعب. بدأ إيدي يقرأ على سبيل التجربة، ووجد أن القراءة تناسبه. لا يزال يقرأ ببطء، لكن ذهنه برهن أنه مثل كلب ينتظر أن يرمي أحدهم عصا لكي يهرول ويُحضرها. وقد استظهَر أجزاءً كاملةً من كتّيب *الضابط البحري التجاري* وكاد ينال علامة كاملة على امتحان منصب الضابط البحري الثالث.

راح يتفحَّص إليزابيث سيمان بأفضل ما يستطيع من دون منظار. كانت أذرع المرافيع تُنزل أقفاصاً كبيرةً في العنبر الثاني: طائرة، حسبما خمَّن. أثناء مراقبته، أزعجته يقظة غير مألوفة - استعدادٌ لكي تُغضبه العثرات، كما لو أنه المسؤول عن سفينة لم تطأها

قدماه، حتى على بُعد كيلومتر عنها. راح يوبِّخ نفسه: بالله عليك، الأسطول التجاري ليس البحرية. ولا يوجد زيّ رسمي لضباط السُفن التجارية. ومع ذلك وبعد أن أصبح ضابطاً الآن، حتى ولو نظرياً، شَعَرَ إيدي أن السَكينة الهامدة التي زرعها خلال خمس سنوات ونصف في البحر كانت في خطر.

لا يقصد أنه لم يعمل بجهد. بل عمِل مثل عبد - كان ذلك جزءاً أساسياً من السلام. في وظائفه الأولى، في "العصابة السوداء" لغرفة المحرّك، كان يجرف الفحم، ويغذّي الأفران، ويُطفئ النيران؛ وينظِّف ويزيِّت الأحشاء الحارة للسفينة في درجات حرارة تصل إلى 50 درجة مئوية بينما يقرع رأسه زئير المحرّك الذي خلَّف صفيراً دائماً في أذنيه. الإنهاك نال منه. وبعد ثمانية أشهر، تسلَّل من غرفة المحرّك لينضم إلى طاقم ظهر المركب، وأشعة الشمس المتوهجة تطارده بلا رحمة في البدء. عندما تأقلمت عيناه أخيراً، نظر بعيداً ولاحظ البحر كما لو أنه جديدٌ كلياً: امتداد لا متناهٍ منوِّم مغنطيسياً يمكن أن يبدو مثل حراشف، شمع، قِطع فضية مطروقة، لحم مجعَّد. كانت له بنية وطبقات لا يمكنك رؤيتها من اليابسة. مثبّتاً عينيه على هذا البحر غير المألوف، تعلّم إيدي أن يعوم في حالة شبه فاقد الوعي، يقظاً لكن ليس مستيقظاً بالكامل. وكان الدم ينساب في سيول ذهبية داخل مُقلتَي عينيه. وملأ فراغٌ هادرٌ رأسه. لا يفكِّر، لا يشعر - بل *يكون* فقط، من دون ألم. تذكَّر حياته القديمة، لكن تلك الذكريات احتلّت غرفة واحدة في ذهنه فقط، وكانت هناك غرف أخرى - أكثر مما كان يُدرك. تعلَّم أن يتجنّب تلك الغرفة بالذات. ثم نسي مكانها بعد حين.

كان ينام في نفس الغرفة مع ما يصل إلى عشرين رجلاً على متن السُفن الأولى غير المنتمية إلى الاتحاد، قبل أن تُمنَع من دخول الساحل الغربي في أعقاب الإضراب الكبير. كانوا عبارة عن مجرمين، ومدمني مخدرات مع إبر حقن في حقائبهم، وملاكمين هواة مع فجوات في ذاكرتهم - كلهم مكدّسون في مكان ضيق لدرجة أنه عندما يسعل أحدهم أو يُخرِج ريحاً أو يئنّ، يظن إيدي أنه هو مَن فعل ذلك. وفي إحدى المرات شاهد رجلين يتعانقان عناقاً حبّياً في حجرة أحد المواقد. المنظر قزَّزه وأغضبه. فقرَّر أن يتصرّف - أن يحتجّ، أن يجد محامياً بحرياً ويقدِّم شكوى - لكنه لم يعد يكترث فور انتهاء نوبته في العمل. وسقط الحادث في غياهب النسيان، آخذاً معه الموضع البحري الذي جرى فيه.

كان للجميع أسرار في العام 1937. لا أحد يتكلم أكثر من الرجال العاملين على متن السُفن، لكن غاية القصص التي يروونها كانت إخفاء القصص التي لا يستطيعون إفشاءها أبداً لأي شخص.

بيرل هاربر قَطَع انجراف إيدي. كانت هناك حاجة ماسّة إلى بحّارة خبراء لنقل الإمدادات الحربية، وقد تمت ترقيته - بلا أي جهد منه - من بحّار عادي إلى بحّار متمرِّس. كان البحّارة المتمرِّسون يُشجَّعون بقوة على الدراسة لامتحان الضابط البحري الثالث. بقي إيدي يقاوم لأشهر، لأنه يتوق ليحافظ على السلام الزائف الذي كان الهمود ميزته الأساسية. لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً؛ فالخمول في زمن الحرب - حتى حرب لا يستطيع رؤيتها - بدا مماثلاً للتسكّع. وازداد ضجره واضطرابه شيئاً فشيئاً. أخيراً، وبعد عدم تمضيته أسبوعين متتاليين على اليابسة منذ أكثر من خمس سنوات، سدَّد كل ديونه في سان فرانسيسكو واستقلّ القطار إلى ألاميدا لدورة تدريب الضباط التي تمتد على شهرين.

متيقظاً من الوقت، بدأ إيدي ينزل تلة تلغراف هيل. كانت السُفن الحربية تملأ الخليج. والتلال من حوله مرقَّطة بمنازل شاحبة، مثل بيض العصافير. خاب أمله عندما وجد أن المنظر لم يخفِّف يقظته الجديدة القلِقة. لكن ذلك لم يكن جديداً عليه. بل كان من بقايا حياته القديمة. وقد نسي إيدي ذلك الشعور.

بعد ثلاثين دقيقة، كان يصعد سُلَّم السفينة المائل من الرصيف البحري 21 إلى إليزابيث سيمان. وقبل أن يصل إلى ظهر المركب، سمع صوتاً مألوفاً: منمَّق ويصيح داخل الأسواق البريطانية المتموجة. جمُد إيدي على سُلَّم السفينة. وحاوَل أن يتخيَّل الصوت الصادر عن رجل آخر - أي رجل آخر - غير رئيس البحّارة الذي يكرهه. لم يتمكن. كان هناك رجل واحد فقط في العالم بأسره يتكلم هكذا.

على ظهر المركب، راح ينظر من خلال أذرع المرافيع والبضائع والحمّالين والجنود المبعثرين ليلقي نظرة خاطفة على البشرة الداكنة لرئيس البحّارة. لكن النيجيري لم يكن مرئياً في أي مكان، كما أن إيدي لم يعد قادراً على سماعه. لن تكون هذه أول مرة يستحضره فيها.

خارج منطقة وسط السفينة، قدَّم إيدي نفسه للسيد فارمينغدايل، الضابط البحري الثاني. كان تهذيب فارمينغدايل ولحيته الناصعة البياض يعطيانه طابعاً نبيلاً كما لو أنه

شخص منقوشة صورته على عملة معدنية، لكن إيدي شَعَر أنه مدمن شراب. لم تكن مشية فارمينغدايل الحذرة جداً هي التي فضحت أمره - فاليوم أول يوم من السنة الجديدة في النهاية، وكان الكثير من الرجال يمشون على رؤوس أصابعهم. بل كانت الرائحة التي تفوح من مسامه، مثل تربة مليئة بقشور برتقال عَفِنة. شعَر إيدي ببعض النفور.

في جناح الضباط، قدَّم شهادته الجديدة كضابط بحري ثالث إلى القبطان، والحبر لا يزال رطباً عليها. كان القبطان كيتردج اليافع ذا شعر فاتح ومدهش - أشبه بنجم سينمائي يمثّل دور قبطان. شعَر إيدي أنه عجوز أمامه؛ بل *كان* عجوزاً كضابطٍ بحريٍ ثالثٍ. "هل عدت من التقاعد؟"، سأله القبطان، وكان من الواضح أنه يفكّر بنفس الفكرة.

"لا سيدي. كنتُ في البحر من قبل".

أومأ القبطان برأسه، ولا شك أنه صنَّف إيدي في فئة غير المتأقلمين الذين كان المرء يجدهم على متن السُفُن التجارية قبل الحرب. كان لدى كيتردج ذلك الطابع الأميركي بالتفاؤل المتنمِّر: يتوقع منك الأفضل ويفترض أنه سيحصل عليه - وإلا. أخبرَ إيدي أن هذه ستكون رحلته الثالثة على متن إليزابيث سيمان، بعد أن كانت الرحلتان الأوليان تنقّلاً هادئاً بين جُزُر المحيط الهادئ.

"إنها فتاة مميزة، السيدة سيمان"، قال مع غمزة. "لقد كنا نسير بسرعة اثنتي عشرة عقدة".

"اثنتا عشرة عقدة!"، صاح إيدي. كانت سُفن ليبرتي مشهورة ببطئها؛ واثنتا عشرة عقدة ستكون سرعة كبيرة. ربما بعض قوة القبطان الأميركية الكبيرة قد تسرَّبت إلى السفينة.

هبّت نسمة عبر ثلاث كُوَّات مفتوحة في الجدار الأمامي. وتولَّد لدى إيدي انطباعٌ بألوان سان فرانسيسكو، الأزرق والأصفر والزهري، بعدها. كانت مدينة خفيفة. في قاعات الاتحاد ودردشات البحّارة، كان الرجال يروون حكايات شنيعة عن الساحل الشرقي: ناقلات نفط نُسفَت بطُربيدات تتبخَّر مثل شموع رومانية، ورجال يتجمَّدون حتى الموت في قوارب نجاتهم خلال رحلاتهم في بحر الشمال المُرعِب إلى مُورمانسك. كان من الصعب تخيّل أي أمر من تلك الأمور هنا. فرحلات إيدي في السنة التي تلت بيرل هاربر

كانت إلى حد بعيد مثل الرحلات التي وصفها القبطان كيتردج: تفريغٌ وراء البحار، لا حرية، لكن لا خطر واضح أيضاً، الآن وقد انتهى موسم الأعاصير.

كانت الحجرة الخاصة للضابط البحري الثالث على سطح قوارب النجاة، عند الميمنة، بجانب العيادة. صغيرة وبسيطة: سرير مع جوارير مدمجة فيه، وخزانة صغيرة، ومكتب، ومغسلة. لكن بالنسبة لإيدي - المعتاد على العيش بخزانة واحدة في حجرة تضم رجلاً واحداً آخر على الأقل، وعدة رجال في أغلب الأحيان - كان هذا القدر من المساحة المنعزلة يُعتبر رفاهيةً مخيفةً.

عند إفراغه حقيبته، وجَد مغلفاً مختوماً مكتوباً على جهته الأمامية *احفظه لوقت لاحق* بخط يد أنيق. لا شك أن إنغريد وضعته هنا، الأرملة اليافعة التي تعرَّف عليها قبل ثلاثة أسابيع، في سان فرانسيسكو. شَعَر بوخزة غضب محتار، فوضع المغلف داخل جارور المكتب وذهَب إلى مقصورة القيادة ليبدأ واجباته كضابط بحري ثالث. فحَص سجل السفينة وأعلام الإشارة. كان إبحاره مرتين من قبل على متن إحدى سُفن ليبرتي يعني أنه يعرِف إليزابيث سيمان - بما أنها تُنتَج بكميات كبيرة، كانت سُفن ليبرتي تشبه بعضها البعض حتى آخر خزانة معاطف مشمَّعة. من نافذة مقصورة القيادة، راح يراقب العنبر الثاني وهو يتلقى المزيد من الصناديق التي رآها من تلة تلغراف هيل. كانت طائرات، مثلما خمَّن: دوغلاس A-20. كانت الأقفاص مختومة بأحرف سيريلية.

غادر منطقة وسط السفينة وعاد إلى سطح السفينة الرئيسي. في مؤخَّرة السفينة، كان العنبر الثالث يتلقى حمولة عامة: أكياس أسمنت، لحم بقر معلَّب، بيض مطحون، صناديق أحذية. صعد إيدي إلى سطح المدفع الخلفي وحيّا جندي المدفعية المناوِب، وهو شاب يافع جداً إلى حد مؤلم وذو أذنين كبيرتين كما كانوا جميعاً، بقصّات شعرهم العامة البدائية. لم يكن أي بحّار يريد وظيفة حماية سفينة تجارية، ومع ذلك كانت كل شحنةٍ تتطلّب وجود جنود مدفعية ليشغّلوا المدافع والرشاشات في حال تعرّضهم لهجوم.

بينما كان ينزل عن سطح المدفع، لاحَظ إيدي أن باب غرفة محرّك التوجيه، تحت سطح السفينة، مفتوحٌ جزئياً. فقط الضباط يحق لهم النزول إلى هناك، لكن كان لدى طاقم السفينة طرقهم الخاصة للحصول على المفاتيح، مثلما كان إيدي يعرف جيداً، بعد أن فعل ذلك بنفسه. كانت غرفة محرّك التوجيه مكاناً ممتازاً لتجفيف الغسيل.

فضولياً ليعرف مَن كان خلف هذه المخالفة، بدأ ينزل السُلَّم إلى الدفء الدهني المألوف لأحشاء السفينة. وكاد يصطدم برئيس البحّارة النيجيري، الذي كان في طريقه إلى صعود نفس ذلك السُلَّم.

"ماذا؟... أنت..."، غَمغَم رئيس البحّارة، متفاجئاً ومستاءً مما كتم صوته بشكل غير معهود. "هل هذه محاولة مخبولة لكي تأتي وتعمل ضمن طاقمي؟".

شَعَر إيدي بفائدة علمه المُسبق بوجوده. "على الإطلاق يا رئيس البحّارة. لديَّ شهادتي كضابط بحري ثالث الآن"، قال وهو يستمتع لأول مرة فعلية بمسألة ترقيته.

مثل معظم رؤساء البحّارة، كان هذا الرئيس يزدري الضباط. وأكثر من ذلك، كان يزدري البحّارة المتمرِّسين الذين *أصبحوا* ضباطاً – "مسؤولو حبال الإرساء"، مثلما يُعرَفون. لمحَ إيدي نظرات الازدراء تلك على وجه رئيس البحّارة المكفهر. "مسؤول حبال إرساء!"، علَّق أخيراً بسخرية معسولة. "مبروك *سيدي!* هل ستكون هذه أول رحلة لك في هذا المنصب؟".

"في الواقع، أجل"، قال إيدي، وكان قلبه يخفق بسرعة مثلما يحصل معه دائماً عندما يحاول أن يوازي دهاء رئيس البحّارة. كان الرجل يقذف الكلمات من فمه بطريقة تركت إيدي مشدوهاً. ولديه لكنة متغطرسة، وهو شيء لم يتمكن إيدي من الاعتياد عليه لدى زنجي. "ولستَ مضطراً أن تناديني 'سيدي'، مثلما أعتقد أنك تعرف".

"آه، أنا أُدرك هذه الحقيقة تماماً، *أيها الثالث*"، صاح رئيس البحّارة بمرح. "كلمة 'سيدي' كانت فقط لياقة مقصود منها تحيّة صعودك المثير للإعجاب في الهرمية البحرية".

"هل لديك سبب لتتواجد في غرفة محرّك التوجيه؟"، سأل إيدي.

"بالطبع، وإلا لما أضعتُ لحظةً من وقتي النفيس في ذلك المكان".

"أودّ النزول وإلقاء نظرة، إذا سمحتَ وتنحّيتَ جانباً"، قال إيدي. "لأتأكد أنه ليست لذلك السبب أي علاقة بتجفيف الغسيل".

اتّسَع منخرا رئيس البحّارة. كانت بنيته الضخمة وبشرته البنفسجية الداكنة تجعَلانه يبدو أكبر من إيدي، حتى عند النظر إليه من أسفل. لم يتنحَّ جانباً. "ربما ستكون هذه لحظة مناسبة لتذكيرك"، قال مفجّراً كلماته مثل سوط، "أنه بصفتك ضابطاً بحرياً ثالثاً،

وجديداً أيضاً، ليست لديك أي سلطة عليَّ. بمعنى آخر، وبكلمات واضحة، لا يحق لك أن تعطيني أوامر".

كان محقاً، بالطبع. فالضابط البحري الثالث لا يأمر أحداً، بينما رئيس البحّارة يأمر طاقماً يتألف من حوالي ثلاثة عشر بحّاراً - ستة بحّارة متمرِّسين، وثلاثة بحّارة عاديين، وثلاثة نوتيّين، وبحّار - ويأتمر بأوامر الضابط البحري الأول مباشرة. كان إيدي يعرِف، بما أنه عمِل تحت إمرة رئيس البحّارة هذا، أنه طاغية غير مجارٍ للعصر - من النوع الذي تحبّه شركات الشحن لأنه يمكّنها من انتزاع أقصى ما يمكن من طواقمها بينما تدفع لهم أدنى أجر ممكن لساعات العمل الإضافية. ومثل معظم المستبِدين، كان رئيس البحّارة شخصاً منعزلاً، قارئاً نَهِماً يقرأ بانتباه شديد يوحي بانخراط جسدي. وبينما كان معظم البحّارة يتكلمون عما يقرأونه عند تناولهم الطعام ويتبادلون الكتب ليوسّعوا مدى مكتباتهم الهزيلة، كان رئيس البحّارة يغطي ما يقرأه بمعطفه عندما يقترب منه أي شخص. نظَّر البعض أنه يقرأ كتباً بذيئة؛ وخمَّن البعض الآخر أنه لا يقرأ سوى كتاب صلوات واحد. كانت سريته تغيظ إيدي. فهو يعتبر نفسه لطيفاً مع الزنوج، لكنه كان معتاداً على زنوج لديهم أقل منه. شكَّل له مزيج الأعراق على السُفُن التجارية صدمةً في البدء: كان شائعاً أن يعمل الرجال البيض تحت إمرة زنوج، وأميركيين جنوبيين، وحتى صينيين. لكن رئيس البحّارة هذا لم يكن أبرع منه في الكلام فحسب، ومن الواضح أنه متعلِّم أكثر منه، بل لديه أيضاً طريقة ازدرائية بالنظر إلى إيدي توحي أنها تقول عنه "إيرلندي مغفّل".

بناءً على تحدٍّ من البحّارة المتمرِّسين الآخرين، تجرأ إيدي مرةً وسأل رئيس البحّارة - بابتسامة متكلّفة لم يستطع قمعها بالكامل - عما يقرأ. فأغلق رئيس البحّارة كتابه وابتعَد من دون كلمة. وساءت العلاقة بينهما بعد ذلك. حيث أغرَقَ رئيس البحّارة إيدي في أعمال متواصلة لمجرد إبقائه مشغولاً إلى أن أُصيب بدوار من سُحُب الدخان الصادرة عن زيت السمك المانع للصدأ، ثم من طلاء الرصاص الأحمر، ثم رمادي البوارج، الذي كان عليه دهنه على كل سنتيمتر في السفينة بما في ذلك الصواري - وهذه وظيفة النوتيّ عادة. بدأ إيدي يتأرجح ذهاباً وإياباً في الرياح العاتية، وهو يخطِّط انتقامه بلا طائل.

"لديَّ شعور يا رئيس البحّارة"، قال الآن بخيبة أمل متزايدة من إيجاده أن طريقه نزولاً على السُلَّم لا يزال مسدوداً، "أنك تعتقد أنني يجب أن أتلقى أوامر منك".

"لن أحلم باقتراح شيء كهذا"، احتجّ رئيس البحّارة، "رغم معرفتي أن هذا ما كان عليه الحال بالضبط منذ رحلة واحدة فقط".

"حسناً، لم يعد الحال هكذا بعد الآن. ولن يعود مرة أخرى، إلا إذا كان أحد تلك الكتب التي لطالما دفنتَ رأسك فيها هي التحضير لامتحان منصب الضابط البحري الثالث".

ضحك رئيس البحّارة بصوت يتراوح بين أجراس وطبول. "مع فائق احترامي أيها *الثالث*"، قال مقهقهاً، "لو كان هدفي العمل كمسؤول عن حبال الإرساء، لكنتُ أصبحتُ سيد منطقتي منذ زمن طويل".

شعَر إيدي بأفضلية. يستطيع رئيس البحّارة أن يتبجّح ويثرثر قدر ما يشاء، لكن إيدي لم يصادف أبداً قبطاناً زنجياً على أي سفينة تجارية أميركية، ويشكّ أن يكون رئيس البحّارة قد صادف واحداً. بدا أن كليهما أدركا هذا في الوقت نفسه. "حسناً إذاً"، قال إيدي بمعنى. "أعتقد أننا نفهم بعضنا البعض".

"لن نفهم بعضنا البعض أبداً"، قال رئيس البحّارة باشمئزاز. وتابَع صعود السُلَّم، مُجبراً إيدي على الرجوع. شعَر إيدي كما لو أنه فاز بتصرّفه بأسلوب قذر - وهذا أسوأ من الخسارة. تراجع إلى ظهر المركب، ومرَّ رئيس البحّارة بجانبه بلا مبالاة.

عندما وَصَل إيدي أخيراً إلى غرفة محرّك التوجيه، لم يجد غسيلاً في أي مكان.

لاحقاً، من خلال باب خلف المطبخ، نزل إلى غرفة المحرّك. راحت الحرارة ترتفع مع هبوطه بين مجموعة من الأنابيب والممرات الضيقة والمواقد وفتحات التهوية في باطن السفينة، رغم أن المكابس الثلاثة العملاقة التي تدير المروحة كانت جامدة لا تتحرّك.

كان للمهندس الثالث، وهو نظير إيدي تحت سطح السفينة، لكنة غريبة مثل إسمه. "أوهلسكي؟"، سأله إيدي بارتياب. "إيرلندي؟".

ضحِك المهندس. "بولندي. أ-و-ش-ل-س-ك-ي". كان يدخّن غليوناً، وهذا أمر نادر في غرفة المحرّك، بما أن الجو حار مسبقاً. "هل سمِعت الإشاعة؟"، قال أوشلسكي. "روسيا".

تذكَّر إيدي الأحرف السيريلية على أقفاص الطائرة. "لا يوجد معنى جغرافي لهذا".

ضحك المهندس الثالث ضحكة خافتة حول غليونه، ولاحظ إيدي فكاهةً أوروبيةً صارمةً أصبح يقدّرها. "الآلة لا تستطيع أن تفكِّر"، قال أوشلسكي، "وإدارة الشحن الحربي هي آلة".

"مُورمانسك؟"، سأل إيدي، وبدا الإسم غريباً على شفتيه.

"فقط إذا أعطونا معدات القطب الشمالي. هل تعرف؟".

"سأعرف ذلك"، قال إيدي.

خلال الأيام الثمانية التالية، بقيت إليزابيث سيمان تنتقل من رصيف بحري إلى رصيف بحري عند واجهة سان فرانسيسكو المائية وتحمِّل بضائع. تم ملء العنبر الرابع بالبوكسيت؛ والعنبر الأول بالمعلّبات وصناديق أسلحة صغيرة. في محطتها الأخيرة، الرصيف البحري 45، وُضعت دبابات وسيارات جيب حول حجراتها ذات العوارض الخشبية وثُبِّتَت كبضائع على سطح السفينة، ثم رُبطت بسلاسل موصولة بحلقات. كان الضابط البحري الأول، وهو دانمركي حسن الاطلاع في حوال الستين من عمره، يُشرِف على كل هذا، إلى جانب رئيس البحّارة وطاقمه. كانت مسؤوليات إيدي غامضة، وحاوَل تحاشي رئيس البحّارة. لحسن الحظ أن الضباط والطاقم يأكلون في قاعات منفصلة، رغم أن الطعام مماثل. والمقصف، حيث يأكل الضباط، يتضمن أغطية طاولات بيضاء. لوحده في حجرته الخاصة في الأمسيات، كان إيدي يتملَّص من صدى أفكاره بالقراءة. وكانت كتبه المفضَّلة عن البحر، ووضع يديه أخيراً على نسخة من *سفينة الموت*، الذي قام بجولات في إحدى رحلاتها قبل بيرل هاربر.

على متن إليزابيث سيمان في آخر أمسية لها عند الميناء، وَقَف إيدي على المنصة المعلَّقة مع روجر، متدرِّب ظهر المركب المتلهّف والعصبي. إلى جانب ستانلي، متدرِّب غرفة المحرّك، أكمَل روجر ثلاثة أشهر من تدريب الضباط في الأكاديمية البحرية التجارية في سان ماتيو، وكان يبدأ الآن الأشهر الستة المطلوبة منه في البحر. كان المتدرِّبون يتجمّعون معاً على سطح برج القيادة، بالقرب من "شرارة"، مثلما كان مشغِّل اللاسلكي يُعرَف دائماً.

"أي نوع من الرجال شراراتنا؟"، سأل إيدي. نادراً ما يُرى مشغّلو اللاسلكي؛ فإما أن يكونوا في غرفة اللاسلكي أو نائمين في حجرة بجانبها مع منبّه ليوقظهم في حال وصول بث طارئ.

"يشتم كثيراً"، قال روجر.

"قريباً، ستبدأ أنت بفعل ذلك أيضاً".

ضحِك المتدرِّب. كان هزيلاً وأنفه معقوفاً كالمنقار، وعلى بُعد خطوات قليلة من الرجولة. "لن يعجب هذا أمي".

"لا أمهات هنا".

"رأيت شيئاً غريباً اليوم"، قال روجر بعد صمت قصير.

كان قد فتح باب المخزن ووجد فارمينغدايل، الضابط البحري الثاني، مشغولاً في شيء داخله. وعندما اقترب منه روجر، رأى أنه كان يُميل صفيحة طلاء رمادي فوق فم مرطبان زجاجي، ويصبّ خيطاً رفيعاً من الطلاء على رغيف خبز حشره في فم المرطبان. امتصَّ الخبز الصباغ اللزِج للطلاء، بحيث أن ما وصل إلى قعر المرطبان كان نقاط سائل غائم. على مرأى روجر، رفع فارمينغدايل المرطبان إلى شفتيه وشرِب ذلك السائل بكل هدوء.

"بدا غاضباً"، قال روجر، "لكنه لم يتوقف".

"تخيَّل حالة معدته".

"هل سيكون قادراً على الإبحار؟".

"إذا كان يمكنه شرب ذلك، فإنه معتاد عليه"، قال إيدي.

"مَن سيتولى الملاحة إذا كان الضابط البحري الثاني ثملاً؟".

"أنا"، قال إيدي، رغم أن مهاراته الملاحية كانت لا تزال بدائية. شَعَر بالاشمئزاز من الضابط البحري الثاني لسماحه للمتدرِّب بمشاهدة انحطاطه. "وأنت يا صغير. عليك العمل مع ذلك السَّمت".

حلَّ الغسق باكتئاب على المدينة، وراحت وخزات من الضوء الماسيّ تنبض من تلة تلغراف هيل. لم يصل الضباب بعد.

"أفتقد لفريسكو بالتأكيد"، قال روجر.

"وسأفتقدها أنا أيضاً"، قال إيدي. "رغم أنه تبيَّن له أن فقط البحّارة يسمّونها فريسكو".

"سان فرانسيسكو"، قال روجر بصوت لم ينضج بالكامل بعد. "إنها بلدة رائعة".

أرخوا الحبال عند السادسة في الصباح التالي، 10 يناير، ووجّههم ربّان محلي إلى نطاق إزالة تمغنط، حيث أُزيلت المغنطة عن بدن إليزابيث سيمان لكي لا تتسبَّب بانفجار الألغام. أجرى إيدي تدريباً على الحريق وزوارق النجاة، وهذه إجراءات سلامة من المسؤولية الواضحة للضابط البحري الثالث. لكن التدريب كان سطحياً؛ فلم يؤرجحوا النياط إلى الخارج حتى، وبطبيعة الحال لم يُنزلوا قوارب النجاة. كان القبطان كيتردج مستعجلاً لكي يُبحر، وبدا رئيس البحّارة غير مبالٍ – ربما ميّالاً لتقليص ميدان إيدي.

عندما اجتازوا مضيق غولدن غايت، أبلغهم القبطان عن وجهتهم: قناة بنما. وهذا يعني الخليج الفارسي بكل تأكيد، حيث ستُنقل الحمولة براً إلى روسيا، الذي يتابع جيشها الأحمر اللا متناهي بإلحاق الهزيمة بالألمان. لم تُعطَ إليزابيث سيمان معدات القطب الشمالي المطلوبة لعبور بحر الشمال في يناير، مما أشاع ارتياحاً شديداً بين الجميع على متنها. وراحت اللازمة "أفضل من مُورمانسك" تتردَّد في أروقة السفينة وعلى طاولات الطعام طوال بقية تلك الليلة. لكن إيدي لم يشعر بهكذا ارتياح. فقد كان البحر الكريبيّ خطيراً كفاية، وراح يغلي غضباً من التدريب السطحي على قوارب النجاة.

عندما أراح الضابط البحري الأول من نوبته عند الثامنة في الصباح التالي، أقنعه إيدي بالحاجة إلى تدريبٍ ثانٍ. وبعد ظهر ذلك اليوم، خُفِّضَت سرعة المحرّكات إلى الوضع الاحتياطي وصَدَر الأمر بإجراء التدريب على مغادرة السفينة: ست صفرات قصيرة تلتها صفرة واحدة طويلة من جرس الإنذار العام. وعندما بدأ الرجال يصلون إلى سطح قوارب النجاة، صعد رئيس البحّارة السلالم مُسرعاً وخاطب إيدي عليه.

"أيها الضابط البحري الثالث" ، بدأ يقول صافعاً شفتيه عند لفظه اللقب، "هل تعلم حقيقة أنه منذ أكثر من سنة لم تُغرِق غواصةٌ يابانيةٌ سفينةً تجاريةً عند ساحل كاليفورنيا؟".

"أعلم يا رئيس البحّارة".

"هل يمكنك أن تشرح لي إذاً لماذا نُجري الآن تدريبنا الثاني على زوارق النجاة في غضون يومين قصيرين في البحر؟".

" لم يكن التدريب الأول مُتقناً. وإذا كان هذا التدريب غير متقن أيضاً، سأُجري تدريباً آخر غداً".

"أظن أن هذا سيسرُّك كثيراً"، قال رئيس البحّارة مع ابتسامة مخادعة لجمهوره المتزايد – الصفرات التي أحضَرت كل الأيدي إلى سطح قوارب النجاة. "ففي النهاية، تدريبات السلامة توفّر لك فرصة نادرة لتلهو بسلطتك المُكتشَفة حديثاً!".

"هل يبدو لك الأمر هكذا؟ لهواً؟".

"كل رجل يلهو بشكل مختلف"، قال رئيس البحّارة.

لمح إيدي ابتسامات متكلّفة على الوجوه حوله، وشعَر باقتراب موجة ضحك. كان الضابط والقبطان يقفان على مقربة منه. إذا تدخّلا الآن، لن يتمكن إيدي من استعادة سلطته أبداً.

"هل ترفض المشاركة في هذا التدريب يا رئيس البحّارة؟"، سأله بحدّة، مُدركاً أنه وصل متأخراً في حين أنه كان يجب أن يكون قد بدأ.

"لن أحلم بأن أرفض!"، قال رئيس البحّارة معترضاً. "على العكس تماماً، أنا كالعجينة في يديك، *أيها الثالث* – كلنا كذلك. رجاءً، أرشدنا في الخطوات الضرورية!".

احتاج إيدي إلى كل ضبط نفسه ليتجاهل السخرية ويُكمِل. فقد سبَّب له الرجل موجة استفزاز بالكاد يستطيع تحمّل مرارتها. هذه المرة، على الأقل، تم إنزال وركوب كل قوارب النجاة الأربعة بنجاح. قرّر إيدي إجراء التدريب على زوارق النجاة كل أسبوع، تماماً مثلما تنصّ القوانين، حتى ولو اضطره ذلك إلى التشاجر مع رئيس البحّارة. والأرجح أنه يفضِّل حصول ذلك.

بعد يوم من مغادرة بنما، وعشرة أيام من بدء رحلتهم، ظهرت أرقام طلب إليزابيث سيمان في رسالة لاسلكية – وهذا حدث غير اعتيادي أبداً. فكّ شارة تشفير الرسالة

مستعيناً بكتب الشيفرة وأحضَر النتيجة المطبوعة إلى مكتب القبطان. عليهم عدم المرور بالقناة في النهاية، بل المتابعة جنوباً، حول كايب هورن وعبر جنوب الأطلسي إلى كايب تاون، جنوب أفريقيا: رحلة ستستغرق أربعين يوماً. كان القبطان كيتردج مقتنعاً أنه يمكنهم تحقيق وقت أفضل من ذلك.

سادَ كَدَرٌ بين البحّارة لأنهم لن يتمكنوا من شراء الشراب البنمي من قوارب التموين التي تملأ طرفَي القناة، لكنه سرعان ما تبدَّد إلى الرتابة التي تتميَّز بها الرحلات الطويلة. قاوَم الجميع هذا في البدء؛ كانوا ضجِرين ومحبطين ومضطربين. لكن في غضون بضعة أيام، عمَّ السلام على السفينة مثل تنهيدة - مرتاحين من معرفتهم أن هذا كل ما يمكن أن يكون، أو سيكون، لبضعة أسابيع. وانشغل الرجال في إنجاز مشاريعهم البحرية بالتصفير أو بصنع أحزمة ذات عُقد مربّعة. بعد ثمانية عشر يوماً من مغادرة سان فرانسيسكو، سيطر فارمينغدايل على الارتعاش في يديه بما يكفي لكي يصنع دميتين من القنب. في تلك الليلة، عندما أراح إيدي من نوبة الثامنة إلى الثانية عشرة، مَدَحه إيدي على الدمى وسأله كيف تعلَّم صنعها.

"بحّار قديم"، قال فارمينغدايل. "صنعَ خمسمئة وستين دمية، إذا كنت تستطيع تخيّل ذلك. يحتفظ بها في خزانة تخزين في رينكون سنتر".

كان البحّارة القدامى رجالاً أبحروا على متن سُفن خشبية في شبابهم - أي أنهم أبحَروا عندما كان "الإبحار" يعني استخدام أشرعة في الواقع. "هل لا يزال حيّاً؟"، سأل إيدي.

"لم أره منذ سنتين، الآن وبعد التفكير في المسألة"، قال الضابط البحري الثاني.

"إنهم يختفون"، قال إيدي. "البحّارة القدامى".

منذ خمس سنوات، كان هناك واحد أو اثنان على متن معظم السُفن - شمع لراحة اليد وإبرة وخيط في جيوبهم. شكَّ إيدي أن إدارة الشحن الحربي كانت تشحّلهم.

"لدينا واحد هنا"، قال فارمينغدايل. "بيْو، الطبّاخ الثالث".

"هذا فأل حسن!".

أمال فارمينغدايل رأسه بشكل مُبهَم. كان متحفِّظاً وغير واضح حتى عندما يكون

واعياً؛ لم يكن إيدي قادراً على الإعجاب به. لكن وجود بحّار قديم على متن إليزابيث سيمان كان مطمئناً جداً. "رجال حديديون على زوارق خشبية"، هكذا كانوا يسمّون، على عكس الرجال الخشبيين على الزوارق الحديدية هذه الأيام، أمثال كيتردج وفارمينغدايل، وإيدي نفسه. يشارك البحّارة القدامى في تأكيد خرافة أصلية، بما أنهم قريبون من جذر كل الأشياء، بما في ذلك اللغة. لم يلاحظ إيدي أبداً المقدار الكبير من كلامه المشتق من البحر، من "تعلُّم الحبال" إلى "الانجراف مع التيار" إلى "الحلقة الأخيرة في السلسلة"، الخ. كان استخدام تلك التعابير في طريقة عملانية يجعَله يشعر بالقرب من شيء جوهري – حقيقة أعمق يعتقد أنه شَعَرَ بمحيطها، مجازياً، حتى بينما لا يزال على اليابسة. التواجد في البحر قرَّب إيدي من تلك الحقيقة. وكان البحّارة القدامى أقرب منها.

ترَك فارمينغدايل في برج القيادة ودوَّن ملاحظات نوبته في سجل السفينة: كان مسارهم 170 مع نسيم منعش وأمواج هادئة. توقَّف في جناح الضباط ليتناول "غداءه الليلي"، شطيرة شرائح لحم بارد وقهوة، ثم ملأ كوب حليب لشرارة، مشغِّل اللاسلكي، الذي كان مقوام رِجله المعدني (يعاني من شلل الأطفال، حسبما افترَض إيدي) يسبّب له مشاكل مع السلالم. أصبح إيدي معتاداً على زيارة شرارة بعد انتهاء نوبته، كطريقة ليتجنّب عزلة حجرته الخاصة.

"يا لها من بادرة لعينة جميلة أيها الثالث"، قال شرارة وهو يأخذ كوب الحليب من يده.

نظرَ إيدي ليتأكد أن ستارة التعتيم الكلي كانت مُغلقة بالكامل قبل أن يُشعل سيجارتيهما. كان شرارة في حوال الخمسين من عمره، وسيم وبسيط، ورمشَيه غير مرئيين على عينيه المقنّعتين. "جزء مني سمندل ماء – ينفصل ذيلي وينمو من جديد مباشرة"، قال لإيدي بلكنته الإيرلندية الطيفية. كان مثليّ الجنس – عرَف إيدي هذا من دون أن يعرف كيف عرَفه. ترعرع شرارة في نيو أورلينز وأصبح بحّاراً في العشرينات من عمره. كان لا يتناول الشراب أبداً، وهذا أمر غير اعتيادي لدى إيرلندي. "آه، لكنني أحلم بهذه الأمور"، قال وهو يحدِّق في كوب الحليب قبل أن يشربه كله دفعة واحدة. "سأزحف على زجاج محطَّم من أجل كوب حليب مثل مدمن أفيون يبحث عن غليون".

"قد تفضِّل الأفيون أكثر".

نَخَر شرارة. "تكفيني حاجتي إلى الطعام والنوم والسجائر، واضطراري إلى جرّ هذه الرِجل اللعينة ورائي. لا يمكنني تحمّل عادة سيئة كهذه".

"لقد رأيتُ مشلولين في أوكار أفيون".

"ليس لديَّ شك في ذلك – يحاولون نسيان أن لديهم شللاً! يا له من ذكاء – لديك مقوام على رِجلك اللعينة وقرد على ظهرك اللعين، وتعتقد أنك حللتَ مشكلتك اللعينة في حين أن كل ما فعلته حقاً هو دفن رأسك في الرمل".

بينما راح شرارة يهزّ الكوب ليلتقط النقاط الأخيرة من الحليب، شَعَر إيدي بتعاطف مؤلم معه. أن تكون منحرِفاً ومشلولاً *في آن*، من دون وسامة أو حظ أو قوة جسدية – كيف تمكَّن شرارة من تحمّل هكذا حياة؟ ومع ذلك فقد تحمَّل أكثر؛ وكان مبتهِجاً دائماً.

"لا شك أن أمك كانت تحبك يا شرارة"، قال إيدي.

"وما الذي يجعلك تقول شيئاً كهذا؟".

"مجرد حدس".

"حسناً، من الأفضل لك أن تأخذ حدسك وتبلّه وتشرب ماءه. كانت أمي أكبر مدمنة على الشراب في الجناح. وقد تقيأت في سريري مرةً وهي تحاول تقبيلي قبلة المساء! يا إلهي كم كانت حقيرة".

"هذا يجلب الحظ السيئ"، قال إيدي. "أن تتكلم عن أمك بهذه الطريقة".

"الحظ السيئ هو أن *تكون* لي هكذا أم"، قال شرارة. "لم تكن الحياة معها ممكنة. واضطر أبي إلى وضعها في مسكن. لكن كانت لديَّ أخت جميلة. ليلي. كانت تسمّيني هندباءها الصغير – إياك أن تضحك وإلا فسأمسمرك على الجدار إيها اللعين". لكن شرارة كان يضحك – كان يضحك دائماً. وفقط الـ BAMS، البث لسُفُن الحلفاء التجارية، كان يُصمته. كان يأتي في ساعات محدَّدة كل يوم، بتوقيت غرينتش – والذي كان محدداً بعقرب الدقائق على ساعة اللاسلكي الخاص به. عند الساعة 0300، كان شرارة يدير المتلقي من خمسمئة ألف دورة في الدقيقة إلى تردّد أعلى ويبدأ الاستماع عبر

سمّاعات رأسه لأرقام طلب إليزابيث سيمان. لأن سُفُن الحلفاء التجارية كانت تحافظ على صمت لاسلكي، فإن وظيفة شرارة كانت مجرد الاستماع. كان يجمد على كرسيه تماماً، وجسمه مائل نحو المرسِل كما لو أنه هو نفسه، أو ربما مقوام رِجله المعدني، كان هوائي التلقي.

ترَكه إيدي هناك وأعاد إنزال الكوب الفارغ إلى المطبخ. كان لا يزال غير راغب بالنوم بعد، فخرج من باب حجرته الخاصة إلى الليل الهادئ والسُحُب التي تغطي القمر مبدِّدةً نوره مثل آلاف حشرات العُثّ فوق نقاط متحركة على البحر. كان تمايل السفينة مهدئاً للأعصاب من شراسة اليابسة. وشعَر إيدي أنه أقرب إلى ذلك الإدراك الفارغ الذي سانده خلال سنوات رحلاته من سان فرانسيسكو إلى الصين وإندونيسيا وبورما عبر هونولولو ومانيلا. وراح يستمع، في الشوارع المظلّلة فوق ميناء شنغهاي، إلى أصوات الحياة اليومية خارج الفناءات المسوَّرة: بكاء الأطفال، وقعقعة الأوعية. كما لمحَ من وقت لآخر، عبر باب مفتوح، امرأة تسير على قدمين منكمشتين بطريقة مشي الفلامينغو المشدودة الجامدة.

أسرار العالم. لم يصدّق أبداً أنها حقيقية. ويعتبر أنها موجودة فقط في الكتب التي تقرأها السيدات المُحسنات بصوتٍ عالٍ.

عاد أخيراً إلى حجرته الخاصة. وشَعَر بفراغ من دون وجود آخرين ينامون معه في الغرفة نفسها. فتَح جارور مكتبه بلا هدف محدَّد وجفلَ من رؤية المغلف الذي كان قد وضعه هناك بعد توقيعه مقالات في يومه الأول. لقد نسي أمره تماماً. ونسي أمر إنغريد – بالكاد يستطيع تصوّرها بعد الآن. الأشياء البعيدة تصبح نظرية، ثم خيالية، ثم صعب تخيّلها. فتتوقّف عن الوجود.

الآن، في الضوء الخافت بجانب سريره، فتَح إيدي الرسالة – الأولى له منذ أكثر من خمس سنوات في البحر.

عزيزي إدوارد، راح يقرأها بصوت قوي غير عاطفي، *كان الطقس جيداً، لكننا سنقدِّر بعض الشمس بعد عدة أيام من الضباب. تلاميذي يزرعون حدائق انتصارهم الربيعي، لكنني قلقة من أن يخيب أملهم. لقد غيَّرت الحرب عدة أشياء، لكنني أعتقد أن النباتات لا تزال بحاجة إلى ضوء الشمس لكي تنمو! غالباً ما أتكلم عنك مع الفتيين*

وبحنان. وقد عرضتُ عليهما أن أعيدهما إلى حديقة ملاهي بلايلاند، لكنهما رفضا. إنهما ينتظرانك.

كانت النبرة موزونة، وحتى رقيقة، لكن تأثير تلك الكلمات على إيدي كان كبيراً. عادت إليه ذكريات رؤية إنغريد لأول مرة في كافيتيريا فوستر: امرأة في وشاح أزرق تشتري شرحة واحدة من فطيرة لولدَيها، اللذين تشاركاها بفرح ومن دون اعتراض. سألها إيدي عن الوقت. وتبيَّن له أنها ألمانية - بالكاد تمكّنت من المحافظة على عملها عبر شجب أعمال هتلر ووطنها الأم أمام لجنةٍ. كان هناك طفل ثالث، فتاة ماتت في طفولتها. كان ستيفان وفريتز، وهما في السابعة والثامنة من عمرهما، يتكلّمان عن أختهما كما لو أنها غابت الأسبوع الفائت. "الطفلة هيلين"، يسمّيانها، ويذكرانها في صلاتهما قبل كل وجبة طعام. تُوفِّي والدهما مؤخراً، في حادث مَصنع، لكن نادراً ما يُذكَر. كان يذكران الطفلة هيلين.

في حديقة ملاهي بلايلاند، كان إيدي والفتَيان الصغيران يركبون دائماً أكياس بطاطا نزولاً على منزلقات خشبية طويلة، ويحصلون على رضوض حارقة حيث تحتكّ ركبةٌ أو مِرفقٌ بالخشب. كان طابق منزل المرح مليئاً بفجوات يُنفَخ فيها الهواء (من قِبل متفاصِح مخفي) بقصد رفع تنانير الفتيات. كانت إنغريد ترتعب من نفخات الهواء تلك، فتتشبَّث بإيدي وتضحك.

أثناء ركوبهم الترامواي في طريق العودة، وَضَع إيدي يداً على صدر كل فتى لحمايته على مقعده. وقد جفلَ من خفقات قلبهما القوية تحت رؤوس أصابعه.

كانوا لا يزالون هناك، إنغريد وفتَياها. كانوا يفكّرون فيه - ينتظرونه. شعَر إيدي بهذه الحقيقة في جسمه مثل طبقة تربة تنقلب رأساً على عقب. كان كل شيء لا يزال هناك، كل شيء تركه خلفه. وتلاشيه كان مجرد خدعة.

الفصل 19

بقي إيدي مستلقياً في كيسه، نصف نائم. لقد دخلوا منطقة الأربعينات الهادرة، مقابل تشيلي، وراحت إليزابيث سيمان تتمايل بشكل خطير. ربما كانت تلك الحركة هي ما أيقظت الإيقاع المألوف القديم داخل إيدي: طِّباق مُلحّ صغير، مثل كُرة ارتداد.

"هل هناك رجال عصابات حقيقيين؟".

"لم تخترعهم الأفلام".

"هل يشبهون جيمي كاغني؟".

"جيمي كاغني لا يشبه جيمي كاغني. إنه أقصر من ماما".

"هل هو صديق لك؟".

"لقد صافحتُه".

"هل يشبه رجل عصابات؟".

"يشبه نجماً سينمائياً".

"كيف تعرف رجل العصابات؟".

"عادة، يسود صمت في الغرفة عندما يدخل".

"هل يخافونه؟".

"إذا كانوا لا يخافونه، فلن يكون رجل عصابات".

"لا أحبّ أن أكون خائفاً".

"جيد. لن تتزلّف في نهاية المطاف".

"هل تتزلّف أنت؟".

"هل لاحَظتني أتزلّف؟".

"هل تتكلم معهم؟".

"ألقي التحية عليهم. فبعضهم أعرفه منذ زمن طويل".

"هل ستكون في صفّهم يوماً ما؟".

"ليس إذا كان لديَّ الخيار".

انزلَقت يدها الدافئة الصغيرة داخل يده. كانت هناك دائماً، تلك اليد، مثل مِنَّوَة تبحث عن صَدعها.

"هل سترى السيد دونالان؟".

"مضحك أن تذكريه يا توتس".

"لقد أعطاني قِطع حلوى".

"السيد دونالان مولع بالحلويات. مثلك".

"إنه أخوك".

"إن جاز التعبير".

"لقد أنقذته من الغرق".

"هذا صحيح".

"هل شكرك؟".

"ليس بكلمات عديدة. لكنه ممنون".

"ألهذا السبب أعطاني قِطع الحلوى؟".

"هذا محتمل يا توتس".

"هل أعطاك قِطع حلوى؟".

"لا. لكنني لستُ مولعاً بالحلويات مثلك".

عادت آنا إلى إيدي بعد غياب سنوات: صوتها، نبرتها، ملمس يدها الصغيرة في يده. قادته بيدها في دهاليز ذاكرته إلى الغرفة التي خبأ فيها حياته القديمة بعناية. فوجَد كل شيء مثلما تركه تماماً.

لقاء الأحد الجماعي. بدأت ليديا تبكي: صوت مخنوق كان صاخباً وموجعاً أكثر مما بدا ممكناً لدى طفلة. لم تكن طفلة، كانت في الثالثة من عمرها - فقط صغيرة كفاية لتبقى داخل عربة الأطفال، حيث كانت حالتها مخفية، تقريباً. رفعتها أغنِس لكي تهدّئها، عارضةً شكلها المفتول أمام الجماهير المزدحمة. شعَر إيدي بخِزي كبير كان أشبه بلطمة قوية على رأسه؛ فأمسَك المقعد الخشبي الطويل أمامه ليهدئ نفسه. وتابَعت ليديا تختنق وتعوي؛ لم يكن بالإمكان سماع صوت الموقَّر. وتظاهر الرجال، الجافلون، أن شيئاً غريباً لم يكن يحصل بينما ساعدت زوجتان أغنِس على الخروج من دار العبادة، واحدة تدفع عربة الأطفال، والأخرى تُمسك رجلَي ليديا المتأرجحتين. حاوَلت آنا اللحاق بهم، لكن إيدي أمسك يدها. بدا له أن محيطه قد اختفى فجأة، كما لو أن شيئاً تمزَّق في ذهنه. ثبَّت عينيه على الموقَّر لكنه سمع أزيزاً فقط.

بعد انتهاء لقاء الأحد الجماعي، تدفّقت مجموعة رجال إلى شقة أحدهم لاحتساء بعض شراب الشعير المريع الذي كان أُوْني مادن يُعدّه على مرأى من الجميع في مَصنع البسكويت في الشارع السادس والعشرين الغربي. ارتشف إيدي قليلاً، عاقداً العزم على البقاء لدقيقة فقط. كان الشعور السيئ الذي انتابه في دار العبادة لا يزال معه؛ وقد أراد أن يتخلّص منه قبل أن يعود إلى أغنِس. لم تكن متعة احتساء شراب مادن نابعةً من طعمه، بل من محاولة تحديد *مذاقه*: نشارة خشب؟ أوراق صحيفة رطبة؟ الحمام التي كان أُوْني يحبّ تربيتها؟ كان الأولاد يتقاذفون كرات ثلج في الهواء الطلق، ويحيدون جانباً بين الحين والآخر عند مرور سيارة. راح إيدي يراقب من النافذة بينما كانت آنا، في السادسة من عمرها، تقفز على فتيان خلف ركام ثلجي. مراقبتها جعَلت شعوره يتحسَّن. *لديَّ طفل صحي واحد*، فكّر في سرّه، *الحمد لله. الحمد لله*.

كان شَفَق أوائل الشتاء قد تسرَّب إلى الركام الثلجي حين أسرعَوا إلى منازلهم عبر هَلز كيتشن. كان إيدي يتمايل قليلاً من شراب الشعير. وكان الوقت قد تأخر أكثر مما كان ينوي؛ سيكون على أغنِس أن تُسرع لتُجري مكالمتها. كانت فرقة الفوليز متوقفة عن العمل منذ الانهيار، لكن السيد زِي رتَّب الأمور لكي يُعاد توظيفها في عرض آخر.

"أريد مواصلة اللعب في الخارج"، أخبرته آنا وهي تكزّ على أسنانها.

"أنت رطبة وباردة. أمسكي يدي".

"لا". لكنها فعلت ذلك، في قفّازها الرطب، بعد أن نقلت شيئاً إلى يدها الأخرى.

"ما هذا، إن كان يمكنني أن أسأل؟".

خلّصها من كرة ثلج، محزَّمة بشكل محكم، ومرقَّطة بقش ورَوث. "إنني أوفّرها"، قالت.

"الثلج يذوب في البيت. أنت تعرفين هذا".

"في الثلاجة".

"ستجعليننا كلنا نُصاب بالتيفوئيد. اتركيها على المنصة في الخارج".

"قد يأخذها أحدهم!".

"غير ممكن إطلاقاً يا توتس".

فتَح باب الشقة مستعداً لغضب أغنِس وبكاء ليديا. لكن كان هناك مشهد مسالم ينتظره: ليديا مستلقية على الأريكة، وشعرها رطب. ركَضت آنا إلى أختها. كان حوض المطبخ مليئاً بالماء.

"كانت بحاجة إلى حمّام، هذا كل شيء"، قالت أغنِس، مستنزَفة وشاحبة. تساءل لكم من الوقت دام البكاء.

"لقد اضطررتِ إلى تحميمها لوحدك"، قال. "آسف".

غسلت أغنِس نفسها بتهوّر، باستخدام الماء الباقي في الحوض. مالَ إيدي فوق الأريكة وقبّل خد ليديا الناعم. أي شيء كان قد تحطّم داخله في دار العبادة بدا أنه تحسَّن، في الوقت الحاضر.

عندما نامت الفتاتان، جلَس على المنصة الأمامية - كانت لديهم شقة في الطابق الأرضي في هَلز كيتشن - وراح يدخّن، غافلاً عن البرد. كان قد سمِع عن أولاد حُنْف الأقدام، ومغوليين، وبلهاء، وعُرْج؛ سقطوا من النوافذ، داست عليهم الأحصنة، أتلفوا أدمغتهم بالغطس عن الأرصفة البحرية لنهر هادسن إلى ركائز مغمورة. لماذا كان هذا أسوأ؟ لا يمكنه شرح السبب. كان خليط الجمال والالتواء في ليديا يقترح عثرة فادحة في نفسه. لم تكن مثلما كان يجب أن تكون أبداً، وبقي ظل ما كان يجب أن تكون عليه متشبِّثاً بها دائماً، مثل توأم موبِّخ لها. في أغلب الأحيان، عندما يكون لوحده، يتذكّر

إيدي اللحظة التي جاء إليه فيها الطبيب من غرفة التوليد: وجهه المكفهرّ، وعرضه سيجارة عليه، ورعب إيدي من أن يكون الطفل - وكان يأمل أن يكون صبياً - قد وُلد ميتاً. الآن، في استعادته لشريط الأحداث، يُبلغه الطبيب بالخبر الذي بقي يخشى أن يسمعه طوال ذلك اليوم: *آسف جداً. لقد وُلد طفلك ميتاً*. وللحظة، قفز إيدي إلى حياة أخرى غيّرها هذا التعديل: سينتقلون إلى كاليفورنيا، حيث من المفترَض أن يكون كل شيء أفضل! ستعود أغنِس لتكون المرأة المشاكسة الكسولة التي تزوجها، والتي تتدلّل عليه في السرير بملابس مريَّشة وتُطفئ أعقاب سجائرها في كومات بطاطا مهروسة. لكن إيدي دفَع غالياً ثمن هذه الرحلة الوهمية عندما أغرقته الحقائق القاتمة لحياته. لن يكون هناك انتقال، ولا تغيير، ولا نهاية لكل هذا.

دخل البيت ليطمئن على الفتاتين وأضاف مزيداً من الفحم إلى الموقد. كانت ليديا نائمة في مهد في المطبخ، حيث كان الجو أكثر دفئاً. حتى التنفّس كان محنة لها. *شهيق... زفير. شهيق... زفير*. وبدا التوقف المؤقت بين أنفاسها أطول من الطبيعي، كما لو أنها بعد أن تتمكّن من أن تزفُر، كان عليها أن تحشُد طاقتها لتبدأ من جديد. لقد عاد الانفصال الفضولي الذي شعَر به إيدي في دار العبادة، وأشعرته عزلته المُخدِرة بالارتياح من يأسه. كان مراقِباً، لا أكثر ولا أقل، يراقب رجلاً يرفع وسادة ويضعها برفق على وجه ابنته النائمة. تباطأ تنفّسها وهي تكافح ذلك الوزن الجديد. راقَب إيدي الرجل يضغط الوسادة. وراحت عظمة القَصّ للطفلة الصغيرة تنخفض وترتفع فوق ياقة قميص نومها. بدأ رأسها يتحرّك وهي تحاول أن تدير وجهها. راح الرجل يضغط أكثر. كان إيدي مندهشاً من جهودها المضنية لإيجاد الهواء. فهي لن تسير أبداً، ولن تتكلم أبداً، لكنها لا تزال متمسّكة بالحياة - تناضل من أجلها. أجبرته ضراوة غريزتها إلى العودة إلى داخل نفسه كما لو أن باباً أُغلق بعنف في إطاره. أفلَت الوسادة وحملَ ليديا من المهد. أراد أن يعوي، لكن ذلك سيخيفها، لذا قبَّل وجهها الصغير جداً، وبلّله بالدموع إلى أن فتحت عينيها وابتسمت له. احتضنها، وهو يبكي بهدوء، وراح يهزّها حتى عادت إلى النوم. في تصوُّره، رمى نفسه عن سطح أو تحت عجلات عربة - وهذا عقاب يستحقه، وحتى يتوق إليه. كان الانتحار خياراً جباناً، وخطيئة أيضاً، لكن الأوهام كانت مُغبِطة. لا يمكنه جعلها تتوقف أبداً.

عندما عادت أغنِس في وقت متأخر تلك الليلة، ألقت نظرة سريعة على إيدي وركَضت إلى المهد كما لو أنها شَعَرت بطيف الموت في المكان. أخبرها بهدوء أنه لم يعد بإمكانه البقاء في المنزل مع ليديا بعد الآن. كان ذلك آخر عرض رقَصت فيه أغنِس. لم تعُد أبداً، رغم مناشدات السيد زِي بأن تُكمل الأسبوع. بين ليلة وضحاها، هَجَرت العمل الذي لطالما أحبّته - والذي أحضَرها إلى نيويورك منذ أحد عشر عاماً، في سنّ السابعة عشرة، وجمعهما معاً. وإيدي، من دون مدّخرات أو توقّعات، سار إلى الأرصفة البحرية الغربية ليجد رماد شبابه.

بعد صف طالبي العمل في الصباح، عندما اختار مدير التوظيف مَن سيعمل، أطفأت جحافل من قليلي الحظ أعقاب سجائرهم وانجرفوا باكتئاب إلى المقاصف، والمُرابين، وباعة المخدرات المتجوّلين، وألعاب الحظ. بفضل دونالان، ضَمَنَ إيدي مكاناً في صف طالبي العمل لبعد الظهر إن لم يكن للصباح. غالباً ما كان يختار تمرير الوقت بين الفترتين في التجوّل بين حشود المُعدَمين: البولنديين والإيطاليين، أو الزنوج، أو حتى الأميركيين، أو الرجال البيض الذين وُلدوا هنا. كانت تشكيلة المنتظِرين تحجب هدفهم المشترك: انتزاع المال من الرجال الذين حُرموا بشكل غير عادل من فرصة جَنيه. وكان يُدهشه قدوم الزنوج إلى هذه الأرصفة البحرية من الأساس، حيث الأعمال الوحيدة التي كانوا يأملون الحصول عليها هي الأعمال التي لا يريدها أحد: عميقاً في العنابر لتفريغ الموز، مثلاً، والتي كانت حارة جداً ومليئة بالعناكب اللادغة.

لم يستغرق إيدي وقتاً طويلاً ليرى أن ألعاب الحظ التي تجري بالقرب من أرصفة دونالان البحرية كانت مزوَّرة: مجموعة أوراق لعب خادعة، أو حجر نرد مغشوش، أو حتى - وهذا مشترك جداً مع الغولف الأفريقي، مثلما كانت لعبة الكرابس تُعرَف - وجود خاسر واضح كان في الواقع متواطئاً مع "خاسرين" اثنين أو ثلاثة آخرين ليسلبوا الباقين. صدمة إيدي من هذا الاكتشاف أظهرت مثاليةً لم يكن يُدرِك أنه لا يزال يمتلكها. فالرجل الذي يستدين من مُرابي يعرف بماذا كان يُدخِل نفسه، والرجال الذين يتعاطون المخدرات أو يتناولون الشراب حتى الثمالة يستحقّون ما يحصل لهم. لكن الرجل الذي يقرّر تجربة حظه أملاً في إعادة شيء معه إلى زوجته يستحق فرصة للفوز. كان الحظ الشيء الوحيد

الذي يستطيع إعادة ترتيب الحقائق. ويمكنه فتح باب حيث لا يوجد باب. لذا فاللعبة المغشوشة كانت أكثر من ظالمة؛ كانت مخالفة كونية.

بدأ إيدي يحذِّر الزنوج لإبعادهم عن ألعاب دونالان. "ستجدون الألعاب أكثر عدلاً في مكان آخر"، يقول لهم بشكل غامض، أو "الغرباء لا يفوزون في تلك الغرفة". ودائماً بنبرة توحي بخطر كبير - لم يكن يتحدَّى دونالان فحسب، الذي حصل على عمل بناءً على توصيته، بل الرجال الذين يقفون خلف دونالان والذين لم يكن يعرفهم. والأرجح أن اضطراب إيدي الماكر فسَّر ردات الفعل الحذِرة الذي أحدثتها تحذيراته. "أظن أنني سألعب حيث يحلو لي"، هكذا قيل له، و"أفترض أنه يمكننا الاهتمام بأنفسنا". لكن من وقت لآخر، كان الرجال الذي حذَّرهم يتجنَّبون اللعبة بدلاً من الدخول إلى الداخل. كان إيدي يغتبِط في تلك الأوقات، كما لو أنه أنقذ روحاً من الموت.

عندما توقفت الشحنات بالكامل، في العام 1932، أصبح مأجوراً بدوام كامل لدى دونالان. وكانت آنا تأتي بعد المدرسة وفي عطل نهاية الأسبوع، ويمزج إيدي "مأموريات" دونالان برحلات إلى ميدان سباق الخيل، ومعرض الحيوانات المفترسة في حديقة سنترال بارك، وحوض الأسماك في كاسل غاردن. لم يكن يشعر بالراحة حقاً إلا في صحبة آنا. كانت كنزه السري، مصدر سعادته النقية غير الملوَّثة.

"سنتوقف هنا بسرعة، للقيام بمعروف. سأحتاج منك أن تتصرّفي بأدب".

"هل ستتصرّف بأدب أنت؟".

"سأفعل ما بوسعي يا توتس".

"مَن سيغضب إذا لم نتصرّف بأدب؟".

"لا يجب أن نبرز بين الآخرين، هذا كل شيء".

"أي معروف؟".

"سننقل تحية من رجل إلى آخر. لكنها تحية سرية".

الفكرة حمَّستها. "أريد أن ألقي تحية سرية!".

"يمكنك ذلك. إذا أعطيتني قبلة، سأعطي القبلة إلى ماما، منك".

فكَّرت آنا. "أريد إعطاء قبلة سرية إلى ليديا".

"ليديا لن تفهم يا توتس".

"بلى، ستفهم".

عندما توقفت السيارة عند إشارة مرور، أمسكت آنا رأسه بيديها وقبَّلت وجهه بأقصى حنان ممكن. شعَر إيدي بلسعة في عينيه.

"*هذه* القبلة"، قالت آنا. "إنها لليديا".

في المنزل، راقَبته يوصل القبلة برفق تام، مثلما أمَرته تماماً. كان رجل حقيبة، في النهاية.

عرَف إيدي أنه يدعم الفساد بإيصاله الأموال التي كانت تغذيه - إلى أعضاء مجلس البلدية، أعضاء مجلس شيوخ الولاية، مأموري الشرطة، مدراء الأرصفة البحرية المنافسة، وفي الاتجاه المعاكس أيضاً، في أوقات مختلفة. ومع ذلك فقد حافَظ على موقف رصد - لم يكن يفعل حقاً ما كان يفعله؛ بل يراقبه. كان هذا التمييز أساسياً له لكي يخفِّف إحساسه بالفشل واليأس - الرؤيا العنيدة المؤشرة باقتراب عجلة عربة. وبدأت دروبه تتفرَّع تدريجياً إلى أبعد من أرصفة دونالان البحرية إلى صالات الألعاب حيث كان لدَني اهتمامٌ ولكن ليس سيطرة. كان هناك غشّ هنا أيضاً، لكنه يزول فوراً عندما يأتي مسؤول كبير. لذا فإن ذلك يعني أن الغشّ لم يكن مرخّصاً به من المراتب العليا، بل احتيالاً من موزّعي الأوراق ومشغّلي الألعاب ليزيدوا حصتهم من دون المخاطرة بالقيام بحركة انتحارية مثل سرقة صالة الألعاب. لذا يمكن إيقاف ذلك، إذا عرَف إيدي أي مسؤول كبير عليه إخباره.

عندما لم يكن لدى دونالان أي عمل له، كان إيدي يجلس أحياناً كلاعب عادي ليراقب الفساد، والفساد داخل ذلك الفساد. كان يتخيَّل نفسه محققاً - شرطياً حقيقياً، وليس أحد البيادق المرتشين الذين كانوا الصنف الوحيد من الشرطة الذي يعرفه. لم يدوِّن شيئاً. كان كل الغشّ في رأسه: مَن؛ متى؛ كيف؛ كم. في غضون ذلك، كشفت بنيةٌ أكبر عن نفسها تدريجياً - فمعرفة مَن دفع لـمَن كانت، إلى حد ما، معرفة كل شيء. تبيَّن له أن رجلاً واحداً يتحكَّم بمعظم صالات الألعاب في مدينة نيويورك في أواخر 1934. وكان مسار الأرباح إلى تلك الشخصية ينطوي على تعرّجات ومنعطفات حادة فقط الشخص

الذي يقوم بإيصال الأموال يستطيع البدء بتعقّبها. كان هناك دائماً رجل خلف الرجل، ورجل آخر خلف ذلك الرجل - صعوداً حتى رأس الهرم، مثلما افترَض إيدي.

بعد يومين من احتفال الشتاء، لمَّع إيدي حذاءه، ونفضَ قبعته، وزخرفها بريشة خضراء كانت أغنِس قد حفظتها من عملها بالقطعة. ثم اتصل هاتفياً بذلك الغريب ذي السلطة غير المحدودة في نايتلايت، وهو ثرثار سابق في وست فورتيز أغرق إيدي بالحنين والأشواق عندما دخل. لا شك أنه كان هنا مع أغنِس وبريان وبقية الراقصات، في الزمن الذي أصبح يعتبره *الماضي*.

وفقاً للرجل الذي يستقبل الزوار، لم يكن الزعيم موجوداً. قال إيدي إنه سينتظره، وطلبَ كوب جاودار ومياهاً غازيةً، وفتح ساعة جيبه الفضية على المشرب. كان أبله في حنينه، رأى ذلك؛ والملهى يستغل ذلك. شَعَرَ أن ألعاباً كانت تجري هناك، وراح يراقب إلى أن وجَد الباب، وخمَّن قيمة رهانات الرجال والنساء الذين كانوا يمرّون من خلاله مرتدين لآلئ صناعية وقبعات العام الماضي. كان واضحاً أن المراهنات لم تكن من صلب أعمال نايتلايت. بل كان شيئاً آخر - وسيلة لجني المال تفترض خسارة بعض المال على السطح.

بعد أربع وعشرين دقيقة، اقترب منه رجل آخر وسأله إن كان يريد رؤية الزعيم. تبَعه إيدي إلى غرفة خلفية، حيث رأى رجلاً له فك ديك ترايسي محاطاً بحمقى إيطاليين. شعر إيدي بالصدمة. خارج نطاق أرصفته البحرية، كان دونالان يتعامل مع النقابة. وهذا يمكن أن يعني فقط أنه لم يكن لديه أي خيار آخر.

أخرَجَ ستايلز مأجوريه من الغرفة. وعندما جلس إيدي على كرسي أمام مكتبه، قال، "هل أنت شرطي؟".

هزَّ إيدي رأسه. "أنا مواطن مهتمّ".

ضحِك ستايلز. "بماذا يمكنني أن أخدمك سيد كيريغان؟".

عرض عليه إيدي اكتشافاته في كل لعبة: المكان، وطريقة الغشّ، والغنيمة التقريبية. استمَع له ستايلز بصمت. وقاطعه مرة أو مرتين، "هذا ليس لنا"، لكنه بقي يستمع في الأغلب. وعندما انتهى إيدي، سأل، "لماذا تخبرني هذا؟".

"أريد أن أعرف، لو كنت مكانك".

"بالطبع أريد أن أعرف. ماذا تريد *أنت*؟".

لم يتوقع إيدي أن يصل إلى هذه النقطة بهذه السرعة. وجَد نفسه غير أكيد مما سيقوله - ماذا أراد من ستايلز، بالضبط.

"يمكنني أن أعطيك شيئاً الآن"، قال ستايلز. "في الواقع، أي شيء تقريباً".

راح يحدِّق بكيريغان باحثاً عن نقطة ضعفه. لم يكن المال هدفه، وإلا لكان طالَب به قبل أن يتكلم. ماذا إذاً؟ إنه عادة الشراب لدى الإيرلنديين، لكن كيريغان لم يكن يبدو من النوع الذي يثمل. كما لم تكن هناك نزعة للعنف في تلك الأطراف غير المتجانسة، رغم أنه سيقاتل بشراسة على الأرجح في حالة الدفاع عن النفس. نساء؟ كان الإيرلنديون مشهورين بفرط احتشامهم، بإخلاصهم لزوجاتهم الشعثاء - ربما يستذكرون نحالتهن قبل إنجابهن كل أولئك الأولاد، أو ربما يخافون من الموقَّرين الثملين المولعين بالقتال.

"فتيات؟". كان يراقب وجه كيريغان، منتظِراً ذلك الإجفال الذي سيمكّنه من معرفة أنه وجد ضالته. "لدينا الفتيات بوفرة هنا".

"لديَّ زوجة جميلة سيد ستايلز".

"وأنا أيضاً"، قال دكستر. "نحن محظوظان".

المال إذاً. خاب أمله من كيريغان؛ سينال أقل مما كان سيناله لو طالب به من البداية. "كم برأيك الثمن العادل للمعلومات التي أعطيتني إياها؟".

جمَّع إيدي أفكاره، غير راضٍ. "برأيي"، بدأ يقول، "يمكنك أن تدير أعمالك بشكل أفضل وتجعله أنظف في الوقت نفسه - أقصد أكثر عدلاً - للرجال الذين يجرّبون حظهم". بدا كلامه مُراوِغاً، وحتى ساذجاً. شَعَرَ بحِيرة ستايلز - لكنه شَعَرَ أيضاً أن ستايلز يستمتع بأن يكون محتاراً.

"هل تظن يا سيد كيريغان أنني أدير جمعية خيرية؟"، سأل.

لم يكن إيدي قادراً على منع نفسه من الابتسام.

"أنت تفكّر مثل شرطي"، قال ستايلز. "لماذا لم تنضم إلى السلك؟".

"حتى لو فعلتُ ذلك سأظل أعمل لديك".

فقط عندها فَهِم إيدي ما كان هدفه من القدوم إلى هنا. لقد أراد وظيفةً.

"لا يحبّذ بعض الرجال فكرة العمل لديَّ"، قال ستايلز. "لا يحبّون التغيير في الأوقات".

فسَّر إيدي هذا بأنه لم يكن أول إيرلندي من الواجهة المائية يأتي طالباً وظيفةً بدافع اليأس. "أظن أن هذا يعتمد"، قال، "على مَن كانوا يعملون لديه سابقاً".

مال ستايلز إلى الوراء، وراح يقيّمه. وفعلَ إيدي الشيء نفسه للرجل الأصغر سناً الجالس وراء مكتبه: الإسم الزائف مع إسم إيطالي مجعَّد خلفه تماماً، استياء مضطرب بدا كحشريةٍ، طاقةٍ. وتحت ذلك، حزن عميق كفاية ليحمل وزنه. رأى إيدي رجلاً يُدركه ويحبّه. وشعَر بألفة تجاه دكستر ستايلز، الذي كانت طاقته مستمدّة من حقيقة أنها من خارج زحامه - في تحدٍ له. ولاء اختياري بحت.

"يصدف أنك محقّ"، قال ستايلز. "أودّ تنظيف تلك الألعاب الذي ذكرتها. وأودّ معرفة ما هي التسرّبات الأخرى التي لديَّ. فلديها مَيل إلى الاختفاء عندما يحضَر شبابي".

"تحتاج إلى أمين مظالم"، قال إيدي. كان هذا مصطلحاً اكتشفه منذ سنوات، في صحيفة. وبقي ينتظر فرصةً منذ ذلك الحين ليستخدمه.

ابتسم ستايلز، مرتبكاً. "حسناً إذاً: أمين مظالم. لكن لا يمكننا أن نلتقي هنا. أو أن يرانا أحد معاً".

"بالطبع".

"أحضِر عائلتك إلى منزلي وسنتكلم أكثر. هل لديك أولاد؟".

"ابنتان".

"لديَّ إبنة أيضاً. يمكنهما أن تلعبا معاً. هل يناسبك السبت؟".

كان ينهمر مطر خفيف عندما خرج إيدي من نايتلايت، لكنه بالكاد لاحظ ذلك في فرحه العارم. راح يخطو خطوات كبيرة في الجادة الخامسة، الفارغة من الجميع ما عدا من المزاريب الباحثة عن أعقاب السجائر المرمية. وسرعان ما كان يمرّ بالقرب من المخيَّمات في ماديسون سكوير. وشاهد ألسنة نيران التدفئة والدخان تتطاير في الهواء الرطب. وشمَّ رائحة القهوة والحليب المكثّف المغلي في الصفائح - وهي رائحة حلوة

معدنية لطالما أزعجته. عادة، تجعله تلك الرائحة يرتعد خوفاً من إدراك أن فقط جون دونالان - ذلك الوحش المنتفخ والمتقلِّب - يقف بين إيدي وبين الرجال الذين يغلون القهوة في الهواء الطلق.

عثر على ثغرة، على وسيلة للخروج. ستحصل ليديا على كرسيها. وربما، فكَّر إيدي، منبهراً من قطرات المطر الصغيرة جداً والمتلألئة على الأشجار، ربما سيساعدها ذلك بطرق لم يتوقعها في كآبته. وربما، في النهاية، ستبدأ ليديا بتقويم نفسها.

أما بالنسبة لهدفه الأصلي - إعطاء الرجال فرصة عادلة مع الحظ - فلم يفكّر فيه إيدي خلال نزهته الرطبة والمظلمة والمنتشية. وما شعَر به كان ارتياحاً بَحتاً لإنقاذه نفسه.

الجزء السادس

الغطسة

الفصل 20

عبثاً حاوَل دكستر، طوال الشهر منذ خيبة أمله مع السيد كيو، أن يناور ليتمكن من التحدث على انفراد مع حميه خلال إحدى وجبات الغداء معه. وقد تبيَّن أن صعوبة فعل ذلك هي لصالحه؛ فمع مرور كل أسبوع، أصبح دكستر أكثر يقيناً مما أراد أن يقترحه. أخيراً، وخلال حفلة عشاء لنادي الصيد، نظر إليه العجوز عبر الطاولة المتناثرة عليها قِطع حلوى نصف مأكولة وقال، "أحتاج إلى بعض الهواء المنعش. وأنت؟".

نهض دكستر على أضواء الشموع العابقة بالدخان. وكانت الأوركسترا تعزف لحن "احتفال الشتاء الأبيض"، الذي كان قد أصبح واهياً جداً في منتصف فبراير، وكان أكثر من مستعد أن يعلِّق مراقبته لرقصة خطوة الثعلب الودودة. فقد كان يراقب تَبَتا وغرايدي، لكن ما بقي يراه بدلاً من ذلك كان زوجته بين ذراعَي بُوث كيمبل (المعروف، وبشكل جدّي، بإسم بُو بُو [صيحة استهجان])، بطل في رياضة البولو كانت مولعة به في مراهقتها. تزوَّج بُو بُو الليدي كذا وانتقل للعيش في لندن بعد فترة قصيرة من زواج دكستر وهارييت. الآن، وبعد عدم رؤيته الرجل منذ أكثر من عقد، بالكاد كان دكستر قادراً على التعرّف عليه – فقد ابيضَّ شعر بُو بُو. "لقد تفاديتِ رصاصةً يا عزيزتي، همَس لهارييت خلال الكوكتيلات، مشيراً برأسه نحو بُو بُو. فقالت بصوت رخيم، "تُوفِّيت بيبا من السرطان العام الفائت".

قاده العجوز عبر ستائر التعتيم الكلي المخملية إلى عاصفة من القطب الشمالي. "هواء منعش"، قال بحنان في الرياح العاتية. "شعور جيد". كان يرتدي وشاحاً حريرياً رقيقاً – أكثر من ربطة عنق بقليل – وقبعة سوداء كروية، لكنه كان مشهوراً، وعلى نحو هزلي تقريباً، بأنه جَسور. لم يره دكستر يعرق أبداً حتى عند ارتدائه بذلة سهرة في عزّ الصيف. كانت مشيته سريعة لدرجة أن دكستر احتاج إلى أن يسير بجدّية لكي يجاريه،

رغم أنه أطول منه بعدة سنتيمترات.

كانت هناك طبقة رقيقة من الثلج القديم تغطي الممرات السالكة، لكن المسارات التي يسير عليها الغِلمان في الأغلب كانت خالية. تبَعا أحد تلك المسارات إلى الشاطئ، معلّقان خلال هدوء الرياح على مدى أناقة غرايدي في زيّه الرسمي، والذعر الذي كان يسبّبه رحيله لأمه المسكينة. كانت عطلة نهاية الأسبوع هذه هي آخر إجازة له قبل الإبحار. بوجود ثلاثة أولاد محليين آخرين في مأزق مشابه - اثنان في الجيش، وواحد في خفر السواحل - أصبحت حفلة العشاء هذه بمثابة حفلة وداع. كان كُوبر يشعر بالغثيان جرّاء خوفه الكبير على إبنه، لكن دكستر كان واثقاً أن حتى حرباً عالميةً لا تستطيع إبطال وعد غرايدي.

وَصَلا إلى الجدول المعقوف، وهو جزء لولبي من مياه البحر المُخضَّرة المحمَّدة الراكدة بسبب التفافه حول شاطئ لونغ بيتش، عبر قناة برود تشانل، ومروره فوق أصناف مختلفة من العشب المستنقعي. كان يودّ دكستر لو يستمرا بالسير - لأنه يفضِّل أن يتحرّك بينما يتكلم - لكن العجوز توقف.

"أفضِّل أن أكون بجوار الماء كلما أمكن، ألا تفضِّل ذلك؟"، قال وهو يحدِّق في الظلمة. "يعبِّر عنه ميلفيل أفضل تعبير: 'لا شيء سيُسعد الرجال أكثر من أقاصي الأرض' - لكن لا، لا أستطيع أن أتذكر الاقتباس. من طبيعتنا أن نسعى وراء الحافة. حتى في مضمار الغولف".

"خاصة في مضمار الغولف"، قال دكستر، وضحِك الاثنان. كان كرههما للغولف من الأشياء المشتركة بينهما - دكستر لأنه لم يملك الصبر ليتعلم لعبة يشربها الخبراء مع حليب الأمهات؛ والعجوز لأنه اعتبرها كسلاً متنكّراً في هيئة رياضة.

كان دكستر يعرف هذه البقعة: فهي نفس البقعة التي طلب فيها يد هاريت للزواج منذ فترة طويلة. حصل ذلك في الصيف، والأشجار منحنية تحت ثقل أوراقها، والممرات السالكة المجزوزة حديثاً تُصدر رائحة لطالما ذكّرته بالمال الجديد. الآن، وبينما كان ينظر إلى الأفق الدامس، وجَد نفسه يتذكر نسخةً معدَّلةً من تلك المحادثة السابقة.

"أصدقاؤك وأصدقائي يا سيد ستايلز"، علَّق حموه المستقبلي في ضجيج حشرات الزيز، "أعتقد أنه من الإنصاف القول إنهم لن يروقوا لبعضهم البعض كثيراً".

بدا هذا التبسيط المريع ضرباً من الفكاهة، لكن دكستر أخذه على محمل الجد. "أفترض أنه لن تكون هناك قواسم مشتركة كثيرة بينهم يا سيدي"، قال.

"آه، أعتقد أنه توجد أمور كثيرة مشتركة بينهم، رغم أنهم قد لا يحبّذون الاعتراف بذلك. أو يمتلكون لغة مشتركة ليفعلوا ذلك بها".

هذه الجملة المذهلة أصمتت دكستر.

"قد تظن أنه من الغرابة، يا سيد ستايلز، ألا أهتمّ كثيراً مَن هم أصدقاؤك".

"أنا... يسرّني أن أسمع هذا، سيدي".

"هارييت مجنونة بحبّك، هذا ما يهمّني. والآن يجب أن تفكر جيداً كم أنت مجنون بحبّها. ستكون الواحدة والوحيدة لك. هنا أضع الحدود يا سيد ستايلز. ليس على أصدقائك، ليس على نوع عملك، أو سُمعتك، أو تاريخك. بل إخلاصك. هذا سيكون وعدك لي".

"أعدُك بذلك"، قال دكستر بكل التفكير الحريص لشابٍ متلهّفٍ ليستمر بمجامعة إبنة المصرفي التي كان يجامعها ويجعل ذلك قانونياً.

"أريد أن تكون إبنتي سعيدة"، قال السيد بيرينجر وهو يراقبه بنظرة تقييم هادئة. "وسأراقب سعادتها بقوة شديدة".

"فهمتُ، سيدي".

"لا"، قال بنبرة مرحة. "لا يمكنك أن تفهم. لكنني آمل لصالحك أن تفي بوعدك لي. فالوعد يعني لا استثناءات. مفهوم؟".

بالطبع لم يفهم. ولاحقاً، عندما بدأ يفهم، لم يكن بمقدوره سوى أن يُبدي إعجابه بالرشاقة التي يستطيع بها حموه أن يخلّص نفسه من القيود بقوة كافية ليستخرج وعوداً. هوديني لا يستطيع أن يتفوّق عليه: كانت إبنته حاملاً ورفضت أن تخضع لعملية إجهاض. ولو رفض آرثر منحهما موافقته، لكانت هربت مع دكستر: وهذه فضيحة. لم يكن لدى العجوز أي مجال للمناورة، ومع ذلك فقد ساوَم كما لو أن له اليد الطولى – مستشعراً بفطنة مُوحِشة أن دكستر، ورغم سجله الإجرامي، كان رجلاً يحترم كلمته. كان الزواج بواحدة غريباً بكل معنى الكلمة في خط عمله، لكن لم تكد الذراعان الحريريتان

لإحدى فتيات الجوقة تطوّقان عنقه حتى شَعَر دكستر بأنه مراقَب: هل ستكون هذه كَبْوته؟ الطرف الرفيع للوتد؟ كانت نتيجة ذلك أفضل من دُش بارد. وأصبح بعد ذلك مرتاحاً، وحتى ممنوناً، دائماً. كانت السيدات سيئات مثل المخدرات لصرف اهتمام الرجل بمصالحه. وهارييت كانت أجمل منهن كلهن.

كانت هناك المرة الوحيدة على متن القطار. العثرة الوحيدة – خارج الزمان والمكان – التي قوّت قراره بألا يخطئ مرة أخرى أبداً.

الآن، وقد نكث وعده للمرة الثانية منذ أسبوعين بالضبط في مثل هذه الليلة، وجد دكستر نفسه مضطراً إلى التفكير أن العجوز ربما يكون قد أحضَره إلى هنا لكي يواجهه بهذه الحقيقة. لكن كيف يمكن أن يعرف؟ فما رآه جورج بورتر لم يكن شيئاً. وحتى لو شكَّ جورج بشيء، فإن خطيئة دكستر تُعدّ بسيطة مقارنه بخطاياه. على أي حال، فقد أصبح الطبيب ودوداً مع دكستر من جديد منذ تلك الليلة، والتفاهم الرجولي الذي بينهما تعزَّز حديثاً.

خرَج من هذا المكتب البني ليجد العجوز يراقبه. "لم تكن على طبيعتك في الأسابيع الماضية"، قال. "أتساءل ما الذي يشغل بالك".

بلع دكستر ريقه. كيف ينجو الخائن لزوجته بفعلته؟ لكن كان هناك شيء يشغل باله، بالطبع – وكان يخطط منذ شهر لإقناع العجوز به. بدأ يقول بصوت مرتاح، "أشعر بالحاجة إلى تغيير، سيدي".

"سيدي؟".

تورَّد خدّا دكستر. "آرثر".

"أي نوع من التغيير؟".

"مهنيّ".

"لديك تنوّع كبير في المصالح من قبل، أليس كذلك؟".

"هذه حقيقة. لكنني على الجهة الخطأ".

فرقعت الموسيقى مثل فونوغراف بعيد عبر رشقات رياح جليدية. كان الجو كما لو أنهما يقفان عند نهاية الكرة الأرضية: منظر رمادي أسود من ماء وجليد.

"الصح والخطأ مصطلحان نسبيان، أليس كذلك، في عملك؟"، سأل العجوز.

"لطالما قلتُ ذلك".

صفَّر آرثر. "الوقت متأخر اليوم للمثاليات".

سمع دكستر ابتسامته. "يبدو أن الأمر وبائي"، قال.

"الحرب ستفعل ذلك. وهذه إحدى فوائدها العديدة".

"أريد أن أكون جزءاً صادقاً مما يأتي بعدها"، قال دكستر. "وليس مجرد عَلَقة تمتص الدم عن ظهره".

أخذ العجوز نَفَساً عميقاً، شيئاً يشبه التنهيدة. "من المؤسف أننا مجبرون على أخذ الخيارات التي تسيطر على كامل حياتنا عندما نكون يافعين جداً".

"إذا كانت الخيارات الخطأ، علينا عندها أخذ خيارات جديدة"، قال دكستر. "حتى في وقت متأخر من اليوم".

هبّة ريح أدمعت عينيه، لكن العجوز لم يفعل شيئاً سوى الإمساك بقبعته. وعندما هَدت الرياح، قال، "بناءً على معرفتي المحدودة بأقرانك وممارساتهم التجارية، لن يكون سهلاً عليك تغيير تحالفاتك".

"هذا يحصل مسبقاً بشكل طبيعي"، قال دكستر. "لديَّ اهتمامات شرعية هنا، وفي شيكاغو وفلوريدا. ولديَّ صداقات في كل مكان".

"لا أشك في ذلك. فأنت شخص محبوب. لكن هل يُدرك صاحب عملك هذا... التباعد الطبيعي؟".

كانت هذه أول مرة يلاحظ فيها دكستر أن العجوز أشار، فردياً ومباشرةً، إلى السيد كيو. تبدَّدت دهشته السريعة الزوال وحلّ محلها إحساس متعنِّت بالتقارب، كما لو أن جسراً ظهر فجأة بين عوالم متناقضة. والجسر هو بالضبط ما كان يحتاج إليه.

"أنا أكيد أنه يُدرك"، قال دكستر. "لكن الأمر متروك لي لكي أقوم بخطوة حاسمة".

كان العجوز شديد الحيطة والحذر لكي لا يشعر إلى أين يتجه هذا الحديث – وربما عرَف ذلك من كلمة "مهنيّ"، أو حتى كلمة "سيدي". قوَّم دكستر كتفَيه وأخذ نَفَساً. "خطرَ ببالي"، قال مبتلعاً "سيدي" أخرى ارتفعت في حلقه مثل فقاعة، "أن أُحضِر

أصولي ومصالحي الشرعية إليك. في المصرف".

"سنشتري كامل حصتك"، قال العجوز.

"بالضبط".

بدا صمت حموه دلالةً جيدةً – دلالةً على تفكير جدّي. راح دكستر يحدِّق في لفائف مياه البحر المجمَّدة عند قدميه. لقد تغيَّر مسار حياته من قبل في هذا المكان – فلماذا لا يحصل ذلك مرة أخرى؟

"أنت لا تفكّر بوضوح يا بُنيّ"، قال العجوز أخيراً، بنفس النبرة الدمثة التي قال بها كل شيء. "وهذا يُقلقني كثيراً – لسلامتك الشخصية وسلامة الأشخاص الأعزاء على قلبي الذين تحت حمايتك".

ارتدّ كيانٌ عميقٌ داخل دكستر كما لو أنه لُسعَ، لكنه تمكّن من أن يقول بنبرة عادية، "ما هو تقييمك للوضع؟".

"لديك حياة جيدة يا دكستر. عائلة جميلة. وأنت شخص معروف ومحترَم – ويسعى الآخرون وراءك. إسمك يرد في الصحف. وهذا ضعف، وحتى ثلاثة أضعاف، ما يُنجِزه معظم الرجال في حياتهم. لكنه غير قابل للنقل. أي أنك تملك عملةً لا يمكنك استخدامها في أي بلد غير بلدك".

"لا أرى ذلك".

"صفِّ ذهنك إذاً يا بُنيّ. صفِّ ذهنك". كانت كلمة ُبنيّ في صيغة التصغير؛ ما يسمّيه العجوز كُوبر.

"أشعر أنه صافٍ جداً"، قال دكستر. "ذهني".

"هل تعرف"، قال العجوز بدماثة، "بعد الحرب العُظمى، عندما أنشأنا نقابات لنكفَل مسألة السندات من أجل بناء السكك الحديدية والمَصانع، لم يكن لدينا أبداً أي عقد موقَّع مع أيٍ من شركائنا؟ ليس مع فريق الإدارة الأقرب إلينا، وليس حتى مع فريق المشتريات الذي باع السندات للعامة. لم يكن هناك قانون يُشرِف على تلك المعاملات. الثقة، السُمعة الطيبة – هذا كان كل ما احتجنا إليه. وكل ما كنا نملكه! حتى يومنا هذا، كل تجارتي تستند على الثقة".

"لكنك تثق بي"، قال دكستر. "لقد أظهرتَ ذلك مراراً وتكراراً".

"أثق بك كلياً. كنتَ لتصبح مصرفياً مذهلاً يا دكستر. شريكاً؛ لا شيء أقل من ذلك". كانت هذه إشارة إلى كُوبر، موظف مبتدئ في الشركة من غير المحتمل أن يرتقي كثيراً رغم صلة النَسَب. "لديَّ ثقة مُطلقة في بصيرتك. لهذا السبب أنا متفاجئ من عدم رؤيتك أن سُمعتك - تاريخك - يمنع عليك ذلك".

بذل دكستر جهداً كبيراً ليلتقط أنفاسه. كيف لم يتوقع هذا الاعتراض؟ لكنه توقّعه - كان أول شيء توقّعه. وقد اتّكل ببساطة على قوة العجوز وسُمعته واستقلاليته لينحّيه جانباً.

"لم أعتقد أبداً أنك تهتمّ بآراء الرجال الآخرين"، قال.

"شخصياً، لا"، قال العجوز. "تجارياً، ليس لديّ خيار آخر. أعرف تماماً إلى أي مدى يمكنني الذهاب. هل أقول إنه لا يوجد أي مصرف في نيويورك يقبل بك؟ بالطبع لا. هناك مصارف لا تهتمّ بالسُمعة كثيراً. لكن لماذا؟ لماذا تصبح مصرفياً عادياً في شركة عادية، وتحاول أن تبرهن بلا هوادة أنك أصبحت مستقيماً؟".

"هذا ليس ما أريده".

"إنه أفضل ما ستحصل عليه إذا سلكت هذا الدرب. لو كنتُ مكانك، لبقيتُ حيث أنا بالضبط. تعرَّف على آلاف منافع موقعك واستمتع بها. فمحاولة تغيير الموقع في منتصف الطريق سيعني على الأرجح فقدانك تلك المنافع دون اكتساب أي منافع جديدة".

كانت حكمة كلمات آرثر واضحة وغير قابلة للجدل، لكن دكستر كان يعرف من قبل أنه لا يمكنه الإصغاء إليها. فقد تبدَّل شيءٌ في داخله. "لقد دفعتُ ثمناً كبيراً لمنافعي"، قال مفاجئاً نفسه من هذا الإفشاء. كان يتكلّم عن الدم الذي على يديه.

أمسك حموه كتفَيه في قبضته المُرهَفة. بدا صِغر حجمه مصدراً للسلطة، وضخامة حجم دكستر في المقابل من مزايا الشباب المتهور. "كلنا ندفع ثمن منافعنا"، قال العجوز بنبرة ذات معنى. "لا يوجد رجل في كل هذا العالم لم يحصل معه ذلك. لكل رجل أسراره، وأثمان لممارسته أعماله التجارية. والأمر لا يختلف في مجالي. لا تدع الأعمدة الرخامية

تخدعك – فالرومان كانوا يملكونها أيضاً، وقد ألقوا بسجنائهم إلى الأسُود. هناك مقدار كبير من الوحشية خلف المؤسسات المشابهة لمؤسستي، ومقدار مماثل من النفاق".

عينا دكستر أحرَقته، لكن ليس من الرياح. كم كان يحبّ آرثر بيرينجر لاعتبارهما متساويين! لم تكن "وحشية" العجوز مماثلة لـ "وحشية" دكستر، بالطبع، مهما كان يعتقد. ومع ذلك، فقد كانت هناك حدّة خلف الكلمات جَعَلته يتمنى لو يمكنه رؤية وجه حميه. لكن العتمة كانت الميزة الأساسية في حديثهما.

بتفاهم صامت، بدأا يتبعان أصوات الأوركسترا عائدين نحو النادي. ثم لاح لهما أخيراً: صف أعمدة مدهشة تدلف فرحاً في الأفق القمري الجليدي.

"لم يُكتَب ما يكفي عن خيانة منتصف العمر"، قال العجوز متأملاً، وصوته يطوف في الرياح. "دانتي ذهَب إلى الجحيم هرباً منه، وقد رأيتُ الكثير من الرجال يفعلون الشيء نفسه، مجازياً. كن صبوراً يا دكستر. للحروب طريقتها الخاصة في تبديل الأرضية إلى تكاوين لا يمكننا توقُّعها، مهما بذلنا من جهد. هذا ليس الوقت المناسب للقيام بخطوات جريئة".

كان دكستر يحبّ كلمة "تكوين". لقد تحوَّلت مجريات الأمور في الحرب، لا لبس في ذلك – وما توقّعه العجوز في الخريف الفائت بدأ يحصل من قبل. لكن استياءً دام لأسابيع – أشهر – بدأ يتراكم في دكستر، وكان عليه أن يتصرّف. حتى الخطوة الخطأ بدت جذّابة أكثر من عدم القيام بأي خطوة أبداً.

كان جورج بورتر يحوم وراء ستائر التعتيم الكلي، يمشّط شاربه بقلق. "كنتُ أتساءل أين اختفيتما"، حيّاهما بنظرات فاحصة. لكن دكستر كان مشتت الذهن لكي يطمئنه.

كل فرد من آل بيرينجر ما عدا الفتيان الغائبين في المدرسة كان حاضراً هذه الليلة، وقد ملأوا أربع طاولات في غرفة الطعام المزدحمة. كان دكستر قد أُجلس بجانب بيتسي. ومع استمرار هنري المسكين بإلقاء نظرات مُهلِكة نحوهما من الجهة المقابلة للطاولة، استجوبها خلال تناول العشاء. نعم، كان الطفل يبكي أقل. لا، لم تعد حزينة كما كانت من قبل. هدوؤها جَعَل دكستر يشكّ أنها وجَدت وجورج مكاناً منعزلاً خلال ساعة الكوكتيل. كان هناك الكثير من تلك الأماكن في نادي الصيد، مثلما كان دكستر يعرف جيداً من الأيام التي كانت هارييت تُحضِره فيها إلى هنا بدافع التمرُّد. بإمكان العذوبة ولفّة

أوراق مصرفية ثقيلة أن تضمن دخول المرء إلى أماكن عديدة في هذا العالم، لكن ليس نادي روكأواي للصيد. كان دكستر يستمتع بالاستقبال الفاتر الذي يلقاه من المواقد القديمة وذُرّياتهن المترمتة في تلك الأيام - بماذا كان يهتمّ؟ يمكنهن معاملته بجفاء، ورفض استضافة عرسه (وهذا شيء أغضب العجوز كثيراً)، لكنه انتزَع واحدة منهن وكان يشبك يدها وهما يسيران بجانب حوض السباحة في الليل، يبحثان عن مكان للمجامعة. كان الخِزي الجماعي يحفّز شهوتهما مثل سكين يطرق كوب بلّور؛ وكان رنينه يملأ الأشجار ويهتزّ في ضوء القمر إلى أن لا يعود بإمكانهما التفكير بأي شيء آخر. كانت السعادة الزوجية تتحقّق في حفرة رمل، خلف حظيرة حديقة، تحت خزانة تحتوي على صور فوتوغرافية وكؤوس من سباقات الحواجز المشهورة. حامل في الشهر الثامن، جامعته هاربيت تحت غطاء طاولة خلال تقديم الجوائز لمباريات كرة المضرب على العشب.

لكن *التكوين* تبدّل الآن. فقد تم تقبُّل تابي والتوأمين من البداية، وكانت هارييت إبنة ضالة عادت إلى رشدها - ورُحِّب بها بحرارة أكثر بسبب المسافة التي قطعتها. فقط دكستر بقي خارجاً. كان جيله ودوداً كفاية؛ فكانت الزوجات يغازلنه بتهوّر عندما يثملنَ. لكن الحرس القديم بقي يعامله بازدراء مُنهَك كان الضجر مكوّنه الرئيسي. صحيح أنه كان حميمياً جداً لكي يكون مروّعاً بالنسبة لهم، إلا أنهم كرِهوه مع ذلك.

بدأ غرايدي وبقية الفتيان المغادِرين يرقصون الفالس مع أمهاتهم الفخورات الخائفات. كان الفتيان يتوهّجون في أزيائهم الرسمية الأنيقة، أبطالاً مسبقاً. قرّر دكستر أن يبحث عن السيد بونافنتورا، الذي يدير المطبخ (حتى المترمّتين كانوا يعرفون أنه عندما تتعلق المسألة بالطعام والشراب، يجب الاستعانة ببرازيلي)، ليناقش معه مصدر لحم بقره من السوق السوداء. كان اللحم المشوي قاسياً؛ ودكستر يعرف أنه يستطيع أن يفعل أفضل وكان يحبّ فكرة إجراء هذا الجزء من العمل بينما يرقص المترمّتون. لكن حتى وهو يخطو نحو الباب المتأرجح المبطّن للمطبخ، انقبض جزءٌ منه من هذا الأمر. كان المزيد من الشيء نفسه - نفسه، نفسه - وفجأة، تحولّت فكرة المساومة مع السيد بونافنتورا على لحم البقر من فكرة واعدة بغموض إلى فكرة سيئة بشكل بائس. لقد ملَّ من نفسه بالقدر نفسه الذي ملّت منه المواقد.

واقفاً في وسط قاعة الرقص، أدرك دكستر مأزقه: أي نشاط لديه القوة ليفعله

سيدفعه أكثر وأكثر في الاتجاه الذي يتمنّى الابتعاد عنه. لم يكن هناك، حرفياً، أي شيء يمكنه القيام به.

لكن هذا الاكتشاف جعله يشعر بوجود احتمال واعد. لنفترض أن *الفِعل* كان الفكرة الخطأ. ربما كان هناك شيء يمكنه *إبطال فِعله*.

لمح زوجته خارجةً من غرفة استراحة السيدات فأمسك يدها. بدت جافلة ومسرورة بينما سحَبها إلى حلبة الرقص المزدحمة. كان قد نشأ تصلّب بينهما منذ الليلة التي أمضاها مع إبنة كيريغان. كان صعباً إزالة آثار تلك الاستراحة: صدمة معرفة مَن تكون، قبل كل شيء، لكن أيضاً رائحتها وملمسها ومذاقها. كان قد عاد إلى عنبر الزوارق بعد يومين ليحقِّق في تلك الزجاجات الفارغة ويحدِّد هوية المتطفِّلين. لكن سرعان ما وجد نفسه محاصراً بعناصر تلك الليلة – الطاولة، الموقد، جورب مجعَّد مرمي على الأرض – فوجد نفسه يتكئ على جدار ويضع يده في سرواله. لم يعُد إلى عنبر الزوارق منذ ذلك الحين. كما لم يجامع هارييت – وهذا أمر غير معتاد قَبلته باتّزان مدهش. أما الآن، وقد شاهدها بين ذراعي بُو بُو المثكول حديثاً، صمَّم دكستر أن يستأنف علاقاتهما الطبيعية. احتضنها بين ذراعيه، وراح يتنفّس رائحة المسك في شعرها ويتحسَّس، في وركَيها المتعرِّجين، ذكرى رياضة ركوب الخيل في طفولتها التي لم تعد تمارسها.

"هل تتذكرين كيف كنا في هذا المكان؟"، سأل.

"آه نعم".

"لنأمل أن يحصل ذلك مع تابي وغرايدي".

كان يقصد أن يكون مُضحكاً، لكنها تشنّجت بين ذراعيه. "إنها في السادسة عشرة".

"كم كان سنّك؟".

لم تكن بتولاً عندما التقيا. في ذلك الوقت، لم يخطر على بال دكستر أن يسألها عن تفاصيل متى أو مع مَن. ربما كان بُو بُو، الأكبر منها بعشر سنوات. وربما كانت ستتزوج بطل البولو لو طلب يدها، لكنها كانت يافعة جداً وجامحة كثيراً. حتى والد مثل والدها لن يستطيع التعويض عن ذلك. كان للجميع آباء مثل أبيها.

"الفتيان يتصرّفون بأدب"، قال ليسترضيها.

"إنهم فتيان مؤدَّبون"، قالت. "أنت لا توفيهم حقّهم كفاية".

"سأوفيهم حقّهم أكثر".

"حقاً؟". شعَر بأنفاسها الدافئة في أذنه وعرَف أنه سيجامعها تلك الليلة. وانتقلت أحداث عنبر الزوارق إلى ما بعد أفق أفكاره. لكنها لن تختفي كلياً.

"إذا كان ذلك سيُسعدك".

"سيُسعدني جداً".

اختتمت الأوركسترا عزفها بلحن الفيلم السينمائي غير الجيد جداً "تانجرين"، بطولة دوروثي لامور. وبدأت مجموعات عائلية تتلمّس طريقها في الظلمة بارتباك. العجوز، إلى جانب كُوبر ومارشا وأخوات غرايدي (فتيات عاديات يحجبهن ظل وهجه)، سيرى غرايدي غداً في محطة بنسلفانيا. أما لبقيتهم، فهذا كان وداعاً.

غادر دكستر النادي إلى جانب جورج بورتر، وذراعه على كتفَي الطبيب ليبدِّد قلقه الواضح عن التسامر الذي حصل بين دكستر والعجوز. يجب أن يعرفه جورج بشكل أفضل من ذلك.

بدا غرايدي أطول مما كان عليه قبل أسابيع قليلة، ونظره يكاد يكون على نفس مستوى نظر دكستر. راح ضوء القمر ينعكس على الأزرار النحاسية لزيّه. وشَعَر دكستر بانقباض في حنجرته وهو يصافح إبن أخيه. فرغم كل ثقته بأن غرايدي سينجو، إلا أن شعوراً مُوحِشاً انتابه بأنه لن يراه مرة أخرى.

رمت تَبَتا ذراعيها حول عنق غرايدي وتعلّقت به، باكيةً. بقي دكستر قربهما، قلقاً من أن عرضهما كان غير لائق. لكن حماته اكتفت بالقول بصوت صارم، "لطالما كانا قريبين من بعضهما".

حاوَل دكستر تمييزها في ضوء القمر. هل يُعقَل؟ تحت جنح الظلام، كانت بعض الدموع تنهمر من عينَي بيث بيرينجر البخيلتين وتلألأ الآن بتخريب مبهرَج في تجاعيدها المتغيِّرة الألوان.

"يحتاج غرايدي إلى توديع أشخاص غيرك يا عزيزتي"، قالت لها هاربيت بلطف،

وهي تُبعد تابي عن نسيبها.

رَكَضت تابي إلى دكستر، فاحتضنها بين ذراعيه. "لا عليك، يا قطتي تابي"، قال. "لا تقلقي. كل شيء سيكون على ما يرام".

"لن يكون هكذا"، قالت. "وإلى الأبد".

"سيعود غرايدي بصحة تامة مثل حصان، أعدُك بذلك".

ابتعَدت عنه، محاولة رؤيته. "لا يمكنك أن تعدني بهذا يا أبي".

كانت محقة؛ فقد كان يتكلَّم كلاماً فارغاً. "يمكنني أن أعدك بذلك لأنني مقتنع به. لا أشعر بأي قلق بشأن غرايدي بيرينجر: على الإطلاق".

كان هراءً من الطراز الأول، ومع ذلك شَعَر دكستر بالتأثير المهدئ لكلماته كما لو أن قلب إبنته كان يسترخي داخل صدره. شعَر بتشابه جسديهما، برائحتهما المشتركة، بطريقة تحرّكهما. كانت له. وكان لها.

سارت هارييت أمامهما نحو الكاديلاك، وهي تضع ذراعاً حول كتفَي كل توأم. وتبِعها دكستر، وهو لا يزال يحتضن تابي. لم يتكلَّم أحد؛ كان هناك فقط صوت دعساتهم على مسار الحصى. وفقط عندها، بينما كان يحتضن إبنته المكروبة تحت ضوء القمر، عرَف دكستر ما هو النشاط الذي عليه القيام به.

الفصل 21

غالباً ما كانت آنا تتذكّر كيف جرّت نفسها صعوداً على السُلَّم في يوم الاختبار، منتصِرةً. لو كان فيلماً سينمائياً، لكان انتهى عند تلك اللقطة، مع وعد بأنها، بعد طول انتظار ورغم كل التحدّيات، نالت احترام الملازم الفظ. في الواقع، بدأ يحبّها أقل. وكان يشير إلى غطّاسيه مستخدماً كلمة "فتيان" أو "رجال" أو "السادة الأفاضل". كما يصمت عندما تمرّ آنا، كما لو أنها قطة سوداء. فهِمت أن أملها الوحيد في إرضائه هو بالاستقالة، ولم يُعطها أي سبب لكي تبقى.

مرّ أكثر من أسبوعين على يوم الاختبار، ولم تعد إلى الماء ولو لمرة واحدة. كان الرجال يغطسون في أغلب الأحيان؛ وعمِل باسكومب ومارل معاً على ترقيع البدن المغمور لمدمِّرة للحلفاء. عُيِّنَت آنا كعامل مُجهِّز، أي أن اختصاصها هو الإنقاذ: رفع الأشياء الغارقة. كانت النورماندي، عند الرصيف البحري 88، عملية إنقاذ، على غرار الأسطول الألماني الموضوع في سكابا فلو. لكن لم تكن هناك سُفن غارقة في خليج والأباوت؛ بل آلاف عارضات التثبيت التي انزلقت عن ظهر بارجة منذ عقد من الزمن وبدأت الآن تعيق مرور بعض السُفن العميقة القاع. باستثناء آنا، كل الأشخاص الذين تم اختيارهم لإزالة عارضات التثبيت تلك كانوا الأضخم حجماً والأقل مهارة في حصة الغطس – سافينو، مثلاً، الذي دقّ مسماراً في بذلة غطسه يوم الاختبار مُحدثاً فجوة فيها. وقد اضطرت آنا إلى سدّ تلك الفجوة؛ بينما تم اختيار سافينو، في غضون ذلك، ليتلقى دروس تلحيم في حوض الغطس، حيث استمرت حوادثه. فقبل يومين، حطَّم زجاج خوذة رأسه على طرف اللوح الفولاذي الذي كان يحاول تلحيمه. فأخرجوه بسرعة – كان مارل أحد مموِّنيه – وبدا سافينو بخير في البدء، ولا يوجد سوى بعض النزيف في أذنيه وأنفه جرّاء الضغط. لكنه أُغمي عليه داخل حجرة إعادة الضغط. اشتبه الملازم

أكسل بوجود انسداد هوائي، بمعنى أن سافينو أخذ نَفَساً وحبسه قبل أن يُخرجوه. فعندما انخفض الضغط حوله إلى ضغط مستوى البحر، ازداد الضغط الذي يؤدّيه الهواء داخل رئتيه إلى أن دخلت فقاعةٌ إلى مجرى دمه. وراحت تسير في أوردته وشرايينه إلى أن اصطدمت بممر ضيق جداً لكي تمرّ عبره - وفي حالة سافينو، كان ممراً يوصل الدم إلى الدماغ. غالباً ما تكون الانسدادات الهوائية مميتة، لكن سافينو نجا منها. ولم يعد إلى العمل بعد.

أمضت آنا اليوم في تنظيف المصافي الإسفنجية داخل فواصل الزيت في كل ضاغطات الهواء العشرة. كانت معظم مهامها من هذا الطابع المنزلي: ترقيع بذلات الغطس بأسمنت مطاطي؛ فَرْك زيت على الأطواق الجلدية للخوذات؛ فصل الخراطيم الموصولة منذ فترة طويلة. شعَرت أنها بعيدة عن الحرب أكثر مما كانت في ورشة القياس - فهناك، على الأقل، كانت تقوم بمأموريات إلى أجزاء أخرى في الساحة. أما الآن، وبينما كانت تغيِّر ملابسها إلى الملابس العادية في خزانتها، انزلقت آنا إلى حالة مألوفة من الاستسلام الميؤوس منه: *كانت ضعيفة*؛ شعَرت أنها ضعيفة. كانت دعامات السكك الحديدية ثقيلة جداً عليها لكي ترفعها؛ كان الملازم أكسل محقاً في إبقائها بعيدة عنها. هذا الضعف في المعنويات خفَّف إحساس آنا المرير بالظلم؛ فشعورها بأنها غير مستحقة كان أقل فظاعةً، بطريقة أو بأخرى، من شعورها بالتعرّض للغشّ. وذلك أثار لديها انطباعاً جديداً عن نفسها، تجريبية وسريعة العطب، مثل المتزوِّجات. لكن موجة حنق عارمة رمَّدت هذه النظرة تماماً. كم تبغُض الملازم أكسل - كم تتمنّى لو يختفي من الوجود. كره آنا له زاد من قوتها. لكن كان عليها إخفاء غضبها، امتصاصه، حتى ولو كان ذلك يُشعرها كما لو أنها تشرب مبيِّض الغسيل. فأبسط مخالفة تنالها ستكون عذراً لطردها. وعندها سيكون الملازم قد انتصر.

كانت الذكرى المفضَّلة لديها هي عندما زار ضباطٌ أعلى رتبةً المبنى 569. فأمام أولئك الضباط البحريين ذوي الرتب العالية، بدا الملازم أكسل مُخجَلاً ومُطيعاً، وبدا كاتز، تابعه الأمين، مفتوناً إلى حدود الشلل. بدَوا صغيرين جداً، لدرجة أنهما نسيا إزدراءهما لها. كانت تلك هي المرة الوحيدة.

غادرت آنا الساحة مع الغطّاسين الآخرين وتوجَّهت إلى المقصف البيضوي. كان

باسكومب قد هندَسَ شملها في تلك الشعائر الليلية بلباقة مثلما فعل مع مارل: فبعد وقت قصير من الغطسة الاختبارية، اقتربت منها خطيبته خارج بوابة ساندز ستريت وقالت، بصوت يعاني من بعض الزكام، "باسكي يريدني أن أرافقه عند خروجه مع الشباب، لكنك ستأتين معنا، أليس كذلك؟ لا أريد أن أكون الفتاة الوحيدة".

هذه الليلة، أراد الجميع سماع قصة انسداد سافينو الهوائي من مارل، الذي كان معه داخل حجرة إعادة الضغط. بعد أن فَقَد سافينو وعيه، قال مارل، زاد الملازم أكسل الضغط إلى 120 رطلاً، وهذا يوازي الضغط على عمق تسعين متراً تقريباً، أملاً في أن يُعاد امتصاص الفقاعة إلى مجرى دم سافينو. وتفجَّر الحبر الأزرق من قلم الملازم، ورَشّ كليهما. رفع مارل رجلَي سافينو عالياً وراح الملازم أكسل يدلِّك يديه وقدميه، محاولاً زيادة جريان الدم إلى دماغه.

"بقي يتكلم طوال ذلك الوقت"، قال مارل بينما كانوا يتناولون طعام المقصف المجاني – الذي يهدف إلى إغراء البحّارة – مع شراب الشعير. "فيقول، 'ستكون بخير يا بُنيّ، هل تعرف كيف أعرف؟ كنتَ ميتاً الآن لو كان مقدَّراً لك أن تموت'".

"يبدو لي أكسل العتيق الذي نعرفه"، تمتم باسكومب وهو يحتسي الكوكا كولا.

"مثل رجل يهدئ روع حصانٍ. رغم أن سافينو فاقد الوعي. 'يوماً ما ستُخبر أولادك كيف خاطرت بحياتك لكي لا يضطروا أن يأكلوا العشب البحري ومخلَّل الملفوف على عشاء أيام الأحد'".

"يبالغ قليلاً، إذا سألتني رأيي".

"وأنقذ الرجل. لقد شاهدتُه يفعل ذلك. طبعاً هذا الساخر لن يصدِّق ذلك". قال مارل ذلك وأشار بعينيه إلى باسكومب.

استعاد سافينو وعيه بعد خمس وأربعين دقيقة. واحتاجوا إلى خمس ساعات أخرى قبل إزالة ضغط الحجرة. وعندما انتهوا أخيراً، بعد منتصف الليل، سار سافينو بنفسه إلى الإسعاف التي كانت بانتظاره.

"أنا متفاجئ أن أكسل لم يتبسم في كل ثرثرته"، قال باسكومب. "فهو يتوق بشدّة ليلعب دور البطل من اليوم الأول".

"إنه القانون"، قال مارل. "إذا فَقَد غطّاساً، سيغلقون قسمه".

"لا تدعني أبكي".

هزَّ مارل رأسه. غالباً ما كان وباسكومب على خلاف في وجهات النظر، لكنهما كانا لا ينفصلان عن بعضهما أيضاً. لم يكن باسكومب مرحباً به في منزل روبي؛ فوالدها يعتبره شخصاً غير مستقر ويرفض مصافحته. لذا اعتاد باسكومب على تناول عشاء الآحاد مع مارل ووالديه في هارلم.

استقلّت آنا الترامواي عائدة إلى المنزل مع روبي وباسكومب. سيرافِق باسكومب روبي وصولاً حتى سانست بارك، حيث تعيش فوق بقالة عائلتها، ثم يعود إلى نُزُله قرب الساحة البحرية: رحلة تستغرق ساعة ونصف. كانت خطبتهما سرية إلى أن يتمكن من تغيير رأي والدها. لكن هذا بدا، ظاهرياً، محكوماً بالفشل، مثل حملته للانضمام إلى البحرية بعد رسوبه في ثلاثة اختبارات للنظر. إلا أنه بقي متفائلاً بما أن آنا تعتقد أن لديه فرصة للنجاح. كانت الحملتان متضافرتين؛ لأن باسكومب كان متأكداً أنه إذا استطاع الانضمام إلى البحرية، فسيغيِّر والد روبي نظرته إليه.

نزلت آنا في جادة الأطلسي. أصبحت لوحدها لأول مرة منذ الصباح، لكن العزلة التي شعرت بها منذ أسابيع لن تؤثر عليها الآن. فقد كان بالها مشغولاً جداً. جلست إلى طاولة المطبخ مع صحيفة المساء ورسائل البريد غير المفتوحة وراحت تفكّر بدكستر ستايلز. نادراً ما كان يخطر على بالها في العمل، كما لو أن الحارس البحري يمنع دخوله إلى الساحة. لكنها في المنزل واجهت من جديد اليقين بأنه يعرِف ما الذي حصل لوالدها. لقد حذّرها من عدم التدقيق في المسألة.

فتحت نافذة سُلَّم الحريق وخرجت إلى هواء الشتاء القارس. حاوَلت أن تستذكر والدها – أن *تراه* مثلما ترى أي رجل آخر لا يوجد رابط بينها وبينه. كان يجلس كل ليلة حيث تجلس الآن، يدخِّن، ويحدِّق في الشارع. ويفكِّر – بماذا؟ رغم كل الوقت الذي أمضته معه، لم تكن لديها أي فكرة. كان الأمر كما لو أن كونها إبنته قد أعماها بشكل فريد، كما لو أن أي شخص آخر – كل شخص آخر – رآه وعرفه بطريقة ليست قادرة عليها.

هناك شيء سيحصل؛ لم ينته الأمر بينها وبين دكستر ستايلز بعد. هذه الحتمية

أحدثت زوبعة إثارة فيها جعلتها تنسى والدها. دكستر ستايلز هو الشخص الذي تتوق إليه – ليس رجل العصابات بل الحبيب. بهرجة المشهد الذي استيقظت عليه أصبحت ضبابيةً الآن، ولم يبقَ سوى الإحساس. وندِمت حتى من إخباره مَن تكون – فهي لم تكن تريد أن تتنازل عنه. عادت إلى داخل الشقة لكي تستحمّ ثم تنام، تاركةً رسالة أمها غير مفتوحة. في الظلمة، تركت نفسها تطفو في ذكريات دكستر ستايلز.

هل هدَّدها؟ أم حذَّرها فقط؟

بعد يومين، تم تعيين آنا على البارجة في بذلة الغطس، لتخدم ماجورن. لقد وصلت إلى هذا الحد مرتين من دون أن تغطس. ومع ذلك، فقد شعرت بالامتنان من تواجدها على المياه المفتوحة بعد أيام من العمل في الداخل أو بعد تركها وحيدةً على الرصيف البحري للشارع الغربي. كان ضوء الشمس يشعّ على خليج والأباوت مثل وهج مِشعل تلحيم أثناء مراقبتها فقاقيع ماجورن.

"كيريغان. استيقظي!".

كان هذا كاتز، متكاسلاً في زورق تجذيف مزوَّد بمحرّك قرب إحدى زوايا البارجة. كانت مطلوبةً. ساعدها المموِّن الأمامي في رفع القفص الذي يحتوي على القِطع المُثقَلة لبذلتها إلى زورق التجذيف، الذي انعرَج تحت ثقلها. بينما كان كاتز يقود الزورق بين الوحول الجليدية، أخبرها عن وجود برغي عالق – مثلما كانوا يسمّون المراوح – على البارجة التي وصلت مؤخراً من حوض السُفن الجاف 6 إلى الرصيف البحري J. كانت سُفن الحلفاء غير معرَّفة، لكن آنا عرَفت من زياراتها إلى مكتب قبطان الساحة أن هذه هي اليو أس أس ساوث داكوتا – "البارجة X"، مثلما كانت تسمّى في الصحف، لدوافع أمنية. كانت قد أغرقت ست وعشرين طائرة يابانية في معركة سانتا كروز.

لاحت البارجة بشكل مذهل في الأفق، مقزِّمةً كل شيء حولها، حتى الرافعة. كان سافينو وغروليبه يقفان مسبقاً عند حدّافات ضاغط هواء على حافة الرصيف البحري J. وسافينو لا يزال لا يغطس منذ انسداده الهوائي؛ أما غروليبه، الذي غطَس من قبل ذلك الصباح، كان يرتدي قسماً من البذلة. كانت مهمة آنا أن تفحص المراوح الأربعة للبارجة، وتجد المشكلة، وتعود إلى اليابسة، وتشرح ما الذي يجب فعله. سينزل غروليبه،

الذي تدرَّب مؤخراً كعامل حرق، ليُجري الإصلاح.

"ألا يجب أن أُجري الإصلاح إذا كنتُ قادرة على ذلك؟"، سألت آنا بلهفة أكبر مما كانت تنوي أن تُظهِرها.

"السبب الوحيد لغطسك الآن هو أنه ليس لدينا أي شخص آخر"، قال كاتز.

تورَّد خدّاها. "لم يكن هذا سؤالي".

"فقط افعلي كما قيل لك".

كان قد تم تجهيز منصة معلّقة على حبال لهبوطها. مع إحاطة الماء لها من كل جانب، أعادت اكتشاف الإحساس بانعدام الوزن. شعَرت بالتيارات السيئة السمعة للنهر الشرقي تسحبها حتى وهي عند جهة السفينة المحجوبة عن الأمواج. تابعت النزول عبر الخيوط الناعمة لضوء النهار إلى جانب البدن المذهل. كانت ضخامته فحسب توحي بالعنف. أرادت آنا أن تلمسه. فأمسكت أحد حبال المنصة، ولوَّحت جسمها نحو بدن السفينة وتركت قفاز يدها ينزلق على سطحها الخارجي بينما كانت المنصة تسحَبها نزولاً. أحسّت بقشعريرة على بشرتها. وشعَرت كما لو أن السفينة يقظة، حيّة. فقد نضَحَت همهمةً سَرَت بين أصابعها صعوداً على ذراعها: ذبذبة آلاف الأرواح التي كانت تعجّ داخلها. مثل ناطحة سحاب استدارت على جنبها.

تمكّنت أخيراً من تمييز لفائف برغي الميمنة الخلفي وأشارت لكاتز أنها وصلت إليه. كانت هناك خطوط نازلة معلَّقة لمساعدتها على المناورة، فاستخدَمتها لتعوم نحو البرغي. كان ارتفاعه خمسة أمتار، وشفراته الخمسة منحنية مثل الجزء الداخلي لصَدفةٍ. انتقَلت آنا بينها، ممرِّرةً قفازها على أطراف كل شفرة وصولاً حتى الحلقة الوسطى حيث تلتقي كلها. لم تجد شيئاً يعيقها. ثم تسلَّقت حول البرغي إلى القصبة التي توصله بالمحرّك، مع حرصها على عدم تشابك خطوطها. تبَعت مسار هذه إلى برغي الميمنة الأمامي، الذي كانت له أربع شفرات وليس خمسة. هذا، أيضاً، كان سليماً. أمسَكت الآن الحافة الأمامية لدفة السفينة – التي كانت تشبه الباب الفولاذي لخزنة المصرف – واستخدمتها لتبرم نفسها إلى ميسرة البدن، التي كانت مواجهة للنهر. راحت التيارات تلطمها، متضخِّمةً من الزوارق المارة. وجدت المشكلة على برغي الميسرة الأمامي: حبل بعرض ذراعها تشابَكَ بين الشفرات. وكان مشدوداً من إحدى عارضات التثبيت السيئة السمعة، التي تتدلّى

على عدة أمتار نزولاً.

شعرت بشدٍّ من كاتز. فشدّت الحبل بدورها. يُفترَض بها الآن أن تعود إلى اليابسة لكي يستطيع غروليبيه أن يقطع الحبل المعرقِل بمِشعله الأكسجيني الهيدروجيني. لكن لماذا عليها أن تصعد؟ لماذا لا تقطع الحبل بيدها، مستخدمةً منشار المعادن من كيس أدواتها؟ أخذت آنا هذا الخيار وهي تعلم جيداً أنه الخيار الخطأ. فاحترامها القوانين لم يوصلها إلى أي مكان. ونجاحها في الاختبارات لم يوصلها إلى أي مكان. وكانت في سياق عدم وصولها إلى أي مكان قد تخلّت عن فكرة حالمة تقول إن السلوك الحسن ومحاولة إرضاء الآخرين هما الخيار المنطقي. لماذا لا تأخذ ما يمكنها أخذه بينما تسنح لها الفرصة؟

انتقلت حول شفرات البرغي المعرقَل، وهي تشدّ على طول الحبل. كان القسم الأضيق قريباً من الوسط، وهو أشبه بالرقم ثمانية اللاتيني عالقاً بين الشفرتين الأكثر عمودية. أخرجت آنا منشار معادنها وبدأت تنشر ذلك الجزء من الحبل. كان عملاً بطيئاً. وأشار لها كاتز مرة أخرى، ثم مرة أخرى. وكانت ترد عليه بشدّ واحد في كل مرة – *أنا بخير* – وتتابع عملها.

أشار لها كاتز أنه سيُنزل لها سجل أعمال. كرَّرت آنا الإشارة لكنها لم تذهب ميمنةً لتكتب عليه. فحالما سيقرأون حصيلة بحثها، سيطلبون منها الصعود إلى اليابسة، وهي في مأزق من قبل. لماذا لا تبقى هنا في الأسفل وتُنهي ما بدأته؟ مثل لص يحاول فتح خزنة قبل أن يرنّ جرس الإنذار، راحت آنا تنشر في نصف الظلمة، وهي مأخوذة بإصرار متوحش كانت تعرِف أنه أنانية بَحت، وسيؤذيها بكل تأكيد في نهاية المطاف. لم تكن تهتم. بدأ الحبل يجهد حيث كانت تنشر؛ وشعَرت بتوتّره ينتقل إلى العدد المتضائل للجدلات السليمة التي بدأت ترتجف مثل أوتار الكمان. ثم انقطع الحبل برنين تمكّنت من سماعه رغم هسهسة هوائها. كان طرفاه معلّقين في الظلمة، مثل مجسّات تتذبذب. تسلَّقت آنا فوق البرغي، وراحت تشدّ الأقسام الأخرى للحبل، محاولةً أن تعيد توزيع ارتخائها. الجهد جَعَلها تشعر بدوار. فجأة بدأت الحبال تنزلق، وثقل الدعامة يُبعدها بلطف عن شفرات البرغي. ثم سقطت كلها، وراحت تلوِّح بينما ترفرف في الظلمة.

عند عودتها إلى المنصة الصاعدة، شعرت آنا بطلائع الندم. فإنجازها المتواضع، الذي كان باستطاعة غروليبيه تنفيذه بمِشعله بسهولة، كان لا يُذكر أمام فداحة جريمتها. وحتى

قبل أن تصل المنصة إلى الرصيف البحري، رأت الندبة الملتهبة على شفة كاتز العليا. "الأمر تم"، قالت بسرعة عندما فتَح لها خوذة رأسها. "البرغي حر طليق".

"كيف تجرؤين على تجاهل أوامري؟"، زأر بها قبل أن تتمكن من الترجّل عن المنصة.

"الأمر تم"، قالت، وهي تبلع ريقها. "المهمة أُنجزت".

"مَن تظنين نفسك أيتها اللعينة؟ لقد أرسَلتُ لك سجل أعمال وتجاهَلته كلياً".

رائحة حيوان، مثل النشادر، خرجت من داخل بذلة آنا. كانت خائفة. "اتركني"، قالت.

لكن كاتز بدا كأنه فَقَد عقله. "انتظري حتى أبلِّغ الملازم، أيتها الحقيرة"، صاح بها وهو يضرب رأسه برأسها بحيث رأت الحشوات الذهبية في فمه وشمّت السجق في أنفاسه. "سيطردك بسرعة فائقة لدرجة أنك سترين نجوم الظهر".

سيقتلها؛ كان يمكنها أن تشعر بأنه أراد ذلك. فمالت إلى الوراء، مُمسكةً بحبال المنصة.

"إنها تسقط"، صَرَخ أحدهم. "أمسكها، أمسكها!".

كان وزن البذلة غير المتوازنة كبيراً جداً لإيقافها؛ انزلق قفاز آنا الأيسر عن الحبل، وسقَطَت مثل شجرة، وهي تُدرك أن الجاذبية كانت تسحبها بعيداً عن قدميها لكنها لم تكن قادرة على إيقاف سقوطها. رأت السماء تنحرف ولا بدّ أنها صَرَخت. أو ربما كان ذلك صراخ كاتز.

ثم وجدت نفسها معلّقة في الهواء. لقد أمسك كاتز حبل إنقاذها وأوقف سقوطها في آخر لحظة ممكنة، قبل أن يخرج كعب حذائها عن المنصة. تصلّب جسد آنا، وهي تحاول تثبيت قدميها في مكانها. إذا انزلق حذاؤها عن الحافة، فإن وزن البذلة سيدفعها إلى أسفل الخليج مباشرةً – مع كاتز، إذا لم يُفلتها. كان حبل الإنقاذ مربوطاً بمؤخرة خوذتها وممرّراً في ثقوب على الجهة الأمامية لدرع صدرها. بحذر شديد، ومرتعبةً من أن تنقلب نحو الماء، رفعت آنا يدها وحاوَلت إغلاق خوذة رأسها.

"لا. لا"، صاح بها كاتز من فوق. "لا تتحركي".

يداً تلو الأخرى، وبذراعين ترتجفان، بدأ يسحب حبل إنقاذها نحوه بدرجات مؤلمة،

ناقلاً كتلة آنا الصارمة التي يبلغ وزنها مئة وخمسة وأربعين كيلوغراماً نحو موضع عمودي. كان وجهه يزخر بالعرق، وعيناه مثبّتين على عينَي آنا، كما لو أن الجهد كان يحصل هناك. ركّزت على عدم الالتواء، وهذا كان أمراً إلزامياً سبَّب لها ألماً مُبرحاً في ظهرها. كانت خائفة من أن تتقيأ في الخوذة. أرادت بقوة أن تُغمض عينيها، لكنها شعَرت بضرورة أن تحافظ على تواصل العينين مع كاتز. ببطء، بدأت الجاذبية تعيد إلقاء وزن بذلتها على حذائها. أخيراً لوت رُكبتيها وترنّحت إلى الأمام، وكادت تنهار بوجهها على المنصة. أمسكها كاتز ورفعها لكي تقف منتصبة، ثم قادها بحذر إلى الرصيف البحري.

قادها سافينو وغروليبه إلى مقعد الغطس وفكّا براغي خوذتها. جلَست آنا مائلةً فوق رُكبتيها، وهي لا تزال تشعر أنها قد تتقيأ. ساد صمتٌ تام بين الجميع. لو سقطت في الخليج القارس مع خوذة رأسها مفتوحة، لكانت اختنقت حين سيتمكّنون أخيراً من سحبها إلى أعلى. نظَرت إلى السُحُب الرمادية الرطبة التي غطت السماء بينما كانت في الأسفل. لم تشعر بشيء تقريباً: كانت هنا، وكل شيء على ما يرام. لكن بدا لها أنه من الممكن أن تسقط من جديد.

وَقَف كاتز محايداً. مرَّر يديه في شعره وهزَّ رأسه، ثم سار إلى سُلَّم السفينة ليتكلم مع البحّار المناوِب. أزال غروليبه وسافينو حزام آنا ودرع صدرها وحذاءها. تمسّكت آنا بالأصوات المألوفة في الباحة – المحرّكات، الآلات، الصيحات – كما لو أنه يمكنها إيقاف سقوطها.

عاد كاتز في نهاية المطاف، وبدأوا يحمّلون المعدات في الشاحنة. كانت آنا تفكّ الحدّافات على ضاغط الهواء عندما اقترب ثلاثة ضباط بحريين من سُلَّم السفينة يرتدون معاطف طويلة زرقاء مزدوجة الصدر مع أزرار مذهَّبة وكتفيات ذهبية.

كان الضابط الأعلى رتبة طويلاً وأنيقاً؛ حتى شعره المرقَّط بظلال داكنة وفاتحة بدا صارماً تحت القبعة الزرقاء المتموجة بجديلتها الذهبية. "أود أن أشكركم، أيها السادة الأفاضل – سيدتي – شخصياً"، قال وهو يصافحهم فرداً فرداً ولم يُخفِ تفاجؤه عند رؤيته آنا. "عمل رائع يا سيد كاتز. عمل رائع وفعّال".

تلقى كاتز هذه الإشادة جافلاً، كما لو أن الكلمات تطعنه. كان الثلج قد بدأ يتساقط، لكن آنا بالكاد لاحظته في حضور أولئك الضباط. لقد أتوا من السفينة

العملاقة؛ وسيُبحرون بها إلى أرض المعركة. وبلمسها بدنها، لمست آنا الحرب مباشرة لأول مرة - شعرت بحدّة نبضاتها.

عندما ابتعد الضباط، عاد اليوم الرمادي لينغلق حولهم. شعَرت آنا بالهدوء، لكن كاتز كان كالحاً ومشتت الذهن. هامت عيناه نحو عينيها، وابتسمت له من دون قصد. ابتسم لها كاتز بدوره متردداً. حمل كل واحد منهما نصف الضاغط ووضعاه على الشاحنة.

كانت آنا تجتاز الشارع البحري، متأبطة ذراع روبي، عندما تعرَّفت على كاديلاك دكستر ستايلز مركونة خارج مقصف ومطعم ريتشارد. لقد بَحَثت عنها كل ليلة.

"اعذروني"، قالت لأصدقائها. فهي لم ترغب أن يلتقوا دكستر ستايلز، أو حتى يروه. "أحتاج إلى أن أتكلم مع شخص".

اجتازت ساندز ستريت، وحشريتهم تلاحقها. نزل دكستر ستايلز من سيارته وفتح لها الباب الأمامي. أحاطتها رائحة الجلد المألوفة.

شعَرت بتغيُّر فيه حالما جلَس بجانبها، بهدوء غير معهود. كان ظل لحيته رمادياً على بشرته. انطلَق بالسيارة إلى جانب حَشد من عمال الساحة والبحّارة. راحت آنا تراقبهم بحنين عبر نافذتها. منذ دقيقة كانت بينهم، تضحك مع صديقاتها. شعَرت كما لو أنها سقطت في بئر إلى مكان كهفيّ وأجرد.

"لقد تُوفِّي"، قالت بعدما ابتعدا قليلاً في السيارة صامتين. "أليس كذلك؟".

"نعم".

بلَعت ريقها. "أين؟".

"يمكنني أن أستعلم لك".

راحت تحدِّق في مسّاحتَي الزجاج الأمامي، وهما تمضغان إشارات المرور ذهاباً وإياباً في شراب ملوَّن لزِج. كان الجوع إلى دكستر ستايلز لا يزال حيّاً فيها، حقل طاقة محمومة من دون انجذاب إلى الرجل الجالس بجانبها. كان رجلاً مختلفاً، بارداً ومنطوياً على نفسه. لكن آنا هي التي تغيَّرت. عادت. هكذا كان شعورها: كما لو أن انعطافة طويلة أوصلتها أخيراً إلى مشهد مألوف. "إذاً، افعل ذلك!"، قالت بصوت يرتفع. "*استعلم!* ماذا

تنتظر؟".

توقف عند حافة رصيف فارغ في الشارع البحري. كان جدار الساحة القرميديّ خارج نافذة آنا مباشرة. ملقياً نظرة سريعة عليها، قال، "ستحتاجين إلى بذلة غطسك".

"س - ماذا؟". كان كلامه هراءً. وعندما وقع ثقل كلماته عليها، اندفَعت نحو وجهه.

أمسك دكستر ستايلز يديها بالسرعة الماكرة لرجل اكتسب خبرة كبيرة في تجريد الآخرين من أسلحتهم. "توقفي عن هذا"، قال مسترداً أنفاسه. "وإلا فلن أحرّك ساكناً".

كانت قد أجبرته على التراجع نحو نافذته. والدم يسيل من خدش أحدثته على صدغه. تنفَست آنا أنفاسه المألوفة، وارتفعت الرغبة فيها. شعَرت بقلبه يخفق بقوة في معطفه الطويل. كاد وجهاهما يتلامسان؛ وكان على وشك أن يقبّلها. كانت تتوق بشدّة لكي يفعل ذلك. لكنها عرَفت أنها ستعضّه - ستركله وتخدشه وتصرخ بأعلى صوتها.

لا شك أنه فهِم ذلك، هو أيضاً، لأنه دفَعها بعيداً عنه ببطء، مواصلاً شلّ حركة يديها. "نعم أم لا"، قال.

أخذت نَفَساً متقطعاً. "الأمر ليس بهذه البساطة"، تمتمت أخيراً. "تحتاج إلى معدات كثيرة لكي تغطس".

أشار برأسه نحو الجدار، وهو لا يزال ممسكاً يديها. "كم يمكنك أن تُخرجي من هناك؟".

"لا أعرف. البعض".

"أي شيء لا يمكنك إحضاره، سأُحضره أنا".

ثقته أهانتها. "حقاً. زورق. ضاغط هواء. خراطيم. سُلّم غطس".

"الزورق سهل. لديَّ أشخاص يستطيعون توفير الباقي".

"لديك أشخاص يستطيعون فعل أي شيء، أليس كذلك؟".

"تقريباً".

"سنحتاج إلى غطّاسٍ ثانٍ"، قالت آنا. "عادة، سيكون هناك غطّاسان، لكن يمكننا تدبير المسألة بواحد فقط".

بنظرة حذرة، أفلت يديها. "هل هناك شخص محدَّد في ذهنك؟".

حاوَلت أن تتخيَّل ردة فعل باسكومب على هكذا اقتراح. "لا يحبّذ المتاعب".

"لا أحد يحبّذها".

التقت عيناهما بنظرة واقعية. كانا يتعاونان معاً، في النهاية.

"كم خطورة ذلك؟ الغطس في مكان غير مألوف؟"، سأل.

"لا أعرف. ولا يهمّني". تذكَّرت تدلّي جسمها تحت السماء المنحرفة، وشعورها بأنها ستهوي إلىٰ أسفل الخليج. بدا لها الآن أنها هوت ونجت.

"يهمّني أنا"، قال دكستر ستايلز.

الفصل 22

وصل القبطان كيتردج بالإليزابيث سيمان إلى كايب تاون في 25 فبراير، قبل ثمانية أيام من الموعد المحدَّد، بعد محافظته على سرعة وسطية بلغت اثنتي عشرة عقدة. بدا خلاّباً جداً، وهو يقودها بشعره الأنيق ويديه الأرستقراطيتين، لدرجة أن إيدي تخيَّل إليزابيث سيمان أحياناً كيختٍ من اليخوت التي كان يراقبها تتجمَّع في سباقات الزوارق عند مصب لونغ آيلند، من أرصفة البرونكس البحرية حيث كان يسبح مع بقية فتيان مأوى الأحداث المشرَّدين في الصيف. كان كيتردج مثل نسخة ناضجة من الشباب الذين كان يراهم يلهون في حديقة سنترال بارك بمضارب كرة المضرب وسياط الفروسية. كان القبطان محظوظاً جداً، ولديه ما يكفي من حظ ليوزّعه على الآخرين، كان إيدي يقول لنفسه - ويأمل أن يكون ذلك الحظ كافياً لستة وخمسين رجلاً.

بقيت حرارة القناة الملتهبة لأيام قبل أن يشاهدوا اليابسة، والمشاريع البحرية تُفسح المجال لتبديد التوقّعات من دون هدف واضح. خبّأ فارمينغدايل كل الدمى التي كان قد صنعها من القنب، وشرع يعبئ ساعته بين الحين والآخر لدرجة أن إيدي كان متأكداً أنه سيعطّل تروسها. أخيراً رُفعت حبال المراسي من المخزن، وجُهزّت أذرع المرافيع لتفريغ الحمولة.

بعد انتهاء فترة الحجر الصحي، رست إليزابيث سيمان في ميناء تايبل لتفرّغ حمولتها من البوكسيت وتخزِّن طعاماً طازجاً وماءً. كانت كايب تاون ميناءً مفضَّلاً، وكل الذين لم يكلّفوا بمراقبة الميناء انطلقوا من السفينة بسرعة عند الغروب: طاقم السفينة والمدفعيون البحريون إلى مقصف مالاي كورتر، الذي حذَّرهم وكيل الميناء من بائعات الهوى فيه بشكل خاص؛ ومشجّعو كرة القدم أمثال فارمينغدايل إلى أرخص المقاصف. واحتلّ الضباط البحريون ميداناً مختلفاً في الميناء؛ فالملازم روزن، قائد الحرس المسلّح، وضابطه

الأدنى رتبة، الملازم الثاني وايكوف، استقبلتهما سيارة عند سُلَّم السفينة وذهبا إلى عشاء في منزل خاص.

وراح المتدرِّبان روجر وستانلي يراقبان ببؤس في زيّهما الرسمي الضباط البحريين يختفون خفيةً. كانا غير أكيدين من المكان اللذين ينتميان إليه، بما أن خبرتهما قليلة ببيوت بائعات الهوى. وقد وعدهما إيدي بأن يأخذهما إلى نادٍ ليلي قبل أن يغادروا كايب تاون.

كان لعمّال اللاسلكي واجبات قليلة في الميناء وغالباً ما كانوا يختفون عن الأنظار، لكن شرارة اختار أن يبقى على متن السفينة. "ماذا سأفعل في كايب تاون اللعينة؟"، سأل إيدي، الذي بقي معه على متن السفينة في الليلة الأولى لكي يسلّيه. "أجرّ هذه الرِجل اللعينة وأقول، 'شكراً جزيلاً، أودّ كوب حليب'؟ يمكنني رؤية جبلهم تايبل المشهور اللعين من كُوَّة غرفتي - انظر، ها هو، ولا أحتاج إلى تحريك نفسي قيد أنملة لألعب دور السائح. يمكنني الآن استخدام هذا اللاسلكي للهدف الذي صُنع من أجله".

كانت قد مرّت أسابيع منذ أن سمعوا أي أخبار في صمت اللاسلكي، وما كان يبثّه مذيعو البي بي سي كان جيداً في الأغلب: دبابات رومل تفرّ يميناً ويساراً في تونس؛ الروس يندفعون في خاركيف؛ الحلفاء يدكّون مسّينا.

"إننا ننتصر في هذه الحرب اللعينة، أيها الثالث"، قال شرارة. "ماذا تقول لهذا؟".

"مَن يمكنه أن يعرف، بتلك الأصوات"، قال إيدي. "يمكنهم أن يقولوا إنني تُوفِّيت، وسأظن أنني أسمع خبراً جيداً".

تشنّج شرارة في إزدراء. "أيها الثالث"، قال. " لم أظن أبداً أن شخصاً من علّية القوم مثلك سيكون جباناً".

استحضَر إيدي حيوية كلام رئيس البحّارة وقال، "وأنا لم أظن ذلك أيضاً".

نزل في السفينة الفارغة ليعيد كوب شرارة إلى المطبخ. كان رئيس البحّارة هناك، يشرب القهوة ويقرأ. عند رؤيته إيدي، وَقَف وأغلق الكتاب، حافظاً المكان الذي وصل إليه بإصبعين. إيدي، أيضاً، كان مذهولاً.

"أنا متفاجئ أنك لست على اليابسة يا رئيس البحّارة"، قال.

"ولأي سبب ممكن تخيّله ستكون متفاجئاً أيها الثالث؟"، قال رئيس البحّارة بحدّة.

من الواضح أنه لم يكن يتوقع رؤية أي شخص، وبدا منزعجاً.

"لقد أبحرنا معاً من قبل"، ذكّره إيدي. "وكنتَ تنزل إلى اليابسة كلما سنحت لك الفرصة".

"مثلما كنتَ تفعل أنت، إذا أسعفتني ذاكرتي"، ردّ رئيس البحّارة بنبرة حاسمة. "ربما مكانتك الجديدة المذهلة تعلّل تغييرك عادتك. لكنك ستلاحظ أنني أخمِّن فقط. ليس من شأني ماذا تفعل - أو لا تفعل - بحريتك، تماماً مثلما أنه ليس من شأنك ماذا أفعل بحريتي".

"هدّئ من روعك"، قال إيدي. "كنت أدردش معك فقط".

حدَّق فيه رئيس البحّارة بارتياب، محافظاً على مكانه في الكتاب. لمح إيدي اللون الزهري المدهش لراحة يده على التقرُّح اللوني الأزرق والأسود لبشرته. عندما كان يعمل تحت إمرة رئيس البحّارة، كانت ومضات الزهري تلك تُبهِر إيدي مثل رفرفة أجنحة.

"*للدردشة* فوائدها، سأقرّ لك بذلك"، قال رئيس البحّارة. "لكن في الحالة الراهنة، أجد الشرح مُراوِغاً للسبب البسيط أنه يتجاهل العَداء الكبير بيننا. نحن، إذا جاز التعبير، أبعد من حدود *الدردشة*. ولا يمكن أخذ جملتك بقيمتها الإسمية".

"هل تتكلم بهذه الطريقة مع الجميع؟".

"ما هدف سؤالك أيها الثالث؟"، قال رئيس البحّارة بغضب، فاقداً إشارته المرجعية في الكتاب ورافعاً يديه في الهواء حنقاً. "هل تقصده بلاغياً أم حرفياً؟".

"حرفياً"، قال إيدي، دون أن يكون أكيداً كلياً من الفرق.

"حسناً إذاً. أنت رجل حرفي أيها الثالث، وسأعطيك رداً حرفياً، وصريحاً إذا سمحت لي". خطا رئيس البحّارة خطوة نحو إيدي وأخفضَ صوته. "أنا لا أتكلم بهذه الطريقة مع الجميع. والرجال البعيدون جداً عن نطاقي الفكري لا يتوقون عادة إلى إجراء تفاعلات شاملة ومكرَّرة، مثلما تفعل أنت. أعترف لك أنني أجهل أسباب إصرارك على ذلك. يمكنني التخمين، بالطبع، لكن ذلك سيكون خطوة حمقاء - جزئياً لأنه يلمِّح إلى وجود تضامن ولو ضئيل جداً بين حياتنا الداخلية - وأشكّ بهذا كثيراً - بل أيضاً لأنه يشير إلى أنني أهتم ولو بمثقال ذرّة عما يحرّكك ويحرِّضك، أيها الثالث، وهذا مخالف للحقيقة كلياً".

تاه إيدي باكراً، لكنه عرَف أنه كان يتعرّض للإهانة. اكفهر وجهه غضباً وقال، "حسناً إذاً. تصبح على خير".

استدار وغادر المطبخ، وهو يشعر برضى طفيف من التفاجؤ الذي بدا على وجه رئيس البحّارة. شعَر إيدي مثل كلب ضُرب بسوط لكنه عرَف أنه الوحيد الذي يُلام. ماذا كان يريد من رئيس البحّارة؟ لم يعرف.

بعد ظهر اليوم التالي، غادر السفينة مع المتدرِّبين لاستكشاف كايب تاون. كانت أكبر مما توقَّع، مدينة حقيقية تربض تحت الأنظار الترابية لجبل تايبل. اشترى المتدرِّبان شوكولا وبرتقال ساتسوما. واشترى إيدي علبة سجائر وراح يدخِّن أثناء سيرهم في شارع أدرلي الكبير وأبنيته ذات الأعمدة. عرَف بعد عشرين دقيقة لماذا بقي رئيس البحّارة على متن السفينة. فالزنوج كانوا يبقون بعيدين عن البِيض في كل ميدان: الحافلات، المتاجر، المسارح، دور السينما. كان إيدي معتاداً على رؤية الزنوج يعاملون بشكل سيئ - على الأرصفة البحرية للجهة الغربية، حيث يُعتبر الإيطاليون زنوجاً والزنوج شيئاً أسوأ من ذلك. ومع ذلك فقد صُدمَ عندما طلب شرطيٌّ من زنجية مسنّة أن تنهض عن مقعد جلست عليه لترتاح مع أكياس تسوّقها. إن قدم رئيس البحّارة المتغطرس لن تطأ هكذا مكان أبداً. ومع ذلك، لم يكن بوسع إيدي سوى إبداء تقديره لرجل لديه ما يكفي من ضبط للنفس لكي يقاوم النزول إلى اليابسة بعد تمضية سبعة وأربعين يوماً في البحر، انطلاقاً من مبادئه فقط لا غير.

بعد حلول الظلام، أخذ المتدرِّبين إلى نادٍ ليلي سمع الملازم روزن يذكره عند تناول الطعام ذلك الصباح. ومثلما كان إيدي يأمل، روزن نفسه كان هناك، إلى جانب الملازم الثاني وايكوف، وقد دعيا إيدي والمتدرِّبين إلى طاولتهما. كان روزن رجلاً وسيماً، جندياً احتياطياً يعمل في الإعلانات. وبدا وايكوف أصغر منه سنّاً بعقد من الزمن على الأقل: متحمّسٌ قصيرٌ وبدينٌ، وذو وجه منمَّش. راح يصف لإيدي بابتهاج الجولة التي قام بها مع روزن على كروم العنب بعد ظهر ذلك اليوم مع مضيفيهما الأفريقيين الجنوبيين. وقد شاهدا قطاف العنب، واشترى وايكوف صندوقين من شراب العنب.

"*شراب العنب؟*"، قال إيدي. "أنت تسخر مني".

كان وايكوف جدّياً. لأنه يأمل أن يصبح تاجر شراب عنب بعد انتهاء الحرب.

"لم أهتمّ بشراب العنب أبداً"، أقرَّ إيدي، رغم أنه كان يحبّ الشراب ذا الفقاقيع ممزوجاً بشراب الشعير غينيس – الشراب المخملي الأسود، هكذا يسمّونه.

"سأغيِّر رأيك، وهذا وعد مني"، قال وايكوف وقد بدأ يعتمد أسلوب البائع من الآن.

كانت هناك أوركسترا كبيرة تعزف لحن "احتفال الشتاء الأبيض"، الذي اختلط بشكل غريب مع رائحة الحمضيات الناضجة. كما كانت هناك فتيات خلاسيات يدردشن مع ضباط الحلفاء على طاولاتهم ويرقصن معهم. لم تكن بائعات هوى أو حتى جليسات، اللواتي كان دورهن تشجيع البحّارة على شراء الشراب لهنّ. الأرجح أنهن موظفات مكاتب أو متاجر. والمال الذي يحصلن عليه يُعتبر هدية وليس رسماً. كان إيدي قد اشترك في هكذا ترتيبات على مر السنوات، لكنه وجد نفسه يراقب المشهد الحالي بازدراء. ثم أدرَك السبب: كان يتصوَّره من خلال عيني رئيس البحّارة.

قبل يوم من موعد إبحارهم، لم يحضر فارمينغدايل إلى وظيفته ولم يستطيعوا العثور عليه في أي مكان. لا تستطيع إليزابيث سيمان أن تُبحر من دون ضابطٍ بحري ثانٍ، لذا تخلّفت عن القافلة التي كان عليها الانضمام إليها في قناة موزمبيق، وهي امتداد بحري بين مدغشقر والساحل الأفريقي فُقدت فيه عدة سُفن للحلفاء بعد تعرّضها لهجمات من الغواصات النازيّة. تبيَّن بعد ثلاثة أيام أن فارمينغدايل في مُعتقَل للجيش، وكانت جريمته شنيعة لدرجة أن الجيش رفض إطلاق سراحه إلى أن تصبح إليزابيث سيمان جاهزة للإبحار.

في 9 مارس، أوصلت الشرطة العسكرية الضابط البحري الثاني إلى سُلَّم السفينة، واستُدعي فوراً إلى مكتب القبطان. رغم كل مظهر كيتردج المتأنق، لا أحد يستطيع أن يقول إنه لم يُسمِع فارمينغدايل ما يستحقّه. فإذا كان هناك شيء واحد لا يستطيع هذا القبطان أن يتحمّله فهو أن يُترَك في الخلف. بما أنها متقاعسة الآن، اضطرت إليزابيث سيمان إلى الإبحار بشكل مستقل في مسار مراوغ – عشرين درجة إلى اليمين لعشر دقائق، ثم عشرين درجة إلى اليسار، ثم تعود إلى مسارها الأصلي لعشر دقائق أخرى، وهكذا دواليك – ليس في الليل فقط، عندما تكون الغواصات في عزّ نشاطها، بل طوال

اليوم. أبحَروا نحو قناة موزمبيق مع تجهيز النياط لإنزال قوارب النجاة في حال تعرَّضت سفينتهم للإصابة.

كان فارمينغدايل منبوذاً. وبقي ليومين يأتي متأخراً ليتناول الطعام ويجلس مع المتدرِّبين إلى طاولتهم الصغيرة. كان يرسم ابتسامة وهمية على وجهه، كما لو أن عزله كان امتيازاً نادراً. في اليوم الثالث، حاوَل إيدي أن يرسل له إشارة تسامح عندما أراحه فارمينغدايل من نوبته عند الصباح. أصرّ إيدي على تحيته بحرارة، وحتى ربَّت له تربيتة استرضائية على كتفه بينما أبلغه عن مسارهم وموضعهم. لكن فارمينغدايل تنهَّد تنهيدة قلة صبر من تلك الجهود الشفافة وراح يحدِّق في الأفق، وهو يمسِّد لحيته البيضاء كما لو أنها سرٌّ دفينٌ من القوة.

بعد ظهر ذلك اليوم، تلقى شرارة رسالة لاسلكية مباشرة ثانية إلى إليزابيث سيمان، فعدّلوا مسارهم. وقبل منتصف الليل بقليل، عند نقطة لقاء تبعد ثمانين كيلومتراً شمالي شرقي ديربان، تجسَّدت سبع وسبعون سفينة حول سفينتهم كما لو أنها سرب من النحل. احتاجا إلى جهد كبير ليناورا إليزابيث سيمان إلى محطتها من دون أن يصطدما بالسُفن الأخرى، التي كانت كلها مظلمة ما عدا من ضوء باهت في مؤخرتها. وَقَف إيدي مع القبطان على المنصة المعلَّقة، يشغّلان تلغراف غرفة المحرّك لكي يبلِّغا المهندسين في الأسفل بالسرعة والاتجاه. لم يكن بمقدوره إلا أن ينسب قوة خارقة تقريباً لكيتردج. فحظه السعيد الأميركي عمل لصالحهم. لقد بقي إيدي يتوق طوال حياته ليمتلك هكذا حظ – سعى إليه بكل وسيلة ممكنة. ربما امتلاك الحظ يعني أنك لست مضطراً إلى السعي وراءه.

تم إرسال مسار القافلة بأضواء الإشارة الوامضة باستخدام شيفرة النظام مورس. ومن سفينة الكومودور في وسط الصف الأول، تم تمرير الإشارة عكسياً عبر كل عمود من السُفن، وهي عملية استغرقت حوالي ثلاثين دقيقة. ثم اتّجهت القافلة، كما لو أنها كتلة ضخمة واحدة غير مرئية، نحو مسار بزاوية ثلاث وأربعين درجة نحو قناة موزمبيق.

عند الشروق، راح إيدي يحدِّق مع الضابط زميله بمحيط مرصَّع بثمانين سفينة تقريباً مصفوفةً في تصميم فسيح يشبه روعة قِطع الشطرنج. "هذا جمال لم أر مثله من قبل"، قال.

"أجمل بالقرب من الوسط"، قال الضابط مبتسماً، لأن محطتهم كانت قريبة بشكل

خطير من إحدى "زوايا الموت" الأكثر عرضة للغواصات. لا يهمّ. فالتقارب كان مذهلاً وضخماً في مقياسه وامتداده لدرجة أن المشاركة فيه جَعَل إيدي يشعر أنه لا يُقهر. رأى أعلام سُفن من البرتغال وفرنسا الحرة والبرازيل وبنما وجنوب أفريقيا. وعلى سفينة الشحن الهولندية على يمينهم، كان هناك ولدان يهرولان بين بياضات تتأرجح على حبل غسيل. يبدو أن قبطان السفينة فرّ من هولندا مع عائلته هرباً من النازيين.

كان هناك خمسة عشر مركباً مرافِقاً أصغر وأسرع - مدمِّرات وفرقيطات - تسير سراً إلى جانب السُفن مثل أحصنة الشرطة في استعراضٍ. ففي حين أن القافلة لا تستطيع أن تتوقف بسبب تعطّل إحدى السُفن، سيبقى المركب المرافِقَ مع تلك السفينة ويساعد في إنقاذ طاقمها. هذه الحقيقة، أكثر من أي حقيقة أخرى، أراحت إيدي.

فقط رجل واحد على متن إليزابيث سيمان كان حزيناً بالترتيب الجديد: قبطانها. لأنه على القوافل أن تسير بسرعة أبطأ سفينة فيها، ولأن هذه القافلة كانت تتضمن حارقة فحم بنمية، كان عليهم الالتزام بسرعة ثماني عُقد. "لقد قطعنا مسافة أطول عند الإبحار بشكل متعرِّج"، قال كيتردج مشتكياً للمهندس الرئيسي، الذي كان يجلس إلى يمينه عند تناول الطعام.

بعد منتصف الليل، عندما أتى فارمينغدايل (لا يزال يرسم ابتسامته الغريبة) ليريح إيدي من نوبته، وجَد وايكوف، الملازم الثاني البحري، ينتظره خارج حجرته الخاصة مع زجاجة شراب عنب. "سنشربها في الهواء الطلق"، قال. "إنها ليلة مثالية. والمكان الذي تشرب فيه شراب العنب مهم بقدر أهمية نوعية شراب العنب نفسه".

جلسا على غطاء الباب الثاني. كان الليل بارداً وصافياً، وتموج البحر بالكاد مرئي تحت ضوء قمر جزئي. لم يكن إيدي قادراً على رؤية السُفن من حولهم، لكنه لحَظ كثافتها، على بُعد مئة وخمسين متراً إلى الأمام والوراء، وثلاثمئة متر على الجانبين، كلها تشقّ عباب البحر مثل قطيع طيفي. سمِع إيدي الفلينة تخرج من زجاجة وايكوف، وشمَّ الرائحة الحِرشية اللاذعة لشراب العنب. صبَّ الملازم الثاني كمية متواضعة في كوبَين مطليين بالمينا. "لا تشرب الآن"، قال محذّراً عندما رَفَع إيدي كوبه. "دعه يتنفس".

كانت كوكبة الجنوب مرئية بالقرب من الأفق. كان إيدي يفضِّل السماء الجنوبية لأنها أكثر إشراقاً وأكثر كثافة بالكواكب.

"حسناً. الآن"، قال وايكوف بعد عدة دقائق. "خذ رشفةً وحرّكها في فمك قبل أن تبلعها".

بدا ذلك سخيفاً، لكن إيدي أطاع التعليمات. في البدء كان هناك فقط طعم الرماد الذي لطالما كرهه في شراب العنب، لكن تلك النكهة أثمَرَت طعم إفراطٍ في النضخ لذيذاً، وحتى بعض الإضمحلال. "أفضل"، قال متفاجئاً.

راحا يشربان وينظران إلى النجوم. بعد الحرب، قال وايكوف، يأمل أن يكسب رزقه من زراعة العنب في الوديان شمالي سان فرانسيسكو. كانت هناك كروم، لكن عوامل التجفيف حرقتها خلال فترة الحظر.

"وماذا عنك أيها الثالث؟"، سأل. "ماذا ستفعل بعد الحرب؟".

عرَف إيدي ماذا أراد أن يقول، لكنه انتظَر عدة لحظات ليكون متأكداً. "سأعود إلى منزلي في نيويورك"، قال. "لديَّ إبنة هناك".

"ما إسمها؟".

"آنا".

بدت هذه المقاطع اللفظية، التي لم ينطقها إيدي بصوتٍ عالٍ منذ سنوات، كما لو أنها تنهار سوية مثل زوج صنوج، تاركةً خلفها صدى رنين. ثم أشاح بنظره، خجلاً. لكن مع مرور الثواني من دون ردة فعل من وايكوف، أدرَك إيدي كم كان سرّه غير باهر. ففي هذه الأيام، معظم الرجال على السُفن تركوا حياةً أخرى خلفهم. والحرب جَعَلت ذلك عادياً.

"كم عمرها؟"، سأل وايكوف. "آنا".

استغرق إيدي لحظةً ليحتسب ذلك. "عشرون"، قال متفاجئاً. "أصبحت في العشرين من عمرها الأسبوع الماضي".

"ناضجة!".

"أفترض أن عشرين سنة تعني أنها ناضجة".

"أنا في الحادية والعشرين"، قال وايكوف.

الفصل 23

مرّت ليالٍ في قناة موزمبيق رمت فيها المراكب المرافِقَة قذائف أعماق، فملأت الجو بأصوات فرقعة. وكان جرس الإنذار العام يرنّ ويرنّ، فيصعد الجميع إلى ظهر المركب، وتبدأ القافلة بالسير بخطوط متعرّجة لمسافات طويلة. وكان إيدي يقف على المنصة المعلَّقة محاولاً المحافظة على موضع إليزابيث سيمان بين صفوف السُفن المُطفئة أنوارها بالكامل. وعندما كان يأوي إلى فراشه، كان ينام بشكل متقطّع، وآنا تطوف في أفكاره مثل شبح مضطرب.

"أريد أن أذهب معك".

"لا يُسمَح بدخول الأولاد يا توتس".

"كنتُ أذهب من قبل".

"هذه الأماكن مختلفة".

"كنتُ أذهب مؤخراً".

"آسف".

"هل تغيَّرتُ؟".

"في الواقع، أنتِ أكبر".

"هل أصبحتُ أكبر فجأة؟".

"النمو لا يحدث هكذا. إنه تدريجي".

"هل لاحظتَ فجأة أنني أكبر؟".

"ربما".

"*ماذا* لاحظتَ؟".

"رجاءً يا آنا".

"متى لاحظتَ ذلك؟".

"رجاءً".

بعد صمت طويل، قالت بصوت صارم أكثر، "سأعاقبك".

"لا أنصحك بذلك".

"سأكون خاملة".

"ستعاقبين نفسك هكذا".

"سآكل كمية كبيرة من الحلويات".

"سينتهي بك الأمر مثل السيدة أدير، من دون أسنان".

"سأوسّخ ملابسي".

"ستعاقبين أمك هكذا".

"سأكون امرأة فاسقة".

"عفواً؟".

"سأكون امرأة فاسقة. مثل عمّتي برِيان".

صفَع إيدي وجهها. "لا تقولي هذا أبداً مرة أخرى".

وضعت آنا يدها على خدها، دون أن تذرف دمعة واحدة. "دعني إذاً أذهب معك".

بعد سبعة أيام، خرجت القافلة من قناة موزمبيق من دون خسارة أي سفينة. وبدأت المراكب تبتعد عن بعضها - البعض غرباً إلى مومباسا، والبعض الآخر شرقاً إلى سيلان وإندونيسيا. بقيت إليزابيث سيمان في قافلة أصغر من ثماني عشرة سفينة وأربعة مراكب مرافِقَة. كان لا يزال هناك بطء حارقة الفحم البنمية، المرابِطة أمامهم مباشرة الآن. وعدة مرات في اليوم، عندما تنظّف الحارقة أنابيبها، كانت نقاط ناعمة من السُخام تستقرّ على

كل سنتيمتر من إليزابيث سيمان. وكان القبطان كيتردج ينقفها عن كمّيه ويستنكر تقدّمهم الجليدي. وبينما كانوا يحرثون المياه الزرقاء الهادئة جداً للمحيط الهندي، راح إيدي يراقب نفاد صبر القبطان المتزايد بحشرية متزايدة بشكل مساوٍ. كان كيتردج غير معتاد على حرمانه من الأشياء التي أرادها. كيف يمكنه أن يتحمّل أسابيع خلف حارقة الفحم؟

لم يعرف إيدي أبداً. فقبل وصلوهم إلى سيشيل، أشار لهم أحد الأعلام بأن على القافلة أن تتفرّق. فبدأت السُفن تبتعد عن بعضها البعض ببطء. كان تقدّمهم يبعث على الاسترخاء بقوة لدرجة أنه بدا في البدء أنهم لن يغيبوا عن أنظار بعضهم البعض بالكامل أبداً. لكن بعد مرور ثلاث ساعات، تلاشت حتى حارقة الفحم.

بصفته أمين المظالم الجديد لدكستر ستايلز، كان إيدي يزور الأنزال والملاهي والمطاعم وصالات ألعاب الحظ متظاهراً أنه سائح يحمل مالاً في جيبه؛ في أوائل العام 1935، لم يكن أحد يرفض هكذا رجل. وإذا صدف والتقى شخصاً يعرفه، كان إيدي يحيّيه بحرارة، ويدعوه إلى كوب شراب، ويغادر بعد ذلك بقليل. ثم يعود في اليوم التالي. فهو يحتاج إلى أكثر من زيارة واحدة ليرى أعمق من سطح المكان، وكان ستايلز يعطيه الكثير من النقود ليغطي مصاريفه. كانت تلك الأكياس الوحيدة التي بقي إيدي ينقلها.

كان في البدء يلتقي ستايلز كل أسبوعين في عنبر للزوارق على شاطئ مانهاتن ليفصّل له حصيلة أبحاثه. كانت الألعاب المغشوشة زاد يومه، لكنه كان يراقب أشياء أخرى أصاب في تخمينه أنها ستهمّ ستايلز: طبّاخ يشغّل فتيات بيع السجائر كبائعات هوى، وموزّعي أوراق لعب مدمنين على المخدرات يُربحون بعض الأشخاص لقاء رسمٍ، ومثليّين جنسيين يشكّ أنهم يتعرّضون للابتزاز.

"إنك تتغلغل عميقاً سيد كيريغان".

"أليس هذا هو المطلوب؟".

"لا تخترع قصصاً لكي تُلهيني".

"لا أعرف كيف أفعل ذلك".

في نهاية كل زيارة، كان ستايلز يعطيه عنوانين آخرين أو ثلاثة عناوين أخرى. "ألا يجب أن تدوّن هذه؟".

"لا داعي".

"هل أنت ذكي إلى هذا الحد؟".

"لستُ خرّيجاً من هارفرد، إذا كان هذا ما تقصده".

ضحِك ستايلز. "لو كنتَ كذلك، لكنتُ طردتُك".

"أنت تعرف التعبير"، قال إيدي. "'لا تكتب إذا كنت تستطيع أن تتكلَّم، ولا تتكلَّم إذا كنت تستطيع أن تومئ برأسك'".

شعر ستايلز بالبهجة. "إيرلنديٌّ قال هذا".

غمزَه إيدي.

أخبرَ دونالان أنه وجد عملاً في مسرح، مثلما كان يفعل قبل الانهيار الاقتصادي - عالمٌ بعيدٌ جداً عن عالم دونالان لكي يُدرك كم كانت هذه القصة بعيدة الاحتمال. بدا مرتاحاً لإزالته إيدي عن جدول رواتبه، وحيث أن تاريخهما المتشابك أحبط الظهور الكامل لعدم رحمة دونالان. فنقل واجبات إيدي إلى الرجل اليائس التالي، أوبانون، ثم راح ينذُب على إفساده العمل.

"ليست لديه لمستك يا إد"، راح ينتحب في مقصف صاني، الذي بقي إيدي يُصرّ على الذهاب إليه بوتيرة نظامية بعض الشيء. "يدخل باني غرفةً، فتتركَّز كل العيون عليه. يرمي مغلفاً في حضن دينتي مُور، هل تصدِّق هذا الأمر اللعين؟ والأوراق الخضراء ناتئة منه... ستظن أن ذلك المال مُصاب بالجُذام من مدى سرعة تراجُع الجميع عنه، هكذا أخبروني. أصبح النُدُل أغنياء. فقلتُ له، 'باني، كرِّر هذا مرة واحدة أخرى وسأرميك عن الرصيف البحري بنفسي. ويمكنك إخبار الأسماك بذلك". وهزّ دونالان كتفيه بدلالة تنمّ عن نفاد الصبر. "لكن زوجته تفقد بصرها تدريجياً، ولديهما خمسة أولاد صغار... لا يمكنني تركه وحيداً في وقت الضيق". ولوَّح بعينيه الصغيرتين نحو السماء، ثم تفحّص مغفَّليه المرابِطين عند الباب.

"أنت طيب يا دَني"، قال إيدي بجدّية تامة. "طيب جداً. لكن انتبه لنفسك يا صديقي: سيحاول العالم استغلال طيبة قلبك".

"بالمناسبة يا إد"، قال دونالان مخفِضاً صوته. "أخذتُ بنصيحتك بشأن الإيطالي".

لم يكن إيدي متأكداً أي إيطالي قَصَد، بما أن العديد منهم أساءوا لدونالان.

"و...؟".

"أبرَمتُ اتفاقاً. مع تَنكريدو".

تذكَّر إيدي الآن: أوزان خفيف الوسط لدَني. كان تَنكريدو يضغط عليه لكي يتبارزا.

"حطّيت من شأني إلى ذلك الإيطالي. تركته يدوس على وجهي في الوحل اللعين".

كان إيدي يستمع إليه مهموماً. كان انبطاح دونالان مشهداً يمكنه رؤية نهايته في العنف فقط. ثم ارتسمت ابتسامة ناعمة على شفتَي دونالان. "أفضل نصيحة حصلتُ عليها".

"حقاً؟"، قال إيدي، وهو يزفر.

"فتياني يفوزون يا إد"، قال دونالان بنبرة رجل يتورَّد خجلاً من كشفه أسراره. "إنهم يفيضون قوةً ونشاطاً. كل ما كانوا يحتاجون إليه هو مجرد فرصة عادلة".

"يسرّني سماع هذا يا دَني".

"سنفعل أي شيء لأولادنا، أليس هذا صحيحاً يا إد؟ يُداس علينا، ويُبصَق علينا، ونُضرَب بقوة. كل شيء يستحق العناء إذا كان يجعلهم سعداء".

الماسوشية لم تلائم دونالان؛ وأراد إيدي إيقافها. "بالتأكيد يا دَني"، قال. "لكن لا تبالغ كثيراً. ابحث عن فرصتك واخرج حالاً".

أومأ دونالان برأسه، مراقباً إيدي برصانة. كانا قد عادا إلى داخل القصة الأعمق التي لطالما كانت بينهما مثل كنز مدفون: التيار الارتدادي، الذعر، الإنقاذ. السباحة بشكلٍ موازٍ للشطّ، البحث عن طريقة للعودة. في الوقت نفسه، كان إيدي يشرح لماذا تخلّص من دونالان - *استغلّه*، هكذا سيقول دَني بالتأكيد إذا علِم مع مَن كان إيدي يعمل في الوقت الحاضر. كان الترتيب الدقيق لتلك الميادين العديدة يجعل إيدي يشعر كما لو أنه قادر على الرؤية في كل الاتجاهات دفعة واحدة.

"لا داعي أن يعرف تَنكريدو"، قال إيدي محذِّراً. "لا يجب أن يعرف أبداً. انتبه إلى نفسك".

أومأ دونالان برأسه، مستمعاً.

استعار إيدي الدوسنبرغ وقاد عائلته إلى متجر إمدادات طبية في باراموس، نيوجيرسي، حيث أُجلست ليديا على كرسيها. كان التأثير جذرياً: في سنّ التاسعة، انضمت ليديا إلى العالم العمودي لأول مرة. فأصبحت تجلس إلى الطاولة لتناول الطعام. وأغنِس تأخذها في نزهات. وآنا تنحني بجانبها عند النافذة، لمراقبة عصافير الدُوري تنقر فتات الخبز التي كانت قد وضعتها على العتبة. من الخلف، لم يكن إيدي يرى أي فرق واضح بينهما.

في إحدى المرات، عندما كانت أغنِس تغيِّر حفاض ليديا، مرَّ بائع الثلج دون أن يتوقف. فاشترى لها إيدي ثلاجة كهربائية فوراً، وليس بحجز واحدة واستلامها عند انتهاء تقسيط ثمنها – فقد انتهى من كذبة امتلاك أشياء لا يملكها فعلياً. وبقي الجيران لعدة أيام يأتون إلى المطبخ ليُبدوا إعجابهم بهذه الرفاهية، وليديا تبتسم لهم على كرسيها الجديد.

كانت الثلاجة تُصدر صوت أزيز كئيب يُبقي إيدي مستيقظاً. وعندما ينام أخيراً، يحلم أنه ينزع سلكها الكهربائي.

"يجب أن تشكر لي السيد دونالان"، قالت أغنِس.

و: "ماذا سنفعل من دون الاتحاد؟".

و: "لكننا محظوظون يا إد. انظر إلى كل الآخرين".

كانت تقول هكذا أشياء في أغلب الأحيان، ويبتسم لها إيدي ويهمس موافقته. لكنه شعر بوجود قعر زائف في أحاديث زوجته، حجرة خفية تحتوي على كل شيء كانت تمتنع عن قوله. كانت أغنِس تعرف كيف تسير الأمور. لا يمكن ألا تكون قد لاحظت الساعات الأطول، وحقيقة أنه نادراً ما أصبح يستعير الدوسنبرغ، وأنه لا يأخذ آنا معه أبداً. لكن بصرف النظر عن تعجّباتها المسكِّنة بشأن حظهم الجيد، لم تعبّر عن شكرها لكل ذلك. وكان إيدي يشعر بمتعة مَرَضية في مراقبته مراوغات زوجته. لكن في الليل، عندما يحتضنها بذراعيه ويحدق في وجهها المهموم، لم يكن يجد أي غدر فيه.

أرسله ستايلز إلى ألبَني وساراتوغا وأتلانتك سيتي. كان يحبّ معرفة التفاصيل الدقيقة

لكل عملية، كما لو أن إيدي كان كاميرا سينمائية. لم يستخدما أسماء أبداً؛ وكانت مهمة إيدي التركيز على التفصيل الرئيسي الذي يسهِّل التعرّف على الرجل المقصود. كانت الندبات سهلة. لكن كان هناك شيءٌ ما دائماً: شعر مُلمَّع كثيراً؛ خاتم معيّن؛ سروال متوحِّل عند الكاحلين؛ مشية تشبه مشية الدب. لكن الفتيات كانت أصعب. فوصفه لهن بـ "شقراء" أو "سمراء" أو "جميلة" كان أفضل ما يقدر عليه. ما يهمّ كان الرجال الذين يأتين معهم.

تعجَّب إيدي من الدقة الكبيرة التي شخَّص بها ستايلز لا مبالاته العميقة. "أنت عيناي وأذناي"، كان يقول له في أغلب الأحيان، وكان إيدي يحبّ هذا الوصف. كان قناةً للحقائق، ولا شيء أكثر. كان ينقل له محادثات كاملة من دون أن يعرف مَن الذي أجراها. وحتى عندما يعرف، لا مفرّ من ذلك، في سياق السنتين، لم يكن له أي رأي فيها. *لا علاقة لي بها*، كان يقول لنفسه. *لم تكن لتحصل خلافاً لذلك، سواء كنتُ هناك أم لا*. لم تكن العواقب من شأنه.

"أنت آلة يا كيريغان. آلة بشرية"، قال ستايلز متعجِّباً. كان ذلك مديحاً. فبوجود إيدي كعينيه وأذنَيه، كان ستايلز قادراً على أن يتواجد في أي مكان، وفي كل مكان. عليه فقط أن يكون فضولياً.

تدريجياً، تخطّت حشرية ستايلز الأعمال التجارية التي كان يديرها ووصلت إلى المنافسين داخل النقابة، وحتى الشركاء. في يناير 1937، أخذ إيدي كيسه الورقي إلى مكتب تذاكر الخطوط الجوية الشرقية على جادة فاندربيلت. استقلّ هناك سيارة ليموزين مع عدة رجال آخرين إلى مطار نيوارك. كان ذاهباً إلى ميامي ليراقب رجلاً أراد ستايلز أن يعرف عنه. كانت هذه أول رحلة له في الطائرة.

في المطار، نزع إيدي قبعته وتوارى داخل طائرة فضية، وقلبه يخفق بسرعة. عندما ركب الجميع الطائرة، بدأت المراوح تدور خارج النوافذ، ومشت الطائرة مترنِّحة على مدرَج بين حقول مكسوة بالثلوج، وأسرعت فوراً بشكل حابس للأنفاس عندما افترقت عجلاتها عن الأرض واندفعت عالياً مثل رماد في مهبّ الريح. من خلال كُوَّته، راح إيدي يراقب فاغراً فمه نسخةً مصغَّرةً لمدينة نيويورك بدت كأنها لعبة: سيارات صغيرة جداً على شوارع صغيرة جداً؛ منازل وأشجار وملاعب كُرة مرصَّعة بالثلج؛ ثم البحر، ورقة مصنوعة من

مادة البيوتر – لا تزال لا متناهية، حتى من هذا الارتفاع. كان المحرّك يئزّ في أذنيه. وهناك امرأة تبكي بجانبه، ويداها مشبوكتان في دعاء. مُخفضاً نظره نحو الفُسحة الغامرة للأرض، شعَر إيدي أنه على شفير اكتشاف كبير.

توقفت الطائرة في محطات انتقالية في واشنطن العاصمة، ورالي، وتشارلستون، وجاكسونفيل، وبالم بيتش، وأخيراً في ميامي، حيث كان القمر يلقي نوره الفضي على بحر مخملي أسود. كانت رائحة الهواء كالعسل. وحتى في المطار، كانت أناقة بالم بيتش معروضة بشكل مُشرق: سترات عشاء بيضاء، قمصان حريرية شاحبة. عند التاسعة، رأى إيدي رجل ستايلز: كان يجلس في مؤخرة الملهى، بوجه شاحب، وعينين مغلقتين تقريباً، ويبدو أشبه بمحاسب منه مروِّج مباريات. حاوَل إيدي أن يخرج متعادلاً من طاولة العجلة الدوّارة بينما يحفظ تسلسل الزوّار إلى طاولة الرجل. كان منهمكاً جداً في ما يفعله، فاحتاج إلى بعض الوقت ليلاحظ أن الفتاة المتكئة أمامه على طاولة العجلة الدوّارة لم تكن تفعل ذلك عن طريق الخطأ. أضاف ثمن شرابها إلى حسابه بقصد مكافأتها على الجهد الذي بذلته من قبل. أو هكذا قال لنفسه. حين غادر هدفه الملهى، شعر إيدي أن قراره بإصعاد الفتاة إلى غرفته في الفندق بدا متّخذاً من قبل.

استيقَظ عند الشروق على عطر غير مألوف على ملاءته. أحاطه شعور بالقرف والأسى. *لا يهمّ*، قال لنفسه. *الرجال يفعلون هذا طوال الوقت. ولا أحد سيعرف أبداً.* لكن هذا الكلام المبتذل جعَله يشعر كما لو أن شخصاً أحمق يجامله. غادر الفندق وراح يتمشى على الرمل الذي بلون الأسمنت، وينقف أعقاب سجائر على الأرض. ولم يشعر بارتياح إلا عندما قال لنفسه إن الشخص الذي كان مع بائعة الهوى لم يكن هو حقاً. بل كان عينَي دكستر ستايلز وأذنَيه، فقط لا غير. "أنا لستُ هنا الآن"، قال إيدي بصوتٍ عالٍ أكثر من مرة، وبدأت الجملة تخفّف له ألمه كل مرة.

في تلك الليلة، وإلى طاولة حظ أخرى وفّرت له زاوية رؤية مختلفة لهدفه، رأى إيدي مشيةً مألوفةً لفتت انتباهه: مشية امرأة في قدميها مسامير جرّاء حمل الكثير من أكياس البقالة. جون دونالان. راح يسير متثاقلاً في الملهى مع مشية عرجاء لم يرها إيدي من قبل – لكنه بالكاد يرى دونالان هذه الأيام. وجوده هنا أدهَش إيدي لدرجة أنه نسي أن يشيح بنظره لعدة لحظات. كان دونالان خارج مجاله الطبيعي الآن. راح يعرج وهو يمشي

إلى الطاولة التي كان إيدي يراقبها - أدرَك أنها طاولة تَنكريدو، وربما عرَف ذلك من قبل - وارتمى على كرسي، وحنى رأسه الضخم بحركة مذلّة بالكاد استطاع إيدي تحمّل رؤيتها، حتى سراً. كيف سبَّب صديقه العزيز هذا لنفسه؟ كان الاجتماع قصيراً بشكل مهين؛ فقد صَرَف تَنكريدو دونالان بإيماءة استخفاف مقتضبة أجفلت إيدي. نهض دونالان مترنّحاً، وراح يتطوّح بين طاولات ألعاب الحظ بتمايل كبير جَعَل إيدي يشعر أنه قد ينهار فوق إحداها. خشي إيدي حصول ذلك، لأنه يعلم أن عليه أن يبقى جالساً ولا يفعل شيئاً.

عندما اقترب دونالان من المخرَج البعيد، خفّت مشيته العرجاء، ولمحَ إيدي بريق متعة على وجهه. في تلك اللحظة بالذات، أدرَك إيدي، بسرور كبير، أنه غفل عن ملاحظة السخرية في أداء صديقه. كانت المشية العرجاء زائفة. والتضرُّع زائفاً. كان دونالان يتملّق، وبشكل مبالغ به تقريباً - لكن إيدي خُدِع بذلك. لم يستسلم دَني للإيطاليين، الحمد لله. كان كل ذلك مجرد حيلة، تصنُّع كوسيلة لتحقيق غاية ما. لقد أخذ بنصيحة إيدي وعثر على فرصته. وما أدهَشه أكثر من مشاهدة تمثيلية دونالان هو الفرح الذي شعر به إيدي عند رؤيته يؤدّيها. آه كم يحبّ دَني - كم يريده أن يفوز! تمنّى لو يمكنه أن يركض إلى صديقه العزيز ويقبّل خدّيه المتهدِّلين.

في تقريره إلى ستايلز، لم يأت إيدي على ذكر دونالان.

اعترَف إيدي في دار عبادة لم يزرها من قبل أبداً لكي لا يتعرَّف عليه الموقَّر، الذي طلب منه الدعاء طلباً للمغفرة. هذا سهل جداً. لفّه اليأس في عباءته السوداء، ودارت عجلة العربة في ذهنه مرة أخرى. ما كان هدف أي شيء فعله، أو يفعله الآن، إذا كان سيقوده إلى معاشرة بائعات الهوى؟ كان كل ذلك وسيلة لتحقيق غاية - لكن أي غاية؟

غريزياً، وكالعادة، لجأ إلى آنا. "توتس، أرغب في تناول حلوى الشارلوت"، قال يوم سبتٍ عندما كانت أغنِس في الخارج مع ليديا. "وأنتِ؟".

"لا أحبّها يا بابا".

"ماذا؟ كنتِ تحبّينها كثيراً".

"حلوة جداً".

منذهلاً، راح يتفحّص آنا، الجالسة إلى طاولة المطبخ مُحاطةً بكتبها المدرسية، وشعر

أنه لم يُمعن النظر فيها منذ بعض الوقت. كانت في الرابعة عشرة، طويلة وجميلة، لكنها مميّزة أقل مما كانت عليه في السابق. كانت تشبه النساء اللواتي يكافح ليصفهن لدكستر ستايلز.

"تعالي معي على أي حال"، قال. "اطلبي شيئاً آخر".

نهضت آنا وارتدت معطفها. أثناء نزولهما الدرج، شعر ببعض المعاناة لديها، كما لو أن هناك شيئاً آخر تفضّل القيام به. احتار في أمره، لأنها لطالما أرادت أن تأتي معه! وقد حاربت بقوة عندما توقف عن شملها في أعماله. لقد مرّ بعض الوقت، بالطبع - حوالي السنتين، أدرَك مصدوماً، وهو يعدّ الأشهر منذ أن بدأ يعمل لدى ستايلز. وبقي إيدي يفترض طوال ذلك الوقت أنه يستطيع أن يعود إلى عاداته القديمة مع آنا عندما يريد ذلك. بدأ الآن، ولأول مرة، يشكّ في ذلك.

جلسا إلى طاولة لدى وايت. طلبت آنا مياهاً غازيةً بالشوكولا؛ والتزم إيدي بخياره حلوى الشارلوت، التي أحضَرها السيد وايت من واجهة العرض. بينما كانا ينتظران، أشعل سيجارة وأعطاها القسيمة من داخل رزمته. نظَرت إليه باستغراب، ثم قالت مع ضحكة عدم تصديق، "بابا، لم أعد أجمِّع هذه القسائم".

"لا؟ وماذا بشأن كل تلك القسائم التي جمّعتها؟".

"لم يكن عددها كافياً أبداً للأشياء التي أردتُها".

"ربما كان عددها سيصبح كافياً الآن".

نظَرت إليه بفضول. "لماذا تهتم؟".

لم يكن يهتم. أرادها هي أن تهتم. "يبدو لي هذا مؤسفاً".

"كنتَ لتدخِّن على أي حال"، قالت. "أو هل كنتَ تدخِّن أكثر لأجلي؟". ابتسمت له بحنان، بتساهل: ابتسامة امرأة.

شعَر إيدي بقلق عميق. "متى توقفتِ عن تجميعها؟".

هزَّت كتفيها، وكانت هذه إيماءة يكرهها.

"مؤخراً؟"، سأل بحدّة.

اكفهرّ وجهها. "لا. منذ وقت طويل".

ظهر شبح صغير فجأة بجانب إيدي: صغيرته آنا الحيوية. أين ذلك الشبح الثرثار داخل هذه الفتاة الهادئة غير المكترثة الجالسة بجانبه، التي تؤدِّب نفسها على عدم النظر خارج النافذة؟ كانت وظيفة إيدي أن يلحظ هكذا أشياء. عمَن كانت تريد أن تبحث؟

مرَّر السيد وايت المياه الغازية بالشوكولا على المنضدة، وراحا يأكلان بصمت. لم يستطع إيدي أن يفكِّر بأي شيء يقوله. فقد بقي ذهنه يعود إلى الماضي - إلى كرة الثلج، إلى القبلة السرية. أراد أن يسأل آنا إذا كانت تتذكَّر تلك الأوقات، لكنه كان خائفاً ألا تتذكّرها - وهذا أسوأ لأنه سيدلّ على أنها لا تعني لها شيئاً.

وماذا بشأن كل الأيام الأخرى؟ مئات الأيام الأخرى التي أمضياها معاً؛ لماذا لا يستطيع أن يتذكّر تلك الأيام؟

"كنتِ محقّة بشأن حلوى الشارلوت"، قال أخيراً. "حلوة جداً".

بعد ذلك، وَقَفا خارج الصيدلية. قالت آنا إنها ذاهبة إلى منزل ستيلا، لكن إيدي شَعَرَ بكذبها وبدأ يعرق، رغم البرد. لقد تغيَّر شيءٌ في آنا، بشكل دائم، بشكل جوهري - كان أكيداً من ذلك. أشاح بنظره عن إبنته - وراح ينظر حيث يدفع له ستايلز لكي ينظر - وتاهت.

راح الشبح يقفز ويلوِّح يد إيدي. رفعت وجهها نحوه، وبدأت تثرثر: تتكلم لساعات، بلا تفكير مثل كلب يهزّ ذيله، يميناً ويساراً، يميناً ويساراً.

حدَّق إيدي في عينَي آنا الكبيرتين الداكنتين تحت رمشَيها الكثيفين، محاولاً العثور على ذلك الشبح الصغير. لكنه كان قد أشاح بنظره لفترة طويلة جداً، وقد تلاشى الشبح. الفتاة التي تقف مكانها بالكاد تتذكّره، وتريد الابتعاد فقط.

تلقّى دونالان خمس عشرة طلقة من سيارة متحرّكة خارج مقصف صاني بعد منتصف الليل بقليل. في أبريل 1937، بعد ثلاثة أشهر من رؤية إيدي له في ميامي. بالطبع، كان هناك شهود - فدونالان لم يكن حتى يبوِّل بمفرده - لكن أحداً لم يقل أي كلمة. كان أعداؤه كثراً، منافسون على التوظيف في الرصيف البحري والسيطرة عليه، لكن تلك الضغائن بقيت تغلي على نار هادئة لسنوات من دون أي مشكلة تُذكر. كان إعداماً بالأسلوب الإيطالي.

بقي صامداً ليومين في مستشفى سانت فنسنت. وزاره رجال الشرطة عدة مرات، لكنهم لم يتوقعوا أبداً الحصول على كلمة منه، حتى ولو تمكّن بطريقة أو بأخرى من أن يستفيق من غيبوبته ويتكلّم.

تجمَّع شباب مَأوى الأحداث المشرَّدين في مجموعات من شخصين وثلاثة أشخاص في ردهة المستشفى، وكانوا حوالي أربعين شخصاً ذوي شعر خفيف وأسنان ناقصة. وراح إيدي يجهش بالبكاء على أذرعهم. "كنتَ أكثر شخص يعرفه"، أكَّدوا جميعاً. "كنت المفضَّل لديه. لا عجب في ذلك؛ فقد أنقذت له حياته. المرء لا ينسى هكذا أمر". شعر إيدي بتوق ليسمع تلك الشهادات، لكنها لم توفّر له سوى عزاء سريع الزوال. شعَر كما لو أنه أطلق النار على دَني بنفسه.

تعرَّف على بارت شيهان فوراً، رغم أنه لم ير صديقه القديم منذ عشرين سنة. كان شيهان لا يزال يحتفظ بشعره، نصف رمادي وبحاجة إلى قص. بدا مثل رجل يعيش مرتدياً قميصاً طوال الوقت. "لقد أنقذتَ لنا حياتنا يوماً ما يا إد"، قال باكياً بوجهه الإيرلندي الأسود المليء بالحزن. "أخرجتنا من الأمواج. لما كنتُ هنا اليوم لولاك".

وجود دونالان بين الحياة والموت لم يمنعه من تصدُّر المشهد طوال يومَي يقظته، وصورته الظليّة مثل كومة خامٍ تهيمن على الغرفة من تابوت ضخم. تحت طبقات سميكة من الماكياج، كانت ثقوب الرصاصات مرئية في صدغه وجبهته وعنقه. وبقيت زوجته، ماغي، تعوي بلا عزاء لكنها حصلت على تعاطف قليل. وقد فُسِّر حزنها الثرثار – مثل عادتها بانتزاع زوجها من المقاصف قبل الأوان – بأنه رغبة منها بأن "توفّر بعض التسلية لدَني".

كان إيدي قادراً على أن يتكلم بهدوء أكثر مع شيهان في اليقظة. كان صديقه القديم أرملاً، مع ثلاثة أولاد، ولا يزال يعيش في برونكس مع أخته غير المتزوجة.

"سمعتُ أنك محامي"، قال إيدي.

"مكتب المدّعي العام. وأنتَ يا إد؟".

"آه، هذا وذاك".

"أوقات عصيبة"، قال بارت، مُسيئاً فهم غموض إيدي بالبطالة. "أنا محظوظ أنني

أعمل لدى الدولة".

"هل ذلك مثل العمل كشرطي، ماذا تفعل؟".

"أنظَف"، قال بارت، وضحِكا.

اندفعت موجة عارمة من المشيِّعين إلى دار العبادة صباح الأحد للمشاركة في جنازة دونالان – العديد منهم لا يزال ثملاً، والباقون يعانون من دوار الثمالة. سمِع إيدي همسات في آخر الشارع: جو *راين في دار العبادة*. هل يوجد دليل أفضل على نفوذ دَني من وجود أفسَدْ شخص، رئيس اتحاد حمّالي الميناء الدولي، في جنازته؟

أمسكت أغنِس بذراع إيدي. وكان هناك عازف مزمار يعزف على درج دار العبادة، وشعَر بدموعه تنهمر من جديد. "ماذا سيعني هذا لنا يا حبيبي؟"، سألته بنظرة قلق كبيرة لدرجة أن إيدي أدرَك أنها لا شكّ تفهم الأمور أقل مما كان يظنّ. وربما لم تفهم شيئاً على الإطلاق.

"سنكون بخير"، تمتم.

وجَد شيهان طريقه إلى الجانب الآخر لإيدي، وصعدوا درج دار العبادة متأبطين أذرع بعضهم. داخل الباب، انحنى إيدي إلى أذن صديقه القديم وهمس له، "أخبرتني الطائرة الورقية، منذ مدة، أنك تبحث في أمر النقابة".

شعَر بارتداد شيهان إلى الوراء متفاجئاً. ثم همَس له بحذر، "هناك بعض الحقيقة في ذلك".

"قد أكون قادراً على... المساهمة".

ألقى بارت نظرةً مشكِّكةً على إيدي. "ماذا تعرف عنها؟".

"أعرف كل شيء"، قال إيدي.

t.me/ktabpdf

الفصل 24

عشرون دقيقة جنوبي حوض بناء السُفن ريد هُوك حيث التقيا، بدأ العجوز الذي يلقبّه الجميع "القبطان" يُحدث ضجيجاً بدا مشابهاً للكلام تقريباً. متكئاً على الجدار الخارجي لمقصورة قيادة صغيرة جداً، ومصوِّباً وجهه التالف نحو السماء كما لو أن شخصاً كان يشدّه من شعره إلى الوراء، راح يئنّ ويعول على النجوم المتناثرة -كان عدد النجوم أكبر مما رأته آنا في حياتها كلها، حتى من الشَطّ المعتم.

"إيريل... سمولف... سكاينك...".

استدارت إلى القبطان في حالة تأهّب عند سماعها كل كلمة. لا يبدو أن أحداً آخر لاحظ شيئاً، باستثناء مدير الدفّة: رجل طويل ذو نظرات فارغة يحرّك عجلةً بمقدار طفيف جداً رداً على كل هتاف. لكنه بدا رافعةً أكثر منه إنساناً كان القبطان يديرها بذهنه.

كانت الساعة الحادية عشرة، والسماء صافية، والحرارة سبع درجات - وهذا دافئ لأوائل مارس - والقمر ناتئ ومنخفض. وراحت أشعة الأنوار الكشّافة تتفحّص سماء الليل بحثاً عن طائرة. كان الميناء مزدحماً بمراكب غير مرئية. ومن وقت لآخر يظهر شكل شاهق أمام الزورق، فيولْوِل القبطان لمدير الدفّة، الذي يقودهم بعيداً عن الخطر برشاقة كالفراشة. كان تمثال الحرية صورةً ظلّيّةً داكنةً، ضوءاً باهتاً واحداً في لهبها.

حتى القبطان صمتَ عند اقترابهم من المضيق الذي يشكّل مدخلاً إلى الخليج السفلي، والذي يحرسه حصن هاميلتون إلى الشرق وحصن وادزْورث إلى الغرب، في ستاتن آيلند. قال دكستر ستايلز إنه "سيكلّم" شخصاً من خفر السواحل سيصوّب الأمور في حال تم إيقاف الزورق، لكن لا أحد أراد ذلك. لحوالي عشر دقائق تقريباً، كان الصوت الوحيد على الزورق هو صوت محرّكه. وتساءلت آنا إن كان العمق سيكون كافياً للمرور فوق شبكات الغواصات، ثم أدركت أن البوابة لا بدّ أن تكون مفتوحة. كانوا قد تبَعوا

سُفناً أخرى – قافلة ربما – إلى الخليج السفلي. خفتت أصوات الأبواق وصفارات الإنذار، وشعَرت بالرياح المتصاعدة. مالَ "حمقى" (وهذه كلمة باسكومب) دكستر ستايلز الخمسة فوق الحافة العليا للزورق، مُمسكين بقبعاتهم. كانوا قد أُحضروا إلى الزورق ليديروا حدّافات ضاغط الهواء، لكن كان لوجودهم هناك تأثير مُنذِر بالسوء.

فقط مارل وباسكومب تابَعا العمل، فراحا يفحصان ويحضّران ضاغط الهواء الذي تمكّن دكستر ستايلز من توفيره على الزورق. كان مضخّةً هوائيةً ماركة مورس الرقم 1، مماثلاً للضاغطات المستخدمة في الساحة البحرية، وجرى تثبيته بمقدمة الزورق. كانا ينظِّفان خزّانات هوائه الآن، ويدهنان قضبان المكبس بالزيت، ويزيّتان مقبض قصبة المضخّة بمزيج من الزيت والغرافيت. المدهش أنهم لم يواجهوا صعوبة كبيرة في أخذ صندوقَي غطس من الساحة البحرية – كل صندوق منهما يحتوي على بذلة وزنها تسعون كيلوغراماً – مع ستة خراطيم هواء طول الواحد منها خمسة عشر متراً، وكيس أدوات مليء، وسكّينَي غطس، وعلبة قِطع غيار. راحوا يتبجّحون أن الأمر سهل جداً تقريباً عندما لاقتهم آنا خارج حوض بناء السُفن ريد هُوك. كان عدد كبير من الغطّاسين يأتون يومياً إلى خط أنابيب المياه العذبة لدرجة أن الحارس البحري بالكاد لاحظهم عندما جرّوا المعدات عبر بوابة شارع مارشال إلى شاحنة مسطّحة صغيرة استعارها مارل من عمّه.

استدار الزورق شرقاً بعد المضيق، وسرعان ما ظهر الظل الباهت لمنطقة هبوط المظلّات إلى اليسار، إلى جانب الشكل الهزيل للعجلة الدوّارة الكبيرة لمدينة الملاهي. ثم استدار جنوباً، ثم غرباً؛ ثم أضاعت آنا المسار. اعتقَدت أنهم قد يكونون خارجين من ميناء نيويورك إلى الأطلسي. ما مدى العمق الذي سيكون عليها الغطس إليه؟

وَقَف دكستر ستايلز في مؤخرة الزورق، واضعاً يداً على قبعته، وزادت سِحنته المتجهّمة من رعب آنا. بالكاد تبادلا كلمةً في السيارة إلى ريد هُوك، وبقيت قريبة من مارل وباسكومب منذ ذلك الحين. وقد ساهم مَرَحهما في تخفيف حدّة قلقها. كانت قد فاتحتهما بالموضوع بحذر شديد، خائفةً من أن يضحكا في وجهها أو يبلّغا الشرطة، لكن بدا أن الغطس لانتشال جثة من قعر ميناء نيويورك – لم يسألا أبداً جثة مَن تكون – كان بالضبط صنف المغامرات المعتوهة التي كانت ناقصة في حياتهما. شعَرت آنا أنها مضطرة إلى تذكيرهما بالأخطار والمآزق الممكنة، لكن أياً من ذلك لم يُحدث أي تأثير على

عينوهما الراقصة – أو ربما كانت الأخطار والمآزق هي الغاية المنشودة.

عندما بدأ الزورق يُبطئ أخيراً، خلعت آنا معطفها وحذاءها وسحَبت مجموعة من الملابس الصوفية فوق بذلتها ووضعت قبعة حارس ليلي دافئة على رأسها. ثم تلوَّت داخل البذلة القماشية من دون مساعدة بينما كان باسكومب ومارل يتفحّصان الخوذات ووصلات خرطوم الهواء. وكان القمر يلقي ضوءاً باهتاً على سطح الماء. باشَر مدير الدفّة بتنفيذ سلسلة تعديلاتٍ وتصحيحات إلى أن أصدَرَ القبطان أخيراً عواءً ثقبَ أذن آنا، وصمت المحرّك. وبدأ بحّارا الزورق، في ثيابهما السوداء من الفحم الذي كانا يضعانه في فرن تحت سطح الزورق، بإنزال المرساة الأولى من المرساتين المزدوجتين، واحدة عند كل طرف للزورق، اللتين ستُبقيانه ثابتاً في مكانه.

"هل لديكما أي فكرَة أين نحن؟"، سألت آنا صديقيها.

"لا أعرف"، قال باسكومب.

"ستاتن آيلند"، قال مارل. "الساحل الجنوبي الغربي".

"كنتُ أعرِف هذا"، قال باسكومب. "كنت أختبرك".

كانت ضحكتهم ذات طابع متمرّد، كما لو أن محافظتهم على فيض حيويتهم أصبح أمراً شاقاً. ساعدا آنا في ارتداء ملابسها: الحذاء أولاً، بأربطته ومشبكه؛ ثم وسادة الخوذة. كانت تلك الخطوات راسخة عميقاً في ذهنَيهما لدرجة أن تنفيذها جَعَل محيطهما الغريب يبدو مألوفاً. درع الصدر؛ المريلة؛ الدعامات؛ الياقة؛ الفلكات. وعندما انتهيا من إلباسها كل شيء ما عدا القبعة، استدعى مارل الحمقى إلى حدّافات الضاغط. فبدأوا يدوِّرونها بحماسة، ويتدافعون بقصد إظهارهم عدم كللهم. راح دكستر ستايلز يراقب كل ذلك من بعيد، ووجهه مرآةٌ لقلق آنا. تجنَّبت النظر إليه.

بعد إنزال المرساتين وثبات الزورق، بدأ مارل يراقب العمق. أشارت عُقد الحبل الرطبة أن العمق اثنا عشر متراً، والقعر ناعم من رمال ووحول. ثم ألقى باسكومب ومارل الحبل النازل، بوزنه البالغ خمسة وأربعين كيلوغراماً، فوق ميمنة الزورق، قرب سُلَّم الغطس. ثم قام مارل وآنا بمساعدة باسكومب على ارتداء البذلة الثانية – القماش فقط، من دون الأجزاء الثقيلة. هدأت حماسة صديقيها، وأكملا عملهما الآن بأسلوب حِرفيّ. جلَست آنا على مقعد الغطس مرتديةً كل شيء ما عدا خوذتها. "يجب أن أكلِّم السيد ستايلز"، قالت.

أصبح بجانبها بعد لحظة، وركع ليصبح عند مستوى عينيها. بدت عيناه غائرتين.

"عما أبحث؟"، قالت.

"تعرفين مسبقاً".

"أعني غير ذلك".

صمتَ قليلاً. "حبال، أظن. وزن إثقال ما. ربما جنزير".

رفعت صوتها لمارل وباسكومب وقالت، "أنا جاهزة".

نهضت عن مقعدها ومشت بتثاقل إلى السُلَّم. ثبّتا براغي خوذتها وأوصلا خرطوم الهواء وحبال الإنقاذ، واختبرا هواءها. مرَّر مارل حبل الإنقاذ تحت ذراعها اليمنى وخرطوم الهواء تحت ذراعها اليسرى، وثبّتهما بالثقوب المعدنية على الجهة الأمامية لدرع الصدر. وبينما كانت تستعد لنزول السُلَّم، حدَّق باسكومب فيها عبر فتحة خوذة رأسها بعينين ضيقتين صارمتين بشكل غير اعتيادي. "لا يعجبني هذا"، قال.

"آسفة".

نخَر. "تباً، لستُ الشخص الذي سيغطس".

"أي مكروه يمكن أن يحصل؟"، قالت، فضحك.

أغلق خوذة رأسها، وملأت هسهسة هواء كيميائي بارد فمها ومنخريها. نزلت السُلَّم عكسياً، ثم أمسكت الحبل النازل وتركت الميناء يبتلعها. كان التيار عنيفاً، مع قوة المحيط خلفه. تذكّرت درس الملازم أكسل عن التيارات، فأدارت جسمها بحيث يضغط الماء على ظهرها ويدفعها نحو حبلها النازل بدلاً من إبعادها عنه. تابعت الانزلاق نزولاً. كانت قد افترضت أن الغطس في الليل لن يختلف عن الغطس في خليج والأباوت، برؤيته السيئة. لكن تبيَّن لها أن كُمدة الخليج الموحِل كانت شيئاً *رأته من قبل*. لا يوجد هنا أي فرق بين فتح عينيها وإغماضهما. وهذا أعطاها شعوراً بانسلاخ مُوحِش، كما لو أنها تتحرّك نحو لا شيء أو تعوم في خلاءٍ. عندما وَصَلت إلى القعر أخيراً، أمسكت الحبل وطرفت عيناها في الظلمة، وتساءلت إن كانت قد نزلت بسرعة كبيرة. شدٌّ على حبل إنقاذها أعاد لها توازنها، وشدّته بدورها. كان التيار ألطف في الأسفل. أغمضت آنا عينيها وشَعَرت بهدوء فوراً. هنا كان يوجد عمى يمكنها تحمّله.

أخرجت حبلاً دائرياً طوله عشرون متراً من كيس أدواتها وعقدته حول الحبل النازل، فوق الوزن تماماً. ثم تذكّرت خدعة علّمهم إياها الملازم أكسل (غريب كم كانت تصغي جيداً إليه، حتى مع تمتمة باسكومب في أذنها)، حشرت أصابعها تحت حافة الوزن وقَلَبته، بحيث أصبح حبل بحثها الآن مسمَّراً تحت الوزن وسينزلق عن قرب أكثر فوق أرضية الميناء. لفّت الطرف الآخر حول معصمها الأيمن وسارت بعيداً عن الوزن إلى أن أصبح الحبل مشدوداً. ثم وضعت كيس أدواتها أرضاً كعلامة لبداية دائرتها، وركعت على يديها ورجليها، وبدأت تزحف فوق أرضية الميناء في اتجاه عقارب الساعة، ساحبةً شعاع الحبل الدائري من معصمها. ارتطم الحبل فوراً بنتوءات على قعر الميناء. شعَرت في البدء أنها مضطرة إلى تفحّص كل عرقلة، لكنها أصبحت قادرة تدريجياً على التفريق بين الأغراض والتضاريس الطبيعية. أبقت عينيها مغمضتين وحاوَلت نسيان محيطها والتركيز على ذاتها الصغيرة جداً ضمنه. كان الغطّاسون الذين عملوا على خط أنابيب المياه العذبة من ستاتن آيلند يتحدّثون عن حطام السُفن على أرضية الميناء، وأسرّة محار عمرها مئة سنة تخنقها أصداف عملاقة وأسماك أنقليس طولها خمسة عشر متراً. بدت لها أن تلك الأشياء تتحرّك على مسافة قريبة جداً من أصابعها. فهدّأت من روعها بتذكير نفسها أن مارل يُمسك حبل إنقاذها وخرطوم هوائها، فيشدّهما ويُرخيهما وفقاً لتحرّكها. ويمكنهم سحبها في أي وقت. كل ما يلزمها هو شدّ الحبل بشكل قوي لأربع مرات متتالية.

راح دكستر يراقب شبابه يشغّلون آلة الهواء مثل تماثيل على ساعة حائط. كان يكافح، مثلما فعل من بداية هذه النزهة، ليقوم بالشيء الوحيد الذي كان سيئاً فيه: لا شيء. فالخمول جَعَل كل شيء حوله يتراوح من ممل إلى لا يُطاق: مُساعدا آنا يُمسكان كاحلَيها لإرشاد قدميها إلى حذاء الغطس الضخم؛ يد الزنجي تحت ذقنها بينما يربطان الحزام، أو مهما يكن ذلك الشيء اللعين. انعزالهم جَعَله يشعر بالحسد - ليس من الرجلين فحسب، بل منهم ثلاثتهم. كانوا يعملون معاً، رجلان وفتاة، بسهولة واضحة. وحتى بعد أن ارتدت بذلة الغطس ولم تعد تبدو مثل فتاة، امتعَض من مصطلحاتهم وخبرتهم المشتركة. بينما كانا يساعدانها على النزول عكسياً في الميناء، أخذ دكستر سيجارته الأولى منذ خمس سنوات ووضعها بين شفتيه. واندفع إنزو مسرعاً من الظلمة في اللحظة الأخيرة ليُشعلها له.

مدخِّناً بغثيان خفيف بعد امتناعه الطويل، سحَب دكستر كرسياً إلى جانب القبطان وأرجَع رأسه إلى الخلف تضامناً مع العنق المشلول العجوز. تمسيد. حتى في البرد، كان بعض العرق يملأ وجه القبطان. كان دكستر قريباً منه كفاية ليشمّ رائحة عصير الطماطم الذي كان يشربه باستمرار تقريباً (يسكبه على ملابسه بسخاء) - للقرحة، حسبما قال، لكن بدا لدكستر أن هذا الكمّ الكبير من عصير الطماطم قد يكون بحدّ ذاته سبب القرحة. ها هو هناك، بجانبه في دلو من القصدير. ووَمَضت نجومٌ فوقه.

"مَن كان يستطيع أن يخمِّن أيها القبطان"، قال دكستر، "أن تتواجد كل هذه النجوم فوق مدينة نيويورك".

سعَلَ القبطان مُبدياً عدم تأثره. كان قبطاناً نيويوركياً، معتاداً على التنقّل استناداً إلى المعالم وأضواء الساحل. والنجوم تُربكه. لكن عندما تتعلق المسألة بالميناء ورياحها وتياراتها وممراتها المخادعة، كان يعرِف كل نتوء وحفرة، ومكان تواجد الدوّامات التي أهملتها التيارات - الأماكن التي ستغرق فيها الأشياء ولا تُدفَع إلى الشاطئ. ويعرِف كيفية إيجاد تلك الأماكن مرة أخرى، أو هكذا يدّعي.

"بالله عليك يا قبطان. ستعتاد على النجوم".

سعال عدم اقتناع، وقد فهِم دكستر معناه بأن الحرب ستنتهي، وتعود الأضواء، وتعود سماء نيويورك إلى سابق عهدها.

"أنت محقّ، بالطبع"، قال دكستر. ثم، بلطف جداً، "اسمع، هل أنت متأكد أن هذا هو المكان؟".

سعَل القبطان امتعاضه من السؤال.

"كيف يمكنك أن تعرف، عندما يبدو كل شيء مختلفاً جداً في هذه الظلمة؟".

وضع البحّار إصبعه على صدغه تحت القبعة البيضاء التي كان يرتديها دائماً على متن الزورق، وشكّلت نظافتها الناصعة تبايناً غريباً مع قذارة الطماطم. "لا شيء يتحرّك"، قال مُجفلاً دكستر من الوضوح المفاجئ في كلامه. "هنا".

"فهمتُ".

بعد ذلك بقليل، سيطر التململ على دكستر مرة أخرى. فكّر أن يحاول التكلم مع

نيستور، مدير الدفّة، لكن هذا كان أمراً ميؤوساً منه. فبعد أن كان ثرثاراً فيما مضى، التزم نيستور الصمت منذ بضع سنوات بعد أن أصابه رعب شديد. بدلاً من ذلك، اقترب دكستر من مقدمة الزورق، حيث كان شبابه يلهثون خلف آلة الهواء. كان أحد رجال الساحة البحرية هناك، بوجهه العابس وشعره الأصهب واستهجانه الكبير. كانت عيناه مركّزتين على أداتَي قياس على واجهة آلة الهواء.

"هل يديران تلك العجلات بسرعة كافية؟"، سأله دكستر.

"حتى الآن".

"آه، لن يخفّفوا وتيرتهم".

"من الأفضل ألا يفعلوا ذلك".

استفزاز. كان ملمسه أشبه بتيار كهربائي، منعش ومُرحِّب جداً لدرجة أن دكستر امتنَع عن التوضيح للمغفّل هناك من هو صاحب الكلمة الأخيرة. فذهَب بدلاً من ذلك إلى رجل الساحة البحرية الآخر، الزنجي، الذي كان يقف عند الطرف المعاكس للزورق بالقرب من سُلَّم الغطس. كانت الحبال الموصولة بآنا تمرّ بين يديه إلى لفّات عند قدميه. كانت عيناه مركّزتين على الماء.

"ماذا تراقب بالضبط؟"، سأل دكستر.

"فقاقيعها"، قال الزنجي دون أن يحرّك عينيه. "هل تراها تخترق السطح؟ التيار ينقلها؛ لذا ليس بالضرورة أن تكون آنا في ذلك المكان". بدا ودوداً ومحايداً، وصعب قراءته مثلما كان الزنوج الآخرون في أغلب الأحيان - ما عدا لبقية الزنوج، حسب اعتقاده.

"كيف تعرف أين هي؟".

رفَع الزنجي الحبال في يده. "أشدّ وأرخي هذه بينما تتحرّك، لكي لا يكون هناك ارتخاء كبير في أي وقت من الأوقات. بهذه الطريقة يمكنني أن أشعر بإشارتها عندما تشدّ الحبل".

"هل هذا خطير؟ ما تفعله؟".

"ليس إذا قمنا كلنا بعملنا بشكل صحيح".

راحا يراقبان الفقاقيع، التي كانت أشبه بماء يغلي على سطح الميناء الحالِك.

"شريكك"، قال دكستر. "لماذا يرتدي بذلة غطس؟".

"هناك دائماً غطّاس ثانٍ في حال تشابكت الحبال. أو حصل أي مكروه آخر".

"مَن سيراقب آلة الهواء إذا غطسَ؟".

"هل تتطوّع يا سيدي؟".

ضحِك دكستر، مُعجَباً. ففي أربع كلمات بسيطة، تمكّن الرجل من ترسيخ ألفة هزلية ومن طمأنة دكستر أنه يفهم تماماً من الذي يتحكَّم بمجريات الأمور. رجل ديبلوماسي.

"هل تستطيع آلة واحدة توليد ما يكفي من هواء لغطّاسَين؟"، سأل دكستر.

"إنها مصممة لتفعل ذلك. في الساحة، نستخدم آلة واحدة لكل غطّاس، لكن هذه الآلة نجحت في اختبارات الفعالية. وبتشغيل أولئك السادة الأفاضل للعجلات، سنحصل على أقصى كمية من الهواء".

ابتسم دكستر، بما أنه نال أخيراً المديح الذي كان يبتغيه. "لكن لنفترض أن الآلة توقفت عن العمل؟"، قال. "ماذا يجري بعد ذلك؟".

"لا سبب لحصول ذلك"، قال الزنجي بهدوء، لكن دكستر شَعَر بحذر جديد لديه. "رغم ذلك، سيبقى لديها هواء داخل البذلة يكفي لثماني دقائق. وهذا أكثر من كافٍ لتعود إلى اليابسة".

لا بدّ أن إشارة أتت عبر الحبل الذي كان يُمسكه، لأنه شدّه بحزم عدة مرات، وانتظَر، ثم شدّه مرة أخرى. ثم سار عكسياً عند الحافة العليا للزورق نحو شريكه الواقف عند المقدمة، مُرخياً الحبل أثناء سيره، وعيناه لا تزالان مركّزتين على الفقاقيع. بعد محادثة وجيزة، ابتعد ذو الشعر الأصهب عن آلة الهواء، ورفعَ الحبل المُثقَل، وسحبه بسرعة إلى مقدمة الزورق، على مسافة غير بعيدة عن آلة الهواء. مشى دكستر إلى الزنجي، الذي شرح له أن "الغطّاسة"، مثلما سمّاها، قامت بدورة تمشيط كاملة حول الحبل من دون العثور على أي شيء. وستبدأ الآن بدورة ثانية في مكان جديد.

"يمكن أن يستغرق هذا إلى الأبد"، قال دكستر. "لكم من الوقت يمكنها أن تبقى في الأسفل؟".

"ساعتان بالتمام والكمال. أطول من ذلك، وستحتاج إلى إزالة الضغط في طريق صعودها. لدينا فقط كرسي رئيس البحّارة لذلك، لكننا سنتدبّر الأمر". ألقى الزنجي نظرة سريعة على معصمه، حيث رأى دكستر ثلاث ساعات. "لقد غطست منذ ثماني وثلاثين دقيقة".

"أودّ أن أغطس"، قال دكستر. "وأساعدها في البحث".

كان الاقتراح من دون سابق تفكير؛ محاولة شفهية كانت تعبيراً عن نفاد صبره أكثر منه اقتراحاً. لكن اللحظة التي نطَق فيها دكستر الكلمات، تشبّث ذهنه بالفكرة. "أنا جادّ".

أمالَ الزنجي رأسه بتهذيب. "هل غطَست من قبل يا سيدي؟".

"أنا أتعلّم بسرعة".

"مع فائق احترامي، ومن باب السلامة فقط، الأمر غير وارد على الإطلاق".

"لا شيء غير وارد على الإطلاق"، قال دكستر بلطف، "طالما هناك شخص مستعد للقيام به".

راح الزنجي يراقب الفقاقيع. وبقي دكستر ينتظره، وهو يعلم أنه رجل مهذّب جداً ليتجاهله لفترة طويلة. وفعلاً، استأنَف كلامه بنبرة منطقية هادئة، "خضعنا لتدريب لمدة أسبوعين قبل أن نغطس".

"ومع ذلك كانت هناك أول مرة"، قال دكستر. "لم تكن قد فعلتَ ذلك، ثم جاء يومٌ وفعلتَه".

نظر إليه الزنجي، محاولاً قراءته.

"اليوم هو ذلك اليوم بالنسبة لي".

كان الغطّاس الأبيض يراقب أدوات القياس على آلة الهواء، ولم يقم بأي ردة فعل توحي بأنه سمع الحديث. اقترب منه دكستر وتنحنح. ثم تكلّم بهدوء، لكي يستطيع الغطّاس سماعه دون الشباب الذين كانوا يديرون الحدّافات. "أودّ أن أريحك من هذه البذلة وأغطس بنفسي".

"لا تتم هذه الأمور بهذا الشكل"، تمتم الغطّاس، وعيناه على أدوات القياس.

"يمكنها أن تتم بعدة أشكال"، قال دكستر. "مثل كل الأمور".

لم ينظر إليه الرجل.

"أرغب بالمساعدة، هذا كل شيء. سيوفّر عليها الوقت. وهناك حاجة لك هنا".

"لن تكون عنصراً مساعداً على الإطلاق".

"اسمع، الآن، هذا يجرح مشاعري".

"مجرد خطر وإلهاء".

"هل أنت قلق بشأن الهواء؟ بشأن جعل هذه الآلة الواحدة تزوّد هواءً لشخصين؟".

"من بين أشياء أخرى".

"إذا حصلت مشكلة، اقطع عني الهواء"، قال دكستر. "سأعوم إلى السطح. ستكون لديَّ ثماني دقائق، أليس كذلك؟".

شدَّ الآن انتباه الغطّاسَين. "حجمك؟"، قال الزنجي. "أصغر".

"افعل ذلك على أي حال".

أصدَرَ الغطّاس الأبيض صوت رفض. "ليس لصالحنا أن ينتهي بنا المطاف حاملين جثتك على أيدينا".

"لن تكون هناك جثة".

تبادَل الرجال النظرات. "ما هو تقييمك للوضع؟"، سأل الزنجي.

"أيها القبطان"، صاح دكستر. انتفض البحّار كما لو أن دلو ماء قد قُذف في وجهه. "تعال إلى هنا من فضلك".

راح القبطان يعرج وهو يمشي بشكل مؤلم، مثل حشرة مهروسة.

"أحتاج منك أن تطمئن هؤلاء السادة الأفاضل من شيء"، قال دكستر. "إذا حصل وتوفّيتُ أثناء الغطس في هذا الميناء، هل يمكنك أن تكفل أنهم سيكونون أبرياء بالكامل؟ لا تورّط مع القانون أو الطبيب الشرعي أو ساعي البريد؟".

أومأ القبطان برأسه، وهو يتنفّس بصعوبة. لم يكن دكستر متأكداً كلياً أنه فهِم كلامه.

"مع فائق احترامي"، قال الزنجي، "لا يمكن للجثث أن تختفي هكذا بكل بساطة".

"آه، بلى يمكنها"، قال دكستر. "وهي تختفي. أنت موجود في عالم مختلف الآن يا صديقي. قد يشبه العالم الذي تعرفه، وقد تكون له نفس الرائحة ونفس الأصوات، لكن ما يجري هنا لا يُرحَّل. عندما تستيقظ غداً، لن يكون أي شيء من هذا قد حصل".

كانا يحدِّقان فيه كما لو أنه فقدَ عقله. كيف يمكنه أن يشرح عالم الظل بطريقة ستُقنِعهما؟ لم يكن مضطراً أن يُقنِعهما، بالطبع، لكن دكستر يفضِّل دائماً استخدام الحجة على اللجوء إلى العنف. "أنا أقول إن لدينا قواعد مختلفة"، قال. "ممارسات مختلفة. ما لا يمكن أن يحصل في عالمك يمكن أن يحصل في عالمي. بما في ذلك اختفاء الجثث".

"أين محل غطّاستنا من الإعراب؟"، سأل الزنجي. "ماذا لو حدث لها أي مكروه؟".

"لن يحدث لها أي مكروه"، قال دكستر. "كلنا متفقون على ذلك. لكنني مختلف. أنا مثل... انعكاس. ظل". كان يحاول الوصول إلى شيء لم ينطقه من قبل ولم يفهمه بالكامل.

"هذا مقدار كبير من الكلام الجميل"، قال الغطّاس الأبيض وهو ينظر إلى عينَي دكستر لأول مرة. كان وجهه صارماً ومائلاً إلى الداخل. "في كتابي، هناك عالم واحد فقط، ومن دون أكسجين، لا أحد منا سيدوم فيه طويلاً. الهواة الذين يحاولون لعب دور البطل أشبه بصُداع في الرأس، لكن اللوم يقع على الحمقى الذين تركوهم يُفسدون الأمور. إنني أقول لك لا يا صديقي. لن أجهِّزك لكي تغطس في هذا الميناء".

أخذ دكستر نَفَساً عميقاً. "لقد حاوَلتُ أن أناقش المسألة معك بشكل منطقي"، قال. "لكن لا يبدو أن هذا نافع".

"لا توجد أي كلمة منطقية في كل ما سمعتُه".

"إنني أعطيك أمراً: اخلع بذلة الغطس هذه".

"أنا أطيع أوامر البحرية الأميركية. وليس أوامرك".

موجة غضب جَعَلت أعصاب دكستر تفور. "البحرية الأميركية ليست هنا الآن"، قال بلطف. "على الأقل أنا لا أراهم".

"آه، إنهم هنا. يتحكمون بهذا الميناء. إنهم حولنا في كل مكان".

استدار دكستر إلى الزنجي. "هل صديقك معتوه؟"، سأله بصوتٍ عالٍ بما يكفي لكي يسمع ذو الشعر الأصهب. "ألا يفهم أن شبابي سيطلقون النار على رأسه ويرمونه في الماء كطعام للأسماك كما لو أنهم يدوسون على صرصور؟".

رغم أنه لم يرفع صوته، إلا أن طلقة مرَّت فوق الزورق، متميزة حتى في الرياح. فهرع إنزو بتلهّف. "لدينا مشكلة يا زعيم؟".

"لا أعرف"، قال دكستر وهو يراقب الزنجي. "هل لدينا حقاً؟".

مَن أفضل من زنجيٍ لكي يُدرك أن شخصاً يذلّه؟ فذهَب إلى شريكه بهدوء وهمس له في أذنه. سمع دكستر أجزاءً من الكلام:

"... ليس صعباً إذا...".

مكتبة

"... الحقيقة أن سافينو يستطيع...".

"... البحرية تفعل هذا روتينياً...".

عرَف دكستر أنه فاز؛ كان الزنجي يتحكّم بمجريات الأمور. وبالتأكيد، عاد إلى دكستر وقال، "لا نريد أي متاعب يا سيدي. على الإطلاق".

"ولا أنا"، قال دكستر. "لهذا السبب سأعطي شريكك فرصة أخيرة ليتفادى الجزء الذي أخيفه فيه كثيراً لدرجة أنه سيبوّل في بنطلونه. ودعني أوكّد لك أن هذا ليس أمراً لطيفاً".

تلاشت كل الألوان عن وجه الغطّاس الأبيض. وألقى نظرة سريعة على أدوات القياس في آلة الهواء بشكل غريزي. تخيَّل دكستر أنه كان داخل ذهن الرجل، ويعاني من الضغط الذي لا بدّ أنه يشعر به على جمجمته. كان يكره أن يعرف ما الذي يشعر به الرجال الآخرون.

"يا إلهي"، قال الغطّاس الأبيض لشريكه، بصوت جاف من الرعب.

عندما تلقَّت آنا إشارةً بأن غطّاساً ثانياً كان ينزل، تساءلت إن كانت قد طلبته عن طريق الخطأ. ثم خطر على بالها أن مكروهاً قد حصل – أبعد من الحقيقة الواضحة بأنه تم نقل الحبل النازل ثلاث مرات (المرة الأخيرة إلى الجهة الأخرى للزورق)، ولم تعثر سوى

على برميل محطّم وجذع شجرة. استمرت بالزحف بينما هبَط، ثم شَعَرت به يرفع الحبل الدائري ويتبعه نحوها، مما أجبرها على النهوض. فتَحت عينيها غريزياً، لكنها بالطبع لم تر شيئاً.

تذكَّرت أنها تعلَّمت في الحصة أن غطّاسَين يستطيعان سماع بعضهما البعض تحت الماء إذا تلامست خوذتاهما. كان باسكومب أطول مما توقعّت، واضطرت إلى أن تشدّ قليلاً على ذراعه لتجعله ينحني. ضغَطت خوذتها على خوذته وقالت، "لماذا أنت هنا؟".

كان الرد بعيداً وناشزاً، مثل راديو تحت بطانية. "دكستر"، سمِعت.

"ماذا بشأن دكستر؟".

"هذا أنا. أنا دكستر".

ظنّت للحظة عابرة أن باسكومب يحاول أن يخدعها، لكنها لم تتمكن من أن تتخيّله يمزح في هكذا وقت. "هذا مستحيل".

"لا يبدو مستحيلاً".

"إنه – خطير"، قالت بحدّة.

"السادة الأفاضل فوق أوضحوا لي هذا تماماً".

تراءت لها صورة تقريبية عن البشاعة التي لا شك سبقت حلول دكستر ستايلز محل باسكومب في بذلة الغطس. انحرف ذهنها بعيداً؛ لكن عليها أن تبقى هادئة. "هل يستطيع الضاغط توفير هواء يكفينا نحن الاثنين؟".

"هل تتنفّسين بشكل طبيعي؟"، سأل.

أخذت نَفَساً عميقاً، وأعاد لها ذلك توازنها. كانت قد سمعت أن البحرية تجعل الرجال يغطسون مباشرة في الماء أحياناً كخطوة أولى في عملية التخلّص من المرشّحين الضعفاء. كان الهواء الداخل إلى القبعة بارداً وجافاً، وشعرت بصفاء في ذهنها. "نعم"، قالت. "لديَّ هواء كافٍ. وأنت؟".

"في أفضل حال".

كانت هناك بعض الحقيقة في هذا. فبعدما عدَّل صمام هوائه مثلما علَّمه الزنجي، ورفع الحزام عن كتفَيه، شَعَر دكستر بابتهاج غير قابل للتفسير بينما كان يُسحَب بحذائه

الثقيل في الظلمة العظيمة. كان الأمر كما لو أنه سيُجني أخيراً ثمار جهد جبّار لم يكن يُدرك تماماً أنه بذله. يمكنه أن يتنفّس. يمكنه أن يتنفّس ويسير على قعر البحر.

"أخشى أننا لن نجد شيئاً"، سمِعها تقول. "كيف نعرف أن هذا هو المكان الصحيح؟".

كان صوتها باهتاً، مثل اتصال هاتفي بعيد المسافة. وكانت النتيجة ذلك الخليط الفريد من المودّة والبُعد الذي كان دكستر يشعر به على الهاتف في أغلب الأحيان، عندما يبدو له أن الشخص البعيد يهمس في أفكاره مباشرة. "سنجده"، قال بصوتٍ مدوٍّ بالمقارنة. "القبطان يعرف. إنه هنا".

هذه الجملة أربكت آنا؛ القبطان كان هنا؟ الصوت الذي وصل عبر الخوذة لم يكن خالياً من الحجم فحسب، بل من أي أثر للمشاعر أيضاً. بدا مثل صوت آلة لو كان بإمكان الآلات أن تنطق. لكن الكلمات بقيت تتلكّأ. *إنه هنا*. تراءت لها صورة نقية لوالدها فجأة: خارجاً من الماء في كوني آيلند بعد سباحته الصباحية، والماء يقطر عن جسمه، لامعاً. غمزة وتلويح باليد للمُنقذين البحريين الجافلين الذين وصلوا إلى وظيفتهم بعد خروجه، واستخدامه المنشفة التركية التي كان قد تركها بجانب آنا على الرمل مع ثيابه ومحفظته. السعادة المتألقة التي كانت تنبعث منه بعد كل سباحة مماثلة، كما لو أنه تخلّص من حزن كان معه دائماً.

"أنا هنا"، قالت بلطف. "أنا هنا أيضاً".

ضغط دكستر ستايلز خوذته على خوذتها. "إذا كان لديك حبل آخر، يمكننا إمساكه بيننا وبالتالي نغطي مساحة أكبر"، أتت النبرة الميكانيكية لصوته.

"لديّ".

مُمكسةً يده، قادته إلى نقطة انطلاقها منذ دقائق قليلة، حيث تركت كيس الأدوات. كان يحتوي على حبل طوله تسعة أمتار مع أنشوطة صغيرة عند طرفيه. أدخلت معصمها الحر، الأيسر، في إحدى الأنشوطتين ومعصمه الأيمن في الأنشوطة الأخرى، تحت طوق المعصم. ثم ضغطت خوذتها على خوذته وقالت، "سِر بعيداً عني إلى أن يصبح الحبل مشدوداً، ثم ازحف في الاتجاه الذي تشعر أنني أزحف فيه. يجب أن تبقى خوذتك أعلى من جسمك دائماً؛ لا تدعها تنخفض".

"حسناً".

أطاع تعليماتها، وركع على رُكبتيه عندما اشتدّ الحبل. شعَر بأرضية الميناء الناعمة عبر القماش المطاطي لبذلة الغطس. أخفَضَ قفازيه إلى الأرض، مع انتباهه إلى إبقاء رأسه عالياً – رغم أنه نسي أن يسألها ماذا سيحصل إذا لم يفعل ذلك. شَعَر أن الزحف غير طبيعي بشكل غريب – متى زحَف لآخر مرة؟ لكن الحبل كان يشدّه من معصمه، وراح يزحف، بتردّد في البدء، خائفاً من إخفاض رأسه. كل مقاوَمة طفيفة من الحبل جَعَلته يظن أنهما عثرا على شيء، لكنه بدأ يُدرك أنها مجرد نتوءات وبعض النباتات على قعر الميناء. تدريجياً، الطبيعة البدائية للحركة أفرغت ذهنه. كان يزحف في الظلمة. يزحف في الظلمة. كان يزحف. يزحف. وبعد حين، لم يعد بإمكانه أن يتذكر السبب.

كانت العقبة، عندما ظهرت، تقع على الحبل الخارجي الذي يربط آنا بدكستر ستايلز. فَكَّت الحبل الدائري الداخلي – الذي يربطها بالوزن – لكي تزحف نحوه. فقط عندها أدركت العيب في خطتها: الحبل الذي أفلتته كان صلتهما الوحيدة بالزورق. تذكَّرت غطستها الأولى – إرباك تجوّلها بلا وجهة واضحة تحت الماء. حتى في خليج والأباوت الضيائي نسبياً والضحِل، كان من المستحيل إيجاد حبل مانيلا سماكته ثمانية سنتيمترات. في أسوأ الأحوال، يستطيع مارل وباسكومب سحبها بواسطة حبل إنقاذها. لكن هل يمكنهما سحب دكستر ستايلز؟

بعد عدم إيجادها بديلاً آخر، أفلتت الحبل الداخلي من معصمها وزحَفت على الحبل الخارجي إلى العقبة: جنزير ثقيل موصول بكتلة أسمنت. شعَرت بدكستر ستايلز يزحف من الاتجاه الآخر ثم يصبح بجانبها. أضاءت مشعلها الكهربائي، وأيقظَ توهّجه الشاحب حوالي ستين سنتيمتراً من مياه الخليج الضبابية. كانت حلقات الجنزير البالغ طولها ثمانية سنتيمترات زلقة من النباتات، كما لو أنها لم تتحرّك منذ مدة طويلة. أطفأت آنا الضوء، خائفةً مما قد تراه. ضغطت خوذتها على خوذة دكستر ستايلز وقالت، "ما رأيك؟".

"هذا يبدو صحيحاً"، أتاها الرد الخافت.

نذير السوء الذي بقيت تشعر به طوال الليل اقترب منها كثيراً. "أنا خائفة"، قالت

بنفس النبرة الرتيبة التي اكتسبها صوته عند مروره بين الخوذتين. كان لهذا الإقرار الصريح تأثير غريب بكبح أي أحاسيس ربما تكون قد بقيت لديها. ولم تبق سوى الكلمات.

"لماذا قتلوه؟"، سألت.

"هذا ما يفعلونه عندما يتعرّضون للخيانة".

"هل كان مجرماً؟".

"لا".

"لماذا خانهم؟".

"هو فقط الذي يعلم ذلك".

"سأبحث من دون الضوء".

شعَرت به ينهض إلى قدميه، ربما ليعطيها بعض الخصوصية، أو لعدم رغبته بمعرفة ماذا ستجد. كان الجنزير ملفوفاً وممدوداً إلى حد ما بحيث أنه تولى أمر كتلة صلبة. بتردّد، بدأت آنا تُرخي حلقات الجنزير وتتلمّسها. وجدت قفلاً ضخماً يوصل عدة حلقات ببعضها ويربطها بكتلة أسمنتية. حشرت آنا أصابعها بين الحلقات، وراحت تبحث عن شيء عضوي: قماش، جلد، عظام. لم تكن تتذكّر ماذا كان والدها يرتدي يوم اختفائه، لكن بالتأكيد كانت هناك بذلة وربطة عنق وقبعة. وحذاء. شعَرت بضغط في عظمة قصّها مثل بيضة داكنة، بمحتوياتها المرعبة والمقزِّزة. كانت آنا تخشى تلك الأحاسيس، لكنها تتوق إلى تحقيق اكتشافٍ سيُطلِق العنان لها: إلى إيجاد دليل ما بأنه لم يغادر. بأنه لم يهجرها أبداً. حاجة آنا إلى ذلك اليقين دفعَ أصابعها في الوحل والرمل وحلقات الجنزير الزلقة. لكنها لم تجد أي حذاء، أي قماش، أي عظام. هل يمكن أن تكون كل تلك الأشياء قد اضمحلت؟

ذكَّرت نفسها كم أصبحت قريبة من هدفها. وجودها هنا كان أعجوبةً؛ فرصتها الوحيدة. هذا الإدراك حفَّز نوبة حَفر جديدة. راحت تشتم همساً مثلما يشتم الرجال في الساحة: *اللعنة! تباً!* بقيت تحفر إلى أن صرف انتباهها التوهّج المحتشد خلف جفنَيها. حاوَلت فتح عينيها لتبديده، ثم أدركت أن عينيها كانتا مفتوحتين من قبل. كان التوهّج آتياً من الخارج – من الماء نفسه. وراح يشتدّ كلما حفرت أكثر: برتقالي معدني، أرجواني،

أخضر، ألوانٌ لم تكن ألواناً بالضبط، مثل تدرّجات صورة فوتوغرافية سلبية رأتها مرةً. كانت ترتفع من التربة المكشوفة حديثاً وتتلألأ في الماء حولها.

شدَّت آنا أربطة بذلة دكستر إلى أن ربضَ. أراح خوذته على خوذتها. "ما هذا الشيء اللعين؟".

"فسفرة. أشياء حيّة في الماء". لقد تعلَّمتْ عنها في حصة الغطس.

بدأ يَحفر معها. توهَّجت الفسفرة حولهما في سحابة، فأنارت دكستر ستايلز بشكل خافت بجانبها. وراح الدفء يشعّ من تحت أصابعها، تحت الرمل. وَجَدت غرضاً مستديراً صغيراً عالقاً داخل حلقة مدفونة من الجنزير وبدأت تعمل عليه بقفازها البدائي، محاولةً إزاحته من دون تهشيم سلسلته الصغيرة. حرّرت القرص أخيراً وقلبتهُ في يديها. مزيد من المعدن؛ شعرت بخيبة أمل. كان هناك نتوء أو مسمار ملولب عند حافةٍ مستديرةٍ. ثم، وبصدمة تقشعر لها الأبدان، توضَّحت طبيعة الغرض: ساعة جيب. صرَخت آنا، والصوت صمَّ أذنيها داخل الخوذة. رَفَعت الساعة إلى خوذة رأسها. كان دكستر ستايلز لا يزال يحفر، وبالكاد تمكّنت في ذلك التوهُّج من تمييز النقش المألوف للأحرف الأولى لإسم شخص غريب.

ساعة والدها.

بدأت تبكي. حتى من خلال قفازَيها، شعَرت بالتضاريس الخفيفة للنقش. جدف: جاكوب دي فير، الرجل الذي ساعد والدها عندما كان فتى. أمسكت الساعة، وراحت تجهش بالبكاء إلى أن بدأت الرطوبة داخل خوذتها تسبّب لها دواراً. زادت منسوب هوائها وفتحت صنبور رذاذها لتشطف خوذتها وبذلتها. ضغَطت خوذتها بخوذة دكستر وهي لا تزال تبكي، لأنها كانت تعرف أنه سيسمع فقط الصدى الميكانيكي لكلماتها ولا شيء آخر.

"لقد وجَدتُه"، قالت. "إنه هنا".

حين بدأا البحث مرة أخرى عن الحبل الذي انزلق منهما، كان دكستر قد بدأ يشعر منذ وقت طويل بحاجته إلى مزيد من الهواء. فقد كان الزحف أصعب من السير، وتركه يشعر بدوار وارتخاء في رجلَيه. مُمسكان الحبل المشدود بينهما، سارا ببطء في الاتجاه الذي

تظن آنا أنها ستجد الحبل العمودي فيه. ولحسن حظهما أنهما وجداه.

انتظَر دكستر في الأسفل بينما راحت تصعد. ووجود يده على الحبل أشعَره بتوقفها المؤقت لدقائق قليلة بقصد إزالة الضغط؛ ثم شعَر بهزّة عند انتقالها من الحبل إلى السُلَّم. ثم لا شيء. كان الحبل لا يزال في يده، ولم يشعر سوى بالتيارات تدفعه. أدار مسكة الهواء على خوذته بحذر قليلاً باتجاه عقارب ساعة، مثلما علَّمه الزنجي. وأخذ أنفاساً عميقةً، مستمتعاً بإتخام نفسه بذلك الهواء الغريب مثل متعة الإسراف في شرب ماء بارد بعد عطش كبير. زال دواره، وشعر بحواسه تستيقظ. كان لوحده في قعر البحر. فداحة موضعه أبهرَته. لطالما أحبَّ الظلمة، لكن الليل كان صنفها الوحيد الذي عرفه حتى الآن. بينما هذه الظلمة كانت ظلمة الكوابيس. تغطّي أسراراً من الشنيع جداً كشفها: أولاد غارقون، سُفن غارقة. أفلتَ الحبل وابتعد بضع خطوات عنه، وتخيّل نفسه مهجوراً ووحيداً في هذا المكان الموحِش. انزلق شيءٌ طويلٌ وناعمٌ على غشاء بذلة غطسه – أنقليس؟ سمكة؟ شعَر باحتمال الذعر.

لكن ما زار دكستر بدلاً من ذلك، أثناء وقوفه لوحده في الظلمة الخانقة، كان أول تذكّر واضح لإد كيريغان منذ سنوات. ابتسامة ساخرة غير متماثلة تحت حافة قبعته. قبعة جيدة دائماً، وريشة فاخرة. كان الرجل أنيقاً في ملابسه. مثبّتاً قبعته على رأسه في الرياح بينما كانا يسيران على شاطئ مانهاتن. كم أحبّه دكستر! أسلوب كيريغان اللطيف؛ وطريقته السريعة والهادئة في إنجاز المهام من دون التساهل بشأن كلفتها. إيرلنديٌ. كان هناك تفاهم بينهما، وقد شعَر دكستر بذلك غريزياً. ثم تساءل لاحقاً: تفاهم حول ماذا؟

كانت طبيعة كيريغان الغامضة أساسية للمهمة. يمكنه الذهاب إلى أي مكان، ومعرفة أي شيء. وقد تمكّن دكستر من خلاله أن يتحرَّر من قيود الزمان والمكان. يمكنه أن يظهر حيث لم يكن يُفترَض به أن يكون، ويسمع ما لم يكن مسموحاً له أن يعرف. *القُرب* – هذا ما وفّره له كيريغان. معرفة غير محدودة. التخفي. وقد أصبح دكستر معتاداً على ذلك – يعتمد عليه. كما أصبح مرتاحاً جداً وطمّاعاً جداً لتدفّق الحقائق بحيث أنه لم يفكّر بأن للوصول، على غرار كل الأشياء الأخرى، ثمنه.

في خط عمل دكستر، الرجال الذين يخالفون القواعد بشكل جَسيم يؤخذون في نزهة، إذا جاز التعبير. كان الجميع يعلم ماذا يحصل، ونادراً ما يُذكرون مرة أخرى. كان

كيريغان يُدرك هذا بالطبع.

لماذا إذاً؟ هذا كان السؤال الذي بقي يزعج دكستر في السنوات التي تلت دفع موظفه السابق للثمن: *لماذا* فعل ذلك؟ المال؟ كان دكستر يدفع له جيداً - وكان ليدفع له أكثر، لو طلَب منه كيريغان.

الآن وقد رأى المنزل الوديع للرجل، وإبنته المشلولة، ازداد استغراب دكستر للمسألة. لماذا يخاطر بالتعرّض للتصفية في حين أن عائلته بأمسّ الحاجة إليه؟ لماذا يخاطر بأن يقوم أحدهم - الإبنة الصحية، ربما - بالتحقيق بالمسألة؟

لم تكن هناك أجوبة. فقط الرجل، المبتسم ابتسامته غير المستقيمة وهو ينظر إلى البحر. "لا توجد أي سفينة في الأفق"، قال مرةً، ولم يكن تكتّمه يُفشي الكثير بحيث أن دكستر لم يعرف إن كان هذا الخبر جيداً أو سيئاً. نظر بنفسه، وكان صحيحاً: لم تكن هناك أي سفينة.

أمسك دكستر الحبل الذي كان قد نزل عليه، ولفَّه حول ذراعه اليمنى ورِجله مثلما نصحَه الزنجي، وفتحَ صمام الهواء لينفخ بذلة الغطس. وبالتأكيد، بدأ يرتفع كما لو أنه يطير. شعَر دكستر باغتباط كبير؛ فهو كان يطير، يعوم، يتنفّس تحت الماء - وكلها أمور لا يستطيع البشري فعلها. اجتاحه إحساسٌ بفهمٍ عارمٍ. *نعم*، فكّر في سرّه، ثم صاح ذلك بصوتٍ عالٍ: *"نعم!"* . اتّضح له شيءٌ أساسيٌ أخيراً، شيءٌ يسنُد كل شيء آخر. كانت سرعته تزداد، فبذلة الغطس تنتفخ بشكل خارج عن السيطرة أثناء صعوده الحبل، وتقسّي ذراعيه بحيث أنه لم يعد قادراً على لمس الأقراص على خوذته أو حتى مواصلة الإمساك بالحبل. بالكاد كان مهتماً بذلك؛ كان مأسوراً جداً. *بالطبع*، فكّر في سرّه، شارداً عن سرعة صعوده العالية ومركّزاً على الحاجة إلى أن يحفر في ذهنه الشيء الحاسم الذي فهمه أخيراً.

خرقَ شكله المنفوخ سطح الماء على بُعد خمسة عشر متراً عن الزورق. صاح مارل بالحمقى، فركَض اثنان منهم إلى الحافة العليا للزورق وبدأا يسحبان حبل إنقاذه. أبقى باسكومب عينيه على أدوات قياس الضاغط، وراح يشتم بشكل لا يُصدَّق. وفرضَ جوٌ من التركيز المذعور تناغماً على صفوفهم المتنافرة، وراح الجميع يعملون ككتلة واحدة. هبَطت آنا السُلَّم، بلا حذاء في بذلتها، وانتظَرت حتى سحبَ الحمقى دكستر ستايلز

نحوها، الذي كان وجهه في الماء وذراعاه وساقاه منفرِجَين. بدا ميتاً. عندما أصبح قربها، حاوَلت أن تقلبه، عازمةً على فتح خوذة رأسه، لكن مارل صاح بها أن تتركه.

"نحتاج إلى رفعه إلى ظهر الزورق"، قال. "وإذا فقَدَ الضغط، سيغرق".

كان ذلك صحيحاً - فرعبها لم يدعها تفكّر بشكل سليم. ساعَدت بقدر ما تستطيع لتدفع شكله المنتفخ فوق الحافة العليا للزورق إلى ظهره، حيث أمسكه أحمقان من تحت إبطَيه وساعدهما أحمقان آخران. وَثَبت آنا فوق السُلَّم وربضَت بجانبه بينما قلبَه الرجال. تدفّق الماء من بذلة غطسه حول قدميها. فتَحت خوذة رأسه بيدين مرتعشتين. كانت عيناه شاردتين، مفتوحتين إلى أقصى حد.

"هل يمكنك أن تسمعني؟"، قالت.

غمزها، ثم ابتسم. حلّت موجة عارمة من الارتياح عليهم جميعاً.

"هل... حبستَ أنفاسك أثناء الصعود؟"، سألته وهي تتذكَّر حادثة الانسداد الهوائي.

"بالطبع لا"، قال. "صديقك الزنجي حذَّرني ألا أفعل ذلك".

الجزء السابع

البحر، البحر

الفصل 25

فقط عندما عاد دكستر إلى سيارته خارج حوض بناء السُفن ريد هُوك حتى شعَر بالراحة والوحدة ليفكّر باكتشافه ملياً. استقبله مقعد الكاديلاك الجلدي العطِر كذراعين مفتوحتين، واستوى منهكاً في أحضانه. كان نزاعٌ مرهقٌ قد تبع "انتفاخه"، ولم يؤلِّب عليه رجال الساحة البحرية وإبنة كيريغان فحسب، بل شبابه أيضاً وحتى القبطان. فقد اتّحد أولئك الرفاق غير المحتملين على فكرة أن عليه أن يعود إلى الأسفل ويصعد مرة أخرى ببطء، مع توقفه على طول الطريق، لكي لا يُصاب بمرض انخفاض الضغط. لوَّح لهم دكستر بيده رافضاً. فقد شعَر أنه بخير، لا آلام في أي مكان - في الحقيقة، شعَر أنه بصحة ممتازة، إذا ما أخذ بعين الاعتبار أنه أدّى الغطسة بغير براعة وسُحبَ من الماء مثل سمكة على يد نفس الرجال الذين أجبرهم على الخضوع لإرادته سابقاً. بالكاد كان مهتماً بذلك. كان يُدرك أهمية اكتشافه خلال كل خطوة من خطوات تفكيك رحلتهم، وصولاً إلى النهاية، عندما صافح إبنة كيريغان وزملاءها، ولاحَظ من دون ضغينة أن الرجلَين نظرا إلى عينيه كمساويَين له.

عثَر صُدفةً على ساعته المفضَّلة: إحساس داخلي باقتراب الفجر من دون أي علامة مرئية له. شغَّل محرّك السيارة ليحمّيه، ثم ترك ذهنه يعود أخيراً إلى الاكتشاف الذي بقي يجول في رأسه طوال صعوده. لكن بُرهة الفهم، بُرهة التنوّر، كانت كل ما يمكنه أن يتذكّره.

مصدوماً من المفاجأة، عاد دكستر إلى لحظة الاكتشاف: الصعود بسرعة في الماء الداكن، ثم أسرع وأسرع، واحتكاك الحبل يُحدِث خطاً ساخناً وسط قفازيه. في غضون ذلك، تسرَّب الفجر تحت حافة سماء بروكلين وساد صمتٌ على الميناء والمراكب والصهاريج وزوارق القَطر في الضوء الباهت المفاجئ مثل غرباء في مصعد.

هل نسيَ حقاً؟

لا يزال قادراً على الوصول إلى المنزل قبل الشروق. هذه الأمنية - أن يجعل اليوم عادياً، مثل أي يوم آخر - تحوّلت إلى حاجة ملحّة. انطلَق بالسيارة وأسرَع مخترقاً سانست بارك وباي ريدج، ومُسابقاً الشمس. بدا أن التحدّي يزداد أثناء قيادته السيارة، إلى أن أصبح مقتنعاً أنه إذا استطاع أن يبدأ في الوقت المعتاد، من المكان المعتاد، سيكون قد تم إصلاح شيءٍ. كان النجاح يرتكز على الإيقاع والتوقيت، مثل لعبة رمي قطع العملة المعدنية تحت القطارات المتحركة التي كان يلعبها قديماً. عليك أن تعرف متى ترمي القطعة المعدنية بالضبط لكي تتمكن من جعلها تعبر إلى الجهة المقابلة.

كان سطوعٌ حادٌ قد تجمَّع فوق فلاتلاندز حين وَصَل إلى شاطئ مانهاتن. لقد تفوّق على الشمس. كان يتنفس بصعوبة، ويشعر بالارتياح لأسباب مجهولة بينما دخل صمت منزله. سخَّن القهوة التي ترَكتها ميلدا، وصبَّ كوباً لنفسه، وراح يشربها على الشرفة والرياح تلفح وجهه، تماماً مثلما تخيَّل. أشرقت الشمس بتواضع، مبعثرةً ضوءاً خافتاً فوق البحر. وذكَّرته كاسحات ألغام الفجر ببوّاب يلمّع أرضية الردهة. وتجاوزت سُفنٌ في موكب بعضها البعض عند بريزي بوينت. وبقيت طيور النورس ثابتة في السماء، مثل طائرات ورقية. بدا كل ذلك مفيداً للصحة، كما لو أن قُربه من البحر جعلَ كل شيء - أولاد كيريغان، الغطس، وحتى إلهامه - عديم الأهمية.

تساءل إن كانت تابي ستنضم إليه. فهي لم تكبّد نفسها عناء القيام بأمور كثيرة إلى جانب نوحها وكآبتها منذ مغادرة غرايدي قبل ثلاثة أسابيع تقريباً - أرملة مثكولة في السادسة عشرة من عمرها. كان دكستر ليفتقد إبن أخت زوجته، أيضاً، لو لم يشعر ببعض الارتياح من التخلّص منه.

أعاد ملء كوبه مرتين وبقي يشرب القهوة إلى أن كشف له ضوء الشمس حاجته إلى النوم. فنزل إلى غرفة نومه الغائرة، وراح يتخيَّل هارييت تحلم في سريرهما وشعر بحنين لها - لزوجته بالتحديد - بطريقة لم يشعر بها منذ أسابيع.

وجَد ستائر التعتيم الكلي مرفوعة في غرفة نومهما. والسطوع الناتج عن ذلك أزعجه بعد الظلمة اللطيفة التي كان يتوقعها. سمِع صوت مياه جارية من خلف باب الحمّام. إنه السبت. لماذا هي مستيقظة في هذا الوقت المُبكر اللعين؟

كان على وشك أن يطرق على الباب ليطرح ذلك السؤال عندما استمهله شيءٌ. ذهَب إلى غرفة تبديل ملابسه، وأخذ مسدسه وضغط زر الأمان فيه، وأخرج جاربيه من مشدَّيهما، وفكّ زرَّي كمَّيه، اللذين كان قد ارتداهما تحت بذلة الغطس. عندما تم إغلاق حنفية الحمّام، نادى عبر الباب، "أنتِ مُبكرة يا حبيبتي".

"لديَّ مباراة في البريدج في النادي"، قالت رداً عليه. "تابي قادمة، أيضاً".

أدار مسكة الباب بلطف لكنه وجده مقفَلاً. كان التوأمان معتادين على حبس نفسيهما في الغرف. "هل هي مستيقظة؟"، سأل.

"أمضت الليلة في منزل لوسي مع بعض الفتيات الأخريات. حفلة لكارمن ميراندا". كان بمكنه سماعها تستحمّ. "يصنعن قبعات من فاكهة ويعلّقن حلقات ستائر في آذانهن ويرقصن على لحن 'ساوث أميريكان واي' حسبما فهمتُ".

كان لهذا الفيض من التفاصيل الفاقعة نفس التأثير المقزِّز لضوء الشمس. "أنا متفاجئ أن لديها المزاج لهذا"، قال أخيراً، من وراء الباب. "مع ذهاب غرايدي".

"آه، أعتقد أنها بدأت تتجاوز ذلك".

سمِعها تنهض من المغطس. وبعد لحظات، فتَحت باب الحمّام في رداء فضفاض من الساتان، والبخار خلفها يعبق بروائح مُكلفة. كان دكستر قد التقى كارمن ميراندا في ليلة بدء عرض فيلم *أسفل طريق الأرجنتين*، وكانت لا تُقارن أبداً بزوجته. اقترب من هارييت، مستثاراً من الرطوبة المتجمّعة في شعرها. تجاوزته إلى غرفة تبديل ملابسها، وأغلقت الباب جزئياً، وقذَفت الرداء الفضفاض عنها. للمرة الثانية، وجد دكستر نفسه يتكلّم عبر لوح خشبي. "منذ متى تلعب تابي البريدج؟"، سأل.

"فيليسيتي جعلتها تحبّها".

"فيليسيتي".

"إبنة بُوث".

"آه". استلقى على السرير في سرواله وقميصه. وخزته الشمس في عينيه. "لم تذكري بُو بُو".

"لقد أخبرتُك منذ أيام. سنشارك في دورة ونتناول الغداء، ثم أُوصل الفتيات إلى مبنى

سكويب لتوضيب معاطف لجمعية *رُزم لبريطانيا*".

شيء في سلسلة الخطط هذه بدا له كأنه عذر مُحكم. بقي دكستر مستلقياً على السرير منتظراً خروج هاربيت في البذلة الرياضية التي ترتديها عادة إلى النادي. ظهَرت في "كبُّوتها" الجديد ذي القبعة والوشاح من فرو المنك على وجهها، افتراضياً للمرآة – لم تكن خارجة الآن.

"يسرّني أن بُو بُو يستفيد من بنزيننا"، قال.

"بُوث".

"أنت تسمّينه بُو بُو".

"أعرفه أفضل منك".

"وتتعرّفين عليه بشكل أفضل أيضاً. باستخدام بنزيني".

"انظروا مَن يتحدث".

استوى دكستر على السرير. كانت تفتح النوافذ، لدخول مزيد من الرياح وضوء الشمس. فنهض عن السرير واقترب من زوجته. أمسك يديها في يديه، مقاطعاً اضطرابها. "هاربيت"، قال. "ماذا يمكن أن تقصدي بهذا؟".

تجنَّبت عينيه. "أحتاج إلى اصطحاب تابي".

"بماذا تفكّرين؟". كان يُمسك يديها، منتظراً منها أن تنظر في عينيه. *فلتقل ما لديها*، فكّر في سرّه، مهما كان ما خمَّنته؛ فليُنهوا الأمر الآن ويرتاحوا منه.

"إنني *أفكّر* أنني أريد سيجارة".

"وماذا أيضاً؟".

"قد تحتاج السيارة إلى بنزين".

"وماذا أيضاً؟".

"أنت غريب اليوم يا دكس. إنك توتّرني". نظرت أخيراً إلى عينيه من داخل الفتحة البيضوية الشكل لفروها المنك.

"وماذا أيضاً؟"، سألها بلطف.

"أنت مضطرب. حزين. منذ عدة أشهر".

"وماذا أيضاً؟".

"أليس هذا كافياً؟"، سألته بنفاد صبر. لكنها بقيت تنظر إلى عينيه.

"فقط إذا لم يكن هناك أي شيء آخر".

"لستَ في حالتكَ المعهودة. هكذا قال أبي، أيضاً". ابتعدت عنه، وأخذت سيجارة من العلبة الفضية على مكتبها، ووضعتها بين شفتيها الساطعتين.

"حقاً؟"، قال دكستر وهو يُشعلها لها بولاّعة العقيق اليماني.

"لم يكن يُفترَض أن أُخبرك"، قالت في سحابة دخان. "أنت دفعتني إلى ذلك".

"والدك قال هذا؟".

"عِدني ألا تُخبره".

"أعدُك". عاد وجلَس على السرير، محاولاً تهدئة انزعاجه الشديد. أن يكون هذا رأي العجوز – لم يكن ذلك شيئاً مهماً. لكن حقيقة أنه قيل بصوتٍ عالٍ - نُوقش – في حضور هارييت، فهذا أمر مختلف كلياً. ويلمِّح إلى حصول محادثة عائلية كان دكستر موضوعها.

تنفَّس دخان هارييت، وبدأ يتوق إلى واحدة بنفسه. "متى؟".

"مرور الكرام".

"مؤخراً؟".

"لا أتذكَّر. انسَ الأمر".

"تباً إذا كنت لا تتذكّرين".

من اجتماعه الأول مع العجوز في نادي الصيد منذ سنوات، كان تواصلهما صريحاً ومباشراً. ما هي الظروف التي أوجبت مناقشة أمر دكستر؟ شعَر بالإساءة، ولم يرغب أن ترى زوجته ذلك.

"لماذا لا تأتي معنا؟"، قالت وهي تجلس على السرير بجانبه.

"لألعب البريدج مع بُوث؟"، قال ساخراً.

"بإمكان تابي أن تلعب. لستُ مضطرة أن ألعب"، قالت بعد أن أخذت يديه. كان هناك تجنُّب في عينيها.

"أنت متوترة"، قال.

"كنت تحبّ الذهاب إلى هناك".

"لماذا أنت متوترة؟".

"أكره رؤية مشاعرك تنجرح، هذا كل شيء".

"أنا مُتعَب فقط".

لم يكن أكيداً مما كان يجري بينهما - ما إذا كان شيئاً مهماً أو لا شيء على الإطلاق. سيعرف فقط بعدما ينام.

وَقَف وبدأ يُغلق الستارة. أطفأت هارييت سيجارتها. "سأستلقي أنا أيضاً"، قالت، واقتربت منه وبسطت أصابعها الطويلة على صدره. شعَر بنُحولها البارد فوق قميصه. كانت قد خلعت قبعتها، وتدلى شعرها الكستنائي حراً.

"اعتقَدتُ أن عليك الذهاب".

"لن تمانع تابي إذا تأخرتُ".

جَعَلتها ابتسامتها المائلة نزولاً تبدو شقية. لطالما أحبّ تلك الابتسامة كثيراً! تنفَّس دكستر رائحة شعرها وشَعَر ببعض الريبة. كانت شخصاً غريباً يقف على مسافة قريبة جداً، وتبذل جهداً كبيراً لإغوائه. فكّر في سرّه: *لن ألمس هذه المرأة مرة أخرى أبداً*.

"لا عليك يا حبيبتي"، تمكّن من أن يقول بحرارة. بدا اشمئزازه المفاجئ من زوجته خطيراً - سمٌّ سيبقى خاملاً فقط إلى أن تلحَظه.

بقي مستلقياً مغلقاً عينيه ومترقّباً صوت باب المدخل. عندما عرَف أنها خرجت، نام نوماً متقطّعاً. استيقظ عند الظهر، كالمعتاد، واستحمّ، وارتدى ملابسه، وجهَّز نفسه لزيارة هيلز. رغم أن رأسه كان يؤلِمه، إلا أنه شعَر بالهدوء. ما أمر هارييت، بالضبط؟ لا شيء سيئ جداً، مثلما بدا له الآن.

بينما كان يأخذ معطفه من الخزانة الأمامية، شعَرَ، أو سمِع، أن شخصاً آخر موجود في المنزل. "مرحبا"، نادى.

ردٌّ خفيفٌ: التوأمان. كان السبت. صعد دكستر السلالم إلى غرفتهما وفتح الباب من دون قرعه، وكانت هذه عادته في مفاجأتهما على حين غرّة. وجههما الجافلان أخجلاه. كان فيليب يكافح ليرتدي قميصاً؛ ولمحَ دكستر الجرح البليغ لندبة زائدته الدودية فشعَر بحسرة كبيرة تجاه إبنه واندفع نحوه بقصد معانقته. نظر إليه الفتى بعينين حذِرتين. "هل نحن في ورطة؟".

"لا"، قال دكستر. "بالتأكيد لا".

بقي يتجنّب غرفة نومهما لأسابيع، احتجاجاً على الجوائز المتكررة التي كانا يسعيان إلى الفوز بها في مسابقات عديمة الفائدة. لكن الغرفة تغيَّرت منذ زيارته الأخيرة. فقد اختفت الآن الزلاّجات ذات العجلات والأبواق والأكورديونات والمقاليع. "ماذا حصل لكل غنائمكما؟".

"أخذناها إلى سانت ماغي"، قال جون-مارتن.

"لأولاد الجنود"، أضاف فيليب.

مرة أخرى، وجد دكستر نفسه يطارد أحداثاً بدا أنها تملّصت منه. تخيَّل الموقَّر المُلحّ ويديه الممدودتين لتلقي هذا المكسب غير المتوقّع. "متى؟".

استشار الفتَيان بعضهما. "مؤخراً"، قال جون-مارتن.

"تقصدان حديثاً؟".

"حديثاً"، وافقا.

رأى طاولة ضيقة موضوعة بين سريريهما، محوِّلةً إياهما إلى زوج مناضد عمل. كان جون-مارتن جالساً على سريره، وأمامه قطعة من خشب البلزا، وأنابيب أسمنت مطاطي، وورق مشمَّع، وكرّاسات تعليمات البحّارة.

"طائرات؟"، سأل دكستر.

"لماذا يظنّ الجميع هذا؟"، قال جون-مارتن بحنق.

"سُفن"، شرَح فيليب. "لقد بدأنا للتو". ثم اضاف بعد صمت قصير، "حديثاً".

لاحظ دكستر لأول مرة أن نبرة الاعتذار في صوت فيليب عوَّضت عن نبرة التحدي في صوت جون-مارتن. هل كان ذلك جديداً؟ "لماذا ليس طائرات؟"، سأل.

حدَّق فيه الفتَيان؛ من الواضح أن شيئاً غاب عنه. "غرايدي"، قالا.

"سنصبح بحّارَين عندما نبلغ السادسة عشرة"، قال جون-مارتن ببعض اللامبالاة.

"إذا أذنتَ لنا"، قال فيليب. "وكانت الحرب لا تزال مندلعة".

شَعَر دكستر بعيون الفتَيين البنية السريعة تقيِّم ردة فعله. من الواضح أنهما كانا مُدركين للإعجاب الجماعي بغرايدي أكثر مما كان يفترضه. "السادسة عشرة سنٌّ يافعٌ جداً"، قال.

"سنكون جاهزين".

"إذا توقفتما عن العبث".

"توقَفنا الأسبوع الماضي!".

"ما عدا هذا الصباح".

كانت نافذتهما تواجه البحر. بحُكم العادة، بحثت عينا دكستر عن استعراض السُفن عند بريزي بوينت. "انظرا"، قال. "إنها ناقلة نفط".

"الشرفة توفّر منظراً أفضل"، قال جون-مارتن.

"تراقبان السُفن من الشرفة؟"، قال دكستر متفاجئاً؛ لم يرهما يفعلان ذلك أبداً.

"عندما لا يكون أحد في المنزل"، قال جون-مارتن.

"وهذا يحدث كثيراً"، أضاف فيليب.

"هيا نخرج ونلقي نظرة"، قال دكستر. "أودّ فعل ذلك أنا أيضاً".

رنَّ الهاتف بينما كانوا ينزلون السلالم، ورفع دكستر السماعة في القاعة الأمامية. إنه هيلز. "كل شيء بخير؟"، سأل دكستر.

"اتصل فرانكي كيو بالباينز باكراً هذا الصباح"، قال هيلز. "وذَكَر وجود نشاط ما في عنبر الزوارق. قد ترغب في إلقاء نظرة بنفسك".

مكالمة هاتفية من إبن السيد كيو كانت أمراً غير اعتيادي. "شخصٌ ما دخل إلى هناك منذ بضعة أسابيع"، قال دكستر متأملاً.

"فرانكي بدا... متفاجئاً أنني لم أعرف أين أجدك"، قال هيلز. "أخبرته أن علاقتنا

مبنية على الثقة".

ضحِك دكستر. "ماذا قال؟".

"صمت مُطبق".

"حسناً. سأذهب الآن".

كان التوأمان جنباً إلى جنب عند درابزين الشرفة. سلَّمه جون-مارتن المنظار. "انظر يا أبي"، قال. وأضاف بعد لحظة، "اجلس".

"هذا سيهدّئ يديك"، شرَح فيليب.

"أليستا هادئتين؟".

"إنهما ترتعشان".

لم يُصَب دكستر بارتعاش أبداً. وتساءل للحظة عابرة ما إذا كان عليه أن يعود إلى قعر الميناء، مثلما توسَّله الجميع أن يفعل.

"يداي ترتعشان أيضاً"، طمأنه فيليب.

ثبَّت دكستر مرفقيه على درابزين الشرفة ونظر عبر المنظار. وضع الفتَيان ذراعين بلا تفكير حول كتفَيه. كان يُدرك حبّهما الصادق له. ستكون هارييت مسرورة من هذا المشهد؛ كان يوفي وعداً. انتظَر، تاركاً عينيه تغشيان على المنظار، مؤجّلاً لحظة إبلاغهما أن عليه الذهاب.

ارتاب دكستر في الأمر حتى قبل أن يصل إلى عنبر الزوارق. كان فخاً - عرَف هذا من دون أن يعرف كيف عرَفه، وكان مسروراً من إيجاد أن حدسه لا يزال متيقظاً، رغم ارتعاش اليدين والوجع القوي خلف عينيه. عادة، كان ليُحضر بضعة شباب معه، لكن المعلومة أتت من فرانكي كيو - أي في الواقع، من السيد كيو نفسه. وهذا يعني أن هذا الفخ لم يكن فخاً اعتيادياً؛ كان مسرحاً. ولدكستر دور ليلعبه، والسيد كيو يعرِف أنه لا داعي لتحضيره مسبقاً. كان دكستر يحبّ أن يتصرّف بسرعة بديهته.

رَكَن سيارة بعيداً قليلاً، ونفضَ الغبار عن حذائه ذي الرباط الجديد، وقوَّم ربطة عنقه، وسار إلى عنبر الزوارق. كانت هناك سيارة سوداء مركونة أمام المدخل مباشرة،

والصمت مطبق داخلها. المسألة بأكملها مخادعة أكثر من حفلة مفاجأة في ذكرى ولادة.

اضمحَلت متعته فجأة عندما فتح الباب ووجد بادجر يلعب الورق مع رجلَي عصابات. لم يراقب دكستر تلميذه السابق كثيراً منذ أن أحضَر الولد لعبة أرقام الحظ الخاصة به إلى ناديين من النوادي الثانوية. فهِم دكستر الآن ربطة عنقه المطلية، ودبوسها العاجي اللون، وقبعته البورسالينو. لقد ازدهرت أعمال بادجر منذ وصوله إلى نيويورك. لكن يبدو أنه لا تزال هناك أمور كثيرة يجب تعليمه إياها.

بدا بادجر ورَجلاه مفعمين بالنشاط؛ من الواضح أنهم استحمّوا، وحلقوا لحاهم، وشربوا قهوتهم الصباحية. هذا غريب. فإذا لم يكونوا هنا ليلة أمس، مَن الذي رآه فرانكي كيو إذاً في عنبر الزوارق؟

"بادجر"، قال دكستر. "تسرّني رؤيتك".

"تفضل بالجلوس"، قال بادجر بالشهامة النضرة لرجل يظن أنه مَن يتحكّم بمجريات الأمور. تغاضى دكستر هذه المرة. راح يحدِّق في قريب السيد كيو القليل الخبرة وانتظَر بدء الهجوم. التصق فتَيا بادجر بالجدار، وأخذ دكستر أحد كرسيهما.

"شراب؟"، سأل بادجر. كانت هناك زجاجة شراب اسكتلندي على الطاولة.

"شكراً لك على أي حال".

"اسمع، ليس ودوداً ترك امرئٍ يشرب لوحده".

"لا تشرب إذاً".

مال دكستر إلى الوراء على كرسيه ووضع رجلاً على رجلٍ، لكي يُظهر استرخاءه ولكي يضع قِراب كاحله بمتناول يده. اختبرَ خلال فعله ذلك ما يسمّونه شيئاً مألوفاً سبقت رؤيته: الجلوس أمام كيريغان في نفس عنبر الزوارق هذا، ومراقبته يضع إحدى رجليه النحيلتين على الأخرى. كان جالساً حيث يجلس دكستر الآن. لكن كيريغان قبِل أن يشرب.

"كلي آذان صاغية يا بادجر"، قال دكستر. "أخبرني ما الذي يدور في ذهنك".

"ينادونني جيمي الآن".

"حقاً؟".

"بادجر كان شيكاغو. وجيمي هو نيويورك". أشار بيديه، يساراً ويميناً، كما لو أن المدينتين حبّتا ليمون يقارن وزنهما.

لم يُبدِ كيريغان أي خوف، رغم أنه لا بدّ أن يكون قد شعر بما كان سيحصل. فباستطاعة دكستر أن يشمّ ذعر الرجل ولو كان في الغرفة المجاورة: رائحة حيوانية شبيهة برائحة الظربان. كان بعض الرجال يفرحون بها فرحاً كبيراً بينما تبكي ضحاياهم وتتوسَّل. لكن دكستر لم يشعر سوى بارتياح عندما رفع كيريغان كوبه بيد هادئة، مبتسماً ابتسامته الثملة. "لأيام أفضل"، قال. وجد دكستر أنه غير قادر على النظر في عينَي صديقه وهما يُفرغان كوبَيهما.

"اعتقَدتُ أنك مغرم بشيكاغو"، قال لبادجر.

"بالتأكيد، إنها مكان رائع للهواة".

كان ميؤوساً منه: فتى في سروال داخلي يردِّد ببغائياً كلمات فيلم سينمائي. هدف سهل. "لقد كبرتَ"، قال دكستر، مُجبراً نفسه على النظر إليه بهدوء. "يا جيمي".

بعد الاعتراف به بهذه الصفة، ظهر وهم العظمة على وجه بادجر. "ربما تتذكَّر أنك أنزلتني من سيارتك منذ بضعة أشهر".

"بالكاد".

"أفضل شيء كان يمكنك أن تفعله لي".

تيقّظ دكستر للخطر. فالتزلُّف كان مخدِّراً، وتمهيداً إلى شيء أقل لطافة تقريباً دائماً.

"علَّمتني ألا أتكلَّم كثيراً"، قال بادجر.

"هل هذه طريقتك لشكري؟".

"أظن ذلك".

"حسناً، لقد تأثرتُ. والآن الوقت يمضي بسرعة. لديَّ موعد".

"يمكنه الانتظار".

نظرَ إليه دكستر نظرة طويلة. "لا تقل لي متى أغادر يا بادجر"، قال ببطء. "أنا مَن يقول لك".

"جيمي".

وَقَف دكستر، وقد نفد صبره. كما هو متوقع، انسلّ فتَيا بادجر إلى الباب خلسةً وراحا ينظران إليه ممسكين قضيبين في يديهما، والشرر يتطاير من عينيهما.

يجب أن يأتي الآن الإلهام الذي لطالما تمكّن دكستر من توفيره في هكذا تدخّلات على مرّ السنوات. كيفية إعادة فرض النظام والسلطة - عقاب متواضع ولائق - من دون إحداث إصابة مميتة؟ إصبع مشوّه، بالتأكيد. كاحل مكسور. لكن لا شيء أكثر خطورة.

ابتسم دكستر لبادجر. "سألتُك من قبل ماذا يمكنني أن أفعل لك"، قال. "لا يمكنك الإجابة من دون المدفعية الثقيلة؟".

"أريد تعليمك شيئاً أنا أيضاً"، قال بادجر. "أن أردّ لك المعروف، إذا جاز التعبير".

الشراب أثّر على كيريغان فوراً - نُحوله، ربما. بدا جافلاً، ثم مشوّش الذهن؛ ثم بقي جالساً، يحدِّق في دكستر بصمت غائم. لم يتكبَّد دكستر عناء التظاهر بالتفاجؤ. كانت النظرات بينهما كل المحادثة التي احتاجا إليها: لا تبادل للاتهامات، لا شروح. كانت القواعد واضحة للجميع. ارتطم رأس كيريغان بالطاولة بعد أقل من خمس دقائق من تناوله شرابه. شيءٌ في وضعية كتفَيه جَعَل دكستر يظن أنه قد يعاود الاستواء على الكرسي. انتظَر، مراقباً أنفاس صديقه البطيئة بينما الخشب يفرقع في الموقد. فقط عندما هزَّ كتف كيريغان وشَعَر بجسمه على وشك الانزلاق إلى الأرض على غرار مدمني المخدرات، نهض دكستر عن كرسيه وطرقَ على النافذة ليستدعي القبطان وفتيانه، الذين كانوا ينتظرون على الزورق.

"تعتقد أنه لا يوجد أحد فوقك"، قال بادجر.

"كل شخص لديه شخص فوقه يا بادجر"، قال دكستر.

"جيمي!"، زأر بادجر وخبطَ راحتَي يديه على الطاولة. "كم مرة عليَّ أن أقول لك هذا أيها اللعين؟ هل مجالسة نجوم السينما جعلتك أحمق؟".

"بادجر يلائمك أكثر".

لقد أنقذَ نفسه من غرف مليئة بمسدسات. لكن هذا كان من مدة طويلة. كان

وقتها أصغر سناً، وأكثر رشاقة، وأخف وزناً بقليل، من دون أن تكون لديه أمور كثيرة يحزن عليها في حال سُدلت الستارة باكراً عليه. هنا، لم يكن الصمود بيتَ القصيد؛ بل الدرس. صنعُ مثالٍ للآخرين من دون قتل أي شخص هو بيت القصيد.

"تظن أنه لا يمكنني لمسك"، قال بادجر. "أرى هذا على وجهك".

"ليست لديك أي فكرة عما أظن". لكنه كان صحيحاً. بادجر لا يستطيع.

عاد التنافر إلى دكستر: جاءت مكالمة فرانكي كيو في ساعات الصباح الأولى، عندما كان بادجر لا يزال يغطّ في نومه. كيف عرَف السيد كيو أن دكستر لن يأتي إلى عنبر الزوارق فوراً؟ هل يُعقَل أنه أخذ عِلماً بما كان دكستر يفعله بدلاً من ذلك؟

في تلك الحالة، سيكون قد قرأ الوضع معكوساً: كان هو الشخص الذي يجب أن يُعلَّم درساً، وما أراده منه السيد كيو لم يكن درساً بل اعتذاراً. كان الفخ الهاوي لحمايته: إبقاء الأمور ضمن العائلة، تجنُّب تأنيب علني أو أي خطر حقيقي. كان فشل دكستر في التفكير في هذا الاحتمال زلةً غير معهودة - ربما من عواقب صداعه. هل الغطس بلَّد تفكيره؟ كان واضحاً الآن كيف يُفترَض أن تسير الأمور هنا: سيتذلَّل لبادجر، وخبر تذلّله سيطمئن السيد كيو بينما يزيل القماط عن كرمته عندما تنقلب أحوال الطقس. سيواصل دكستر أعماله كما في السابق، لكن مع رَسَن مُحكم أكثر على رقبته. وبادجر سيكون جيمي، ومساوياً له.

كل ذلك يميل في اتجاه واحد، ويمكن توقّعه مثل الشروق. وفي اتجاه آخر، هناك شيء أقل تميُّزاً: أفقٌ يُتعذَّر فهمه، مرتجّ ومظلم، ومليء بغبار متوهج. سرّ.

كان السيد كيو قد أصبح عجوزاً جداً الآن.

وكان دكستر قد سئم التذلُّل. فقد بقي يتذلَّل معظم حياته. والحقيقة هي أنه لم يكن مضطراً أن يتذلَّل. كان يعرِف هذا، وكذلك السيد كيو.

بسرعةٍ لم يعرف أنه لا يزال يملكها، أمسَك حنجرة أحد فتَيي بادجر بكلتَي يديه وراح يضغط إلى أن شعَر بالغضروف يتهشّم. أطلقوا النار بعنف. لا بدّ أن رصاصةً أصابت بادجر، لأن شخصاً صرخ، وأصبحت الغرفة مليئةً بالألم. ثم كان دكستر على الأرض يُمسك بطنه، متذكراً أن الزنجي حذَّره من تشنّجات في المعدة.

لكنه لم يكن يعاني من مرض انخفاض الضغط. بل بادجر أصابه بطلقة في ظهره.

راح الولد يلوح فوقه، ووجهه مخضَّبٌ بالدهشة الصارخة لشخصٍ يحدِّق في نار مُضرَمة في الهواء الطلق. عرَف دكستر أنه أتت الموافقة على قتله. لكن كيف؟ في أي تغيير جذري لنظام العالم أصبح هكذا أمر مقبولاً؟ وصله الجواب بيقين بارد: لقد تخلّى عنه حموه.

وَقَف بادجر فوقه، ومسدسه مرفوع وجاهز. مثل أي قاتل ثرثار، أراد أن تسمعه ضحيته قبل أن يُنهي عليها. وطالما بدا أن دكستر يستمع له، سيبقى على قيد الحياة. ثبَّت عينيه على وجه مهاجمه بينما مجريات ما حصل كشفت نفسها مثل أجزاء مبنى في الضباب: جورج بورتر أفشى سراً استباقياً، خوفاً من أن يُفتضَح أمره. والقناة التي كان دكستر يتوق لنشوئها بين العجوز والسيد كيو حصلت فعلاً – وربما كانت متواجدة لعدة سنوات. والرَجلان انتهيا منه.

راح بادجر يتكلَّم بتلهّف، ويبدو أنه شَعَر بالإطراء من اهتمام دكستر الكبير بكلامه. لكن دكستر لم يسمع أي كلمة. بل انزلَق في ذهنه مثل زورق يتحرّك بعيداً عن رصيف بحري عندما تنقطع حبال إرسائه. وسرعان ما وجَد نفسه في المياه المفتوحة، والليل الرطب يلفح وجهه. كان القبطان بجانبه، بكامل نشاطه، والسكتة الدماغية لم تصرعه بعد. كان كيريغان متكوّراً على سطح الزورق.

"هل ستتذكر أين نحن؟"، سأل دكستر القبطان.

"دائماً".

"لنفترض أنهم أخبروك بضرورة عدم تذكّر ذلك".

رفعَ القبطان يديه، الباردتين والمعقودتين مثل عِجل مولود حديثاً. "يملكون هذه"، قال. ثم أشار إلى جمجمته، "وليس هذه".

لفَّ شباب دكستر الجنزير حول كيريغان وأوثقوه بالوزن. فلا أحد أراده أن يعوم إلى السطح عند ذوبان الثلج في أبريل. الآن، وبعد رؤيته ذلك الجنزير، عرَف دكستر أن لا شيء من صديقه بقي داخله – أي عظمة أو غرزة أو قبعة أو جلد حذاء. هذا الشيء الغريب ملأه أملاً. عاد إليه اكتشافه من ليل أمس بوضوح تام: أثناء صعوده من مياه

الميناء الداكنة، شعَر بتلاشي أطرافه، ووَثَب اندفاعٌ للتيار من داخله نحو تنويه متوهج للمستقبل. ما كان يحاول القيام به بكل جوارحه، كان قد قام به من قبل! كان أميركياً! الشهوة والتوق اللذين تأجّجا في أوردته ساعداه على صياغة ما كان سيحصل لاحقاً.

"أنت تبتسم"، قال بادجر. "هل تعرف شيئاً لا أعرفه؟".

مُبقياً عينيه على بادجر، غرِق دكستر في الصمت الذي تلا ذلك، قاسماً إياه إلى النصف، ثم إلى النصف مرة أخرى، ومصمِّماً ألا يصل إلى شطّه المقابل. وَقَع في السكون، والظلمة تحيط به مثل مياه الميناء، بينما كان قد ساعَد شبابه على الزورق على رفع جسم كيريغان المقيَّد والمُثقَل إلى الحافة العليا للزورق ورميه في الماء.

بقي إيدي جامداً لمدة تكفي لكي يختفي عن أنظار أي شخص يراقب من الزورق. ثم بدأ التلوّيات التشنجية التي كان يتمرّن عليها في ذهنه من اللحظة التي بدأ فيها يتظاهر بفقدان الوعي – بتردّد أولاً، نصف متوقع أن يقفز ستايلز إلى قدميه ويسأل عما يجري. كان لدى إيدي معرفة طفيفة بما قد ينتظره، وأتى إلى عنبر الزوارق متسلحاً بخدع قليلة من أيامه في الفودفيل: شفرات في بطانة سرواله، عود للأقفال مخبأ بين فكه ولثّته. كان خائفاً من أن يبلع العود أثناء إدعائه شرب الشراب، لكنه لم يضطر إلى الادعاء. فقد أشاح ستايلز بنظره، وقد رمى إيدي الشراب فوق كتفه.

كان قد ترك شؤونه منظّمة وراءه، فالدفتر المصرفي الثاني مفتوح على المكتب لأغنِس، التي لا تعرف شيئاً. هذا كان شرطه الوحيد لبارت شيهان: لا يجب أن تعرف زوجته أبداً، حتى ولو حصل الأسوأ. خاصة عندها. فالمعرفة تدعو إلى التصرّف، وكان إيدي قد قرَّر أنه يريد أن يذكره الآخرون كأسوأ حقير بدلاً من أن يخاطر بأن تركِّز أغنِس كل إصرارها وعنادها لمعرفة مَن قتله. وهذا خطير جداً. فالرجال يهجرون عائلاتهم كل يوم – أوغاد لطالما اعتبر أنهم يستحقون السجن. ومع ذلك، سيتم تذكر إيدي على أنه من ذلك الصنف من الرجال إذا قُتل. لذا غالباً ما كان يذكِّر نفسه بهذه الحقيقة لدرجة أنه كان يتفاجأ أحياناً من إيجاد نفسه لا يزال حيّاً، ولا يزال في المنزل، حيث أصبح حضوره غير ضروري. كان شخصاً مهمّاً لآنا فيما مضى، لكنه لم يعد كذلك. وقد تشعر ببعض الراحة عند التخلّص منه.

دفعه الجنزير عميقاً لدرجة أنه ظنّ أن ضغط الماء سيهرس جمجمته مثل حبة جوز

تحت حذاء. تلوّياته حرَّرت رِجله، ثم ذراعه، وكل جسمه في النهاية، وتابع الخنزير والوزن طريقهما إلى القعر. لا أحد يوثق رجلاً فاقد الوعي بنفس العناية التي يوثق بها رجلاً مستيقظاً بالكامل.

بدأ يركل قدميه ويحرّك يديه بجنون لبلوغ ما كان يأمل أن يكون الهواء، لكنه كان ماءً، والمزيد من الماء، إلى أن بدأ يظنّ أنه سبح في الاتجاه الخطأ. تباطأ قلبه وثقُلت رجلاه بينما بدأ يحسّ بفقدان الوعي يتسلّل إليه. اخترق السطح أخيراً، وراح يلهث بضعف. عندها فقط شعر أنه على وشك أن يغرق، لأنه لم تبق لديه أي قوة. فاستلقى على ظهره تحت سماء الليل المصفَرّة، وراح يحرّك يديه مثل زعانف ليبقى عائماً. تنفَّس وتنفَّس، والماء المالح القابل للطفو أنقذه.

مرَّ وقت طويل قبل أن يستعيد ما يكفي من قوة ليبحث عن شَطّ. لم تكن هذه بروكلين. لذا بدأ السباحة، ولا يزال الصيف يلقي ظلاله الناعمة على الماء. بقي يسبح رغم أن قواه خارت بالكامل منذ فترة طويلة، كما لو أنه شخص يغرِف في حاوية فارغة على أمل أن يعثر على بعض القليل فيها بطريقة أو بأخرى، *القليل أكثر، القليل أكثر، القليل أكثر*، والعجيب أنه وجد ما يكفي من قوة كل مرة ليحرّك يديه لمرة واحدة إضافية.

وصل مرهقاً إلى الشَطّ الجنوبي لستاتن آيلند، بالقرب من حوض سُفن صغير. كان هناك صياد سمك بقي لفترة أطول من المعتاد يطارد سرباً من الأسماك، ولهذا السبب كان هناك ما يكفيه من ضوء ليرى جسم رجل جرفه المدّ إلى المياه الضحلة الموحِلة. افترَض أنها جثة وارتعب من مسافة السير الطويلة إلى أقرب هاتف ليبلِّغ عنها، لكنه عندما ربط زورقه ونظر مرة أخرى، رأى أن الجثة ترتعش.

ملأت زوجته حوض الاستحمام بالماء وأضافت بعض الماء المغلي إلى أن أصبحت الحرارة بالكاد دافئة. أنزلا إيدي فيه، وأمسكه الرجل تحت إبطيه بينما راحت زوجته تغلي بعض الماء الإضافي وتزيد حرارة الحوض تدريجياً، على مرّ ساعات، إلى أن أصبحت حارة كفاية. عندما توقَف إيدي عن الارتعاش أخيراً وعاد اللون إلى خدَّيه، جفَّفاه، ودهنا جسمه باللانولين، ولفّاه ببطانيات من ريش، ووضعاه على فراش قش أمام الموقد. ضغط صياد السمك أذنه على قلب إيدي ووجد أن إيقاعه أقوى، ومنتظم أكثر، من السابق.

استيقظ إيدي مصاباً بحمى، وراح يبحث عن وجه مألوف، لكنه لم ير سوى امرأة

شعرها رمادي. وكان يأتي أحياناً رجل تفوح رائحة السمك من يديه ويلمس جبهة إيدي وصدره. كلَّم إيدي هذين الاثنين بحدّة - فقد سرقا ساعة جيبه. وتناقشا فكرة أخذه إلى المستشفى. *لا*، همس لهما. *لا!* وأجبر نفسه على عدم ذكر ساعة الجيب مرة أخرى.

عندما زالت الحمى، جلَس مستقيماً على كرسي مطبخ، ملفوفاً ببطانية مصنوعة من ريش. صبَّ هارلان، صياد السمك، كوب شرابٍ صافٍ لكل واحد منهم كان مذاقه كخبز الجاودار. وكان حفيده يُنهي واجباته المدرسية على الطاولة المجاورة للموقد. كان هارلان نرويجياً وُلد هنا. في صباه، اصطاد مع والده لتموين قصور الكركند، ريكتور ومقهى مارتن وشانلي، وكان صيادو الأسماك يرفّهون عن بعضهم البعض بتبادل إشاعات عن الشهية الضخمة لدايموند جيم برايدي وليليان راسلّ: أربعة عشر كركنداً معاً في ليلة واحدة، واضطرت السيدة أن تخلع مشدّ خصرها. كان إيدي يستمع لهم مجهّزاً قصته - *لقد سقطتُ عن ظهر سفينة* - لكنه لم يُسأل أبداً لماذا أتى إلى الميناء من الأصل. لقد فهِم. فمعرفة متاعب رجلٍ آخر تجعَلها متاعبك، وكان هارلان بالكاد قادراً على إعالة عائلته، فيصطاد السمك ليُطعم أفراد عائلته ويقايض الأسماك مع جيرانه مقابل بيض وتفاح وحليب.

مع كل يوم جديد، كان إيدي يشعر بالضغط المتزايد لحياته، قريباً جداً منه. كان ذهنه ضعيفاً جداً ليفهم تماماً ما هو التالي الذي يجب أن يحصل. كان عليهم الفرار من نيويورك - لكن إلى أين؟ إلى عشيرة أغنِس في مينيسوتا، الذين يزدرونه؟ سيهلَك في تلك الأرض الموحِلة التي تعجّ بزعيق الحيوانات والتي تبعد مئات الكيلومترات عن البحر. إلى مكان لا يعرِفون أحداً فيه؟ وجَد إيدي نفسه يتشبَّث بمختلف أصناف الشفاء، مُغلقاً عينيه ومحاولاً أن ينام.

لكن هارلان كان يعرِف. "أنت بخير"، قال. "غداً ستُخبرني إلى أين تريدني أن آخذك".

عند الشروق، نقلَ إيدي إلى مرسى الجهة الغربية. كانت هناك سفينة شحن من البرازيل خرجت للتو من الحجر الصحي، ومئات الرجال المتلهّفين الذين ينتظرون في صف طالبي العمل منذ الصباح، يدخّنون ويدردشون. مع ذهاب دونالان، لم يعد إيدي يعرِف مدير التوظيف. كان ذلك في سبتمبر 1937.

وقف واضعاً يديه في جيوب السروال الفضفاض الذي أعطاه إياه هارلان، ومُخفضاً طرف القبعة فوق عينيه. كان بدن السفينة الصدئ يمسّ الرصيف البحري مثل كلب يفرك وبره النتن على جذع شجرة. سفينة متشرّدة من دون وجهة محدَّدة، بثقَت حمولتها من شمام ومطاط وجوز هند على مضض. عندما انتهى التفريغ الصباحي، صعد إيدي سُلَّم السفينة مثلما راقَب عدداً كبيراً من المجرمين ومشجّعي كرة القدم ومدمني المخدرات يفعلون على مر السنوات، متعجِّباً دائماً من مقدار اليأس الكبير الذي قد يدفع رجلاً إلى القيام بهكذا خطوة. كانت وظيفته مظلمة، ولا مقالات ليوقّعها، فكان عامل فحم: المنصب الأكثر تواضعاً في كل مناصب غرفة المحرّك. لكن أثناء هبوطه السلالم الزلقة إلى العالم السفلي الحارق للسفينة، عدَّ إيدي نفسه محظوظاً. بهذا المقدار كان يخشى العودة إلى المنزل.

الفصل 26

بعد ثلاثة أيام من تفرُّق القافلة – أيام موتّرة للأعصاب ذات سماء صافية وأمواج لطيفة تطلّبت الإبحار بشكل متعرِّج ليلاً نهاراً إلى أن عمَّت خيبة أمل القبطان كل أرجاء السفينة – بدأ البارومتر ينخفض، الحمد لله. كان شرارة يكتب تقرير الطقس يومياً ويأخذه إلى القبطان كيتردج في مكتبه. كانت التوقّعات تشير إلى اقتراب عاصفة هوجاء. سمِع إيدي صيحة احتفال القبطان التي وصلت إلى مقصورة القيادة.

عند الظهر، تلبَّدت السماء بالغيوم، وأصبح النسيم قوياً. أعلَمَ القبطان الضابط البحري الأول أنهم سيوقفون المراوغة على مسارهم، رغم أن العاصفة لم تكن لتصل قبل الصباح الباكر.

"حتى والبحر لا يزال هادئاً، سيدي؟"، سأل الضابط.

"لهذا السبب بالتحديد"، قال كيتردج. "الطقس العاصف سيُبطئنا مرة أخرى؛ هذه فرصتنا لنكسب بعض الوقت".

خلال نوبة إيدي التي تمتد من الثامنة حتى منتصف الليل، أبدعت إليزابيث سيمان إبداعها الاعتيادي، مُبحرةً بسرعة اثنتي عشرة عقدة. تابَع البارومتر الانخفاض، وأُغلقت الأبواب بإحكام لمنع الأمواج من اقتحام وسط السفينة. أراح فارمينغدايل إيدي عند منتصف الليل، إلى جانب روجر، المتدرِّب على ظهر المركب، الذي قام بالحراسة الآن مع فارمينغدايل. كان إيدي والضابط البحري الأول قد اتفقا على هذا التغيير؛ منذ كايب تاون، لأن كليهما لا يثقان بالضابط البحري الثاني.

حين أصبح إيدي جاهزاً لينام، كانت السفينة تتدحرج على موجة صاعدة. صعد إلى برج القيادة لمرة أخيرة ليطمئن على روجر، الذي كان مُصاباً بدوار البحر ومرتعباً بينما إليزابيث سيمان تفاوض منطقة الأربعينات الهادرة. "أعرف أنك لا تحبّ البحار الهائجة"،

قال للمتدرِّب. "فقط تذكَّر أن الغواصات لا تحبّها أيضاً".

"لقد تغيَّرتُ"، أخبره روجر بفخر خجول. "لم أعد أعاني من دوار البحر الآن، مثلت قلتَ".

رأى إيدي فرقاً لدى المتدرِّب - فقد تخلَّص روجر من عدم توازنه الأبله وبدا أطول، أو ربما كبُر حقاً خلال هذه الرحلة. وَقَف إيدي بجانبه ونظر إلى المدى. كانت الرياح قد جرفت السُحُب الطبقية وبدأت تهبّ في أبراج ركامية. ظهر رُبع قمرٍ بشكل غير منتظم، كما لو أنه يومض شيئاً مستخدماً شيفرة النظام مورس. اجتاز إيدي إلى جهة الميناء على المنصة، حيث كان فارمينغدايل، وشَعَر بالضابط البحري الثاني يتصلَّب. انزعاجه المحسوس، إلى جانب القمر المُلحّ، جعل إيدي يشعر بالاضطراب. راح فارمينغدايل يحدِّق خارجاً، لكنه كان من الصعب معرفة ماذا - أو إذا - رأى. كان المنظار يتدلّى حول عنقه.

"هل يمكنني الحصول على النظارات، أيها الثاني؟".

أعطاه إياها فارمينغدايل. صعد إيدي إلى المنصة المعلَّقة وسار دورة كاملة حول المدخنة، وهو يضغط المنظار على عينيه. اختفى القمر خلف السُحُب، وبالكاد لمس الضوء أمواج المحيط الصاخبة. على بُعد نقطتين من عارضة الميسرة، رأى حافة داكنة مستقيمة. طرفت عينا إيدي وأخفض النظارات، ثم رفعها مرة أخرى. كانت لا تزال هناك: استقامة لا يجدها المرء في الطبيعة. لا بدّ أنها برج مراقبة - البنية المرفوعة لغواصة - ومع ذلك بقي إيدي لا يصدِّق عينيه حتى عندما صرَخ نحو أسفل السُلَّم إلى روجر، "نادِ القبطان. سأرنّ نداء التعبئة العامة".

وصل القبطان كيتردج إلى برج القيادة فوراً. دفعَ فارمينغدايل جانباً وضغط النظارات على عينيه. ثم أمرَ ريد، البحّار المتمرِّس الواقف وراء مقود القيادة، بأعلى صوته "انعطاف أقصى إلى اليمين". وقال لإيدي، الواقف الآن عند تلغراف غرفة المحرّك، "السرعة القصوى. ليعطنا المحرّك أقصى ما عنده".

نقلَ إيدي الأمر إلى غرفة المحرّك وشَعَر بالاهتزازات الموازية له تحت قدميه بعدما زاد المهندسون السرعة. أدار البحّار المتمرِّس عجلة القيادة بقسوة. ودفعَ جرس الإنذار العام الجميع للصعود إلى ظهر المركب، وأسرعَ الرجال إلى محطات مدافعهم في سترات نجاتهم.

باستخدام الهاتف المشغَّل صوتياً على المنصة المعلَّقة، أمرَ الملازم روزن مدفع المؤخرة بأن يُطلِق النار على برج المراقبة. فاخترقت طلقةٌ الظلمة العاصفة، وغاص البرج سالماً. ومع ذلك، لا تستطيع الغواصات تخطي سرعة سبع عُقد تحت الماء. لذا فإن إليزابيث سيمان ستسبِقها بسهولة.

وَقَف إيدي متأهباً ليشغّل التلغراف. فجأة، كان روجر يصيح في وجهه. فقد أشار المتدرِّب المسنَّن، ورأى إيدي برج مراقبة ثانٍ يظهر بالكامل، على بُعد ثلاث نقاط من قوس الميمنة. وضعه الانعطاف إلى أقصى اليمين أمامهم مباشرة. في نفس تلك اللحظة، هزَّ انفجارٌ أرجاء السفينة. تطايرت الأبواب مفتوحةً، وتحطّمت ذراع الصاري على ظهر المركب. اهتزّت إليزابيث سيمان، ولفظت مجموعة مداخنها كُرة لهب برتقالية أضاءت جميع مَن كان على متنها ثم عامت وهي تفرقع مثل شمس عملاقة تتلاشى فوق البحر. فاحت رائحة زيت يحترق، ثم تلا ذلك صمت عميق بعد أن توقف محرّك السفينة كلياً.

هرع إيدي للنزول على السلالم وعبَرَ منطقة وسط السفينة المظلمة نحو غرفة المحرّك. كانت أنوار الطوارئ المنصوبة على القواطع ستُضاء إذا بُرِمَت ربع دورة، فأطفأ بعضها أثناء ركضه، وامتلأ فمه بغبار الزيت. وجَد الدخان يتصاعد من باب غرفة المحرّك. خرج منه أوشلسكي، المهندس الثالث، مترنِّحاً وملطّخاً بالدم والزيت. "الغلاية انفجرت"، قال لاهثاً.

تجاوزه إيدي، منزلقاً نزولاً على الدرابزين، وبالكاد لمست قدماه السلالم. لكنه لم يتمكن من الوصول إلى غرفة المحرّك؛ كانت ألسنة اللهب قوية جداً. لا أحد يعمل هناك سيكون قد بقي حيّاً. ركَض إلى حجرته الخاصة، وارتدى سترة نجاته بسرعة، وأمسك حزمة هجْر السفينة الخاصة به والمشعل الكهربائي. سمِع مدفع المقدمة يطلق النار، إلى جانب مدفع المؤخرة، وتخيَّل الغواصات تغطس هرباً من الانفجارات ثم يحرّكها البحر الهائج بعنف، فلا تعود قادرة على إطلاق النار مرة أخرى. على سطح قوارب النجاة، ربَط كيسه الذي يحتوي على الثياب والسُدسية والسجائر والشراب، وكرّاسة *كيف تهجُر سفينةً* - داخل قاربه، ذي الرقم أربعة. كانت النياط تلوح من قبل، لكن إيدي تردَّد في فكّ القوارب في الرياح الهوجاء عندما لم يكن قد صدر الأمر بهجْر السفينة بعد. طالما كان الحريق محصوراً تحت سطح السفينة وإليزابيث سيمان مستقرة، سيكون أأمن لهم

بكثير خوض العاصفة على متن السفينة منه على متن قوارب النجاة.

بدا الطُربيد الثاني وكأنه انفجر عند عظمة قَصّ إيدي. لا بدّ أنه أتى من الغواصة الأولى، أو ربما من غواصة ثالثة لم يروها، لأنه أصابهم تحت خط منسوب الماء على الميمنة، عند وسط السفينة، بين العنبرين الرابع والخامس. وقد تلا ذلك صوت لعلعة عميق داخل السفينة. لم يكن إيدي قد سمِع هذا الصوت أبداً من قبل، لكنه عرَف أنه ضجيج المحيط يغزو عنابر إليزابيث سيمان. بدأ طرفها الخلفي ينحرف نحو البحر بشكل فوري تقريباً. فأصدرَ القبطان كيتردج أمر هجْر السفينة، وساد جو شبيه بالأحلام، وتعزَّز الإرباك نتيجة الظلمة وهدير البحر، الذي شنَّ هجوماً مركّزاً على السفينة الميتة مثل قطة تحاول إيقاظ فأرة منهكة. كان بْيُو، الطبّاخ الثالث القديم، لا يزال في محطة مدفعه على المنصة المعلَّقة. أمسك إيدي ذراع العجوز وألحّ عليه ركوب قارب نجاته، ذي الرقم اثنين – كان قد حفظ لائحة الزوارق عن ظهر قلب. على سطح برج القيادة، نظَرَ إلى شرارة، الذي كان يحشو كتب الشيفرة في الحقائب المعدنية المثقوبة التي كان يُفترَض بها أن تُغرقها.

"عليك أن تركب قاربك"، قال إيدي. "الرقم واحد".

"ما سبب استعجالك اللعين يا صاح؟"، سأل شرارة ضاحكاً. "لم يُجبني بعد أيٌ من أولئك السفلة؛ سأرسل نداء الاستغاثة اللعين لمرة أخيرة". بدا اللاسلكي، الذي كان يعمل على الطاقة الاحتياطية الآن، حيّاً بشكل ملفت للانتباه على السفينة المحترقة. عرض إيدي على شرارة أن يحمل لاسلكي الطوارئ إلى قارب القبطان. فقبَّل مشغِّل اللاسلكي خدّه. "بارَك الله فيك أيها الثالث"، قال.

أمسَك إيدي لاسلكي الطوارئ الضخم من مقصورة القيادة. شعَر كما لو أن الوقت أحدثَ فتحات جانبية تسمح له بالتحرّك جانبياً وإلى الأمام أيضاً، بحيث أن أي مقدار من النشاط أصبح ممكناً حتى مع ازدياد حدّة مَيل إليزابيث سيمان. في قوارب النجاة المزدحمة، وَضَع اللاسلكي في قارب النجاة الأول، قارب القبطان. وعلى جهة الميمنة المقابلة له، كان قارب الضباط قد انطلق من قبل: رَجلان يجذِّفان، والباقون يربضون في قعره للمحافظة على استقراره في الأمواج العارمة، التي كانت تدفَع القارب نحو بدن السفينة. ركَع رئيس البحّارة عند ذراع الدفّة، وحتى في العاصفة، سمِعه إيدي يصيح أوامره وعرَف أن القارب الثاني سينطلق.

حيث كان يجب أن يتواجد قاربه، وجَد أوشلسكي، نائب القبطان، يقف وينظر إلى أسفل. لقد تم إنزال القارب فارغاً وهو الآن يتمايل دون جدوى على جهة إليزابيث سيمان المحجوبة عن الرياح.

"ماذا حصل؟"، صَرَخ إيدي في المهندس الثالث في عصف الرياح.

"لقد... نزل ببساطة"، قال أوشلسكي. كان وجهه أبيض بالكامل تحت بريق زيت الوقود، ونظره شارداً من دون غليونه. لقد أُصيب بصدمة، فكّر إيدي في سرّه - ربما حرَّر القارب بالخطأ.

"لا بأس"، قال محاولاً قَمع حاجته الاعتيادية لإيجاد المذنب. كانت قوارب النجاة رَحْبة، وهناك مساحة أكثر من كافية للجميع في القاربين المتبقيين. على الجهة المقابلة مباشرة، على الميمنة، كان يجري إنزال قارب فارمينغدايل إلى البحر، وسربٌ من الرجال يتزاحمون للنزول إليه بعدما يصبح في الماء. كان القارب الأول، قارب القبطان، على وشك أن يُنزَل. وَقَف إيدي في المطر الغزير. أحسَّ بتقاعُس غريب لهجر إليزابيث سيمان. ومن خلال نعلَي قدميه، شعَر بانفجارات تحت الماء مع دخول مياه البحر إلى ممراتها وارتطامها بالغلاية الساخنة. وفي الهَبّات العَرَضيّة للرماد المتطاير من مجموعة مداخنها، تمكّن من تمييز البضائع التي بذلوا جهداً كبيراً لتحميلها وتثبيتها على السفينة: دبابات الشيرمان، سيارات الجيب. لقد بذلوا الكثير من الجهد والقلق والكلفة. بدا له أنه غير كافٍ الخروج منها مع مجرد حياتهم.

خطرت على باله فكرة: شرارة. كان مشغِّل اللاسلكي معيّناً للقارب الأول، قارب القبطان، لكن إيدي لم يره عندما تفحّص حَشد الرجال المنتظرين أن ينزلقوا نزولاً على الحبال. عاد إلى داخل منطقة وسط السفينة، التي كانت قد أصبحت مائلة الآن بزاوية حادّة، وتسلَّق إلى برج القيادة. وجَد شرارة على كرسيه، خاملاً مثل اللاسلكي الذي أمامه، ورفعه إلى قدميه بالقوة.

"اتركني وشأني أيها اللعين"، قال شرارة بضعف.

"بالله عليك، أيها الحقير الأبله". رفع إيدي شرارة على ظهره وجرّه نزولاً على السُلَّم إلى ظهر المركب.

"وغد كبير"، تتمتم شرارة.

كانت كل قوارب النجاة الأربعة قد نزلت، وأصبح سطح قوارب النجاة فارغاً. رأى إيدي مؤخرة إليزابيث سيمان مغمورة إلى وسطها في المطر الغزير، والأمواج تلطم مدفعها الخلفي. وعلى الجهة المحجوبة عن الرياح، هناك طوف عوّامة تحرّر تلقائياً من حمّالته وأخذ يعوم الآن على ظهر المركب. مع استمرار حمله مشغّل اللاسلكي على ظهره، ومقوام رِجله المعدني يلطم كعبه، نزل إيدي سُلَّماً إلى ظهر السفينة الرئيسي بارتباك وبدأ يسير جانبياً مع حذره من عدم الوقوع على ظهر المركب الحديدي الزلق. حَمَل شرارة إلى حيث يعوم الطوف، وسحَبه نحوه بحبل توثيقه، وتدحرَج نصف دحرجة، ورمى شرارة فوق الحافة العليا للسفينة إلى شَعريته الخشبية. بينما كان إيدي يقفز فوق الدرابزين إلى الطوف، سمِع دويّاً مزعجاً فوقه: كانت الحمولة تتحرَّر من أربطتها على ظهر السفينة العمودي تقريباً. انقطعت سلاسل الدبابات وسيارات الجيب وبدأت تهوي مثل صخور، ساحقةً أذرع المرافيع والصواري، ومتدحرجةً على منطقة وسط السفينة، ومحطِّمةً مؤخر ظهر السفينة في انفجارات أجزاء معدنية، قبل قذف نفسها إلى البحر. حاوَل إيدي قص الحبل الذي يربط الطوف بالسفينة، متأكداً أن الانقضاض سيسحقه مع شرارة. لكن الحبل كان حبلاً سلكياً، وحتى سكين بُووي الخاص به لا يستطيع قطعه. زعَقت إليزابيث سيمان وارتعشت في عذاب فولاذي بينما اندفع إيدي ليأخذ الفأس المربوطة بكل طوف. لكن قبل أن يتمكن من محاولة قطع الحبل مرة أخرى، تجشأت السفينة المشؤومة بصوتٍ مؤلمٍ بدائيٍ وانزلقت تحت البحر، ساحبةً طوفهما معها. وجد إيدي وشرارة نفسيهما في الماء. احتضن مشغِّل اللاسلكي من صدره استعداداً للدوامة، متذكّراً فجأة إمساكه الفتَيين على شاطئ روكأواي. "احبس أنفاسك"، صرَخ بشرارة. لكن لم تأت أي دوامة. بل راح البحر يرغي ويزبد حيث كانت السفينة، دافعاً إيدي وشرارة بعيداً.

حدَّق إيدي حوله بحثاً عن قوارب النجاة، لكنه لم يرها في المطر والعتمة والأمواج العاتية. بل رأى مجموعة الأضواء الحمراء لسترات النجاة: طوف آخر، على الأرجح، ومليء بالرجال. مُحتضناً شرارة حول صدره، استلقى إيدي على ظهره وبدأ يركل نحوه. كان مشغِّل اللاسلكي هزيلاً جداً، كتلة عظام ولحم مثل العصافير من دون حتى معطف أو سترة نجاة. شعَر إيدي بالبحر يهتزّ تحتهما مع غوص السفينة. امتلأ سطح البحر بالنفط – شَعَر به على لسانه وعينيه ومنخريه. راح يركل ويجذّف، وينظر من وقت لآخر

ليرى إن كان لا يزال يسير في الاتجاه الصحيح. في نهاية المطاف، سحبه أحدهم من الماء، وهو لا يزال يُمسك شرارة. استلقى إيدي على الطوف، غير متأكد ما إذا كان شرارة حيّاً أم لا. وعندما فتَح عينيه أخيراً، رأى بوغز، وهو مدفعيّ بحريّ، بجانبه. "أنت سبّاح خطير"، قال بوغز.

بدأ إيدي يتقيأ على شَعرية الطوف الخشبية. وكان شرارة يتقيأ أيضاً، والذي يعني افتراضياً أنه حيّ. وحتى عندما ألقى إيدي قيئاً تفوح منه رائحة النفط في بحر تفوح منه رائحة النفط، كان ذهنه يجهد ليفهم أمراً: كان بوغز مُعيناً لقارب فارمينغدايل، القارب الثالث. لماذا هو على طوف إذاً؟ هل غرق القارب الثالث؟ كان الطوف يتألف من شَعريات خشبية متماثلة حجمها متران ونصف بثلاثة أمتار ونصف، وهناك أسطوانات طفو فولاذية محشورة بينها. لفَّ إيدي ذراعه حول قطعة خشبية وتمسّك بها. كانت الأمواج عاتية، لكن البقعة النفطية للسفينة منعتها من الارتطام بهم وسمحت للطوف بالانزلاق فوقها. بقي إيدي يرفع رأسه ليبحث عن السفينة، لكن لا شيء يشير إلى البقعة التي كانت سبعة آلاف طن من الفولاذ الملحَّم والمحمَّلة بتسعة آلاف طن من البضائع تعوم عليها منذ ثلاثين دقيقة – لا يوجد أي انخفاض، ولا حتى رقعة فوران، للتذكير بالفتاة العجيبة التي نقلتهم إلى جميع أنحاء العالم.

من بوغز، الذي كان مستلقياً بجانبه، اكتشَف إيدي أن الأمواج حطّمت قارب النجاة الثالث على جانب السفينة. نجا الجميع ووصلوا إلى الطوف ما عدا المهندس المجروح، الذي اختفى في الأمواج. "لقد غرق أوشلسكي؟"، قال إيدي بنبرة تأهّب. لكن المدفعي لم يكن يعرف إسمه، ورفَض إيدي أن يصدِّق أنه أوشلسكي. تخيَّل المهندس الثالث يُمسك حبل الإنقاذ الذي يمتد حول الطوف، مبتسماً بتهكّم من مأزقهم. مع احتساب إيدي وشرارة، كان هناك تسعة وعشرون شخصاً على الطوف، على حد قول بوغز – أكثر بأربعة أشخاص من الحد الأقصى الذي صُنع الطوف ليتحمّله.

تركّزت العاصفة عليهم بشكل قوي الآن، محاولةً امتصاصهم عن الطوف كما لو أنهم فتات طعام عالقة بين أسنانها. في ومضات البرق، راح إيدي يعدّ الأشخاص بالأمل الكاذب للمُراهِن بعد رميه النرد – أربع سبعات – نعم، زائد هو: تسعة وعشرون. كان الطوف يتعرّض لأمواج عاتية كثيرة لدرجة أنه خشي أن ينقلب رأساً على عقب، قاذفاً

الرجال عن متنه ومُغرقاً شرارة، الذي كان قد ثبّته بحزامه بإحدى القطع الخشبية. لكن الطوف تمكّن من الانزلاق فوق الموجة كل مرة عائداً إلى سطح الماء ليعاود الكرّة من جديد. توقّف إيدي عن عدّ الرجال بعد حين، وشَعَر بمقوام رِجل شرارة على قدمه. تَيَبَّست الذراع التي أوثقها باللوح كما لو أنها في تخشّب موتي. لم يعد قادراً على معرفة الأعلى من الأسفل. وتغلَّب عليه أحياناً نوم متوتّر جزئي. توهّج تلألؤ من البحر: عرَف إيدي أنها عوالق، بما أن هذه الظاهرة صادفته في المحيط الهادئ. بدا توهّجها الآن نابعاً من قعر المحيط: إليزابيث سيمان وبقية السُفن المفقودة، المئات منها على مرّ القرون، تبثّ لهم من الأعماق.

ألقى الصباح ضوءاً قذراً على بحر مرتبك هائج. لقد مرَّ الجزء الأسوأ من العاصفة. وقد اختفى ستة من عددهم: الطبّاخ الأول؛ البحّار المتمرِّس الذي يدعى ريد؛ مدفعيّ؛ منظّف محرّكات؛ مساعد طبّاخ؛ وبيليموند، وهو بحّار حالِم كان مفضَّلاً لدى كل طاقم السفينة. كان بوغز لا يزال هنا، إلى جانب فارمينغدايل، والمتدرِّبان، وبعض الحرّاس البحريين، وبحّارة عاديون، ورجال إطفاء، وشرارة، الذي كان حزام إيدي قد ثبّته في مكانه. وقد نجا بْيُو، البحّار القديم، بطريقة من الطرق. *رجال حديديون في زوارق خشبية*. بالكاد تكلّموا لمدة طويلة، محاولين أن يستوعبوا خسارتهم لرفاقهم. بالنسبة لإيدي، هذا يشمل أوشلسكي، الذي لم يُعثر عليه في أي مكان.

كان فارمينغدايل الضابط الأعلى رتبة، وهذا جعله المسؤول عن الطوف وإيدي نائبه. رغم كل تحفّظاته تجاه الضابط البحري الثاني، كان إيدي مسروراً من وجود ملاّح السفينة معهم. والخبر الأفضل أيضاً هو أن شرارة أبلغهم أنه تلقى رداً على نداء استغاثته، مما يعني أن هناك فرصة كبيرة أن يتم إنقاذهم عندما تهمَد العاصفة.

عند الظهيرة، مع استمرار هطول المطر بشكل متقطع، لاحَظ أحدهم قارب نجاة بعيد منخفض بين الأمواج – ربما شديد الازدحام. أخرجوا مجاذيف الطوف، وصنعَ إيدي مسنداً لكل مجذاف عبر جَدْل قسم من حبل الإنقاذ حوله – وهذه خدعة تعلَّمها من كرّاسته. ركع مدفعيّ ورجل إطفاء على رُكبتيهما وأمسك كل واحد منهما مجذافاً، والرجال يثبّتانهما من الجهتين. عندما تمكّنوا من الاقتراب بما يكفي لرؤية القارب بوضوح أكثر، وجَدوه فارغاً ويفيض ماءً. لا بدّ أنه قارب إيدي، القارب الرابع – الذي نزل الماء قبل

أوانه. كان هذا حظاً ممتازاً. فبالمقارنة مع طوف العوّامة، كان قارب النجاة قصراً: 8 أمتار مكعّبة من الملجأ والمعدات والمؤن، ناهيك عن شراع وذراع دفّة. وسيجد إيدي حزمة هجْره السفينة مربوطةً داخله، والتي تحتوي على سُدسية، وبطانيات، وحصص ماء إضافية. ستكون السجائر قد ابتلّت على الأرجح، لكن زجاجة الشراب الأفريقي الجنوبي ستلقى نصيبها الكبير من الترحيب.

ربطوا الطوف بالقارب، وبدأ الرجال يصعدون إليه الواحد تلو الآخر. لكن ما أربك إيدي هو أن القارب كان يحمل الرقم اثنين - إنه قارب الضابط البحري الأول - لكن كان هناك كيس مربوط في نفس المكان بالضبط الذي ربط فيه كيسه. مُحتاراً، فتح ذلك الكيس عنوةً ووجده مليئاً بكتب بلّلتها مياه البحر بالكامل وحوّلتها إلى هريس. انتابه خوفٌ وهو يفهم ماذا يرى: فقط رجل واحد في العالم سيُنقِذ من سفينة تغرق كيساً يحتوي على كتب فقط. وقد رأى رئيس البحّارة لآخر مرة عند ذراع الدفّة في قارب الضابط البحري الأول، القارب الثاني، الذي انطلق قبل بقية القوارب.

شرَح حصيلة أبحاثه لفارمينغدايل. "كان هناك سبعة عشر رجلاً على ذلك القارب، يرتدون سترات نجاتهم"، قال إيدي. "يجب أن نبحث عن الناجين".

أومأ فارمينغدايل إيماءة مشكِّكة، لكن إيدي أصر على أخذ موافقة بقية الرجال. هزّ فارمينغدايل كتفيه وبقي على الطوف، متمرّداً، بينما حضَّر بقيتهم القارب للقيام بعملية بحث. قال بْيُو، البحّار القديم، إن الرياح لا تزال قوية جداً لرفع الشراع. والمجذافان ومسنداهما مفقودان من قارب النجاة، لكن المجذفين الاحتياطيين مخبأان في مكانيهما. سيجذّفون في مربعٍ، ألف ضربة في كل اتجاه، ويصفِّرون في الصفّارات الموجودة على سترات النجاة كل خمس تجذيفات. انتقل الجميع، بما في ذلك فارمينغدايل، من الطوف إلى القارب، لكنهم تركوا الطوف مربوطاً، بما أنهم غير متأكدين من عدد الناجين الذين قد يعثرون عليهم. فتح إيدي الأسطوانة الفولاذية التي تحتوي على الحصص الغذائية لحالات الطوارئ بعناية، ووزَّع جزءاً من معجون البيميكان ولوحَي شوكولا بالحليب على كل رجل، إلى جانب مئتي ميلليليتر ماء من الإبريق - الذي تم تغيير محتوياته قبل أربعة أيام فقط - مستخدماً كوب قياس.

بدأت أذنا إيدي تخدعانه فور بدء التجذيف. وبدا كل توقف مؤقت مليئاً بصرخات

بشرية، لكنهم أكمَلوا الجزء الشرقي من المربع من دون رؤية أي شخص. استداروا جنوباً مع مجذِّفَين جديدَين. بعد ثلاثمئة تجذيفة، سمِع عدة رجال صوت صفّارة خافت، وأطلق روجر صرخةً من مقدمة القارب. ومن الميمنة، لمحَ إيدي شيئاً بدا حُطاماً. بعدما جذَّفوا نحوه ببطء على البحر الهائج، رأوا أنه رئيس البحّارة ووايكوف مربوطان ببعضهما. مدّوا المجاذيف إليهما بحذر ورفعوهما إلى القارب. استلقى الرجلان على قعر القارب، وكانا يرتعشان بقوة، ثم فقدا الوعي. نزع شرارة مقوام رِجله وتمدَّد فوق الزوجين المشبَّعين بالماء لكي يُدفئهما.

عند الغروب، فُتحت السماء مثل باب، كاشفةً عن حمولة غريبة زهرية وبرتقالية. بقوا يبحثون طوال اليوم لكنهم لم يعثروا على أحد آخر. بدأت الأمواج تهدأ، ووزَّع إيدي جولة أخرى من الحصص الغذائية. كان وايكوف ورئيس البحّارة قادرين على أن يأكلوا ويشربوا، رغم أن وايكوف تكلَّم قليلاً، ولم ينطق رئيس البحّارة بأي كلمة. وجَد إيديه أن صمت عدوه أمرٌ مُوحِشٌ. كان ذلك أشبه بوجود شبح رئيس البحّارة على متن القارب.

مع هبوط الليل وهدوء الطقس، ارتفعت معنويات الجميع. فاكتشاف قارب النجاة أكَّد لهم أنهم كانوا في الموقع الصحيح تقريباً الذي غرقت فيه إليزابيث سيمان؛ وستصلهم النجدة في اليوم التالي على الأرجح. أفضل ما يمكنهم فعله الآن هو مواصلة المراقبة والسير مع التيار، وهو أمر سيأخذه المنقذون بعين الاعتبار عند اختيارهم الموقع الذي سيبحثون فيه. أنزلوا المرساة، وهي عبارة عن كيس قماشي مخروطيّ الشكل، فوق مقدمة قارب النجاة لتثبيتهم بالتيار. ترَكوا الطوف مربوطاً، لكي يكونوا مرئيين أكثر للطائرات. ثم ضبَطوا ساعاتهم وبدأوا يتناوبون على النوم بجانب بعضهم على قعر القارب، أو جالسين على مقعد المجذِّف ومسندين رؤوسهم على حافة القارب. حفرَ إيدي ثلماً بمُدية جيبه على مقعد المجذِّف حيث نام، كدلالة على مرور أربع وعشرين ساعة على غرق إليزابيث سيمان.

استيقظوا يرتعشون من الندى الثقيل على ثيابهم المُبتَلة. وزَّع إيدي حصصاً غذائيةً وماءً. وعندما أشرقت الشمس، أخبرهم وايكوف أن موجة عارمة قلبت قاربهم الثاني في العاصفة، ورمت كل الرجال السبعة عشر في البحر. تمكّن الجميع من البقاء مع القارب، متشبّثين بحبل الإنقاذ الذي يحيط به ومنتظرين أول فرصة ليعيدوا قلبه إلى وضعيته الصحيحة، عندما هاجمَ قرشٌ الطبّاخ الثاني. سبح بعض الرجال بعيداً مذعورين من

صرخاته؛ بينما هرع الآخرون، بمن فيهم وايكوف والرجل الذي ينزف، إلى الصعود على القالب المقلوب. وتبيَّن لهم خطأ هذه الخطوة، لأنه عندما ضربتهم موجة أخرى وأعادت قلب القارب إلى وضعه الصحيح، قُذفوا إلى الماء التي أصبحت تعجّ بأسماك القرش الآن. وقد نجا وايكوف بأعجوبة. كان بالكاد قادراً على السباحة، لكن سترة نجاته أبقته عائماً. عند الفجر، لمحَ رئيس البحّارة، الذي سبح إليه. وكانا لا يزالان يحاولان الوصول إلى قارب النجاة الفائض بالماء منذ ذلك الحين.

أبقى إيدي عينيه على رئيس البحّارة بينما كان وايكوف يتكلّم، متسائلاً عن نوع الرعب الذي عاشه هكذا رجل لكي يسكت كلياً.

بعد شروق الشمس تماماً، رفعوا صاري قارب النجاة، ورفع إيدي العلم الأصفر الذي كان بين مؤن الطوارئ في القارب. بعد الظهر بقليل، لاحَظوا طائرة تطير على علو منخفض. راح الجميع يصرخون ويقفزون في الزورق والطوف، ويلوّحون قمصانهم – ما عدا رئيس البحّارة، الذي بقي يجلس بهدوء على قعر القارب. حلّقت الطائرة بعيداً، لأنه يبدو أنها لم ترهم، وهذا أمر أنهك قوى الجميع. ومع ذلك، لم يشكّ أحدٌ أنها كانت تبحث عن ناجين من غرق إليزابيث سيمان، ولا تزال هناك ساعات عديدة من ضوء النهار. وَقَف أربعة رجال في كل نوبة لمراقبة كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة. بقي إيدي يحدِّق في خط الأفق. فقد بدا دائماً على شفير إحضار سفينة لهم، لكن ساعات الطقس الدافئ والصافي – وهذه مثالية للإنقاذ – مرّت من دون رؤية أي شيء.

عند الغروب، أصبح الرجال محتارين، متذمّرين، جائعين. ما مشكلة تلك الطائرات اللعينة؟ هل كان الرجال الذين يقودونها عمياناً؟ لم يقل إيدي شيئاً. كان يتمنى لو أن كيتردج هنا. لأنه من المستحيل تخيُّل طائرة إنقاذ تتخطى قبطانهم المحظوظ.

جلس رئيس البحّارة على نحوٍ أبله على قعر القارب. "شكراً للعون الكبير الذي قدّمته لنا أيها الوغد الكسول"، ضحك فارمينغدايل ضحكة خافتة وهو ينظر إلى الآخرين. شَعَرَ إيدي أنه يحاول استفزاز رئيس البحّارة لكي يتكلَّم، كما لو أن ذلك قد يغيِّر حظهم. تساءل إيدي إذا كان هذا سيغيِّر حظهم حقاً. "نعرف أنه يمكنك أن تتكلم"، قالَ فارمينغدايل محرِّضاً له. "الثالث يعرف هذا أفضل من أي شخص آخر". وألقى نظرة خبيثة نحو إيدي – دعوة. ابتسم إيدي ابتسامة محايدة.

في فجرهم الثالث، لم تكن الرياح أكثر من نسيم. رأى فارمينغدايل أن عليهم ركوب التيار يوماً واحداً بعد قبل أن يُبحروا نحو اليابسة. شاهَدوا السفينة بعيدة، لكن قفزهم وصراخهم لم يُجدِ نفعاً. عند آخر خيوط ضوء النهار، تحضَّروا ليبدأوا الإبحار في الصباح التالي نحو ساحل أفريقيا الرملي الطويل. كانت إليزابيث سيمان قد غرقت على بُعد ألف وستمئة كيلومتر شرق أرض الصومال. قدَّر فارمينغدايل أن التيار أخذهم شمالاً، مما قصَّر المسافة إلى اليابسة. لذا إذا أبحروا مع رياح غربية جيدة، فقد يصلون إلى البر في خمسة عشر يوماً أو أقل. يجب أن تكون الحصص الغذائية من الطوف وقارب النجاة - مدعومةً، يأملون هذا، بصيد السمك ومزيد من الأمطار - كافية لصمودهم كل تلك الفترة. وقد يتم إنقاذهم على الطريق أيضاً.

حلَّ الليل بارداً وقاسياً. أشعلوا مشاعل من القارب والطوف في الوقت نفسه، وواصلوا مراقبتهم، على أمل أن يشاهدوا سفينة محايدة مُضيئةً أضواءها الأمامية. جلَس إيدي على مقعد المجذِّف، غير قادر على أن ينام. راح يفكّر بالمحيط وكيف يبدو على خرائط الطيّارين، مزدحماً بقياسات الأعماق وممرات الشحن وأقواس التيارات. بدا له الآن عدم وجود أي علاقة بين تلك الصور وبين الفراغ الذي يحيط بهم. وكان فوقه غطاء النجوم الباهر الذي أدهَشه للغاية عندما أبحر للمرة الأولى، والذي كان يشبه كهف علي بابا المتلألئ. عند النظر إليها من سطح السفينة، كانت تلك السماء تبدو مثل مشهد مخصّص لأصحاب الامتيازات فقط. أما النجوم الآن فتبدو عشوائية، عَرَضية - مثل البحر نفسه. توقَفت آنا عن زيارته في أحلامه؛ فقد سافر أبعد من متناولها. فهِم إيدي أنه مرَّ عبر طبقة أخرى من الحياة إلى شيء أعمق، أبرد، عديم الرحمة أكثر.

حفرَ ثلماً ثالثاً على مقعد المجذِّف.

الفصل 27

بعد الغطسة، قلبت آنا سرير ليديا إلى جنبه بحيث أصبح يتكئ على الجدار. وأغلَقت باب غرفة نوم والديها، ونقلت طاولة المطبخ إلى الغرفة الأمامية، وجرَّت الراديو إلى هناك أيضاً. أرادت أن تكون الشقة مختلفة، كدلالة على التغيير الذي شعرت به - على ثقل اكتشافها.

بقيت مياه البحر تقطر من ساعة جيب والدها لعدة أيام. وعندما جفَّت تماماً، كان عقرباها مجمَّدين عند التاسعة وعشر دقائق. كانت آنا تشعر بفائض قوة، بأمان، عندما تُمسكها في يدها. كانت من بقايا عالم إجرامي زارته مرةً واحدةً، في ظروف خطيرة، من أجل استعادتها فقط لا غير. نامت واضعة إياها تحت وسادتها.

بعد عدة أيام من الغطسة، عرَفت أنها أرادت ترك الشقة. لم يكن مسموحاً للفتيات في النُزُل حيث يعيش باسكومب. كان هناك مركز لجمعية الشابات بالقرب من مبناها، لكن هناك قائمة انتظار - وعلى أي حال، أرادت أن تكون أقرب إلى الساحة. كانت هناك غرف للإيجار في ساندز ستريت؛ رأت البطاقة المكتوبة بخط اليد الغريب معلَّقة على نافذة مقصف أو متجر أزياء موحَّدة. تساءلت إن كان يمكنها استئجار إحدى تلك الغرف من دون أن يعرِف أي شخص أنها تعيش هناك. لكن الأنواع الخطأ من الفتيات يفعلن هكذا أمور، وكان خطر الاكتشاف كبيراً جداً.

صادفت روز أثناء مغادرتها العمل ذات مساء. بينما كانتا تدخلان بوابة ساندز ستريت متأبطتين ذراعَي بعضهما، ذكرَت لها آنا مُعضلتها - أو نسخةً عنها اضطرت فيها أمها إلى العودة إلى الغرب الأوسط لتعتني بأختها المريضة، وبالطبع لا تستطيع آنا أن تعيش لوحدها. ربَّتت روز على يدها: قرّرت المستأجرة لدى أمها، وهي عروس جديدة، أن تلحق بزوجها إلى قاعدة بحرية في ديل مار، كاليفورنيا. لذا ستصبح هناك غرفة شاغرة

في شقتهم، على جادة كلينتون! وافَقت آنا أن تستأجرها في الحال.

بما أنها كانت تجني ما يكفي من مال لتحتفظ بالشقة وتستأجر الغرفة لدى روز، قرَّرت آنا عدم إخبار أمها أو عمّتها بانتقالها. فذلك سيتطلَّب شرحاً طويلاً. وهي تلتقي ببريِان قليلاً على أي حال، وذلك يحدث في صالة سينما عادة. وطالما بقيت تذهب لتأخذ رسائل بريدها كل يومين، فإن الجيران لن يفتقدوها على الأرجح.

اشترت كيساً ورقياً كبيراً (كان والدها يسمّيه حقيبة "رجاءً لا تُمطري")، وملأته بالثياب، ومستحضرات العناية الشخصية، وروايات إيليري كوينز، وشرِبت ما بقي في زجاجة الحليب، ولفَّت الزبدة بمنشفة أطباق. جلَست مرة أخرى إلى الطاولة التي بدا لها الآن أنها أمضت أكبر جزء من حياتها عليها - تأكل، تخيط، تصنع دمى ورقية من ورق الجزّار. كان سُلَّم الحريق يقسِّم أشعة الشمس إلى ألواح، وكل لوح منها مغطى بغبار كثيف مثل رقطات المايكا المتألقة في مياه خليج والأباوت. بدا لها المبنى ثقيلاً وجامداً. في المطبخ، مرَّرت يديها على المغسلة المبطَّنة بالقصدير حيث بقيت وأمها تحمِّمان ليديا إلى أن أصبحت كبيرة جداً لتتّسع فيها. نظرت إلى المرآة التي كان والدها يحلق لحيته أمامها. ثم غادرت الشقة، مُغلقةً الباب خلفها.

أثناء نزولها الطوابق الستة، كانت تتوقع أن يعترض طريقها جارٌ فضوليٌ ويستجوبها. لكن لم يخرج إليها أحدٌ أو حتى - يمكنها أن تسمع ذلك - يجرّ قدميه إلى ثقب الباب. ربما كان الجميع لا يزالون نائمين. خرجت إلى هواء أواخر مارس العذب ولاحظت غرباء في الحيّ. رجل يحمل حقيبة سفر، ويمشي مسرعاً ومتفحّصاً الأرقام المنقوشة فوق المداخل. كان واصلاً للتو.

كانت غرفة نوم آنا الجديدة في مؤخرة شقة روز، مقابل شجرة تبدو كما لو أنها تتمرّن على رياضة رفع الأثقال. وهناك عجوز على عربة خيل يوصل الزبدة والحليب إلى المنازل. كان الأغنياء فيما مضى يعيشون على جادة كلينتون، وكانت للمنازل الكبيرة إسطبلاتها الخاصة، فارغة الآن، وبعضها يُستخدَم للسيارات. كان اثنان من إخوة روز في الجيش، لكن الأخ الأصغر، حيرام، لا يزال في المنزل، وقد غلَّف كتبه المدرسية بنفس القماش المشمَّع المعطَّر برائحة العِرقسُوس الذي كانت تستخدمه في صغرها لتغلِّف كتبها. أحبَّت هذا المنزل الجديد كثيراً.

كانت تلتقي روز خارج ورشتهما القديمة في بعض الأمسيات وتستقلاّن ترامواي جادة فلاشينغ معاً، وتتشاركان صحيفة المساء. منذ بضعة أسابيع فقط، راقَبت آنا روز من خارج نفس هذا الترامواي، وشعرت أنها قد تغرق في وحدتها. لمَست ساعة الجيب.

كانت تتأخر في عملها في فترات بعد الظهر التي تغطس فيها، وكانت روز تعي أنه لا داعي لانتظارها. في تلك الأمسيات، تذهَب آنا إلى ساندز ستريت مع الغطّاسين الآخرين. وكانت تنتبه لضرورة أن تضع حبة نعناع في فمها في طريق العودة في الترامواي، لكي لا يشمّ والدا روز رائحة شراب الشعير في أنفاسها عندما تمسّي عليهما.

العيش مع روز جَعَل تمضية الوقت مع تشارلي فوسّ أمراً مربكاً، الذي كان لا يزال المُشرف على روز. ذهَبت آنا إلى مكتبه لتشرح له بعد أن غادرت المتزوِّجات عملهن في إحدى الأمسيات.

"أفهم، بالطبع"، قال. "هذا مؤسف".

"سأفتقدك يا تشارلي".

"هل ستزورينا بين الحين والآخر؟"، سأل. "عندما لا يعود هناك أي عائق؟".

"أعدُك بذلك".

عند مغادرتها الساحة بعد العمل، بقيت تبحث عن سيارة دكستر ستايلز على ساندز ستريت – وتشعر بخيبة أمل دائماً عندما لا تراها، ثم يلي ذلك بعض الارتياح.

بعد أسبوعين من غطسها في الميناء، وبينما كانت تنتظر الغطّاسين الآخرين ليتناولوا طعامهم في المقصف البيضوي، فتَحت آنا صحيفة الهيرالد تريبيون لتلقي نظرة سريعة على العناوين المشجِّعة التي كانت تتوقّعها: رومل بالكاد قادر على الصمود في تونس؛ الجيش الروسي يُجبر الألمان على التراجع نحو سمولينسك. وعندما قلبت الصحيفة، وقعت عيناها على خبر في الزاوية اليسرى السفلي:

العثور على مالك نادٍ ليلي مفقود ميتاً

تُركت الجثة المليئة بثقوب الرصاصات

بالقرب من حلبة سباقات مهجورة.

راحت آنا تحدِّق في الصورة الفوتوغرافية. رغم أنها لم تكن تُدرك أنها تقرأ، إلا أن

الكلمات بدت وكأنها تزحف إلى داخلها: *بحثٌ لمدة أسبوعين عن متعهّد الحفلات المفقود دكستر ستايلز انتهى في مأساة شنيعة يوم الأحد، عندما عثر أندرو ماتاتشن وساندي كوبيك من خليج شيبسهَد، وكلاهما في العاشرة من عمرهما، جثته بالقرب من آثار حلبة السباقات القديمة...*

دفَعت الصحيفة جانباً وأخذت رشفة من شراب شعيرها. وراحت تراقب الغطّاسين حولها يلتهمون بلح البحر وشرائح اللحم. شَعَرت أن رأسها يشبه بالوناً يعوم على ارتفاع عدة أمتار فوق جسمها. ثم سمِعت صوت زجاج يتحطم وأدركت أنها تقع.

فوّقوها باستخدام أملاح النشادر. بقيت مستلقية على جنبها، ونشارة الخشب تحت خدها. وكان وجه روبي يحوم فوقها، والماكياج الملطِّخ عينيها قريب كفاية منها لدرجة أن حلاوة الأزهار التي فيه سبَّبت لها الشعور بالغثيان. تقيأت وحاوَلت أن تقف. في نهاية المطاف، رفَع باسكومب ومارل إحدى ذراعيها حول عنقيهما وساعداها على الوقوف. ثم سارا بها إلى خارج المقصف متجاوزين البحّارة الذين افترضوا أنها ثملة.

كان هواء الشارع البارد باعثاً على الارتياح. سارت آنا مُغمضةً عينيها، ومتخلّيةً عن معظم وزنها. شعَرت كما لو أنها تسير أثناء نومها. لقد حصل شيء مريع في المقصف، لكنها هربت. بعد عدة تعرّجات وانعطافات، أصبحوا في الداخل مرة أخرى، وتعرَّفت على رائحة المطاط المحترق والمالح لبذلات الغطس. لقد أحضَراها إلى حجرة إعادة الضغط.

دخل مارل معها. "أي آلام؟"، سأل وهو يجهّز الحجرة. "هل كنتِ تشعرين بأي ألم قبل أن يُغمى عليك؟".

"إنه ليس مرض انخفاض الضغط"، أخبرته، ثم تذكرت ما الذي جَعَلها تفقد وعيها. بدأت يداها ترتعشان.

"مَن كان مموِّنك؟".

"كاتز"، قالت بأسنان تصطك. "لكنني لم أغطس لفترة طويلة".

"كان هو الشخص الذي يراقب الوقت".

تقيأت مرة أخرى.

عندما انتهت فترة إعادة الضغط، فتح مارل باب الحجرة، وعادا إلى الخارج. كان باسكومب وروبي ينتظران. رمقها باسكومب مطولاً بعينيه الفضيتين الضيقتين، وتساءلت ما إذا كان قد قرأ عنوان الخبر في الصحيفة. لم يتكلّما أبداً عن الغطسة غير القانونية أكثر من مجرد ذِكر أن المعدات المهرَّبة من الساحة قد أُعيدت من دون أي حادث. كانت آنا خائفة أن يتجنَّبها أصدقاؤها بعد تلك الليلة، لكن العكس هو الذي حصل: أصبح الرابط بينهم الآن ذا طابع عائلي ومعقّد.

وافَق مارل على عدم تدوين عوارض آنا أو استخدام حجرة إعادة الضغط في سجل الغطس إذا وعدته أن تذهب إلى المستشفى مباشرة لتُفحَص علامتها الحيوية. نقلها حارس بحري إلى أعلى التلة على دراجته النارية. وشرحت لممرضة ما حصل معها، وطُلب منها الانتظار. بقي خبر الصحيفة عالقاً في ذهن آنا بقوة. لا يُعقَل أن يكون صحيحاً، لكن تناسيه استنزَف كل قواها.

أيقظتها ممرضة بحرية في نهاية المطاف؛ كانت قد كَبَت على كرسيها مُسندةً رأسها على الجدار. أشارت ساعة معصمها إلى أنها التاسعة. بالكاد بدت الممرضة أكبر سناً من آنا، بكعكة شعرها الأشقر المثني خلف قبعتها. فحصت لها حرارتها وضغط دمها بنظرات تركيز تام أعجبتها. ثم فحصت لها عينيها وأذنيها بواسطة ضوء ساطع صغير. ووضعت سمّاعة طبية باردة على قلبها ودوَّنت كل نتيجة على لوح.

"كل شيء يبدو على ما يرام"، قالت. "كيف تشعرين؟".

"بخير"، قالت آنا. "مُتعَبة فقط".

"أراد مني الطبيب أن أسألك إن كنت متزوجة".

"لا"، قالت آنا متفاجئة. "لماذا؟".

"لأنك إذا كنت متزوجة، فإنه يوصي بإجراء اختبار حمل. فبعض الفتيات يفقدن وعيهن باكراً".

"آه".

"ظنَّ أنك ربما خلعت خاتم زواجك للغطس".

"هل... أجريتِ لي الاختبار؟".

"لا، بالطبع لا. عليَّ أن أسحب بعض الدم".

"هذا ليس ضرورياً"، قالت آنا.

غادرت المستشفى، ومشت بين أعمدة مربّعة بيضاء نزولاً على سلالم ضحِلة مقابل الحجرة البيضوية الشكل التي تبرَّعت فيها بالدم مع روز الخريف الفائت. تلكَّأت في الظلال، مركِّزة نظرها على منحوتة عمودية شاحبة تذكَّرتها من ذلك اليوم. كان يوجد نسر على رأسها. لم تأت عادتها الشهرية منذ انضمامها إلى برنامج الغطس - قبل شهرين. افترضت وقتها أن الغطس هو السبب، ولم تقلق من التعقيدات. لم يُصبها هذا التفسير الجديد كاحتمالٍ بل كيقينٍ.

عادت آنا إلى الشقة لتجد والد روز في الغرفة الأمامية، يقرأ الصحيفة على ضوء مصباح مكتبه الزجاجي الأخضر. شعرت بنظرات استهجان في عينيه - أو ربما مجرد قلق - من حالتها الشعثاء المتأخرة. استلقت على السرير في غرفتها واضعة يديها على بطنها ومحدِّقةً في الشجرة خارج نافذتها. ذكَّرت نفسها أنها غير متأكدة. لكنها كانت تعرف. إنها في ورطة، بعد طول انتظار.

خرجت باكراً في الصباح التالي، من دون أن تتناول الطعام. وَضَعت ساعة الجيب في جزدانها وانتابها شعور مُنذِر بالسوء بأنها استنفذت كل طاقتها الوقائية. استقلّت الترامواي إلى جادة فلاشينغ، وقد زاد الجوع الشنيع من شعورها بالغثيان. في كافيتيريا على ناصية فلاشينغ وكلينتون، انضمت إلى طابور طويل من عمال الساحة البحرية المنتظرين لشراء بيض وبطاطا وقهوة وخبز محمص - كان هناك شحّ في الزبدة وبقية "الدهون الصالحة للأكل". شعَرت أنها أكثر ثباتاً بعدما أكلت، وسارت بقية المسافة إلى العمل. توقَفت عند مكتب الملازم أكسل لتلقي التحية عليه. كان دائماً أول شخص يصل.

"كيريغان"، ناداها. "كنتُ انتظر قدومك. ادخلي لدقيقة". بعدما دخلت ووقفت أمام مكتبه، قال، "لديَّ خمسة متدرِّبين جدد اليوم، ولا يعرفون كوعهم من بوعهم. ماذا لديك من أعمال اليوم؟".

"تموين في الصباح، ثم غطس بعد الظهر".

"هل تمانعين لو أرسلتُ معك أولئك الأغبياء على أمل أن يتعلَّموا شيئاً من مراقبتك؟".

"بالطبع، سيدي".

بدأ التغيُّر في علاقتها بالملازم أكسل قبل ثلاثة أسابيع على الأرجح. فقد بدا أنه أصبح معتاداً على وجودها من يوم إلى آخر، كما لو أن العادة سبَّبت انهيار أحكامه المسبقة كلياً. كان الانعكاس في موقفه مذهِلاً، وعجيباً تقريباً، ورغم أن ذلك بدأ قبل أن تعثر آنا على ساعة الجيب، إلا أنها شعَرت كما لو أن الساعة حفَّزت التحوّل. ووجَدت نفسها الآن تُنقَل إلى الدور غير المحتمل بأن تكون – *الحيوان الأليف* – المفضَّل، كما لو أن العداء بينها وبين الملازم أكسل تحوَّل إلى مودّة. كان يكلِّمها باختصار، وكانت تفهمه. فملاحظاته المذمّة عن الفتيات أشبه بمدائح لآنا، لأنها لم تكن مثل الفتيات الأخريات. "اعملي لي معروفاً يا كيريغان"، قال لها الأسبوع الفائت. "غطِّي شعرك على البارجة، وإلا فإن كل سكرتيرة بلهاء في الساحة اللعينة ستأتي لتطرق بابنا".

"قد لا يُردنَ الغطس يا سيدي".

"ربما أنت محقة. فلا يوجد الكثير من الفتيات المجنونات مثلك. لكنني أحذِّرك، إذا بدأن يصلن بأعداد كبيرة، ستكون مهمتك أنت طردهن".

"إلا إذا كنَّ جيدات"، قالت. لكن الملازم نخَر فقط، مثلما عرَفت أنه سيفعل – وقد أرادته أن يفعل ذلك، مثلما تبيَّن لها لاحقاً، عندما أخجلها خداعها.

"خذي فكرة عن الرجال الجدد"، قال لها الآن. "وأخبريني إذا لفت نظرك أحدهم. وكيريغان". أخفَض صوته، ملقياً نظرة سريعة على الباب. "أزعجيهم قليلاً. تفهمين قصدي. افصلي الرجال عن الفتيان".

خرجت من مكتبه مسرورة من تملُّقه لها، وشعرت بالذنب لاستمتاعها به. ارتدت ملابس عملها وخرجت إلى الرصيف البحري. كانت أشعة الشمس تتدفق بين ممرات التصنيع، فأغمضت عينيها، وتركتها تُدفئ لها وجهها. بدأ ضغط ورطتها يخفّ، مثل لكمة حديثة لم تعد تؤلمها أخيراً. كان الحل واضحاً: الغطس سيضع حداً لذلك. فالورطات المشابهة لورطتها لا تتوافق مع هذا النوع من الأعمال؛ وستأتي عادتها الشهرية. بعد ظهر ذلك اليوم، أحسّت بتشنّجات بينما كانت تفحص بدن مدمِّرة نُسفت بطُربيدات، وخمسة متدرِّبون يراقبونها من البارجة. قلقت من أن تتلطَّخ بذلة الغطس – وهذا قلق فاخر جَعَلها تبتسم في خصوصية خوذتها. وعندما طلَبت أخيراً من غْرير أن يقف حارساً لها في

المرحاض، ارتابت من رؤية أنها كانت مخططة.

بقيت تستيقظ كل صباح مُقتنِعة أن ورطتها ستنتهي في ذلك اليوم. وفي المساء تكون منهكة جداً لتفكّر ملياً في حقيقة عدم حصول ذلك. أصبح الطقس دافئاً كفاية بحيث بدأت تعود إلى المنزل مع روز سيراً على الأقدام على جادة كلينتون من فلاشينغ بدلاً من أن تستقلاّ الترامواي الثاني. ليلة الجمعة، أضاءت روز وعائلتها شمعتين بعد العشاء وتحلّقوا حول الطاولة مع رغيف خبز. بينما تمنّوا السلامة لسيغ وكالب، اللذين كانا في الجيش، همست آنا أمنية خاصة بها: *أرجو أن تنتهي ورطتي*. فإذا لم تنته ورطتها، سيختفي كل هذا قريباً: الشموع، الخبز. روز وعائلتها. كانت هناك أنواع أخرى من المنازل لتعيش فيها الفتيات اللواتي يعاني من ورطة مماثلة.

في حجرة منفصلة داخل ذهن آنا، بدأت مساراً آخر من التفكير. إذا فشل الغطس في إتمام المهمة، فهناك طريقة أخرى، لكن لا يمكنكِ الانتظار طويلاً. بعد أسبوعين من فقدانها الوعي، فتَحت آنا عينيها في صباح أحد الأيام وفكَّرت في سرّها، *يجب أن أفعل شيئاً*. لم تكن لديها أي فكرة كيف تبدأ، لكن الجواب أتاها كما لو أنها كانت تخطِّط له من البداية: ستجد نَلْ. ونَلْ ستعرف ما الذي يجب فعله. فقد فعلت نَلْ ذلك بنفسها.

بعد العمل، استقلّت المترو إلى ميدان الاتحاد. كان العجائز الذين حاربوا في الحرب العُظمى يلعبون الشطرنج في معاطفهم السميكة، والدبابيس والميداليات معلّقة على قبعاتهم. كانت "لقد سمعتُ هذه الأغنية من قبل" تُغنّى على فونوغراف محمول، وكان المراهقون يحتضنون بعضهم البعض في معاطفهم، ويرقصون على أنغام الموسيقى. شعرت آنا بحنين حزين أثناء مراقبتها لهم. لقد رقَصت بهذه الطريقة مع فتيان في كلية بروكلين، لكنها لم تشعر أبداً بنفس براءة هؤلاء المراهقين. لطالما كانت تُخفي شيئاً. وهي تخفي شيئاً الآن.

الشقة الحادية والعشرون جنوبي غرامرسي بارك. كان غريباً كم مرة أجبرتها نَلْ على تكرار هذا العنوان.

عند ذِكرها إسم نَلْ الأول – كانت آنا لا تزال تجهل كنيتها – ذهب بوّابٌ يرتدي زيّاً عسكرياً رمادياً إلى لوحة تبديل جدارية وأوصلَ سلكاً. لمَست آنا ساعة الجيب. كانت تتمنى أن تجد نَلْ في المنزل تستعدّ للمساء، وبدا لها أنها كانت محقة. أصعدها عامل المصعد إلى الطابق الثامن وأخرجها إلى رواق مظلَّل يحتوي على بابين مكسوَين بألواح

خشبية يواجهان بعضهما البعض أمام حوض ورود حمراء تُضخِّم حجمه مرآةٌ معلَّقةٌ خلفه. انعكاس صورة آنا على المرآة أجفلها. كانت تقرص خدّيها لكي تورّدهما عندما برزت نَلْ من الباب الأيسر مرتديةً رداءً فضفاضاً من الساتان طيّات صدره مليئة بريش أبيض صغير جداً، مثل رغوة الصابون. بدا أنها احتاجت إلى بضع لحظات لكي تتذكّر مَن تكون آنا؛ ثم رمت ذراعيها حولها، مُبعدةً سيجارتها عنها لكي لا تحرقها. "كيف حالك يا عزيزتي؟"، صاحت. "لم أرك منذ دهور أيتها الشقية. أين كنت مختفية؟". همست آنا تمتمةً محايدةً على كل جملة، وخلال هذا التبادل السريع للكلام، شعرت نَلْ أن هناك خطباً ما. ابتعَدت عن آنا وحدَّقت بها جيداً. "ادخلي وأخبريني ما الأمر"، قالت.

عادت آنا إلى غرامرسي بارك في وقت باكر صباح الأحد. وراحت تتمشى على جادة بارك أفينيو مع نَلْ، الذي كان كعبها الحاد يطرق الرصيف كما لو أنه يطرق مسامير فيه. بدا شعرها المعالَج بالبيروكسيد شاحباً في شمس الصباح، وكانت هناك ظلال زرقاء تحت عينيها. لقد أصبحت شخصاً يبدو أفضل في الضوء الاصطناعي.

عندما جلستا في سيارة أجرة، عادت آنا إلى موضوع الكلفة بصوت منخفض، لكي لا يسمع سائق سيارة الأجرة. لم تكن لديها أي فكرة عن كلفة العملية وكانت تأمل أن تكون قادرة على تقسيط المبلغ.

"هاموند سيدفع"، همَست لها نَلْ. "أخبرته أن المبلغ لي".

"وماذا لو عرَف؟".

"صدِّقيني"، قالت نَلْ، "إنه يَدين لي".

"شكراً"، زفرَت آنا، لكن الجملة بالكاد بدت كافية. "ولقدومك معي. لم أكن أتوقع هذا أبداً".

هزّت نَلْ كتفيها. كان هناك شيء موضوعي بفضول في عونها؛ كانت آنا أكيدة إلى حد ما أنها كانت ستفعل الشيء نفسه لأي فتاة تأتي إليها في ورطة.

"لقد سمِعتُ عن دكستر ستايلز"، قالت نَلْ.

ركَّزت آنا نظرها على ضبابية الأبنية الرمادية الطويلة خارج النافذة. "رأيت الخبر في

الصحيفة"، قالت. "رهيب".

"لا أحد يتكلم عن أي شيء آخر".

"هل يعرفون مَن فعل ذلك؟ أو لماذا؟".

"هناك ألف إشاعة. يعتقد البعض أنها نقابة شيكاغو. يُقال إنها عديمة الرحمة أكثر من نقابة نيويورك".

"لماذا سيقتلونه؟"، سألت آنا.

"هناك تحقيق، لكن لا أحد سيتكلم. إلا إذا أراد أن يلقى نفس مصيره".

"ربما دكستر ستايلز تكلَّم".

فكَّرت نَلْ في هذا. "لكن لماذا؟"، قالت. "يقول الناس إن ثلاثة أرباع أعماله شرعية، وحتى أكثر. لماذا يخاطر بكل ذلك؟".

"هل لديه أولاد؟". كانت آنا تعرِف الجواب، لكنها أرادت إبقاء المحادثة جارية. فالحديث عن دكستر ستايلز يريحها.

"فتَيان توأمان وإبنة. وزوجة ساحرة الجمال - فتاة مجتمع من عائلة غنية. كان ناجحاً وسعيداً، هذا رأي الجميع".

"مؤسف جداً"، قالت آنا، وشَعَرت بحزن عميق. ركَّزت عينيها على النافذة، خائفةً من أن تعرف نَلْ.

"كان الناس يبكون في النادي"، قالت نَلْ.

حزِن المئات عليه، فكّرت آنا في سرّها، وشَعَرت بنفسها تتلاشى وسطهم. كانت تعرِف دكستر ستايلز أقل بكثير من أولئك الآخرين. بالكاد تعرفه. ومع ذلك فإن آلام الذاكرة أوهنت عزيمتها: شعوره بين ذراعيها؛ همسه الأجش. وما الذي كانت ستفعله الآن.

أخذتهما سيارة الأجرة إلى ناصية الشارع الرابع والسبعين، على بُعد عدة أحياء فقط من عيادة الدكتور ديروود. الصُدفة أذهلت آنا. فشهر أبريل في بداياته، وبعد بضعة أسابيع من الآن كانتا ستُحضِران ليديا إلى موعدها التالي. تساءلت ما إذا كان طبيب نَلْ سيكون في نفس مبنى الدكتور ديروود، نفس العيادة - ما إذا كان سيكون الدكتور ديروود

في الواقع. كانت أشعة الشمس الحارة تغمر التقاطع؛ والحمام يملأ الأجواء. وضعت نَلْ نظارات شمسية داكنة على عينيها، مثل نجمة سينمائية. ومعطفها الصوفي الشاحب يتضمن كتفيات ذهبية مثل كبار الضباط. بدأت أجراس دار العبادة تُقرَع.

"أين العيادة؟"، سألت آنا.

"في آخر الشارع. لا يحبّ أن تتوقف سيارات الأجرة أمام عيادته في عطل نهاية الأسبوع. فهذا يلفت الأنظار".

سارتا نحو جادة ماديسون. كان رأس آنا يؤلِمها، وتمنّت لو يتوقف قرع الأجراس. في وسط الحيّ، استدارت نَلْ إلى منزل ذي ظُلاّت مقلّمة وسياجات نباتية منحوتة. نزلتا سلالم قصيرة، ورأت آنا لوحة نحاسية مستطيلة تقول "دكتور سوفيت، طب توليد". ضغطت نَلْ جرس الباب وسمعتا أزيز فتح الباب لهما، فدخلتا إلى صالة انتظار تشبه صالة انتظار الدكتور ديروود في فخامتها، رغم أن الديكور مختلفٌ. كانت جدران هذه العيادة مغطاة بسجّاد فضيّ، وتحتوي على أريكة هلاليّة الشكل ذات قماش مخملي رمادي. بدأت آنا تتعرَّق. فقد بدا لها أن أجراس دار العبادة تقرع داخل رأسها. "أتمنى لو تتوقف"، همَست.

جفلت نَلْ. "مَن؟".

كانت هناك رائحة كيميائية خفيفة في الهواء كما لو أن هناك غرفة مستشفى خلف السجاد والمخمل. ويجب أن تكون هناك هكذا غرفة. فلا يمكن إجراء العملية على أريكة هلاليّة الشكل.

"كنتُ متوترة أنا أيضاً، أول مرة"، قالت نَلْ. وبدت متوترة الآن.

"كم مرة فعلتِ هذا؟".

"ثلاث مرات. حسناً، مرتين. هذه المرة ستكون الثالثة".

"وماذا يحصل بعدها؟".

"ستشعرين بالنعاس"، قالت نَلْ. "بتقلّص عضلي. لكن لا بأس، حقاً. ستشعرين بخير تماماً في اليوم التالي".

لم تقصد آنا ذلك، بالضبط، لكن بالكاد كان ذلك مهمّاً. فخوفها كان ممزوجاً

بفيض من الأمل، المألوف من سنوات إحضار ليديا إلى عيادة الدكتور ديروود. سيأتي الطبيب. سيأتي الطبيب! كانت هناك مجلات منثورة بدقة على طاولة قهوة مطلية بالورنيش: كوليه، ماكلُور، ساتورداي إيفنينغ بوست. فتحت نَلْ نسخةً من سيلفر سكرين، وراحت آنا تنظر معها إلى الشقراوات: بتّي غرابل، فيرونيكا لايك، لانا تيرنر، وكلهن بدوَن في يوم من الأيام نُسخاً محتملةً من ليديا. ركَّزت آنا عينيها على الباب الفاصل بين هذه الغرفة والغرفة المجاورة. كان الباب منجَّداً. باب جميل. لاحظت أنها تضغط على يد نَلْ.

"العملية غير مؤلمة"، قالت نَلْ. "يعطيكِ حقنة كلوروفورم فتنامين". كانت تنظر إلى إعلان عن تسريحات شعر نجوم السينما - لفائف، تموّجات، تجعيدات - لكن عينيها لم تتحرّكا على الصفحة. شَعَرَت آنا برغبتها أن تنتهي من هذه المسألة بسرعة. سيأتي الطبيب قريباً. أثار الرعب والحنين زوابع في معدة آنا.

كانت تحدِّق في الباب عندما فُتح. كان الدكتور سوفيت أصغر سناً مما توقّعت - أو بالأحرى، أصغر سناً من الدكتور ديروود. كان طويلاً وذا شعر رملي اللون وفي يده خاتم زواج. حيّا نَلْ بحرارة وصافح آنا بجدّية لطيفة، وهو ينظر في عينيها. قادهما عبر الباب المنجّد إلى غرفة كانت أقل شبهاً بغرف المستشفى مما كانت آنا تخشى، مع لوحات صغيرة لفاكهة متدلّية من أفاريز. كان هناك سرير عالٍ مغطى بملاءات بيضاء. في غرفة مجاورة، خلعت آنا قميصها الداخلي وارتدت ثوباً قطنياً فضفاضاً فوق حمّالة صدرها وسروالها الداخلي. بدا بطنها العضلي المسطَّح وكأنه يسخر من الإجراءات. لنفترض أن ذلك لم يكن حقيقياً حتى؟ لنفترض أنها لم تكن في ورطة من الأصل؟ *كيف يمكنها أن تعرِف، من دون الاختبار؟*

أم هل أجروا لها الاختبار؟

جلست نَلْ على كرسي بجانب المكان الذي كان فيه رأس آنا. "الآنسة كونوبكا لن ترى شيئاً"، قال الدكتور سوفيت. "لكنها ستكون بجانبك، تُمسك يدك بينما تغفين. أليس كذلك يا آنسة كونوبكا؟".

"بالتأكيد، " قالت نَلْ. بدت مرتاحة لوجود الطبيب.

كونوبكا. *بولاك*، سمِعت آنا صوت والدها، وبدأت تبكي. استلقت على الطاولة،

ورِجلاها أمامها مباشرة، وأمسكت وركها من فوق الملاءة. رفعت نَلْ إحدى يدَي آنا وضغط عليها بيديها، اللتين كانتا ترتعشان. "سينتهي كل شيء في ثلاثين دقيقة"، قالت، لكن خطورة اللحظة حرقت طبقات التظاهر التي تحوم حول نَلْ عادة، وتركتها مكشوفةً في حالة إلحاح فظّة. "إنه يُحضر الكلوروفورم الآن. ثم ستنامين".

"حاولي أن تسترخي آنسة كيريغان"، قال الدكتور سوفيت.

كان خلف آنا، بعيداً عن أنظارها، وصوته مطابق لصوت الدكتور ديروود. استوت آنا على الطاولة، محاولةً رؤيته. وقلبها يخفق بقوة في صدرها.

"استرخي"، قال الدكتور سوفيت بلطف. وجلَس بجانبها، حاملاً شيئاً في يديه. سيأتي الطبيب. لقد أتى الطبيب! كان هنا ليجعل كل شيء على ما يرام.

لكن الدكتور سوفيت لم يكن مَن أتى إلى آنا؛ بل أختها. بفورية لم تختبرها منذ الليلة مع دكستر ستايلز، تذكَّرت رائحة ليديا الحليبية البسكويتية، ونعومة بشرتها وشعرها. حالتها الملفوفة غير المُنجَزة. إصرار قلبها المرتعد. والحلم، الذي لطالما راودها، عمَن كان يمكن أن تكون عليه.

الحلم: فتاة جميلة تركض، ورُكبتاها تلمعان في الشمس. فتاة تُلمَح من طرف العين. بدا لآنا أنها قد تُنجب تلك الفتاة.

وضع الطبيب مخروطاً فوق فمها خرجت منه سُحُب دخان عذبة. مركَّز الرائحة الكيميائية التي شمّتها في صالة الانتظار. "لا"، قالت.

مالَت نَلْ فوقها، ورأت آنا رعبها الذاتي منعكساً على عيني صديقتها. لمست سُحُب الدخان دماغها، وبدأ ظل ناعس يتجمّع مثل سحابة على وشك أن تُمطر. تخيَّلت نفسها تغادر عيادة الطبيب مع لا أحد، مع لا شيء. خلاءٌ داخلها حيث كان يوجد شيء.

الفتاة التي تركض. الحلم.

"لا"، قالت مرة أخرى، لنَلْ. "دعيه يتوقف". لكن المخروط كتم صوتها، ولم تكن قادرة على سماع نفسها.

لكن نَلْ فهمت بطريقة أو بأخرى – ربما قرأت المعنى في عينَي آنا وهما ترتدّان إلى

داخل رأسها.

"انتظر"، قالت نَلْ بحدّة، ورفعت المخروط عن وجهها.

الفصل 28

شعَر إيدي بالقلق من أن التقوقع في قارب النجاة فقط، من دون الطوف لكي يمتدّ عليه، سيبدو ضيقاً إلى حد لا يُصدَّق. وشعَر بالقلق من أن فارمينغدايل سيقاوم السماح لبْيُو بتولي مسؤولية الإبحار. وشعَر بالقلق بشأن المسافة التي سيكون عليهم الانحراف بها عن مسارهم لكي يبقوا مع الرياح؛ وما إذا كان يمكنهم بلوغ سرعة أربع عُقد باستخدام الشراع؛ وشعَر بالقلق، قبل كل شيء، بشأن الحصص الغذائية: ما إذا كان عليهم أن يواصلوا شرب ثلاث حصص مئتي ميلليليتر من الماء كل يوم أو إلغاء حصة منها؛ ما إذا كان صيد شرارة سيُثمر ولو سمكة واحدة؛ ما إذا كانوا سيُبحرون بطريقة أو بأخرى نحو جزيرة، مثلما فعل قبطان وضابط أس أس ترافيسا في العام 1923. فقد أبحرَ أولئك السادة الأفاضل على متن قاربَي نجاة لمسافة ألفين وسبعمئة كيلومتر في المحيط الهندي، لكن كانت لديهم معدات وخرائط. أما إيدي فلا يملك سوى بوصلة.

ما لم يفكر فيه، أثناء جلوسه مستيقظاً في الليلة التي سبقت نصبهم الشراع، وتوقه الكبير لسيجارة – واحدة فقط، أو أفضل حتى، خمسون – كان أن الرياح ستهدأ كلياً.

في فجرهم الرابع، كان الهواء حاراً وساكناً، والبحر مثل بريق العرق. أراد المدفعيون أن يجذّفوا كرمى لفعل أي شيء، ووافَق فارمينغدايل، مما أجبر إيدي على لفت نظرهم، بقدر ما استطاع عليه من احترام، بأن التجذيف سيهدر الطاقة والموارد بلا طائل. كانوا يبعدون ألف وستمئة كيلومتر على الأقل عن الساحل الأفريقي – وهذه ليست مسافة يمكنهم قطعها بالتجذيف. انضم الرجال الآخرون إلى مناشدة إيدي، وتراجع فارمينغدايل عن قراره عند رؤيته الغرابة الهزلية التي اكتشف إيدي أنها طريقته في مواجهة الفشل.

قبلوا أن يضيع اليوم، أن يكون يوم راحة قبل الإبحار في اليوم التالي. والرجال الذين لم تكن لديهم مناوبة للمراقبة تجنّبوا الشمس عبر جلوسهم تحت ستارة الرذاذ في قارب

النجاة، أو تحت غطاء القارب، الذي مدّوه كملاءة واقية للماء على الطوف. وفي الليل أطلقوا آخر مشاعلهم وعبأوا ساعاتهم. بقي البرد يوقظ إيدي. واعتقَد أنه شعَر بهبوب الرياح ورذاذ الأمواج، لكن تبيَّن له أن كان يحلم فقط.

كان اليوم التالي مشابهاً، واليوم الذي تلاه. والساعات المُحتَمَلة الوحيدة هي ساعات الصباح الأولى، عندما تمتَصّ الشمس الندى عن زورقهم وتسقط بشهية على أجسادهم المُثلَجة؛ وساعات المساء، عندما تسكّن طلائع البرد أطرافهم المحروقة مثل لمسة ممرضة، قبل أن يحلّ البرد ويجعلهم يتشبَّثون ببعضهم البعض، مرتعشين تحت البطانيات الستة لقارب النجاة. وزَّع إيدي حصصاً غذائيةً خلال فترات الهدوء تلك، واستمتع الجميع باطمئنانٍ سريع الزوال. من الواضح أنهم انجرَفوا إلى الاستوائي، وهي منطقة لا يمكن الاتكال فيها على الرياح التجارية لتحريك قاربٍ. فترات الهدوء هذه لا تدوم طويلاً أبداً، حسبما أكَّد لهم بْيُو، يوماً واحداً أو يومين، وأكثر من ذلك في حالاتٍ نادرة جداً. لكن كل يوم خالٍ من الرياح يبدو كعشرة. وتضخَّم وهن عزيمتهم جرّاء هبوب نسيم عَرَضيّ رفعوا بسببه الشراع، وكلهم أمل، فقط لتهدأ الرياح بعد عشرين دقيقة فقط. كانوا يستهلكون حصصاً غذائيةً هم بأمسّ الحاجة إليها إذا أرادوا أن تكون لديهم أي فرصة لبلوغ اليابسة. وأفضل أمل لديهم هو أن تنقذهم باخرة ما. رأوا ثلاث سُفن أخرى على مسافة بعيدة. وكانوا يبدأون بالصراخ والقفز في كل مرة، ثم ينهارون ويستلقون كما لو أنهم موتى. لم تعد هناك طائرات؛ كانوا بعيدين جداً عن اليابسة. لا شك أن طائرات الإنقاذ الأولى أتت من سفينة.

في ثالث يوم خالٍ من الرياح – وهو اليوم السادس منذ غرق إليزابيث سيمان – وافَقوا على إزالة ثلث من حصصهم الغذائية. كانت ثياب إيدي قد بدأت تنزلق عن وركَيه من قبل. فشدَّ حزامه مقدار ثلاثة أثلام. وبدأوا يتكلّمون عن الطعام بالتفصيل المنمَّق الذي تكلَّم به فتيان مأوى الأحداث المشرَّدين عن المجاعة، ولنفس السبب: كان الكلام هو أقصى ما يمكنهم فعله.

أُصيبوا بالإعياء من دون وجود حصة الظهيرة الغذائية ليتطلّعوا إليها. بقي أوسترغارد، وهو بحّار متمرِّس، مستلقياً في الشمس لساعات، دافعاً عنه أي غطاء حاوَلوا فرضه عليه. وبحلول المساء، أصابته الحمى من ضربة الشمس. كان روجر قد خضع لدورة إسعافات

أولية، فراح يعتني به مستخدماً الضمادات الرطبة وغسول الكالامين من طقم الإسعافات الأولية في القارب. بقي البحّار المتمرّس يتوسّل للحصول على ماء لدرجة أن روجر وإيدي اقتطعا نصف حصتهم المسائية من الماء لكي يضاعفوا حصته. في الصباح التالي، اختفى أوسترغارد من قارب النجاة. وإيدي، الذي كان قد نام على الطوف مع عدة أشخاص آخرين، وجد صعوبة في تصديق أن لا أحد من الرجال الثلاثة عشرة على متن القارب رأى أو سمِع البحّار المتمرّس ينزل الماء. فراح يحدِّق فيهم مشكِّكاً - خاصة فارمينغدايل. وأثناء توزيعه الحصة الصباحية، شعَر إيدي بالرجال يتفحَّصونه، كما لو أنهم يشكّون بتحيّزه للبعض أو بأخذه حصة أكبر مما يستحق. كان إيدي يعرف أن المعنويات عاملٌ حاسمٌ للصمود على قارب النجاة، وكانوا يفتقرون لأكثر شيء يضمَن رفع المعنويات: الشراب والسجائر. لكن اللوم يقع على فارمينغدايل، قائدهم، إلى حد كبير. فبدلاً من محافظته على الهدوء، كان أحد أكثر المُماحِكين، خاصة تجاه رئيس البحّارة. في نفس ذلك الصباح، منع إيدي من إعطاء رئيس البحّارة حصّته من الحليب المكثّف.

"مَن لا يتكلَّم، لا يأكل"، أمَرَ فارمينغدايل، وهو ينظر حوله بحثاً عن مؤيدين لقراره. "سنرى لكم من الوقت سيبقى صامتاً".

عندما حاوَل إيدي مرة أخرى إعطاء رئيس البحّارة حصته، أمسك فارمينغدايل معصمه. "أنت متسامح أيها الثالث. لم يكن متسامحاً معك أبداً".

"نحتاج إلى أن يحافظ كل رجل على قوته"، قال إيدي.

"إنه لا يحرّك ساكناً. لذا لا يهمّ إن كان قوياً أو ضعيفاً. لا يهمّ إن كان هنا من الأصل".

كان يعرض على إيدي دوراً في استفزازٍ سيلبّي الحاجة الجماعية لوجود كبش فداء. لم يكن هناك رجل واحد على متن إليزابيث سيمان لم ير رئيس البحّارة يذلّ إيدي. والآن كان رئيس البحّارة رجلاً محطّماً، والأثر الأخير لكبريائه هو لا مبالاته الواضحة بمحادثتهما الراهنة. لطالما أراد إيدي أن يكون أفضل من رئيس البحّارة، لكن إمكانية فعل ذلك الآن، بالتضافر مع فارمينغدايل، نفّرته.

"اتركه وشأنه أيها الثاني"، قال بحدّة، وأعطى رئيس البحّارة حليبه.

نقل فارمينغدايل نظره من إيدي إلى رئيس البحّارة ثم إلى إيدي مرة أخرى.

وارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيه. "فهمتُ الآن"، قال.

بدءاً من تلك اللحظة، بدأ فارمينغدايل يتبع إيدي - إذا كان يمكن القول إن أحدهم "يتبع" الآخر في ظروفهم المقيَّدة. أينما كان إيدي، كان الضابط البحري الثاني المهذَّب والأشيب بجانبه مباشرة. كانت مطاردة - مراقبة - عدائية شَعَرَ فيها إيدي أن فارمينغدايل يخشاه بأن ينقلب عليه ويُقنِع الآخرين بأن يفعلوا الشيء نفسه. بدأ الاحتمال، الذي لم يخطر على باله من قبل، يغريه.

بعد ظهر ذلك اليوم، قَطَع الطرف المتدلّي لحزامه الجلدي وأعطاه إلى شرارة، الذي كان يستخدم خرقةً كطُعمٍ في سنّارة صيد قارب النجاة. الجلد مكَّن شرارة من اصطياد سمكة تونة صغيرة قبل الغروب بقليل. ساعَده إيدي على مصارعة السمكة إلى جانب قارب النجاة، وغرزَ بوغز سكين صيده في قلبها. وَثَب إيدي إلى الماء وساعد على لفّ خيط حول ذيلها، وسحَبوا السمكة إلى القارب فوق حافته العليا. قطَّعها فارمينغدايل إلى قِطع وزَّعوها فيما بينهم عبر جعل أحدهم يجلس مديراً ظهره ويختار مستلم كل قطعة. كان هناك ما يكفي لينال كل رجل قطعتين كبيرتين، والسائل داخل السمكة أخمَد عطشهم وكذلك جوعهم. بعد ذلك، بدا أن الارتياب بينهم تلاشى. فأضاءوا مصباح الكاز وأمضوا الليل بطوله يتكلَّمون عما سيفعلونه بعد الحرب. وعندما دخل الجميع في صمت نعِس مُتخَم، لمسَ رئيس البحّارة ذراع إيدي، وأومأ نحو هيكل السمكة الجالس على مقعد المجذِّف، وقال بصوت منخفض جداً بحيث لم يسمعه أي شخص آخر. وشكَّ إيدي بعد لحظة بأنه سمعه بنفسه.

"لذيذ"، قال رئيس البحّارة.

بعد ثلاثة أيام أخرى، خالية من الرياح ما عدا من النسيم المزعج جداً، عاد الجوع والعطش بشراسة مضاعفة. نزعوا أزراراً من ثيابهم وراحوا يمصّونها لحثّ لعابهم. كان لسان إيدي في فمه مثل جلد الحذاء؛ وبالتالي يفضّل قصّه. في اليوم السادس من دون رياح، ابتلَع هامل وأديسون مياه البحر بسعادة كبيرة لدرجة أن إيدي اضطر أن يصرخ بالآخرين لكي لا يفعلوا مثلهما. عند المساء كان الرجلان يهلوسان، وتُوفِّي هامل في الصباح التالي، ومعدته منتفخة. عندما دحرَجوه إلى البحر، أخبرَ أديسون إيدي أن هامل ترك له حصته

الغذائية كآخر أمنية له. وعندما ردَّ عليه إيدي أن هامل لا يملك السلطة ليفعل ذلك، هجم عليه أديسون رافعاً قبضتيه. كان فارمينغدايل بجانب إيدي، كالعادة، لكنه لم يفعل أي شيء ليصدّ أديسون؛ بل صدَّه المدفعيون. تُوفِّي في المساء. قبل انتقاله إلى الطوف لكي ينام (ويتبعه فارمينغدايل ليشخُر بجانبه)، حفرَ إيدي ثلماً آخر في سجل الأيام التي كان يدوّنها على قارب النجاة، مع علامة خاصة لكل رجل يموت.

في اليوم السابع من دون رياح – وهو يومهم العاشر الإجمالي – استلقى إيدي على الطوف عند الغروب، متذوّقاً فترة الراحة بين عذاب الحرّ وعذاب البرد. شعَر برياح على خدّه لعدة ثوانٍ قبل أن يثبُت إحساسه، وحتى عندها افترَض أنه مجرد حلم آخر. لم يتحرّكوا لأيام إلا ما يكفي لمنع رُكَبهم من التيبّس، وكانوا كلهم بطيئين في ردات فعلهم. لكن هذه كانت رياحاً بشكل لا لبس فيه – رياح مفاجئة ظهرت فجأة لدرجة أن المراقبين البطيئين لم يلحظوها. ثم عمَّ تهلُّل جماعي. سحَب بيُو والآخرون مرساة البحر على قارب النجاة وبدأوا تحضير الشراع. كان البحر قد بدأ يتلاطم من قبل. وَثَب بوغز عائداً إلى القارب وبدأ يُمسك أيدي بقية الرجال ليسحبهم من الطوف لكي يمكن إفلاته. وبينما كان روجر ينتقل من الطوف إلى القارب، انقطع الحبل الذي يربطهما، وسقط في البحر، وارتطم وجهه بحافة قارب النجاة. أنزَل بوغز مجذافاً لكي يمسكه المتدرِّب، لكن الذعر بدا على وجه روجر، وتراجع نحو الطوف. تدخَّل إيدي ورفعه إليه. كان وجه المتدرِّب أبيض صارخاً، وهناك جرح على أحد خدّيه.

في غضون ذلك، دُفعَ الطوف بعيداً عن القارب بسرعة مذهلة. حاوَل بوغز قذف حبل آخر إلى إيدي، لكنه بقي يفشل في الوصول إليه. استسلَما عندما بدأ المطر الغزير. بدا فارمينغدايل مشلول الحركة. أمرَ إيدي الرجال الذين كانوا لا يزالون معه على الطوف أن يسبحوا إلى القارب في أزواج، لكي يتسنّى وقت للرجال الموجودين على القارب بأن يرفعوهما إليه. وما فاجأه هو رؤيته رئيس البحّارة يساعد على رفع السبّاحين من الأمواج، وهذا أول نشاط له منذ أن أنقذوه.

رفض فارمينغدايل أن يسبح. كان إيدي ينوي أن يذهب في الأخير مع روجر، الذي كان مستلقياً على الطوف مُغلقاً عينيه، والجرح البليغ على وجهه ينزف. "حسناً أيها الثاني. أظن أنك ستكون في آخر الصف"، أخبره إيدي عندما غادر الجميع. وقال

لروجر، "لا داعي أن تسبح، لكن عليك أن تساعدني أسبح. هل تستطيع فعل هذا؟".

أومأ المتدرِّب برأسه. كانت المسافة بين القارب والطوف خمسة عشر متراً فقط لكنها تزداد مع مرور كل ثانية. وعندما كان إيدي على وشك إنزال نفسه إلى الماء، أمسك فارمينغدايل كتفَيه وشدَّه عكسياً إلى وسط الطوف. كان يتوسَّل بشكل غير متماسك، كأنه فقد عقله. صفَعه إيدي على وجهه بقوة ليعيده إلى رشده. "يمكنك أن تسبح أيها الثاني. ما خطبُك؟"، صاح به.

لكمَ فارمينغدايل إيدي على فكّه، وبدأا يتصارعان على رُكبتيهما على شَعرية الطوف الزلقة في المطر الغزير. شعَر إيدي أن الطوف ينزلق فوق الأمواج مثل زورق بلزا للأطفال. وكلما تمكَّن من إلقاء نظرة خاطفة على قارب النجاة، كان يراه يبتعد أكثر فأكثر. شَعَرَ بالنظرات القلِقة للرجال على القارب – شرارة، وايكوف، رئيس البحّارة – خيط اتصال حيّ لدرجة أنه بدا أنه يقصِّر المسافة بينهم ويُضيئ الظلام الهابط.

تمكّن إيدي من إخراج سكينه البُووي من جيبه، عازماً على نحر عنق فارمينغدايل. لكن الضابط البحري الثاني انتزع السكين من يده وقذَفها إلى البحر. ثم رمى بثقله فوق إيدي وشلّ حركته بحيث أن إيدي لم يعد يرى شيئاً، ولا يشعر بشيء سوى بالجسم المُبتَل والكريه الرائحة للرجل الأضخم منه يدفعه نزولاً. ضغط روجر على نفسه لكي يقف وحاوَل دفع فارمينغدايل. عندما تدحرَج الضابط البحري الثاني أخيراً متأوهاً، بالكاد كان إيدي قادراً على رؤية قارب النجاة. بدأ يبكي ويشهق شهقات غضب وخيبة أمل من معرفة أنه أضاع زملاءه؛ من أنه أضاع سجل يومياته – سجل الحوادث – أيضاً. رفع رأسه إلى الأعلى وفتح فمه، تاركاً المطر يرطِّب حنجرته لعدة دقائق. ثم نظر مرة أخرى. لا يزال قادراً على رؤية قارب النجاة – يرى، أو يظنّ أنه يرى، عيون الرجال شاخصة إليه. قال إيدي لنفسه إنه قادر على بلوغ القارب. يمكنه أن يسبح تلك المسافة، حتى في البحر المضطرب – وربما حتى أثناء حمله روجر. كان ذلك ممكناً. لكن بمجرد ورود هذه الفكرة في ذهنه بدا أنه زاد من عصبية الضابط البحري الثاني، ومن رعب أن يُترك لوحده. فهِم إيدي عندها أن أمله الوحيد هو بأن يغطس لوحده، بسرعة أكبر مما يستطيع فارمينغدايل الإمساك به. عليه أن يترك المتدرِّب. لا أحد سيناقش هكذا خطوة؛ فهي مسألة حياة أو موت. لكنه عدلَ عن رأيه. لا يمكنه أن يترك روجر مع فارمينغدايل.

بينما جهُد ليرى في الظلمة، لاحَظ إيدي ما بدا له أنه شخص يسبح. فَرَك عينيه ونظر مرة أخرى. لا. نعم. رأسٌ وحيدٌ يتمايل بين الأمواج مثل فلينة. بوغز؟ مَن غيره يملك القوة والجرأة ليفعل ذلك؟ ولماذا؟ لاحَظ روجر، أيضاً، وحدَّق وأشار بينما اقترب منه الشكل. عندما وصل السبّاح إلى الطوف أخيراً، ذُهل إيدي من رؤية أنه رئيس البحّارة. سحَبه مع روجر إلى متن الطوف. احتاج رئيس البحّارة إلى لحظات ليستعيد أنفاسه ثم وقف على قدميه، متمكّناً من موازنة نفسه على الطوف المترنِّح بطريقة ما. فَكَّ فأس قارب نجاة مربوطة بخصره بحبل قصير، ورفعها فوق رأسه، وضرب بها جمجمة فارمينغدايل، التي تهشّمت مثل طبق مكسور، وسال دماغه ودمه على عارضات الطوف الخشبية. أخذ رئيس البحّارة سكين جيب فارمينغدايل من حزامه ودفَع جثته فوق حافة الطوف، حيث اختفت في الأمواج. ثم جاءت موجة وجرفت البقايا الملطَّخة.

حصل كل ذلك في أقل من دقيقة. كان إيدي ليظن أنها هلوسة لولا حقيقة – لولا يقين – أن فارمينغدايل لم يعد معهم على الطوف. توقف المطر في غضون ساعة، وكان الجو حالك السواد، حيث السماء صافية وغير مُقمِرة. رأى إيدي لطخة ضوء من بعيد: فانوس قارب النجاة. لم تكن هناك مجاذيف على الطوف، ولا أي وسيلة لإرسال إشارة إلى القارب. فقد كانوا قد جرّدوه من كل شيء ذي قيمة: الطعام، الماء، البوصلة، أي شيء آخر قد يكون قادراً على مساعدة الإنسان على الصمود.

كانت قد أمطرت بغزارة ولمدة طويلة لدرجة أن الماء العالق على ثيابهم كان مالحاً قليلاً فقط. عصروا كل قطرة منه في أفواه بعضهم البعض وحاوَلوا أن يناموا. بقي إيدي يستيقظ بين الحين والآخر، منتظِراً أول خيوط الضوء على أمل أن يرى قارب النجاة. عندما بزغ الفجر أخيراً، لم يكن القارب مرئياً. راحوا يحدِّقون في المحيط الفارغ. وشعر إيدي برعب كبير لكنه بذل قصارى جهده ليتصرّف كما لو أن ظروفهم المريعة مجرد نكسة.

لمسَ رئيس البحّارة حنجرته وهزَّ رأسه على نحو بائس.

"أعرف"، قال إيدي. "أفتقد تلك الجمل الجميلة".

أمال رئيس البحّارة رأسه، للدلالة على عدم تصديقه.

"أنا جدّي"، قال إيدي. "الآن وقد زالت، أريدها أن تعود".

أومأ رئيس البحّارة لنفسه.

"لا. لا أزال أعتبرك نفس رئيس البحّارة الذي كنت عليه دائماً. أليس هذا صحيحاً يا روجر؟". لكن روجر بقي يحدِّق في البحر.

فتح رئيس البحّارة صندوق الحصص الغذائية ووجدَ غطاء القارب محشوراً داخله؛ كانوا يستخدمونه للوقاية من الشمس البارحة. سحَب الحبل المقطوعِ من الماء وبدأ يعمل على الاثنين محاولاً إنجاز أمر ما.

"إنه يصنع مرساة بحر"، شرَح إيدي لروجر، محاولاً جعل المتدرِّب ينخرط معهما. كان خدّه قد تورَّم بشكل نافر، مُغلقاً له عينه اليمنى. فالجرح عميق وأحمر. "من الأفضل لنا أن نعدِّل أنفسنا مع التيار"، أكملَ إيدي يقول. "إلى أن تهبّ رياحٌ في صالحنا، من المرجّح أكثر أن ينقلنا إلى اليابسة. تفكير جيد يا رئيس البحّارة".

قاطعه رئيس البحّارة بنظرة حادّة مألوفة أيقظت فيضاً من الكلمات لدى إيدي: "أعرف كم هو مزعج أن يتجرّأ جاهلٌ مثلي على مدح بحّار متفوق جداً مثلك يا رئيس البحّارة، خاصة على أفكارك، لا سمح الله، لكنك تتكلَّم لغة مُبهمة هنا، لذا ليس لديّ خيار آخر سوى محاولة قراءة أفكارك – رغم يقيني الكبير أنني غير مؤهَّل لهذه المهمة".

حدَّق فيه رئيس البحّارة ببلاهة. حتى روجر رفع نظره. لم يتكلَّم إيدي بهذه الطريقة أبداً في حياته؛ شعَر كما لو أن الكلمات تقفز من ذهن رئيس البحّارة وتخرج من حنجرته مباشرة. لقد أحبَّ المتعة غير المألوفة لخروج الكلمات بسهولة من فمه.

ابتسم رئيس البحّارة لأول مرة منذ أن سحبوه من البحر. لطالما شعَر إيدي بخطر تلك الابتسامة الجسيم لكي يلاحظ جمال أسنانها البيضاء المثالية.

استخدَم سكين فارمينغدايل ليبدأ تدوين سجل جديد للأيام على حافة الطوف. بدأ العدّ من الرقم واحد، لأن وقتهم على متن قارب النجاة بدا غير حقيقي ومليء بالأشباح. في حياتهم الجديدة، كانت الرياح قوية، والماء ثقيل وأسود. لم يكن هناك أي شيء يَقيهم من عوامل الطبيعة – فراحت الرياح والشمس والأمطار تتقاذفهم كيفما تشاء. بدا القمر والنجوم قريبة ومكشوفة، كما لو أنها أصداف أو صخور متلألئة يستطيع إيدي أن يزحف بينها عندما يشاء. رأوا أقواس قزح في الليل. وفي النهار، تفحَّص إيدي ورئيس البحّارة الأفق بحثاً عن سُفن أو قارب نجاتهم المفقود. في اليوم الثاني، حطَّت سمكتان طائرتان على الطوف، فتشاركها ثلاثتهم، ومصّوا كل ألياف اللحم عن العظام

الناعمة، ثم طحنوا العظام بين أسنانهم. في اليوم الثالث، رَوَت عاصفة مفاجئة أخرى عطشهم، لكن لم يكن معهم أي شيء ليخزّنوا فيه مياه المطر.

منذ أن ارتطم رأسه بقارب النجاة، أصبح روجر بليداً ومرتبكاً. وبقيت عينه على الجهة المجروحة مغلقة، وازداد التورّم. مزّق إيدي قطعةً من قميصه، ونقعها في مياه البحر، وضغط بها على الجرح. لم يكن هناك شيء أكثر يمكنه أن يفعله. بدأ الجرح البليغ يتقيّح، وهالته الحمراء تنتشر أكثر على وجه روجر. أخذ يرتعش بقوة في الليل، واحتضنه إيدي ورئيس البحّارة بذراعيهما من الجهتين لمحاولة تدفئته. وكان إيدي يحفر ثلماً آخر على حافة الطوف عند كل غروب: أربعة أيام؛ خمسة أيام. راح روجر يهذي عن كلبه الصغير؛ عن الدولارات الثمانية عشرة التي ادّخرها من وظيفته في توصيل الصحف؛ عن فتاة تدعى أنابيل لمسَ صدرها من فوق كنزتها. وأخذ ينادي أمه. ضغَط إيدي شفتيه الجافتين على وجه الفتى وهمَس، "نحن نحبك يا عزيزي؛ كل شيء سيكون على ما يرام". سيفعل أي شيء ليطمئن الفتى ويريحه. لقد شهِد هكذا حب لطفلٍ في مكان ما، لكن لا يمكنه أن يتذكّر أين أو متى.

في الليلة السادسة، استلقى روجر شاحباً من الحمى، وأنفاسه ضحِلة ومضطربة. لفَّ إيدي ورئيس البحّارة ذراعيهما حوله من الجهتين. في النهاية زفرَ الفتى زفيراً طويلاً وأصبح لا يتحرّك. بقيا يحتضنانه إلى أن زال كل الدفء منه. عندما أشرقت الشمس، دحرَجا جثته إلى البحر بلطف. لكن إيدي رفَض أن يصدِّق غيابه، وبقي يمدّ يديه إليه.

تكيَّف الآن مع حياة أخرى انتقل فيها المتدرِّب الحيوي إلى فيلق الأشباح الذي لا يمكنه بلوغه. الشمس الحارقة، والليالي الباردة، وضغط جوعهما المزعج الذي لا يُقهَر. شعَر إيدي بجسمه يفترس نفسه، وهذا يشبه عذاب تسوّس الأسنان. بقيا مستلقيين على الطوف، ضعيفين جداً ليبحثا عن طعام أو سُفن، والعواصف الخفيفة المفاجئة تروي عطشهما. كان إيدي هزيلاً وضعيفاً؛ لا يمكنه أن يتذكر آخر مرة بوّل فيها. كان أكثر من مجرد جثة بقليل، ورغم فشل جسمه، راحت أفكاره تهيم بحرية مرنة جديدة. فهِم إيدي ما رآه في أوكار الأفيون في شنغهاي: أشخاصٌ متكوّرون على أنفسهم وخَدِرون، لكن لا بدّ أن تكون أذهانهم قد هامت مثل ذهنه الآن، وتجنح عبر سُحُب أصوات وألوان مثل ريشة في مهبّ الريح.

كان انكماش رئيس البحّارة المرئي انعكاساً مثالياً لحالة إيدي، والحالة الجامحة لشعرهما ولحيتهما أشبه بسخرية من لحمهما المتقهقر. كان رئيس البحّارة أقل تضرّراً من الشمس، التي مزّقت بشرة إيدي تحت ثيابه الممزّقة. ولم يكن يشعر بالراحة إلا عندما يعوم في البحر. فمرة واحدة على الأقل بين الشروق والغروب، يكافح شلله بما يكفي ليُنزل نفسه إلى الماء، متشبّثاً بحبل مرساة البحر. في تلك الأوقات فقط يهرب إيدي من بطش الجاذبية، التي تضغط على عظامه الضعيفة مثل كَعب يهرسه على الرصيف. كانت متعة العوم، متعة أن يكون مغموراً، تستحق حتى لسعات الملح وهو يجفّ في تقرّحاته. ساعده رئيس البحّارة على العودة إلى الطوف؛ فقد خارت كل قواه. لم يتكلّما أبداً. بل بقيا يستلقيان جنباً إلى جنب لفترات طويلة، ويحدّقان في عينَي بعضهما البعض. ندِم إيدي لتفويته فرصة أن يسأل صديقه عن لاغوس ولماذا أصبح بحّاراً، وعن أفضل ذكرياته وأسوأها. لقد فات أوان القصص. لقد تركا اللغة خلفهما، حتى لغة البحر.

في أحد الأيام وبينما كانا مستلقيين على الطوف في ضوء النهار، شعر إيدي بوزن خفيف بجانبهما. فتَح عينيه ورأى طائر قطرس، أبيض ومربك، بجناحيه الضخمين المطويين على جانبيه مثل حاملات ألواح الفنانين. كان رئيس البحّارة نائماً. باستخدام بعض بقايا قوته، ضرب إيدي الطائر بسكين الجيب، محاولاً قطع رأسه عن عنقه. تفاداه القطرس بسهولة، محلّقاً حوالي متر في الهواء ثم عاد وحطّ على الطوف. أمال رأسه، وراح يراقبه بفضول بعينيه السوداوين الساطعتين.

في اليوم التالي، كان إيدي يرتعش رغم أن الشمس حارقة. احتضنه رئيس البحّارة وحاوَل تدفئته. "رجل طيب"، قال، وتذكّر إيدي تودّداته تجاه المتدرِّب المُحتضَر منذ زمن طويل جداً. أراد أن يعترض، أن يصحّح لرئيس البحّارة بعض الحقائق التي بهُتت ألوانها قبل أن يمكنه التعبير عنها لغوياً. كان إيدي بالكاد يتحرّك، بالكاد يتنفّس، يحافظ على آخر طاقته، ليُبطئ الأمور حتى حدود الموت تقريباً من أجل أن يعيش ساعة أخرى. يتوق بكل جوارحه أن يبقى حيّاً، أن يتذوّق الركض الحسي لأفكاره نحو حقيقةٍ لم يلحظها بعد. لم يعد يعرِف ما إذا كان الوقت نهاراً أو ليلاً، ما إذا كان لوحده أو مع رئيس البحّارة. تذكر إبنته الصغرى – ذهنها المحبوس داخل جسم محكوم بالسكون. اكتشافه الشبه بينهما خرَقَه بقوة كبيرة جعلته يصرخ، رغم أن أي صوت لم يصدر عنه. مهروسٌ

على الطوف، ويتوق كثيراً للعوم، تذكر ليديا في حمّامها، ارتياحها وضحكاتها من متعة طوفها في الماء الدافئ. لكن إيدي استدار، مروَّعاً من تشوّهها. وللمرة الأولى، للمرة الوحيدة، اجتاحته جريمة هَجره لها، فصرَخ، "ليديا! لِيدي!"، وصوته المختنق القاسي المروع يخنقه وهو يتحسس بحثاً عن الطفلة التي تخلّى عنها - عن العائلة التي هَجَرها.

بقي إيدي مستلقياً مكروباً، وإسم ليديا مثل عملة معدنية في فمه. ثم ملأ صوتٌ خفيفٌ أذنيه، صوتٌ تذكَّره قليلاً - ليس آنا، وبالتأكيد ليس رئيس البحّارة، بل صوتٌ يتكلَّم بعجلة فوّارة مدوِّخة، بثرثرة مبتهِجة مثل أصوات الطيور. انفصل إيدي عن الجسم الموجود على الطوف وتبع ذلك الصوت إلى مصدره كما لو أنه موسيقى تتدفّق من نافذة مفتوحة. توقَف ليستمع، وجهُد ليتمسّك بالثرثرة الضاحكة مثل يدين تصفّقان لالتقاط شريط ساطع يتطاير في الرياح. كان يتبع ليديا، وكانت تلهث، تضحك، كلماتها قادمة ليس في جمل بل في أمواج، في لغة أهملها في يوم من الأيام لكنه يستطيع الآن فهمها أخيراً، *بابا آنا تركض ماما تنظر إلى البحر ماما تصفِّق آنا تنظر إلى البحر بابا قبلة آنا تركض لتنظر إلى البحر تنظر إلى البحز البحر البحرالبحرالبحرالبحرالبحرالبحر.* أصبحت الكلمات ترداداً رتيباً، ذهاباً وإياباً بسيطاً، نتف ريشةٍ، خفقة قلبٍ: قلبه، قلبها، قلب واحد. ها هي الحقيقة التي تسنُد كل الحقائق الأخرى، مثل التحرّكات من قعر البحر. وفقط الآن شَعَر إيدي بذراعي رئيس البحّارة لا تزالان حوله - لقد بقي هناك طوال الوقت، لم يغادر أبداً. "قريباً"، قال رئيس البحّارة. "قريباً يا صديقي. يكاد كل شيء ينتهي. الله معنا".

الجزء الثامن

الضباب

الفصل 29

"كان الأجدى بك أن تفكّري بالمسألة أكثر مقدماً!".

قالت نَلْ في شمس الصباح على مسافة من عيادة الدكتور سوفيت. لولا الأمهات والأولاد المتجوّلين في حديقة سنترال بارك مرتدين قبعات يوم الأحد، لكان كلامها صراخاً.

"شكراً لإيقافه"، قالت آنا.

"لم يكن عليَّ فعل ذلك. كان كل شيء سيكون منتهياً الآن. بإمكاننا -"، وألقت نظرة سريعة نحو الجادة الخامسة. "لا يزال بإمكاننا العودة على الأرجح".

"لا. رجاءً". شعَرت آنا كما لو أن المتعة التي أحسّت بها من تنفّس الهواء الجاف البارد كانت لتفوتها تقريباً. "رجاءً، لا".

"توقفي عن قول هذا!".

أمسكت آنا ذراع صديقتها، وهي تشعر بما يشبه الحبّ لهذه الحامية الفاتنة الغريبة الأطوار. "شكراً، نَلْ".

تشنّجت نَلْ، ثم استرخت. بدا أن حديث آنا عن الامتنان يسترضيها تدريجياً. أو ربما كان غضب نَلْ قد بدأ يُضجرها، بالمقارنة مع الشكل الجديد المثير للاهتمام الذي بدأت متاعب آنا تفترضه. "إذاً. ستحتفظين به حتى النهاية المرّة"، قالت بلطف. "سيكون عليك الاختفاء عن الأنظار. لكنني أحذِّرك: كلفة الأماكن الجيدة باهظة".

"لقد ادّخرتُ بعض المال".

ضحِكت نَلْ. "حبيبتي، المال يأتي *منه*. أخبريه بكل صراحة: إذا أراد أن تستمر حياته اللطيفة من دون محادثات بينك وبين زوجته التي على الأرجح ستجعل الأمور أكثر حدّة في المنزل، عليه أن يدفع. الأمر بهذه البساطة".

"لقد رحل".

أمالت نَلْ رأسها. "لا أحد يرحل إلى أن يموت. ابحثي عن اللعين واجعليه يدفع وإلا سينتهي بك المطاف مع المتنسّكات، وهذا أمر لا أنصحك به"، قالت. "المتنسّكات غير مولَعات بصنفنا. أعرف هذا من مصدر موثوق".

"أعني أنه – رحل". مدفوعةً بعدم فهم نَلْ، وجَدت نفسها تضيف، "وراء البحار".

"آه، جندي. لماذا لم تقولي ذلك؟".

لم يكن لدى آنا أي جواب، لكن لم تكن هناك أي حاجة لجوابٍ؛ بدأت نَلْ تفكّر بصمت. "كانت *استراحة مسروقة*"، نطقت هذه الجملة كما لو أنها وَضَعت مأزق آنا في فئة جديدة كلياً. "كنت تعيشين اللحظة وهو أيضاً. دون اكتراث للعواقب".

"... صحيح"، اعترفت آنا.

"لكن مهلاً، لماذا تُفسدين جمال شكلك وتضيّعين سنة من حياتك عندما يمكنك الانتهاء من هذه المسألة في ثلاثين دقيقة؟ إلا إذا... إذا لم يعُد...".

"لن يعود. أنا أكيدة من ذلك".

لقد ذهبت بعيداً جداً. ومع ذلك بدت جملتها سخيفة كثيراً بالنسبة لنَلْ. "في تلك الحالة، يستطيع الإبن مواصلة خطه"، قالت متأملة. "حتى ولو لم يعرف أحدٌ أبداً بذلك. سيكون لا يزال حيّاً بطريقة ما – ستكونين قد أبقيتي جنديك حيّاً عبر حملك بإبنه. هذا ما تفكّرين فيه!".

كانت آنا في الواقع تفكّر أن نَلْ في دورٍ عاطفيٍ كانت أشبه بدجّالة. من الواضح أن صديقتها شاهدت الكثير من المسلسلات الغرامية. لكن تبيَّن أن عادة نَلْ بطرح الأسئلة كما لو أنها أجوبة كانت مريحة.

"المتنسّكات، إذاً"، ختمت كلامها. "ستبتسمين وتتحمّلين الوضع لسنة. وسيجدون له منزلاً صالحاً".

"أو لها"، قالت آنا.

بعد العشاء، جلَست آنا مع روز وعائلتها في الغرفة الأمامية تستمع إلى موزار على

الغراموفون. كان والد روز شارداً في الموسيقى؛ ووالدتها تحيك قطعة كروشيه أخرى من غطاء الطاولة الذي كانت تصنعه للاحتفال بالعودة الآمنة لأولادها. وحيرام يُنهي واجباته المدرسية. ودحرَج مَلْفين الصغير حصانه ذا العجلات فوق الأريكة وفي نهاية المطاف فوق آنا، بدءاً من فخذيها، صعوداً إلى ذراعيها، وكتفيها، ثم، عندما لم تعترض، فوق رأسها.

"لا تكن وحشاً يا ميللي"، قالت روز.

"هذا يُعجبني"، قالت آنا. كانت الحافات المستديرة لعجلات الحصان تدغدغ بشرتها وفروة رأسها. بدا كل شيء لطيفاً في هذه الحياة النفيسة السريعة العطب التي صنعتها لنفسها. في الأيام والأسابيع التي تلت، ازدادت بهجة اطمئنانها إلى الحد الأقصى. وقد أزهرَت الأشجار على جادة كلينتون في ليلة وضحاها. راحت آنا تلوّح ذراعيها بينما تسير تحتها، وهي تقول في سرّها، *قريباً لن أعود قادرة على رؤية هذه الأشجار، أو سماع حفيف أغصانها*. ساعَدت والدة روز على خياطة مربعاتها الكروشيه ببعضها. "ستكونين معنا يا آنا، عندما نستخدم غطاء الطاولة هذا"، قالت والدة روز. "أنت جزء من العائلة – وأمك أيضاً، عندما تعود من الاعتناء بأختها". شَكَرتها آنا، وكلها بهجةٌ متأرجحةٌ ارتقت من قُربٍ إلى كارثةٍ. إذا عرَفت والدة روز سرها، ستطردها من منزلها. لكنها لم تكن تعرف – ليست لديها أي فكرة! لا أحد لديه أي فكرة!

وبالتالي كانت آنا تتجرّع بنهم رواسب حياة كانت قد انتهت من قبل – ومع ذلك، كانت، بأعجوبة ما، حياة مُلكها لكي تستمتع بها. شعرت بتوق لتناول الليموناضة. عندما أوى الجميع إلى فراشه، عصرت بضع ليمونات في ماء بارد في مغسلة المطبخ، مضيفةً السكر الذي اشترته من قسائمها التموينية لكي لا يُفتقَد. أشعَرَها المزيج الحلو الحامض بالمتعة. وراحت تشربه في غرفتها بينما الأوراق الجديدة ترفرف على الشجرة خارج نافذتها. كان من المستحيل مقاومة انتظار يوم آخر لتفكيك هذه العذوبة. يوم واحد فقط! ثم يوم آخر! لكن الأيام تراكمت، وسرعان ما حلَّ مايو ولم تكن لديها أي خطة مثلما لم تكن لديها في مارس. ظهر انتفاخ بسيط أسفل بطنها، لكن ليس من السهل إخفاء ذلك؛ راحت ترتدي بذلتها الفضفاضة أو بذلة الغطس في العمل، ولم يعد الرجال يكترثون لشخصها بالذات مثلما كانوا لا يكترثون لبعضهم البعض. ونسَبت والدة روز الفضل لطبخها اللذيذ الذي ساعد آنا في "ملء" ما كان، بنظرها، هيكلاً هزيلاً. بدأت

توضِّب وجبات غداء لآنا من دون تقاضي أي رسم إضافي.

الآن وقد تعلَّمت كيفية التلحيم، أصبحت وظيفة آنا في الغطس تشمل مهام ترقيع الأبدان وإصلاحها، فتعمل إلى جانب غطّاسين آخرين على حصيرات مشدودة تحت البوارج. وكانت الهياكل الضخمة تهمهِم تحت يديها. لم يكن سحر انعدام الوزن أكبر من الآن أبداً. فكانت تتدلّى من البراغي وتترك التيار يحمل حذاءها الثقيل. وبقيت تتساءل أحياناً إن كانت متاعبها ستزول بشكل طبيعي بهذه الطريقة، لكنها لم تعد تتوقع هكذا أمل؛ ولم تعد تريده، بالضبط. وعندما نظَّم باسكومب الغطّاسين ليتبرّعوا بالدم، اعتذرت آنا في الدقيقة الأخيرة، متذرِّعة بألم في معدتها.

زار عدد من غطّاسي إنقاذ النورماندي الساحة من الرصيف البحري 88، في مانهاتن، وقد اختار الملازم أكسل آنا لتقود الجولة على برنامج غطسه. نُشرَت صورتها الفوتوغرافية في البروكلين إيغل. وكان عنوان الخبر *غطّاسة تستعرض أسلوب بروكلين أمام منقذِي النورماندي*. كانت آنا مبتسمة في الصورة، حاسِرة الرأس في بذلتها، والرياح تطيِّر شعرها من مشابكه. بعد يوم واحد من ظهورها، بدت الصورة مأخوذة من زمن بعيد. وضعتها بجانب سريرها وكانت تنظر إليها كل ليلة قبل أن تنام. *هذا أسعد ما سأكون عليه أبداً*، قالت لنفسها. ومع ذلك استطاعت أن تستمتع بتلك السعادة ليوم آخر – مثل الاستيقاظ من حلم سعيد، والسماح لها باستئنافه لفترة وجيزة.

"ماذا سأفعل من دونك يا كيريغان؟"، علَّق الملازم أكسل في إحدى الأمسيات بينما كانت تغسل بذلات الغطس.

أجابته آنا بحذر، "لماذا ستكون مضطراً إلى ذلك، سيدي؟".

"اخترق الروس خط القوقاز. سندخل تونس وبنزرت في غضون أيام. سيعود الشباب إلى هنا قريباً بحثاً عن وظائفهم".

"آه"، قالت بارتياح.

"سأجد نفسي عاطلاً عن العمل بلمح البصر؛ عائداً إلى زورقي الصغير، منتظراً أن تعلق السمكة في الصنّارة". وحَوَل عينيه بها. "ماذا ستفعلين يا كيريغان؟ من الصعب رؤيتك تضعين مئزراً مكشكَشاً على خصرك".

"شكراً، سيدي".

قوقأ. "لم يكن ذلك مديحاً، لكن على الرحب والسعة".

لو عرَف سرها، لكان طردها. لكنه لم يعرف. فرحٌ خطيرٌ مسروقٌ.

كان نِفاق آنا يؤلمها فقط عندما تراسل أمها. فرسائلها الحافلة بالأخبار عن الحياة في الساحة البحرية بدت كأنها عذر، وفكَّرت بأن تُخبرها الحقيقة - سيكون ذلك أسهل خطياً في رسالة. لكن الخبر سيحطّم أمها، وستلوم نفسها لتركها آنا لوحدها. ولن يكون هناك أحدٌ لكي تستودعه أمها سرها؛ فإذا اكتشفت عمّات آنا أو جَدّها الخبر، لن تعود آنا مرحباً بها أبداً في منزلهم. طفل آخر مخيِّب للآمال. لا يمكنها أن تسبِّب مزيداً من الخِزي لأمها، التي فقدت الكثير من قبل.

في أول سبت من شهر يونيو - وهو يوم عطلة آنا في ذلك الأسبوع - زارت مبناها القديم في الصباح لتجلب البريد بينما ذهَبت روز وعائلتها لزيارة أقارب لهم. واقفةً في الردهة، لاحَظت مغلفاً عليه أختام غريبة وسط الخطابات ورسائل بريد النصر الاعتيادية. كان إسمها مكتوباً على جهته الأمامية بأحرف متصلة مائلة بدت مألوفة على نحو صارخ. والدها، كانت لتُقسم على ذلك.

صعدت آنا الطوابق الستة إلى شقتها القديمة لأول مرة منذ انتقالها، مُدركةً دعساتها الثقيلة على الدرجات التي كانت تطير عليها فيما مضى مثل اليعسوب. كانت رائحة الشقة مثل ثلاجة قديمة. فتحت آنا نافذةً وأخرجت الرسالة الغامضة إلى سُلَّم الحريق. كانت ساعة جيب والدها في جزدانها - برهانٌ مُطلقٌ، من أسفل ميناء نيويورك، بأنه لم يعد حيّاً. ومع ذلك عرَفت أن الرسالة منه. عرَفت.

كتبَ لها بيد ضعيفة مرتعشة من مستشفى في أرض الصومال البريطانية ليُخبرها أنه أُنقِذ من عرض البحر بعد أحد وعشرين يوماً من إغراق طُربيد لسفينته. كان يعمل في الأسطول التجاري منذ العام 1937. كل هذا دخل دماغ آنا وخرج منه، تاركاً إياه فارغاً. كان بحالة صحية سيئة، غير متأكد متى سيكون بخير بما فيه الكفاية ليعود. *أنا مشتاق لكم كثيراً وأتوق لرؤيتكم من جديد*، كتبَ مع عنوان صندوق بريدي في سان فرانسيسكو.

بقيت آنا تجلس جامدةً لفترة طويلة، لدرجة أن عصافير الدُوري بدأت تتشاجر عند قدميها على درجات سُلَّم الحريق. كان والدها حيّاً؛ حيّاً منذ البداية. رغم الاستحالة الواضحة لهذه الحقيقة، لم تكن متفاجئة، تماماً. مجرد إحساس بسقوط متهوِّر خطير، من دون أي معرفة عن المكان الذي سيتوقف عنده السقوط. أمسكت بدرابزين سُلَّم الحريق بكل يد. وعادت إلى الداخل بحذر، كما لو أن المبنى ينهار من حولها. كانت الشمس قد تراجعت إلى عتبات النوافذ. لا بدّ أنه الظهر تقريباً. في المطبخ، وجَدت القلم الذي تُبقيه أمها معلّقاً بسلسلة على الجدار لتدوّن لائحة تسوّقها. سطَّحت آنا رسالة والدها على المنضدة ودوَّنت فوقها، *ليديا ماتت*، لدرجة أن قلم الرصاص مزَّق الورقة. ثم ذهَبت إلى غرفتها القديمة، واستلقت على سريرها، ونامت.

عندما استيقَظت، عرَفت من الضوء أنه العصر. لم تعد تشعر أنه من الممكن العودة إلى جادة كلينتون. عليها أن تتصرَّف. شغَّلت جهاز الراديو، وجلست إلى طاولة المطبخ، وحاوَلت أن تفكِّر. مَن هنَّ المتنسّكات اللواتي تكلّمت عنهن نَلْ، وكيف يمكنها أن تجدهن؟ هل لديهن هاتف؟ بدا لها أنها تأخرت جداً للعودة إلى نَلْ؛ لمَن يمكنها أن تلجأ؟ الغريب أن تشارلي ڤوسّ خطر على بالها، رغم أنها بالكاد رأته منذ انتقالها إلى بيت روز. أخبرتها الغريزة أن تشارلي قد يكون ودّياً، لكن لم تكن لديها أي طريقة لمعرفة ذلك ولا يمكنها أن تخاطر.

بدأ البرنامج الإذاعي *دروع روي*، وهو برنامج كانت غالباً ما تستمع له مع العمّة برِيان. مجرد التفكير بعمّتها كان كافياً. بالطبع. كانت عفّة آنا وحسّها الجيد بديهيين لبرِيان بقدر ما كانا لأمها، لكن تحرّرها من الوهم لن يحطّمها. لا شيء يستطيع أن يحطّم العمّة برِيان.

إذا هاتفَت عمّتها وتركت لها رسالة صوتية، ستضطر إلى الانتظار، وشعَرت أنها غير قادرة على الانتظار. قرَّرت بدلاً من ذلك الذهاب إلى خليج شيبسهَد مباشرة، حتى من دون امتلاك أي عنوان، وتهاتف عمّتها من هناك. لطالما استخدمت برِيان صندوقاً بريدياً؛ وغيَّرت مسكنها في أغلب الأحيان، ولم يكن لديها مسكن أحياناً، فتترك كمية كبيرة من الفراء والريش، وبعض الأثاث من وقت لآخر، مع والدَي آنا. ألقت آنا نظرة سريعة على كومة البنود المتفرقة على مكتبها. لا بدّ أنها احتفَظت بأحد مناديل الكوكتيل التي

أحضَرتها عمّتها لغداء مأتم ليديا. *ديزي سواين، جادة إيمونز، خليج شيبسهَد*. ستبدأ من هناك.

عند استشارتها خريطة مواصلات "مصرف البحّارة" المُلصقة داخل خزانة المطبخ، رأت أن المترو يذهَب إلى خليج شيبسهَد مباشرة. غادرت آنا الشقة وسارت إلى المترو.

كانت قد ذهبت إلى خليج شيبسهَد مع والدها، خلال "مأمورياته"، وتتذكَّر خليطَ أحواض سُفن متعفِّنة وزوارق صيد سمك صغيرة. كان قد أخذها إلى كوخ يقف فيه عدة رجال وراء أوعيتهم على مناضد مثل حيوانات عند مجرى الطعام. وبينما كان والدها يُنجز عمله، أحضَر لها المالك وعاء حساء تشاودر. لا تزال تتذكَّر مذاقه: غني بالكريما والزبدة والسمك. انقبضت معدتها من الذكرى.

بدت جادة إيمونز أعرض مما توقّعت، وقد استُبدلت أحواض سُفنها الموحية بجو البيت بسلسلة أرصفة بحرية ضخمة مائلة بشكل متماثل إلى الخليج. سارت إلى كافيتيريا على الجهة الشمالية للجادة وأظهرت منديل الكوكتيل لأمين الصندوق، الذي بدا شعره الأسود مصبوغاً وشاربه مُلصقاً على وجهه. "هل تعرف هذا المكان؟"، سألت.

"بالتأكيد"، قال. "إلى الشرق من إيمونز مباشرة. يمكنك أن تستقلّي الحافلة على بُعد ثلاثين متراً من هنا".

راحت آنا تحدِّق من نافذة الحافلة بالجنود الذين يطوفون هائمين في ساعة متأخرة من بعد الظهر - كانت شارة النسر على قبعات الضباط ذهبية، وليست فضية، مما يعني أنهم من خفر السواحل وليسوا من البحرية. على خليج شيبسهَد، حلت المباني العسكرية محل المنازل السكنية - لا بدّ أن يكون هذا هو مركز التدريب البحري الذي تكلّمت عنه عمّتها. عندما نزلت آنا من الحافلة، شعرت كما لو أنها في ساندز ستريت: مقاصف مزدحمة، ستديو تصوير فوتوغرافي يقدِّم اثنتي عشرة صورة لقاء تسعة وستين سنتاً. *السيدة لاروس: بطاقات، ويجا، بلّور*. لمحت مقصف ديزي سواين على مقربة منها، ولافتته نسخة مطابقة لصورة الراعي العاشق الذي يحمل زجّاجة كوكتيل.

كان السواين مشابهاً جداً للمقصف البيضوي، ورائحة عفونة نشارة خشبه ضاعفتها رائحة المأكولات البحرية. كان مزدحماً برجال لا يرتدون أزياء رسمية خمَّنت أنهم بلا شكّ بحّارة على سُفن تجارية. بدا المكان أدنى من مستوى عمّتها، لكن ها هي برِيان، عند

المشرب تماماً! سارعت آنا نحوها، لكن تبيَّن لها أن عمّتها كانت خلف المشرب - كانت الساقية! جمدت آنا في أرضها مرتبكةً، متوقعةً ألا تعرفها برِيان، وأن يكون اللقاء عابراً. لكن عمّتها زفرَت صيحةً. "وأخيراً! يبدو أن عليَّ أن أطالع البروكلين إيغل إذا أردتُ رؤية إبنة أخي. أسبوعان من دون مكالمة هاتفية، علماً أنني تركتُ ثلاث رسائل لدى وايت، ولم يشاهدوك للحظة. هل أنت جائعة؟ حساء التشاودر لإبنة أخي يا ألبرت، ولا تتباخل بالزلفيات".

الاتهام المبتهِج ترك آنا تتلعثم بالاعتذارات. أجلسها ألبرت، الذي كانت تفاحة آدم في عنقه ناتئة أكثر من أنفه، عند المشرب وأحضَر لها وعاء حساء يعبق بالبخار. فتفتت حفنة من رقائق البسكويت الهشّ يطعم المحار وتناولت ملعقة. أغمَضت عينيها: سمك، كريما، زبدة. كان الحساء الذي تذكَّرته، فقط أفضل - أفضل لكونه في فمها في هذه اللحظة. أدفأ لها بطنها وانتقل الدفء إلى أطرافها. شعرت بإحساس غريب بينما كانت تأكل، كما لو أن سمكةً من الحساء سبحت عكس الجزء الداخلي لمعدتها. عندما حصَل ذلك للمرة الثانية، تساءلت إن كان حساء التشاودر يسبِّب لها عسر هضم. لكن لم يكن ذلك. لقد تحرَّك شيء حيّ داخلها.

انغلقت حنجرتها، ووضعت الملعقة من يدها. لأول مرة، انتابها رعبٌ من المصيبة التي تركت نفسها تقع فيها. بقيت تُلهي نفسها لحوالي شهرين - مقتنعةً بطريقة أو بأخرى أنه لا تزال هناك طريقة للتراجع. لكن الكارثة تواجهها بشكل سافر الآن. شعرت أنها مدمَّرة.

مازَحت برِيان البحّارة وملأت لهم أكوابهم مثل بائعة هوى. بالكاد سمعتهم آنا. كانت تراقب مدىً وعراً بينها وبين كل شيء أحبَّته: العمل تحت سطح الماء؛ مارل وباسكومب وبقية الغطّاسين؛ روز وعائلتها. الصورة الفوتوغرافية في بروكلين إيغل: فتاة طيبة؛ فتاة بريئة مبتسمة. لكن آنا لم تكن تلك الفتاة. كانت متطفِّلة سيئة تشقّ طريقها في الحياة عبر الخداع.

أنهت حساءها من دون تذوُّقه. لم يتحرَّك المخلوق مرة أخرى، لكنها شعَرت به مكوَّراً داخلها: ظلمةٌ بقيت تُخفيها منذ الطفولة، وأصبحت الآن في شكل جسدي متحرِّك. فقط والدها خمَّن خبثها وتدني أخلاقياتها؛ لوحده شعَرَ بما ستصبح عليه. استياؤه منها أبعده عنها. لطالما عرفت ذلك.

كانت عمّتها بجانبها، ويدها على كتفها. "وافَقت فرانسين على أن تبدأ نوبتها باكراً، لذا يمكننا الصعود إلى الطابق العلوي والدردشة قليلاً"، قالت برِيان. شَكَرت آنا فرانسين، التي كَمَن تعبيرها كلياً في تقويرة فستانها المنمَّش، وتبِعت برِيان إلى خارج ديزي سواين. عبرتا باباً جانبياً إلى سُلّم بدا درابزينه المنحوت من السنديان من بقايا أزمنة أفضل. صعدتا إلى رواق مكسو بألواح خشبية ويعبق برائحة البصل والبطاطا المسلوقة. غرابة ظروف عمّتها شتّتت لها ذهنها. ما هو محل إعراب ملك الكركند في كل هذا؟

بعد سلسلة ثانية من الدرجات، أخرجت برِيان مفتاحاً من فتحةٍ في صدرها وفتحت باباً. تبَعتها آنا إلى غرفة نافذتها الوحيدة تُدخِل ضوءاً غير مباشر. رأت أمامها أثاثاً تذكَّرته من طفولتها: كرسي منجَّد أحمر؛ شاشة صينية؛ شمّاعة بدت مصنوعة يدوياً. وبدت جدران الغرفة والسقف كما لو أنها تتقلّص حول الأثاث، مما يجعله يبدو ضخماً ومكتظاً جداً. أضاءت عمّتها المصابيح، كاشفةً مغسلة صغيرة، وفرن غاز عليه إبريق قهوة، ورف تجفيف مليء بأحزمة وحمّالات صدر.

"هل يعيش... ملك الكركند في مكان قريب؟"، سألت آنا.

"لقد رحل"، قالت عمّتها وهي تضع سيجارةً بين شفتيها وتُشعلها بجهاز شكله مثل مصباح علاء الدين. "نذل مثل كل الباقين".

"إذاً... ليس لديك أي صديق؟".

أخذت برِيان مجّة من سيجارتها، ثم وازنتها بعناية في منفضة فضية مستقيمة. "لديَّ عدة أصدقاء، لكنهم إناث"، قالت داخل سحابة دخان. "ما عدا مالك المقصف، السيد ليونتاكيس. رجل يوناني"، أضافت، كما لو أنها تعتذر.

رمت نفسها على الكرسي الأحمر وربّتت على الوسادة التي بجانبها. ارتعشت رِجلا آنا وهي تجلس. ضغَطت برِيان يدَي آنا الحارتين بين يديها البدينتين والناعمتين. *ميزتي السيئة الوحيدة*، هكذا كانت تقول عن يديها. *الحمد لله أنها ليست وجهي*. نظَرت آنا إلى عينَي عمّتها وأدركت أنها خمّنت.

"متى حصلت لك اللعنية لآخر مرة؟"، سألت.

"لا يمكنني أن أتذكّر".

"تقريبياً".

"حصل هذا في التاسع من فبراير".

صفَّرت بريان. "كنتُ أعرف أن عليَّ أن أزورك أكثر".

كان هذا ندمها الوحيد. عندما تكلَّمت مرة أخرى، كان ذلك لتطرح سلسلة من الأسئلة العملانية بالنبرة الموضوعية للطبيب. أجابت آنا بنبرة رتيبة. لا، لم تتفاجأ أو يتم استغلالها. لا أحد آخر يعرف عن حالتها. لم تهتم بذكر إسم الأب، كما لن تراه مرة أخرى. افترَضت أنها ستتخلّى عن الطفل لكنها لم تكن أكيدة كلياً.

"عليك اتخاذ هذا القرار الآن. اليوم"، قالت بريان. "فهذان الخياران يؤديان إلى اتجاهين معاكسين".

إذا كانت ستتخلّى عن الطفل، فالمسألة تقتصر على تقرير أين ستُنجبه. كانت بريان تعرف عدة أماكن، كلها مع المتنسّكات. "استعدّي لتلقي كميات كبيرة من الصياح"، قالت. "مع تقديمك الكثير من الاعتذارات الذليلة. اعترفي، توبي. اعترفي، توبي. سيجعلون رأسك يدور".

"كيف تعرفين هذا؟".

ساد صمتٌ قصيرٌ. "الجميع يعرفه"، قالت بريان.

وإذا أرادت الاحتفاظ بالطفل، ستحتاج إلى أن تتزوَّج فوراً. هذه الفكرة أضحكت آنا. "مَن يريد أن يتزوّجني يا عمّتي؟".

"ستتفاجئين"، قالت بريان. كان الحب غير المتبادَل هو الدافع الأكثر شيوعاً. "رجلٌ لن تكون لديه أي فرصة لولا مصيبتك قد يكون مستعداً ليربّي إبن رجل آخر من أجل الحصول عليك".

عندما طمأنت آنا عمّتها من عدم وجود هكذا مُغازِل، عرضت عليها بريان احتمالاً ثانياً يتضمن رجلاً "مختلفاً". "يمكن أن ينجح هذا بشكل جيد"، قالت. "ويمكن أن ينشأ نوعٌ من الحب مع مرور الوقت بين الزوج والزوجة".

"مختلفاً؟".

"مثليّ الجنس".

كانت آنا تعرف عن هكذا أمر، لكن سمعياً فقط. "كيف سأجد رجلاً لعيناً كهذا؟".

"إنهم حولك أكثر مما تظنين بكثير".

عبست آنا، وهزّت رأسها، لكن صورة تشارلي ڤوسّ تراءت لها فجأة. هل هذا ممكن؟ أم فقط اليأس هو الذي جعلها تفكّر فيه؟

"قد أعرف واحداً"، قالت. "لكن ماذا لو كنتُ مخطئة؟".

"هل يعجبك؟ هل تعجبينه؟".

"كثيراً".

"آه. لقد أصبتِ الهدف. على افتراض أن لديه وظيفة محترمة".

"لكن كيف سيحصل ذلك؟".

"التوقّعات، بالأحرى. لدى الجميع وظيفة الآن".

"لا أستطيع أن أطلب منه بكل بساطة".

"سترينه صباح الغد، بشكل عاجل. اطلبي نصيحته بشأن مأزقك واتركيه يعرض عليك الفكرة، إذا تأثّر كثيراً".

"ثم؟".

"تتزوّجان فوراً، بالسر. عادة، ستسافران لجعل الجدول الزمني ضبابياً، لكن مع هذه الحرب الغبية، سيكون عليك ترك تاريخ الزواج وتاريخ ولادة الطفل غامضاً وتصحيحهما لاحقاً. سيكون لطفلك - لأطفالك إذا أنجبتِ المزيد - أبٌ. هنا بيت القصيد: سيكونون شرعيين".

"هل يوجد أشخاص يعيشون بهذه الطريقة حقاً؟".

"أعرف عدة أزواج. في الضواحي عادة، لونغ آيلند أو نيوجيرسي. يذهب الرجل إلى المدينة، ويستأجر مسكناً صغيراً مؤقتاً، ويبقى هناك ليومين كل أسبوع. ينامان في غرفتَي نوم منفصلتين. الوضع أشبه بالعيش مع حبيب، ما عدا أنه يصدف أنه زوجك".

"يبدو هذا مُحبطاً"، قالت آنا.

"*مُحبطاً؟* انظري إلى نفسك الآن".

"أفضِّل أن أكون وحيدة على أن أعيش هكذا".

وَضَعت برِيان سيجارتها على المنضدة الفضية واستعدّت لتُمطرها بوابل من التوبيخ. "آه، ستكونين وحيدة بالتأكيد"، قالت. "'منبوذة' هي كلمة أفضل، وطفلك مدموغاً كولد غير شرعي. دعيني أخبرك شيئاً يا عزيزتي: العالم بابٌ مُغلقٌ للأم غير المتزوجة وطفلها غير الشرعي. إذا أنجبتِ هذا الطفل وفشلتِ في أن تتزوَّجي، ستعيشين حياة ظل، وكذلك الصغير المسكين. لن أعرف أبداً لماذا لم تأتي إليَّ عندما كنا قادرتين على حلّ هذا، لكنك ذكية جداً لكي تكوني غبية هكذا يا آنا. فكري بصديقك المثليّ الجنس - بصديقك الذي قد يكون مثليَّ الجنس. إذا كنت محظوظة كفاية لتحصلي على عرض زواج منه، فقد يكون ذلك أفضل فرصة لك للسعادة. إذا كنت تريدين الاحتفاظ بالطفل".

رأت آنا أن عليها التخلّي عن الطفل. ستضطر إلى الاختفاء، لكنها ستتمكن من استئناف حياتها الحالية بعد ذلك. قامت بجردة سريعة لما سينتظرها: غرفة مستأجَرة؛ وظيفة ستفقدها عندما تنتهي الحرب. أصدقاء سيتفرّقون. بكلمات أخرى، لا شيء. كانت حياتها حياة حرب؛ *كانت* الحرب حياتها. كانت هناك حياة أخرى قبل ذلك - عائلتها، الحيّ - لكن الجميع من ذلك الزمن ماتوا، أو غادروا، أو كبروا. وآخر آثاره الموت المظلم والعجيب لوالدها.

"أحتاج إلى السير"، قالت آنا وهي تقف فجأة. "أحتاج إلى التفكير. أحتاج إلى أن أبقى لوحدي".

"آه، لا"، قالت برِيان، وهي تنهض عن كرسيها مع تأوه. "لقد بقيتِ لوحدك لفترة طويلة، هذا واضح جداً. ليس علينا أن نقول أي كلمة، لكنني لن أتركك إلى أن نتفق على خطة واضحة".

سارتا شرقاً على جادة إيمونز. كانت الشمس قد غربت، مُغرقةً السماء بلون زهري. شمَّت آنا رائحة الخليج، وأرصفته البحرية الزيتية. وكانت هناك أسراب من طيور النورس تثب عند الشَطّ مثل أرانب بيضاء.

"بابا حيّ"، قالت آنا، قاطعةً صمتاً طويلاً.

حدَّقت بها العمّة. "كنتِ تظنّين العكس؟".

"تلقيتُ رسالةً. كان يُبحر مع الأسطول التجاري". وعندما فشَلت برِيان في إبداء دهشتها من هذه المسألة غير المحتملة، صاحت بها آنا. "كنتِ تعرفين بهذا؟".

"كان لديَّ شكّ". ثم قالت مستبقةً انفجار آنا، "كيف برأيك كان لديَّ المال لأساعدك أنت وأمك؟ من العمل في ذلك المقهى الوضيع؟".

"لكن... ملك الكركند".

"لا وجود لملك الكركند. آه، بالله عليك، لا تنذهلي كثيراً - كانت تلك القصة زائفة مثل ورقة الدولارات الثلاثة. عجوز مثلي مع حبيب ثري؟ أشعر بالإطراء أنك صدَّقت ذلك".

شعرت آنا بغضب عارم. توقَفت عن السير وزعَقت بعمّتها، مما جعل عابري الجادة يستديرون ويحدّقون بهما. "لم تُخبريه أبداً عن ليديا! يظن أنها لا تزال حيّة!".

"لم يكن معي عنوان أبداً"، قالت عمّتها بلطف. "ولا حتى صندوق بريدي. كان يرسل لي حوالة بريدية مرتين كل سنة، وأخبرني أن أصرف بعضاً منها على نفسي، وأن أعطي الباقي لأغنِس".

"أتمنى لو كان ميتاً"، صرَخت آنا. "كنت أحبّه أكثر هكذا".

"لو كان التمنّي يستطيع قتل الرجال، لما بقي رجل واحد على قيد الحياة".

بنفس سرعة تراكمه الفجائي فيها، تقلَّص غضب آنا إلى حالة قرف. "هل تكرهينه أنت أيضاً؟"، سألتها عندما استأنفتا السير من جديد.

تنهَّدت برِيان. "إنه أخي الوحيد"، قالت. "مَن يعرف، قد تكون الحرب قد أصلحته بالقوة. معروف أن الحروب تفعل ذلك".

"قلتِ إن الحرب نكتة. فتيان ينكزون بعضهم البعض بعُصيّ".

"الرجال الذين *يصنعون* الحروب، نعم. لكن الذين يخوضونها، أولئك الأولاد الجميلون... إنهم أبرياء".

"بابا ليس جندياً يا عمّتي - إنه مع الأسطول التجاري!".

"أليسوا جنوداً أيضاً؟"، ردَّت برِيان معارضةً بقوة. "إنهم يعرّضون أنفسم لكل أصناف المخاطر من دون أمل بنيلهم أي مَجد: لا ميداليات، لا طلقات تحيّة. إنهم في

النهاية مجرد بحّارة تجاريين، بالكاد أكثر من متشرِّدين، من وجهة نظر العالم. برأيي أنهم الأبطال الحقيقيون".

لم يكن هناك ريب في فهم الارتعاش في صوت عمّتها. يبدو أن البطولة هي الشيء الوحيد الذي لا تجده برِيان مضحكاً.

"بابا بطل؟ هل هذا ما تقولينه؟".

لم تقل برِيان شيئاً. فكَّرت آنا برسالة والدها: الطُربيد، الطوف، المستشفى. ستُخبر عمّتها، لكن ليس الآن. كان ذهنها قد بدأ يعمل أخيراً، كما لو أن الغضب حفرَ مساراً في أفكارها.

وَصَلتا إلى جزء من الواجهة المائية مسدود بسياج عسكري، وعادتا أدراجهما. لم تقل أي واحدة منهما كلمة طوال طريق العودة. وعندما صعدتا السلالم إلى غرفة برِيان وعلّقتا سترتيهما، سألت آنا، "كم بقي من المال الذي أرسله بابا؟".

"مئتا دولار تقريباً. لماذا؟".

"لديَّ خطة".

صبَّت عمّتها كوب شراب وقدَّمته إليها، لكنها رفضته - حتى الآن، لم تتمكن من إجبار نفسها على أن تشرب أمام عمّتها. عادتا إلى الكرسي، وأشعلت برِيان سيجارة وأدارت الشراب الاسكتلندي في الكوب بإصبعها.

"سأستقلّ قطاراً إلى كاليفورنيا"، قالت آنا. "على الطريق، سأضع خاتم زواج وأرتدي فستاناً أسود. سأصل كأرملة حرب وأسكن قرب حوض بناء سُفن جزيرة ماريه وأعمل هناك كغطّاسة. أظن أنه يمكنني الحصول على انتقال من ساحة بروكلين".

نخَرت برِيان. "تُدرِكين أن ثمن تذكرة عربة نوم في القطار إلى كاليفورنيا هو مئة وخمسون دولاراً".

"لديَّ خمسمئة واثنان وأربعون دولاراً في المصرف وثلاثمئة وثمانية وعشرون دولاراً كسندات حربية. وسأسافر في عربة الركاب".

"ليس في حالتك!".

"عمّتي، لقد كنتَ ألحَم تحت تسعة أمتار من الماء!".

"ستكونين فقيرة"، قالت برِيان. "فقيرة مُعدَمة".

"يمكنني أن أبيع سنداتي الحربية".

"سينتهي بك المطاف في الشوارع".

"لا تكوني سخيفة".

"على مَن يمكنك أن تعتمدي؟ مَن تعرفين في كاليفورنيا؟".

ضحِكت آنا بقوة. "حسناً، إذا شعرتُ باليأس، أظن أنه يمكنني مراسلة بابا"، قالت. "أفهم أنه بطل في هذه الأيام".

بعد تناول العشاء في مطعم لاندي المشهور، ثم شرحات من فطيرة العنبيّة، غيَّرت آنا ملابسها إلى فِضال ساتان قديم لعمّتها، ملطَّخ تحت ذراعيه. وكَسَت برِيان نفسها بمعطف منزلي وقور من الحرير الصناعي، وزرَّرته إلى العنق. استلقيتا على سريرها الرُباعي الأعمدة، ونسمات ليلة السبت تداعبهما. بقيت آنا مستيقظة، تحدِّق بالسقف وقاعدة ورود الجصّ المنحوتة عليه. كانت متحمّسة لخطتها - مرتاحةً أخيراً لامتلاكها خطةً. افترَضت أن عمّتها غفت، لذا أجفلها صوتها في الظلمة.

"بشأن الوالد...".

"لا يا عمّتي".

"سؤال واحد".

"لا".

"لستِ مضطرة أن تجيبيني. سأعرف من السؤال فقط".

"لن تعرفي أي شيء".

"هل كان جندياً؟".

لم تقل آنا شيئاً.

"تلك الأزياء الرسمية"، قالت عمّتها، ضاحكةً ضحكة خافتة. "مَن يمكنها أن تقاومها؟".

الفصل 30

"أخشى أن رسالةً لن تنفعك بشيء"، قال الملازم أكسل. "يجب أن تنفعك، لكنها لن تفعل ذلك".

"يُفترَض بها أن تكون طريقة للانتقال"، شرَحت آنا. "من ساحة بروكلين البحرية إلى جزيرة ماريه".

"الانتقال كلام فارغ، مع اعتذاري عن تهذيبي. ستستغرق المسألة دهراً كاملاً، مثل كل شيء في هذا المكان الأخرق. ما سأفعله-"، ثم سكتَ وراح يحدِّق فيها فوق مكتبه. "هو إجراء مكاملة هاتفية بعيدة مع الرجل الذي يتحكّم بمجريات الأمور".

"شكراً".

"من الأرجح أنني أعرفه من قبل، إذا كان قد قام بأي غطس حقيقي". ثم رسم تعبير الخبر السيء على وجهه، لكن من دون المتعة التي تلألأ عند حافاته عادة. "اجلسي يا كيريغان".

جلَست آنا، متوترةً. الآن وبعد أن أصبحت كل حركة تقوم بها تهدف إلى نقلها إلى كاليفورنيا بسُمعة سليمة، طارَدها خوف انكشاف أمرها.

"هناك حقيقة مرّة كنتِ محمية منها، عند عملك لديَّ. لكن لا يمكنني حمايتك في كاليفورنيا". أخذ نَفَساً عميقاً وانحنى نحوها بثقة. "العديد من الفتيان القدامى – رجعيون في تفكيرهم. لن يريدوا فتاة في برنامج غطسهم. وقد يهزأون من الفكرة بحدّ ذاتها".

نظر إليها برصانة، فازداد ارتباكها. هل يُعقَل أن الملازم يمزح؟ يعتمد سخرية ذاتية غير معهودة؟ أم هل يُعقَل أنه نسي بدايتهما معاً؟

"بالطبع أنكِ مختلفة عن معظم الفتيات"، قال. "كلانا يعرف هذا".

"من الصعب معرفة كيف هي معظم الفتيات"، همسَت آنا.

"القصد هو أنني سأحتاج إلى إجراء الدردشة من رجل إلى رجل: *وظِّف هذه الفتاة. ستعمل بجهد رجلَين*. وإذا أرسلتُك إلى هناك مع مجرد رسالة، سيفترض أنني لم أكن متحمّساً جداً لكتابتها. هذه حقيقة بشعة آسف أن أكون الشخص الذي يُخبرك بها يا كيريغان، لكن هكذا تعمل عقولهم".

استمَعت إليه آنا بدهشة. "فهمتُ".

"من رجل إلى رجل: *هذه ليست شقراء مشوَّشة الذهن تحبّ أن تصادق الشباب*، لأن هذا ما سيعتقدونه. أرى أنك مصدومة، لكن العالم يمكن أن يكون مكاناً بشعاً. *إنها أفضل غطّاس لعين في فريقي، لذا امسح تلك الابتسامة المتكلّفة عن وجهك وضع إسمها على جدول الرواتب، بالله عليك*". توهَّج خدّاه وهو يتخيَّل افتراضات مُحاوِره الوهمية. "لدينا حرب لننتصر فيها، اللعنة! نحتاج إلى أفضل الرجال هناك – آه، الأشخاص. هناك زنجي يعمل لديَّ، سيد مارل. ويصدف أنه أفضل عامل تلحيم عندي. هل أمانع أنه زنجي؟ تباً، سأقبل زرافةً إذا أرسَلوا لي واحدة يمكنها أن تلحِّم تحت الماء مثله".

حِدَّته شوَّشت ذاكرتها. هل بالَغت في تقييم قسوة الملازم في بداياتهما معاً؟ هل كانت مفرطة الحساسية؟ لم تعد قادرة على أن تتذكّر. "هل تعتقد أنك ستُقنِعهم؟"، سألت.

"أظن أن لديَّ فكرة عن لغتهم، عن طريقة عمل عقولهم. وهذا يكفي للتواصل معهم".

"شكراً سيدي".

بقي صامتاً لبرهة، يراقب يديه المطويتين على المكتب. "هذا أول شيء"، استأنَف كلامه بهدوء أكثر. "والثاني هو: المحيط الهادئ يعجّ بأسماك القرش. وقد قيل لي إنه يمكنك مشاهدة القرش الأبيض الكبير يلتهم فقمةً في خليج فريسكو كأنها قطعة حلوى. هل لي أن أسألك ماذا تنوين أن تفعلي بشأن ذلك؟".

مرَّ اثنا عشر يوماً فقط بين إعلان آنا أن عليها أن تنضم إلى والدتها في كاليفورنيا وبين رحيلها. خلال تلك الفترة – أو بالأحرى، بعد عملها وخلال يوم عطلتها الوحيد في

تلك الفترة - أخطرَت مالك شقتها، ووضَّبت ثياب أمها وبياضاتها وأرسلتها بالبريد، ووضعت الأثاث في مخزنٍ، وأغلقت حسابها في مصرف ويليامسبرغ، وأرسلت برقية برصيدها إلى مصرف بنك أوف أميركا في فاليهو، كاليفورنيا. زارت قبر ليديا، ووعدتها أن ترسل في طلب أختها عندما تستقرّ. عرضَ عليها باسكومب ومارل وروبي وروز (التي حزنت عائلتها على ذهاب آنا) المساعدة، لكنها لم تكن مستعدة أن تخاطر بالقبول. احتاجت إلى عذر جذري أكثر لتشرح رحيلها لأمها وجيرانها: بعد التودّد لمدة أسبوعين، تزوّجت فوراً، وهي تلحق زوجها الجديد الآن إلى حوض بناء السُفن البحري في جزيرة ماريه. اشترت خاتم زواج من متجر رهون وراحت ترتديه كلما دخلت حيّها القديم. تطلَّب التلفيق جهداً كبيراً منها أنهكها أكثر من كل عمليات التوضيب والشحن. حتى تدوين كل ذلك في رسائل إلى ستيلا وليليان وأمها وفتيان الحي الغائبين في الخدمة استنزَفها. بلَّلت قرطاسيتها برائحة عطر الورد وملأتها بعلامات تعجّب. كان الكذب على أمها أصعب شيء، لكن ذلك كان مؤقتاً فقط - وسيلة لتثبيت الرواية لدى أفراد عائلتها في مينيسوتا. ستُخبرها آنا بالحقيقة عندما تراها.

سمَّت زوجها تشارلي. *الملازم تشارلي سميث!!!!!*

لم يتطلّب دعم كذبتين غير متوافقتين يقظةً متناهيةً منها في ارتداء خاتم الزواج وخلعه فحسب، بل فرضَ عليها اعتماد فصل تام بين حياتها القديمة - أمها والحيّ - وحياتها الراهنة في الساحة البحرية. وهذا يعني عدم توديعها تشارلي ڤوسّ، الذي كانت تشكّ أنه يمكنها أن تكذب عليه، وجهاً لوجه. ستكتب له رسالة من كاليفورنيا.

أثناء تناول جولة أخيرة من شراب الشعير في المقصف البيضوي، أعطت أصدقاءها عنوان فندق تشارلز في فاليهو. ووعدتهم أن تقبّل شَطّ المحيط الهادئ لباسكومب وترسل سعفة نخيل إلى روبي بالبريد. أما لمارل، الذي كان يأمل أن ينتقل إلى كاليفورنيا بعد انتهاء الحرب، فقد وعدته أن تعرف ما هي أكثر الأماكن وداً للزنوج. ثم عانَقت روبي، وصافحت ستة عشر غطّاساً، وسارت إلى ترامواي جادة فلاشينغ لتتناول عشاءً أخيراً مع روز وعائلتها.

وَصَلت برِيان في سيارة أجرة عند ظهر اليوم التالي. كانت روز ووالدها قد غادرا إلى وظيفتيهما، لذا ودّعتها والدة روز، مُبدية دهشتها من كمية الأمتعة في سيارة الأجرة:

صندوقين، وحقيبة سفر، وحقيبة للمبيت، وحقيبة لمستحضرات التجميل، وحقيبة كبيرة – كلها لبرِيان. فقد تطوَّر دور عمّتها في عملية الانتقال من وعدها لها أن تودّعها في المحطة، إلى مرافقتها حتى شيكاغو، إلى الذهاب معها إلى كاليفورنيا في طريقها لزيارة أصدقائها في هوليود، إلى البقاء في فاليهو لمدة تكفي لتساعدها في الاستقرار، إلى البقاء معها خلال الولادة لأن لا أحد يستطيع أن يترك فتاةً في هكذا ظرف، إلى إلهامٍ أيقَظ برِيان من نوم عميق (حسب روايتها) على سريرها الرُباعي الأعمدة: فقد سئمت من نيويورك تماماً، وتحنّ إلى طقس كاليفورنيا، وتأخر كثيراً قرارها بالانتقال إلى هناك بشكل دائم. وضَّبت أمتعتها إلى جانب أمتعة آنا.

حملت والدة روز مَلْفين الصغير، وراحا يلوّحان لها بينما انطلَقت سيارة الأجرة. رأت آنا أنها تبكي. اهتزّت الأشجار الفضيّة على جادة كلينتون من نسيم عابق برائحة الفحم الممزوج بالشوكولا. عندما توارتا عن الأنظار، أمالت آنا رأسها إلى الوراء على مقعد سيارة الأجرة وأغمضت عينيها. كانت هناك طاقة غير طبيعية ملأتها خلال كل خطواتها العديدة التي أدّت إلى هذا الرحيل. الآن وقد انتهت تلك الخطوات، انهارت إثارتها إلى فراغ. لم ترغب أبداً أن تغادر، ولم تكن ترغب بذلك الآن.

راحت برِيان تهزّ مروحة صينية مرسومة باليد، مُطلقةً رائحة بودرة بالية من داخل فستانها. شعَرت آنا ببعض الاشمئزاز. فهي لم ترغب أن تغادر – خاصة ليس برفقة هذه العجوز المتعفِّنة. فتحت نافذتها وتركت النسيم يلفح وجهها. انعطف سائق سيارة الأجرة يساراً على جادة فلاشينغ وقاد غرباً إلى جانب الساحة البحرية – مروراً بالمبنى 77، الذي نظرت آنا من نوافذه العالية إلى السُفن القابعة في حوض السُفن الجاف؛ ومروراً ببوابة كمبرلاند ومساكن الضباط مع ملاعب كرة المضرب خلفها. على تلة فوق المداخن، لمحت منزل الآمر ذا الجملون الأصفر.

انعطف السائق يميناً على الشارع البحري، ومرّوا بجانب بوابة ساندز ستريت والمبنى 4، حيث عملت نَلْ. شعَرت آنا بألم جسدي في صدرها وحنجرتها عندما اقتربوا من طرف أقصى الشمال الغربي للساحة. كان المبنى 569 على الجهة الأخرى لذلك الجدار بالذات! يوم عادي، طقس مثالي للغطس! شعَرت كما لو أنها، هي أيضاً، كانت على الجهة الأخرى للجدار، تجرّ المعدات إلى البارجة مع أصدقائها، وفي الوقت نفسه، تقود

بعيداً عنهم إلى الأبد. كان الانفصال عنيفاً - طرداً ممزّقاً. راحت آنا تحدّق بالمعالم كما لو أنها تتشبَّث بمنحدر تلة لتوقف سقوطها: مبنى وولورث! الأرصفة البحرية للميناء البحري القديم! أسلاك جسر بروكلين التي تشبه القيثارة!

أصبحت الساحة البحرية مرئية مرة أخرى فوق النهر الشرقي، وراح الشكل الداكن للميزوري يلوح بين ممرات التصنيع. كانت البارجة سابقة لموعدها؛ والأشخاص يتسابقون من قبل على المقاعد التي سيجلسون عليها لمشاهدة حدث إقلاعها. كانت معظم الأماكن المرغوبة تقع داخل ممرات التصنيع، وقد وعدها تشارلي فوسّ بأحدها. تساءلت إن كانت ستعود بطريقة أو بأخرى إلى بروكلين لتشاهد إقلاع الميزوري؛ فأن يفوتها ذلك سيكون أشبه بعدم التعرّف على الساحة البحرية أبداً.

مثلما تبيَّن لها لاحقاً، فقد شاهدت آنا عملية الإقلاع من داخل المبنى - في فيلم إخباري في سينما الإمبراطورة في فاليهو، كاليفورنيا. كان ذلك في أواخر أبريل 1944، بعد ثلاثة أشهر من حصول الإقلاع. شاهدت آنا الفيلم مرات عديدة لدرجة أن قاطع التذاكر بدأ يسمح لها بالدخول مجاناً؛ لم تبقَ أبداً لتشاهد الفيلم السينمائي الذي يليه. المؤخرة الشاهقة للبارجة قزّمت زاوية الكاميرا، وجعلت البحّارة الذين يلوِّحون عن سطحها الخلفي يبدون صغاراً جداً. جرى الحدث برعاية مارغريت ترومان، إبنة سيناتور ميزوري ذات الأعوام التسعة عشرة. كسرت زجاجة شراب ذي فقاقيع على بدنها وبدا الصوت كأنه طلقة نارية، لكن آنا كانت قد علمت من مارل، الذي برهن أنه مراسل موثوق ودقيق بالتفاصيل، أن الآنسة ترومان احتاجت إلى ثلاث محاولات لكسر تلك الزجاجة. *كلنا قلنا، "كانت كيريغان لتفعل ذلك بشكل أفضل"* ، كتَب.

حالما انكسرت الزجاجة، بدأ الرجال يطرقون الجذوع الخشبية التي كانت تثبّت الميزوري في مكانها. وفي غضون ثوانٍ، بدأت "أكبر وأقوى بارجة صُنعت في التاريخ" تنزلق بسهولة حريرية بفضل حقيقة أن أي زعيق رافقَ نزولها قد استُبدل في الفيلم الإخباري بعزف فرقة موسيقية وبالصوت المؤثر للمذيع: "الميزوري رمز القوة المتعاظمة لبحرية الولايات المتحدة". أمسك الرجال قبعاتهم وراحوا يركضون خلفها، لكنها كانت قد أصبحت بعيدة عن متناولهم – وحتى عندما انزلقت مؤخرتها على المسار، كانت مقدمتها قد أحدثت طرطشةً من قبل عند دخولها النهر الشرقي، الذي انقسم حولها بسهولة مثل

وسادة تنضغط عند استلقاء قطة عليها. ثم بدأت تعوم بعيداً، ونصفها السفلي مغموراً بالمياه، كما لو أنها لم تكن على اليابسة أبداً من قبل. كان الأمر أشبه بمشاهدة مخلوق يُولَد، ويكبُر، ويتهادى على رجليه، كل ذلك في أقل من دقيقة واحدة.

انعطفت سيارة الأجرة غرباً في الشارع الثاني والأربعين، نحو محطة غراند سنترال، وراحت أشعة الشمس تتلعثم من خلال منخل الجادة الثالثة بينما مرّت سيارتهم تحته. ثم حجبت ناطحات السحاب نور الشمس، وبدا ظلها الحاد مثل التجهُّم المفاجئ للعاصفة. وكان باعة الصحف ينادون على العناوين:

"إسقاط الطائرات الأميركية لسبع وسبعين طائرة يابانية في غوادالكانال!".

"أكبر معركة جوية في المحيط الهادئ في التاريخ! فُقِدَت ست طائرات أميركية فقط!".

"دعيني أرى خاتمك"، قالت برِيان.

كانت آنا قد ذهبت إلى متجر رهون على جادة ويلوباي، بالقرب من المحكمة، عازمةً على شراء أرخص خاتم يمكنها إيجاده. لكنها تلكّأت، وجرَّبت خاتماً ذهبياً عيار أربعة عشر قيراطاً عليه مجموعة ماسات صغيرة جداً، وخاتماً آخر نحاسياً مزركش بنقش أوراق شجر. كلما طالت مدة نظرها إلى الخواتم، كلما بدا لها القرار حرِجاً أكثر. فهذا كان خاتم زواجها، في النهاية؛ وستضطر إلى ارتدائه كل يوم. لماذا ستختار شكلاً بيضوياً نحاسياً منبعِجاً سيلطِّخ إصبعها بالأخضر؟ بينما كانت آنا تتأمل الخواتم، تخيّلت دكستر ستايلز واقفاً بجانبها يختار معها. تخيَّلته يصرف النظر عن الأحجار الصغيرة: *يجب أن تكون الماسة كبيرة كفاية لكي تُرى. لا يمكن تمييز النحاس عن الذهب، إذا أبقيته لامعاً*. فاختارت الزركشة النحاسية.

"ليس سيئاً"، قالت برِيان وهي تمرِّر إصبعها على نقش أوراق الشجر، الذي لمَّعته آنا في ذلك الصباح بالذات. ثم قالت مع غمزة، "لجنديك ذوق جيد".

رشَّت برِيان بعض العطر على تقاسيم صدرها أثناء اقترابهما من محطة غراند سنترال. وسرعان ما كانت تغازل الشرطي العسكري الزنجي اليافع. نظرَ إلى عينَي آنا وتشارَكا ابتسامة عن عمّتها، التي أوشكت على بلوغ الخمسين ولا تزال الرائحة الكريهة لشراب "سيدة البحيرة" تفوح من أنفاسها.

كانت فورة الأزياء الرسمية في الباحة المليئة بالدخان عارمة، والقطارات شديدة الازدحام. وقد اضطرت برِيان إلى استخدام "كل حيلي" للحصول على تذكرتَي عربة نوم من الدرجة السياحية من شيكاغو إلى سان فرانسيسكو في مهلة قصيرة؛ شكَّت آنا أن هذا العمل البطولي استلزم رشوةً وليس غزلاً. وأثناء تنقّلها بين أحزمة الضوء الضبابي الذي يدخل من النوافذ العليا، شعَرت ببدء زوال آثار فشلها الذريع. كانت هناك فتيات في كل مكان: طالبات، مجنّدات، أمهات يجررن أولاداً بأيديهن. لم يكن هناك شيء غير اعتيادي في رحيل آنا؛ كانت جزءاً صغيراً جداً من هجرة جماعية.

جلستا على مقعدين متقابلين بجانب نافذة على متن البايسمايكر إلى شيكاغو. وانحشر ستة أشخاص آخرين إلى جانبهما. مرتاحةً من الحاجة إلى إخفاء وضعها، استرخت آنا تاركةً بطنها ينتأ من تحت كنزتها. لكن يبدو أنه كان هناك ما يكفي لقلب الموازين، لأنها شعَرَت بالركاب حولها يقيّمون ظروفها إلى أن رأوا خاتم زواجها. كان إرضاء حشريتهم أشبه بتنهيدة ارتياح. كان لذلك الخاتم تأثير عجيب. فقد عرضوا عليها مروحة، وصحيفة، وكوب ماء. مقدار طاقة كبيرة في طوق نحيل واحد.

لكن المحادثة كانت أصعب. فكل شخص يعرف شخصاً في البحرية، وردود آنا الغامضة عن الملازم تشارلي سميث لم تستجلب سوى مزيد من الأسئلة. حلَّت هذه المشكلة عبر قراءة: التايمز أولاً، ثم جورنال أميريكان. ثم رواية *مأساة ز* لإيليري كوين.

سألت عمّتها بهدوء، "هل أحضَرت الفستان؟".

"عدة"، قالت برِيان. "كل واحد أجمل من الآخر. لكن لا حاجة إلى هذا بعد". ثم همَست في أذن آنا، "استمتعي بأسبوع عسل قبل الدخول في مرحلة الحداد".

تضاءل حجم أسطول السُفن الحربية في نهر هادسن مع تقدّم البايسمايكر شمالاً. كان هذا نفس الدرب الذي سلكته آنا في رحلاتها إلى مينيابوليس مع أمها وليديا، لكنها لم تتذكر أن تلك القطارات سارت بهذه السرعة العالية. زأر البايسمايكر فوق المعابر، وراح الغسيل يرفرف في أعقابه مثل طيور زرزور خائفة. كان الجنود يطوفون في الأروقة، ويلعبون الورق وينقفون أعقاب سجائرهم من النوافذ. أثارت سرعة القطار شعوراً بالتوقع لدى آنا. فراحت تحدِّق خارج نافذتها: بلدة تلو الأخرى تتمدَّد أمامها، ثم تُطوى في غياهب النسيان. ومرَّ قطار يسير في الاتجاه المعاكس مُحدثاً اهتزازاً مُجفلاً.

استيقَظت من قيلولة لتجد أنهم وصلوا سكنيكتادي، وضوء المساء الباكر يلاطف مَصانع القرميد الواقعة على مسارهم. لو كانت لا تزال في بروكلين، لكانت تغادر الساحة البحرية مع روز الآن، وربما تشربان بعض شراب الشعير مع الغطّاسين الآخرين. كان الإحساس بأنها انتُزعَت من حياتها قد بدأ يتحوّل إلى وجع من قبل. المسافة لوحدها فعلت هذا. فرسالة البريد المرسلة من سكنيكتادي ستستغرق يوماً للوصول إلى نيويورك؛ والمهاتفة ستتطلب عدة عملات معدنية ومقاطعات من العاملة. لقد ابتعدت كثيراً.

ذهبت آنا وبرِيان إلى عربة العشاء بينما كانت الشمس تغرب في سيراكيوز. راجَعتا خطتهما همساً أثناء تناولهما كستلاتة الدجاج: الملازم أكسل أمَّن وظيفة آنا في حوض بناء السُفن البحري في جزيرة ماريه، حيث ستغطس إلى أن يصبح من المستحيل إخفاء حملها. ثم ستأخذ إجازة، وتُنجب الطفل، وتعود أرملةً، بعدما تجد شخصاً ليعتني به. "آمل أن تأتي ماما"، قالت.

بدت برِيان مستاءة. "هل هناك خطأ ما في الصُحبة الحالية؟".

ضحِكت آنا. "أنت تكرهين الأولاد يا عمّتي".

"ليس كل الأولاد".

"تسمّينهم أشقياء".

"معروف عني أنني مدهشة في بعض الاستثناءات".

أمالت آنا رأسها. "هل ستريدين الاعتناء بالطفل؟".

أصبح هذا اقتراحاً فجأةً. راقَبت آنا عمّتها تفكّر في المسألة، وخطوط وجهها تستقرّ في نظرة تأمل نادرة. "قد يكون الشيء الوحيد الباقي الذي لم أفعله"، قالت.

عند الوصول إلى روتشستر، كان كل ما بقي من اليوم هو مجرد بريق برتقالي في الأفق الغربي. وأطلقت الحقول المزروعة رائحة حادة مميّزة عبر النوافذ المفتوحة. وعلى اليمين بحيرة أونتاريو، الأرجوانية السوداء. تخيَّلت آنا روز ومَلْفين الصغير متكوِّرَين في سريرها، وروز تمضغ جوزاً أثناء إنهائها فصلاً أخيراً من روايات جاك آشر البوليسية. وباسكومب أوصلَ روبي منزلها الآن، وضجيج الميناء يملأ الليل أثناء ركوبه الترامواي عائداً إلى نُزُله. تخيَّلت آنا كل هذا بإذعان حزين؛ فقد هجرت كل تلك الحياة بسرعة كبيرة. كان خبوّها الكبير هو

الثمن الذي دفعته للاندفاع نحو الوعد الغامض الصادر عن ذلك البريق البرتقالي. شعرت بتوق كبير نحوه، بحنين للمستقبل الذي يتضمنه. بينما تابع القطار طريقه غرباً، استوت آنا على مقعدها كالصاعقة. تذكّرت والدها. وفهِمت أخيراً: *هكذا فعلها*.

الفصل 31

جلَس إيدي على مقعد في المنتزه مقابل سينما الإمبراطورة وراح يحدِّق في أبوابه، منتظراً خروج آنا. كانت تشاهد فيلماً إخبارياً عن اليو أس أس ميزوري، البارجة التي بُنيَت في ساحة بروكلين البحرية، حيث عملت لسنة تقريباً قبل زواجها.

أراد أن يدخل معها ليشاهد الفيلم أيضاً، لكنها صدَّته. "كنتَ غائباً"، قالت. "لن يعني لك هذا أي شيء".

"هل يمكنني أن أنتظرك؟".

"يمكنك أن تفعل ما يحلو لك".

شعَر إيدي بتشجيع ضمني. حتى الآن، شهدت هذه الزيارة تحسّناً بالمقارنة مع الزيارة الأولى، في أكتوبر الفائت، عندما استقلّ القطار الكهربائي من سان فرانسيسكو ورنَّ جرس الشقة الكئيبة بعد حلول الظلام. كان قادراً على سماع بكاء الطفل، والصوت أشعره بالإحراج فوراً. كان على وشك التسلُّل بعيداً عندما فُتح الباب ورآها أمامه – آنا، راشدة – تحدِّق فيه. "بابا"، قالت بلطف، واعتقَد إيدي أنه رأى ذهولاً على وجهها، ممزوجاً بدهشة – لكنها ربما كانت دهشةً فقط. تفاجأ بالمرأة الشاحبة الداكنة العينين الواقفة أمامه، وشعرها الطويل متدلٍ بطريقة عشوائية فوق رداء حمّام.

صفَعت وجهه بقوة كبيرة لدرجة أنه رأى نجوماً أمام عينيه. "لا تعُد إلى هنا أبداً"، قالت، وأغلقت الباب بهدوء – لكي لا تخيف الطفل؛ هكذا فهِم لاحقاً.

كانت زيارته الثانية في يناير، بعد رحلة لثلاثة أشهر إلى جُزُر جيلبرت بصفة ضابط بحري ثانٍ – رحلته الأولى منذ إليزابيث سيمان، بسبب مشاكل دائمة في المعدة. جاء وقتها بينما كانت آنا في وظيفتها، لكي يرى برِيان ويتعرَّف على "السيد الصغير" – مثلما

كانت أخته مولَعة أن تسمّي الرضيع القوي البنية والشرس العينين الذي راح يحدِّق في إيدي بنظرات موبِّخة من داخل سلة.

"كيف يبدو والده؟"، سأل محدِّقاً في الطفل. "هل لديك صورة فوتوغرافية؟".

"لا"، قالت برِيان بحدّة. "كل ذلك ضاع في حقيبة السفر التي فُقدَت على القطار".

كان إيدي محظوظاً أن أغنِس لم تكن الشخص الذي يعتني بالطفل. فقد غادرت أغنِس مزرعة العائلة في يونيو الفائت، وفقاً لبرِيان، مروِّعةً أقاربها الصارمين بنفس المقدار الذي أصابهم عندما سافرت إلى نيويورك في سنّ السابعة عشرة. كانت قد أوقفت سيارة مارّة بيدها إلى البلدة وتطوَّعت في الهلال الأحمر. وهي الآن ما وراء البحار، تعمل كمعاونة ممرضة. كانت رسائلها تخضع لرقابة شديدة لكي تعرف برِيان أين هي، لكن أغنِس ذكرت غاباتٍ. فخمَّنوا أنها أوروبا.

راقَب إيدي الطفل يركل مثل جرو مضطرب. "العفريت الصغير المسكين"، قال.

"ليس مسكيناً أبداً"، ردّت أخته بنبرة حاسمة. "لا يوجد أبداً أي سيد صغير مدلَّل ومعشوق مثله".

بدت مسترخية بشكل غريب، وهي تُطعم الطفل وتجشّئه كما لو أنه طفلها، دون وجود أي أثر لشرابٍ في المنزل. بدا له أن تحوُّل أخته من مُسنّة سليطة إلى مربّية شديدة العناية بالتفاصيل جرى بشكل فوري تقريباً، مثل ضغط زر ضوءٍ.

"أين كنت تُخفين ميولك الأمومية طوال تلك السنوات؟"، سأل.

"لم أكن أخفيها، كنت أهدرها"، قالت. "على جرذان وحمقى صبيانيين أكثر من هذا الطفل!". رفعت الفتى على ذراعيها وأمطرت وجهه بقبلات إلى أن قهقه. "هيا يا أخي العزيز"، قالت. "أمسك حفيدك".

مدَّ إيدي يديه بحذر شديد، خائفاً أن يؤذيه. لكن الرضيع القوي التصق به بحنان كبير لدرجة أن إيدي شعَر كما لو أنه هو الذي كان يُحمَل.

"مهلاً مهلاً"، قالت برِيان. "فقط الطفل يحق له أن يبكي".

في نهاية تلك الزيارة، ذهب إيدي إلى بوابة جزيرة ماريه لينتظر آنا. كان وقتها قد أجرى بعض الاستطلاع وعرَف الطريق التي عليها أن تسلكها من حوض بناء السُفن إلى

العشّة التي انتقلت إليها مع برِيان، بين بقية عمال جزيرة ماريه.

وَقَف مختبئاً على الطريق بين مجموعة من أشجار الأوكالبتوس، وأوراقها اللاذعة متدلّية حوله كمناجل. ظهَرت آنا بعد الاندفاع العام، تضحك مع فتاة أخرى. كانت مشيتها الرياضية تشبه مشية أغنِس كثيراً لدرجة أذهلته؛ إلى أيهما ينظر الآن؟ ودَّعت آنا صديقتها وأسرعت خطاها، بخدّين متورِّدين تحت قبعتها. بدت سعيدة جداً لفتاةٍ ترمَّلت حديثاً. لكنه افترَض أنها تعرَّفت على الملازم سميث لفترة قصيرة جداً لكي تفتقده كثيراً – خاصة بوجود السيد الصغير في المنزل لتعود إليه. مراقباً اقتراب إبنته، شعَر إيدي بفراغ مُبيد، كما لو أنه مات على الطوف وعاد كشبحٍ. كاد يخرج من الظل فقط ليرى انطباعها بشأن حضوره، لتعرف أنه موجود هناك حقاً. لكن ذلك سيحطّم معنوياتها العالية. لذا بقي مختبئاً وتركها تمرّ.

كان هذا كافياً، قال لنفسه بعد ذلك، ليعرف أنها سعيدة. أن ثلاثتهم سعداء. كان يجب أن يكون ذلك كافياً، لكنه لم يكن. بإلحاح من خليلته، وهذا مصطلح استخدَمته إنغريد بسخرية (آخر شيء يتخيَّله المرء هو مدرِّسة أرملة)، عاد بعد ظهر اليوم ليجرِّب مرة أخرى. كان قد أنهى رحلة أخرى، إلى غينيا الجديدة هذه المرة – ضمن قوة لإرجاع اليابانيين نحو وطنهم أملاً في دفعهم إلى الاستسلام. التقى وايكوف ثانيةً في تلك الرحلة، وتناولا زجاجة شراب عنب أخرى على ظهر المركب، تحت النجوم. كان إيدي قد بدأ يحبّ مذاق ذلك الشراب. وساعدهما النسيم الدافئ للمحيط الهادئ الذي يلفح وجهيهما بجعل عذابات إليزابيث سيمان تبدو مجرد كابوس.

كان بْيُو، البحّار القديم الذي لا يُقهَر، قد قاد قارب النجاة حتى أرض الصومال البريطانية، مع وايكوف وشرارة وبوغز والباقين لا يزالون أحياء وبصحة مقبولة عند وصولهم. علماً أنه تم إنقاذ قارب القبطان كيتردج قبل ذلك بمدة طويلة، بكل ركّابه. وهذا يعني نجاة نصف طاقم إليزابيث سيمان تقريباً. كانت سياسة إدارة الشحن الحربي تقضي بأن يعود الناجون من السُفن الغارقة إلى وظائفهم فوراً – لمنعهم من نَشر قصصهم المرعبة، لذا شاعت الإشاعة. عاد الكل إلى سُفنٍ ما عدا بْيُو، الذي تقاعد ليعيش مع إبنته، ورئيس البحّارة، الذي بقي غير قادر على النطق بطريقته القديمة. عادَ إلى لاغوس، حيث وعده إيدي أن يزوره بعد الحرب. تبادَلا رسائل متكررة، وكانا يناديان بعضهما "أخي"،

ووجَد إيدي، لرضاه المَرَضي، أن أسلوبه في الكتابة يشبه طالباً يتأتئ بجانب أسلوب رئيس البحّارة المُغالي.

لم تر آنا والدها عندما خرجت من السينما، وافترضت أنه غادر. شعَرت ببعض الحزن إلى أن نهض عن مقعد على الجانب المقابل للشارع ولوَّح لها. لوَّحت له بدورها، متفاجئةً من مقدار ارتياحها الكبير. حين وَصَل إليها، كانت غاضبة مرة أخرى وأرادت أن تطرده. لكن ما الهدف من ذلك؟ من الواضح أنه ينوي مواصلة محاولة التكلّم معها. ولا يمكنها أن تصفعه كل مرة.

بينما صعدا معاً التلة نحو عشّتها، شَعَرَت آنا بمقدار تغيّره الكبير. كان أكبر سناً، وهناك تجاعيه على وجهه، وأصبح شعره فضياً، لكن لم يكن هذا – في الحقيقة، كانت وسامته الهزيلة هي أكثر شيء مألوف فيه. كان قد تخلّى عن تجرّد مكتئب بدا، في غيابه، أكثر صفة مميزة فيه. بالإضافة إلى رائحة السجائر. لكنه لم يعد يدخِّن، وكان هناك هدوء مُربك فيه. فقد كان قد أوشك على الموت عندما تم إنقاذه، قالت برِيان، حتى أنهم لم يتمكنوا من جسّ نبضه.

أصبح والدها غريباً: رجلٌ تلتقيه لأول مرة وتقيِّمه مثلما تفعل مع أي شخص آخر. بالكاد تذكّرت آنا رغبتها برؤيته بهذه الطريقة، لكن تحقيق أمنيتها تركهما لا يدريان ماذا يقولان لبعضهما. لم يكن يعرف شيئاً عن حياتها؛ ولا يمكنه أن يقدِّر، مثلاً، البهجة التي شعرت بها من رسالة تلقتها البارحة من مارل:

ابتسم الحظ أخيراً لصديقنا السيد باسكومب: فقد قبلته البحرية. وقبل أن يستقل القطار إلى معسكر التدريب في منطقة البحيرات العُظمى، إيلينوي، أعدَّت له والدة روبي العشاء وتمنّى له والدها التوفيق والنجاح. يبدو أنه صحيح أن "الزيّ يصنع الرجل". يا ريتني أستطيع أن أخبرك المزيد، لكن باسكومب كان متكتِّماً تماماً، ولم أتمكن حتى من معرفة قائمة الطعام. المبنى 569 ليس نفسه من دونه.

"هل تعرف عن ماما"، قالت آنا لتكسر الصمت.

أومأ برأسه. "أولئك الجنود محظوظون بوجودها معهم".

كانت آنا تفتقد أمها، التي تطوَّعت في الهلال الأحمر فور انتقال آنا إلى كاليفورنيا،

قبل أن تُعلن عن حملها. لا تزال أمها تصدّق قصة الملازم تشارلي سميث المشؤوم. وتساءلت آنا الآن إن كانت ستُخبرها الحقيقة يوماً ما - ما إذا كان ذلك مهماً بعدما تنتهي الحرب. كان هناك شيء واحد مؤكد: كانت روز مخطئة بشأن عودة العالم ليكون صغيراً من جديد. أو على الأقل لن يكون نفس العالم الصغير الذي كان عليه في الماضي. فهناك أمور كثيرة تغيَّرت. ووسط كل تلك التحوُّلات، نفذت آنا عبر تشقّق صغير.

"ستكون ممرضة عندما تعود"، أخبرت والدها.

"كانت ممرضة لسنوات عديدة"، قال.

صمتا قليلاً ليلتقطا أنفاسهما عند أعلى التلة. كان حوض بناء السُفن البحري في جزيرة ماريه تحتهما عند سفح خليج سان بابلو، شبه جزيرة مرصَّعة بأرصفة بحرية عند قناة مليئة بسُفن حربية. كانت آنا تحبّ أن تكون قادرة على النظر إلى هذا كل يوم قبل بدئها عملها لتعرف أي سُفن أبحَرت في الليل وأي سُفن جديدة رَسَت. فهي قد حصلت على وظيفتها بأعجوبة، لأنها حين استقرّت مع عمّتها في فاليهو، كانت تشعر بتعب كبير من الحمل لكي تغطس. وخشيت أن يؤذي الغطس الطفل. لذا عملت في مطعم مع برِيان - برِيان نادلة، وآنا أمينة صندوق - وانتظَرت ولادة الطفل في شقة ضيقة رثّة. كانت تلك الفترة مريعة.

نوفمبر الفائت، بعد ستة أسابيع من ولادة ليون، قدَّمت آنا أخيراً مستندات نقلها في جزيرة ماريه. وقتها، كانت مكالمة الملازم أكسل الهاتفية قد نُسي أمرها تماماً. لكن تبيَّن لها أن ذلك لا يهمّ؛ فقد كان قد تم توظيف ثلاثة من الغطّاسين مُنقِذي النورماندي في جزيرة ماريه، وكان أحدهم - وهو مُشرفٌ - ضمن الجولة التي قدَّمتها آنا في ساحة بروكلين البحرية. تذكّر الثلاثة صورتها الفوتوغرافية من مجلة إيغل. فتم توظيفها براتب ثمانين دولاراً في الأسبوع، وهي تعمل تحت الماء معظم الأيام الآن.

"مضحك أن لديكم مدمِّرات كثيرة"، قال والدها وهو ينظر إلى الساحة، "مع ذلك العدد القليل من القوافل المُبحرة من مضيق غولدن غايت".

"فقط أربعة"، قالت.

"ستة".

نظرت آنا مرة أخرى. "أنت تُخطئ بسُفنك".

أشار لها بإصبعه وهو يعدّ. أوقفته عند ثلاثة. "هذه كاسحة ألغام يا أبي".

ألقى نظرة طويلة، ثم استدار إليها مبتسماً. "أعترف بخطئي".

بدأ الضباب تسلّله البطيء، جزءٌ لولبيٌ وحيدٌ يقود المسار من المحيط الهادئ. وراحت صفّارات الضباب تدوّي من بعيد. بدا صوتها أعمق وأكثر صخباً من صفّارات الضباب التي سمِعتها آنا طوال حياتها. لكن هذا الضباب كان مختلفاً، فيبدو صلباً كفاية لتتمكن من قولبته بيديك. بقي يتدفّق طوال الليل، مبتلعاً مدناً كاملةً مثل فقدان الذاكرة.

أووووووه

أووووووه

كانت السُفن تنادي لتتجنّب الارتطام ببعضها، لكن آنا شعرت دائماً كما لو أنها تائهة، وتبحث عن رفقة في البياض العميق. حرَّك الصوت فيها إحساساً بسوء وشيك لا يمكنها شرحه. أيقَظتها صفّارات الضباب في الليل، فمدَّت يدها إلى داخل السلة التي ينام فيها ليون، تبحث عن الطَرْق العنيف لنبضات قلبه.

"انظري"، قال والدها. "ها هو آتٍ".

تفاجأت من إيجاده يراقب الضباب الذي توغَّل بسرعة: صورة ظليّة برية متطايرة في سماء فوسفورية عمَّت الأرض مثل موجة عارمة على وشك أن تتكسّر، أو آثار انفجار بعيد صامت.

أمسكت يد والدها من دون تفكير.

"ها هو آتٍ"، قالت.

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

عن المؤلفة

جنيفر إيغن روائية وكاتبة ألّفت سابقاً خمسة كتب خرافية: A Visit from the Goon Squad التي فازت بجائزة بوليتزر وجائزة دائرة نقّاد الكتب الوطنية، وThe Keep، ومجموعة القصص Emerald City، وLook at Me التي وصلت إلى نهائيات جائزة الكتب الوطنية، وThe Invisible Circus. نُشرت أعمالها في النيويوركر، ومجلة هاربرز، وغرانتا، وماكسويني، ومجلة نيويورك تايمز. وهي تعيش في بروكلين مع زوجها وولديها.

عبارات الإشادة بالمؤلفة

جنيفر إيغن

«قد تكون جنيفر إيغن أفضل روائية أميركية معاصرة»

– جو كلاين، تايم

«جنيفر إيغن كاتبة تتميّز بذكاء وكياسة هائلين»

– فيلادلفيا إنكوايرر

«جنيفر إيغن مُبدعة ومذهلة»

– واشنطن بوست

«هل هناك شيء لا تستطيع جنيفر إيغن فعله؟»

– نيويورك تايمز بُوك ريفيو

عبارات الإشادة بهذا الكتاب

«ملحمة مثيرة للدهشة وساحرة وحيوية، رواية عميقة ستُحدث تغييراً كبيراً لدى كل القراء، وتجعلنا نغوص في الأعماق بحثاً عن أجوبة وآمال وارتقاء في الحياة»

Booklist –

«رواية غنية كثيراً تتنقّل بنا بين العنف والجريمة والحنان والطيبة. تشير القوة العاطفية للرواية مرة أخرى إلى مواهب إيغن غير العادية»

– بابليشرز ويكلي

«بعد توسيع آفاق الرواية بطرق لا تُعد ولا تُحصى... تقوم إيغن على الأرجح بالشيء الوحيد المتبقي الذي يمكن أن يفاجئنا: تكتب رواية تقليدية تماماً. مفصّلة واقعياً، وزاخرة بصور شعرية، ومُرضية تماماً. يبدو أنه لا يوجد شيء لا تستطيع إيغن فعله»

– كيركوس ريفيوز

مكتبة 404

ISBN: 978-614-01-2527-8
9 786140 125278

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com